نمطُ الدَّوْرَةِ الحضاريَّةِ في روايةِ "أنتيخريستوس" لأحمد خالد مصطفى:
دراسة أُسطوريَّةٌ وأركيتيبيَّةٌ في ضوءِ نظريةِ نورطروب فراي

بحث جامعي

الإعدادُ:

محمد خطيب الأمم اليقين

رقم القيد: ٢٢٠٣٠١١١٠٠٣٩

قسم اللغة العربية وأدبها

كلية العلوم الإنسانية

جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج

٢٠٢٦

نمطُ الدَّوْرَةِ الحضاريَّةِ في روايةِ "أنتيخريستوس" لأحمد خالد مصطفى:
دراسة أُسطوريَّة وأركيتيبيَّة في ضوءِ نظريةِ نورطروب فراي

بحث جامعي

مقدم لإستيفاء شروط الاختبار النهائي للحصول على درجة سرجانا (S-1)

في قسم اللغة العربية وأدبها كلية العلوم الإنسانية

جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج

الإعدادُ:

محمد خطيب الأمم اليقين

٢٢٠٣٠١١١٠٠٣٩

المشرفُ:

الدكتور محمد زواوي، الماجستير

١٩٨١٠٢٢٤٢٠١٥٠٣١٠٠٢

قسم اللغة العربية وأدبها

كلية العلوم الإنسانية

جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج

٢٠٢٦

تقرير الباحث

أفيد علما لأني الطالب:

الاسم : محمد خطيب الإمم اليقين

رقم القيد : ٢٢٠٣٠١١١٠٠٣٩

موضوع البحث : **نمطُ الدَّوْرَةِ الحضاريَّةِ في روايةِ "أنتيخريستوس" لأحمد خالد مصطفى: دراسة أُسطوريَّة وأركيتيبيَّة في ضوءِ نظريةِ نورطروب فراي**

حضرته وكتبته بنفسي وما زدته من إبداع غيري أو تأليف الآخر. وإذا ادعى أحد في المستقبل أنه من تأليفه وتتبين أنه من غير بحثي, فأنا أتحمل المسؤولية على ذلك ولن تكون المسؤولية على المشرفين أو مسؤولي قسم اللغة العربية وأدبها كلية العلوم الإنسانية جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج.

تحريراً بمالانج، ٢٣ يونيو ٢٠٢٦

الباحث،

محمد خطيب الأمم اليقين

رقم القيد: ٢٢٠٣٠١١١٠٠٣٩

تصريح

هذا تصريح بأن رسالة البكالوريوس لطالب باسم محمد خطيب الأمم اليقين تحت العنوان **نمطُ الدَّوْرَةِ الحضاريَّةِ في رواية "أنتيخريستوس" لأحمد خالد مصطفى: دراسة أُسطورية وأركيتيبية في ضوءِ نظريةِ نورطروب فراي** قد تم بالفحص والمراجعة من قبل المشرف وهي صالحة للتقديم إلى مجلس المناقشة لاستيفاء شروط الاختبار النهائي وذلك للحصول على درجة البكالوريوس في قسم اللغة العربية وأدبها كلية العلوم الإنسانية جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج.

مالانج، ٢٣ يونيو ٢٠٢٦

الموافق

المشرف

الدكتور محمد زواوي، الماجستير

رقم التوظيف: ١٩٨١٠٢٢٤٢٠١٥٠٣١٠٠٢

رئيس قسم اللغة العربية وأدبها

الدكتور عبد الباسط، الماجستير

رقم التوظيف: ١٩٨٢٠٣٢٠٢٠١٥٠٣١٠٠١

المعرّف

عميد كلية العلوم الإنسانية

الأستاذ الدكتور [illegible] فيصل، الماجستير

رقم التوظيف: ١٩٦٧١٢١٠٠٣

تقرير لجنة المناقشة

لقد تمت مناقشة هذا البحث الجامعي الذي قدمه:

الاسم : محمد خطيب الأمم اليقين

رقم القيد : ٢٢٠٣٠١١١٠٠٣٩

موضوع البحث : **نمطُ الدَّوْرَةِ الحضاريَّةِ في روايةِ "أنتيخريستوس" لأحمد خالد مصطفى دراسة أُسطورية وأركيتيبية في ضوءِ نظريةِ نورطروب فراي**

وقررت اللجنة نجاحه واستحقاقه درجة سرجانا (S1) في قسم اللغة العربية وأدبها لكلية العلوم الإنسانية بجامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج.

تحريرا بمالانج، ٢٣ يونيو ٢٠٢٦

لجنة المناقشة

١- رئيس المناقش: الدكتورة معرفة المنجية الماجستير

رقم التوظيف: ١٩٧٧٠٢١٣٢٠٠٦٠٤٢٠٠٥

٢- المناقش الأول: الدكتور محمد زواوي الماجستير

رقم التوظيف: ١٩٨١٠٢٢٤٢٠١٥٠٣١٠٠٢

٣- المناقش الثاني: الدكتورة ليلي فطرياني الماجستير

رقم التوظيف: ١٩٧٧٠٩٢٨٢٠٠٦٠٤٢٠٠٥

المعرّف

عميد كلية العلوم الإنسانية

الأستاذ الدكتور [illegible] الماجستير

رقم التوظيف: ١٩٧٤١١[illegible]١٢١٠٠٣

استهلال

يُقدِّم لنا العملُ الخيالي رؤيةً ليست عن عظمة الشاعر الشخصية، بل عن شيءٍ أبعد من ذلك وأعظم بكثير: رؤيةٌ عن فعلٍ روحيٍّ حاسمٍ يتحرَّر به الإنسان، ورؤيةٌ عن إعادة خلق الإنسان من جديد (Frye, ١٩٥٧, ص: ١١٧).

الإهداء

اهدي هذا البحث الجامعي الى :

١) والدي المكرمين; أُهدي هذا البحث إلى والديّ الكريمين اللذين تكفلا أعباء تعليمي بكلّ إخلاص اللذين أنفقا وتضرّعا بالدعاء وانتظرا دون أن يشكوا يوماً. فهما السبب الأوّل الذي جعل هذا البحث يكتمل.

٢) جميع أسرتي; أُهديه أيضاً إلى جميع أفراد أسرتي الذين كانوا بيئةً تُنمي وملاذاً أعود إليه طوال مسيرتي الدراسية. فدعمهم، وإن لم يكن دائماً ظاهراً، كانت الركيزة التي تسند كلّ خطوة في إتمام هذا البحث .

٣) الحضارة الإنسانية; ويُهدى هذا البحث لِكي ينتفع كل الإنسان ولكلّ من يعتني بمسيرة الحضارة ويسعى إلى فهم الأنماط الخفيّة الكامنة وراء مدّ التاريخ وجزره.

الشكر والتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، امابعد. قد تمت كتابة هذا البحث الجامعي تحت العنوان: **نمطُ الدَّوْرَةِ الحضاريَّةِ في روايةِ "أنتيخريستوس" لأحمد خالد مصطفى: دراسة نمط أُسطوريَّةٌ وأركيتيبيَّة في ضوءِ نظريةِ نورطروب فراي** ومقدم لاستيفاء شروط الاختبار النهائي للحصول على درجة سرجانا في قسم اللغة العربية وأدبها بكلية العلوم الإنسانية بجامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج. بصفتي باحثًا، أود أن أعرب عن امتناني إلى:

١. مديرة جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج، الأستاذة الدكتورة إلفي نور ديانا الماجستير.
٢. عميد كلية العلوم الإنسانية، الاستاذ الدكتور محمد فيصل الماجستير.
٣. رئيس قسم اللغة العربية وأدبها، الدكتور عبد الباسط الماجستير.
٤. الدكتور محمد زواوي الماجستير كالمشرف في كتابة هذا البحث الجامعي.
٥. جميع المدرسين الأعزاء في قسم اللغة العربية وأدبها.
٦. والديّ الكريمين اللذين تكفلا بنفقات تعليمي طوال هذه السنوات، منذ نعومة أظفاري وحتى بلوغي سن الرشد.
٧. جميع أصحابي في قسم اللغة العربية وأدبها دفعة ٢٠٢٢.
٨. جميع أصدقاء وحدة الأنشطة الطلابية الوحدة الرياضية

وأخيرا، سألت الله سبحانه وتعالى أن يجزي كل من ساعدني دعمًا أو دعاءً أو توجيهًا خير الجزاء، وأن يجعل ذلك في ميزان أعمال حسناتهم، كما أرجو أن يكون هذا البحث نافعًا لكل من قرأه، آمين يا رب العالمين.

مستخلص البحث

اليقين, محمد خطيب الأمم (٢٠٢٦) نمط الدورة الحضارية في رواية أنتيخريستوس لأحمد خالد مصطفى: دراسة أسطورية وأركيتيبية في ضوء نظرية نورثروب فراي. بحث جامعي. قسم اللغة العربية وأدبها، كلية العلوم الإنسانية، جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية بمالانج. المشرف: الدكتور محمد زواوي، الماجستير.

الكلمات الأساسية :دورة الحضارة، الأركيتيب، الميثوس، التمثيل السردي، رواية أنتيخريستوس.

يهدف هذا البحث إلى تحليل تمثلات الدورة الحضارة في رواية أنتِيخريستوس لأحمد خالد مصطفى، وتحديد العوامل المحركة لها من منظور نقد الميثوس وأركاتيبي لنورثروب فراي. ينطلق البحث من فرضية أن الرواية لا تقدم سرداً تاريخياً خطياً، بل تبني أنماطاً متكررة لرحلة الحضارة الإنسانية في سياق إيسكاتولوجي الإسلامي. استخدم البحث المنهج الوصفي التحليلي عبر دراسة أدبية تأويلية لنص الرواية بالاستناد إلى نظرية تشريح النقد لنرثروب فراي. أظهرت النتائج أن الرواية تمثل على المستوى الكلي أنماطاً أركاتيب أبوكاليبتي، ودايمونية، وأنالوجي كرموز لصراع الحضارة. أما على المستوى الجزئي، فتتبع دورة الحضارة المواسم السردية الأربعة لدى فراي، وهي مرحلة النشأة، وامرحلة الازدهار، وامرحلة التراجع، ثم مرحلة الانهيار. وتتمثل عوامل تحرك هذه الدورة في التدهور البيئي، وتآكل القيم الاجتماعية والأجيال، والانهيار الاقتصادي والسياسي. خلص البحث إلى أن رواية أنتِيخريستوس تقدم تمثلاً لانهيار الحضارة كمسار أيديولوجي تدريجي، حيث يعمل الدجال كمسرّع للخراب الذي بدأ بالفعل من داخل النظام نفسه. وتؤكد هذه النتائج على أهمية نظرية نورثروب فراي في كشف الأنماط الميثولوجية الكامنة في الأدب العربي المعاصر.

ABSTRACT

Yaqin, Muhammad Chotibul Umamil (2026) The Civilization Cycle in Ahmad Khaled Mostafa's *Antichristos*: A Mythological and Archetypal Study from the Perspective of Northrop Frye's Theory. Undergraduate Thesis, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Humanities, Maulana Malik Ibrahim State Islamic University of Malang. Supervisor: Dr. Moh. Zawawi, M.Pd.

Keywords: Civilization Cycle, Archetypal Criticism, Mythos, Northrop Frye, Antichristos *Novel.*

This study aims to analyze the representation of the cycle of civilization in the novel *Antichrist* by Ahmad Khaled Mostafa and to identify its causal factors through the perspective of Northrop Frye's Myth and Archetypal literary criticism. This research is grounded in the assumption that the novel *Antichrist* represents the cycle of human civilization set against the backdrop of Islamic eschatology. The method employed is descriptive-qualitative with a library research approach. The analysis was conducted on the text of the novel *Antichrist* by referring to Northrop Frye's theory in *Anatomy of Criticism*. The findings show that, at the macro level, the novel *Antichrist* represents the Apocalyptic, Demonic, and Analogical Archetypes as symbols of civilizational dynamics. At the micro level, the cycle of civilization moves in accordance with Frye's four narrative mythoi/seasons, namely: the Mythos of Comedy as the age of birth, Romance as the age of glory/ascendancy, and Tragedy as the age of decline and collapse. The causal factors underlying this cycle include environmental degradation, the erosion of collective social values, and economic-political deterioration. This study concludes that the novel *Antichrist* presents the collapse of civilization as a gradual ideological process, in which the Dajjal, it’s mean Antichrist functions as an accelerator of systemic decay that has already been occurring from within. These findings confirm the relevance of Northrop Frye's Myth and Archetypal theory in dissecting mythological patterns in contemporary Arabic literature.

ABSTRAK

Yaqin, Muhammad Chotibul Umamil (2026) Siklus Peradaban dalam Novel Antikhristus Karya Ahmad Khaled Mostafa: Kajian Mitos dan Arketipe dalam Perspektif Teori Northrop Frye. Skripsi, Program Studi Bahasa dan Sastra Arab, Fakultas Humaniora, Universitas Islam Negeri Maulana Malik Ibrahim Malang. Pembimbing: Dr. Moh Zawawi, M.Pd.

Kata Kunci: Siklus Peradaban, Kritik Arketipal, Mitos, Northrop Frye, Novel Antikhristus.

Penelitian ini bertujuan untuk menganalisis representasi siklus peradaban dalam novel *Antikhristus* karya Ahmad Khaled Mostafa serta mengidentifikasi faktor penyebabnya melalui perspektif kritik sastra Mitos dan Arketipal Northrop Frye. Penelitian ini didasari asumsi bahwa novel Antikristus merepresentasikan siklus peradaban manusia dengan latar eskatologi Islam. Metode penelitian yang digunakan adalah deskriptif kualitatif dengan pendekatan studi pustaka. Analisis dilakukan terhadap teks novel Antikristus dengan merujuk pada teori *Anatomy of Criticism* karya Nortrop Frye. Hasil penelitian menunjukkan bahwa pada tingkat makro, novel Antikristus merepresentasikan Arketipe Apokaliptik, Dimonik dan Analogik sebagai simbol dinamika peradaban. Pada tingkat mikro, siklus peradaban bergerak mengikuti empat musim naratif Frye, yaitu: Mitos Komedi yaitu masa kelahiran, Romansa yaitu masa kejayaan, Tragedi dan keruntuhan. Faktor penyebab siklus tersebut meliputi degradasi lingkungan, erosi nilai sosial kolektif, serta kemerosotan ekonomi-politik. Penelitian ini menyimpulkan bahwa novel *Antikhristus* menyajikan representasi keruntuhan peradaban sebagai proses ideologis gradual, di mana Dajjal berfungsi sebagai akselerator atas kerusakan sistemik yang telah berlangsung dari dalam. Temuan ini mengonfirmasi relevansi teori Mitos dan Arketipal Nortrop Frye dalam membedah pola mitologis pada sastra Arab kontemporer.

محتويات البحث

تقرير الباحث ..... ج

تصريح المشرف ..... د

تقرير لجنة المناقشة ..... هـ

استهلال ..... و

الإهداء ..... ز

الشكر والتقدير ..... ح

مستخلص البحث ..... ي

مستخلص البحث (بالإنجليزية) ..... ل

مستخلص البحث (بالإندونيسية) ..... م

محتويات البحث ..... ن

الفصل الأول: المقدمة ١

أ. خلفية البحث ١

ب. أسئلة البحث ١٣

ج. أهمية البحث ١٢

هـ. حدود البحث ١٣

الفصل الثاني: الإطار النظري ١٤

أ. المبحث الأول: الأركيتيبي ١٤

١. مفهوم النقد الأركيتيبي ١٤

٢. أنواع نظرية الأركيتيبي..... ١٥

١) الأركيتيب الأبوكاليبتي ١٦

٢) الأركيتايب الديموني ١٦

٣) الأركيتايب الأنالوجي ١٧

ب المبحث الثاني: نَظَرِيَّةُ الْمِيثُولُوجِيَا..... ١٩

١. مفهوم الميثوس..... ٢٠

٢. أنواع نَظَرِيَّة الْمِيثُولُوجِيَا ٢٢

١) مِيثُولُوجِيَا الْكُومِيدِيَا..... ٢٢

٢) مِيثُولُوجِيَا الرُّومَانْسِيَّةِ. ٢٤

٣) مِيثُولُوجِيَا التَّرَاجِيدِيَا..... ٢٦

٤) مِيثُولُوجِيَا الهجائي والْإِيرُونِيَ... ..... ٢٩

الفصل الثالث: منهج البحث..... ....٣٢

أ. نوع البحث ٣٢

ب. مصادر البيانات..... ٣٢

١. مصادر البيانات الأساسية ٣٣

٢. البيانات الأساسية ٣٣

٣. مصادر البيانات الثانوية ٣٤

٤. البيانات الثانوية ٣٥
د. تقنيات جمع البيانات ٣٦
١. تقنية القراءة ٣٦
٢. تقنية التدوين ٣٨
هـ. تقنيات تحليل البيانات ٣٩
١. اختزال البيانات ٣٩
٢. عرض البيانات ٤٠
٣. استخلاص النتائج ٤١
الفصل الرابع: النتائج والمناقشة. ٤٣
أ. تمثيل الدورة الحضارية..... ٤٣
١ المستوي الكلي ٤٤
أ) الأَرْكِيتَايْب الأَبُوكَالِيبْتِيُّ ٤٤
١) رَمْزُ العَالَمِ الإِلَهِيّ.. .....٤٤.
٢) رَمْزُ عَالَمِ الإِنْسَانِ وَالحَيَوَانِ..... ٤٨
٣) رَمْزُ عَالَمِ الفِيجِيتَاسِي وَالمِينَيرَالِ ٥١
ب) الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيُّ..... ٥٥
ت) الأَرْكِيتَايْب الأَنَالُوجِيُّ..... ٦١
٢ المستوى الجزئي. ٦٨
١. الدور الأول: الميلاد والنشوء ٦٨

٢. الدور الثاني: النهوض والازدهار ١١٥
٣. الدور الثالث: التدهور والانحطاط ١٤٨
٤. الدور الرابع: الانهيار والتحول الحضاري ١٨٢
٥. مخطط الدورة الحضارية.....١٩١
ب. العوامل المسببة لدورة الحضارة..... .....١٩٤
١. العوامل البيئية ١٩٥
٢. العوامل الاجتماعية والجيلية ٢٠٠
٣. العوامل الاقتصادية والسياسية ٢٠٣
الفصل الخامس: الخاتمة.....٢٠٩
أ. الخلاصة ٢٠٩
ب. التوصيات ٢١١
قائمة المصادر والمراجع ٢١٢
السيرة الذاتية للباحث ٢١٥

الفصل الأول

المقدمة

أ. خلفية البحث

يُحلَّل مفهومُ النمطِ في هذا البحث اتخاذًا من نظرية نورثروب فراي أساسًا رئيسيًا له. والنمطُ كما أوضحه فراي في كتابه تشريح النقد شكلٌ من أشكال التكرار يمثل مبدأً جوهريًا في شتى الأعمال الثقافية. ويتخذ هذا التكرارُ صورتين متمايزتين: إيقاعٌ حين يسري في البُعد الزمني، ونمطٌ حين يبدو تركيبًا قابلًا للمشاهدة في مجمله ضمن البُعد المكاني (Frye, ١٩٥٧, p. ٩٤). والنمطُ عند فراي ليس مجرد تكرار للأحداث ذاتها، بل هو بنيةٌ تربط عناصر متعددة بعضها ببعض لتُشكِّل معنىً متكاملًا. ومن ثَمَّ، فإن معنى أي عمل أدبي متماهٍ في جوهره مع النمط الذي يُقيم صرحَ بنيته (Frye, 1957, p. 95). وفي سياق دورات الحضارة، يُمكن فهمُ مفهوم النمط عند فراي بنيةً تكراريةً تربط الأحداث التاريخية والأيديولوجيات والرموز والأفعال الاجتماعية المتنوعة في سلسلة واحدة من المعنى المتماسك. فكما يتشكل النمطُ في الأدب من خلال شبكة الدوافع المتشابكة والمترابطة، يتشكل النمطُ في الحضارة كذلك من خلال التكرار المتواصل لعناصر اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية تتجدد جيلًا بعد جيل. والتاريخُ في ضوء ذلك ليس مجرد مجموعة من الأحداث المنعزلة القائمة بذاتها، بل هو بنيةٌ تكشف عن نزعات متكررة تسري في أعماقه، يُفضي إليها ذلك التكرارُ المتواصل الذي يُولِّد نظامًا راسخًا عبر الأجيال.

ويزدادُ هذا الفهمُ رسوخًا من خلال مفهوم الأنماط الأصيلة عند فراي. والأنماطُ الأصيلة عنده رموزٌ متكررة تربط عملًا بآخر لتُشكِّل وحدةً من التجربة الجماعية المشتركة (Frye, ١٩٥٧, p. ١١٦). وإذا ما انتقلنا بهذا المفهوم إلى ميدان دراسة الحضارات، أمكن فهمُ شتى الظواهر كنهوض السلطة، وانحلال الأخلاق، وفساد النخب، والاضطراب

الاجتماعي، والإصلاح، وانهيار النظام بوصفها أشكالًا أصيلة تتكرر عبر مسيرة التاريخ الإنساني. وهذه الظواهرُ، وإن تجلّت في أزمنة وأمكنة وأشخاص متباينين، تكشف عن بنيةٍ جوهريةٍ واحدة تجمعها وتوحّدها. ومن ثَمَّ، فإن نمطَ الحضارة لا يكمن في تماثل الأحداث تماثلًا حرفيًا، بل يكمن في عودة البنية الأصيلة ذاتها في صور وأشكال متجددة.

وتلتقي هذه الرؤيةُ عند فراي مع ما أوضحته دونيلا هـ. ميدوز في كتابها التفكير في الأنظمة: مقدمة. والنمطُ في نظر ميدوز ثمرةٌ يُنتجها النظامُ، إذ يصوغ النظامُ طريقةَ التفكير والسلوك واستجابةَ الأفراد لما يعترضهم من مشكلات (Donella H. Meadows, ١٩٨٩, p. ٨٩-٨٨) وتدفعُ التجربةُ الجماعية المتكررة المجتمعَ إلى إنتاج استجابات متشابهة، فتتولد من ذلك عواقب تميل هي الأخرى إلى التكرار. والنمطُ الظاهر في التاريخ، من هذا المنظور، مظهرٌ جليٌّ لبنية النظام العاملة في خفاء وراء مجريات الأحداث الاجتماعية. غير أن ميدوز، خلافًا لفراي الذي يُعنى بتحديد بنية التكرار بوصفها المعنى الجوهري للظاهرة، تُسهم في كشف الآلية التي تجعل هذا التكرار مستمرًا متجددًا. واستمرارُ النمط عندها رهينٌ بثقافة النظام التي تشمل أنماط تفكير المجتمع ومعتقداته وقيمه والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تسنده وتُقيمه (Donella H. Meadows, ١٩٨٩, p. ١٨٠). وما دامت تلك البنيةُ محفوظةً قائمةً، فإن النمط ذاته سيظل يتجدد ويتكرر، وإن تبدّلت أعيانُ الفاعلين وتعاقبت الأجيال.

ويتجلى نمطُ دورة الحضارة هذا في الواقع المعاش من خلال أحدث المستجدات العالمية، ولا سيما في ظاهرة انتقال مركز ثقل الحضارة من الغرب نحو آسيا (Fareed Zakaria, ٢٠٠٨, p. ٤٩-٥٨) والهيمنةُ الغربية التي قادت مسيرة التطور الاقتصادي والسياسي والتكنولوجي في العالم قرونًا متعاقبة باتت اليوم تواجه تحدياتٍ متصاعدة، في

حين تُبدي دولٌ آسيوية كالصين والهند نموًّا اقتصاديًّا متسارعًا وابتكارًا تكنولوجيًّا متناميًا ونفوذًا جيوسياسيًّا يزدادُ رسوخًا يومًا بعد يوم (Fareed Zakaria, ٢٠٠٨, p. ١٨٠).

وقد قسَّم فريد زكريا في كتابه "عالم ما بعد أمريكا" مسيرةَ تحول الهيمنة العالمية في التاريخ الحديث إلى ثلاث مراحل امتدت على مدى خمسة قرون متعاقبة. فالمرحلةُ الأولى انطلقت في القرن الخامس عشر، حين أخذ الغربُ يُرسي دعائم الحداثة عبر العلوم والتكنولوجيا والرأسمالية وثوراتِ الزراعة والصناعة. ثم جاءت المرحلةُ الثانية حين بلغت الولاياتُ المتحدة الأمريكية ذروة مكانتها بوصفها أقوى دولة عرفها التاريخ منذ عهد الإمبراطورية الرومانية، إذ بسطت هيمنتها على الاقتصاد والسياسة والثقافة في أرجاء المعمورة. أما المرحلةُ الثالثة فتشهد نهوضَ آسيا بنمو اقتصادي بلغ صداه الآفاق، تتصدره الصينُ والهندُ رائدتين في هذا التحول الحضاري الكبير (Fareed Zakaria, 2008, p. 1-2).

ويُحدِّد فريد زكريا لهذا التحول في موازين القوى العالمية من الغرب نحو آسيا ثلاثةَ محاور رئيسية. أما المحورُ الأول فيتمثل في ميدان الشركات والمؤسسات الاقتصادية الكبرى، إذ باتت أضخمُ الشركات العامة في العالم تتخذ من الصين مقرًّا لها، وتُشيَّد أعظمُ مصافي النفط على أرض الهند، وتنتشر أكبرُ المصانع العالمية في أرجاء الصين. ومن أصل عشرة مراكز تجارية تُعدّ الأضخم في العالم، لا يقع منها في الولايات المتحدة إلا مركزٌ واحد، في حين يتربع أكبرها على الإطلاق في رحاب بكين.

والمحورُ الثاني يشمل البنية التحتية والترفيه، فأشمخُ الأبراج في المعمورة وفق ما يُقرره زكريا يرتفع في تايبيه ودبي. وصناعةُ السينما الأضخم حجمًا من حيث عدد الأفلام المنتجة ومبيعات التذاكر هي بوليوود الهندية لا هوليوود الأمريكية. وأعظمُ الكازينوهات عائدةً من القمار السنوي يتربع في مدينة ماكاو متفوقًا على لاس فيغاس متجاوزًا إياها.

أما المحورُ الثالث فيتجلى في مجال الحدّ من الفقر، إذ أسهم النموُّ الاقتصادي الآسيوي في انتشال مئات الملايين من براثن الفاقة. وقد وفّق النموُّ الاقتصادي الصيني وحده في إخراج ما يزيد على أربعمائة مليون نسمة من دائرة الفقر (Fareed Zakaria, ٢٠٠٨, p. ٥).

والعواملُ الكامنة وراء هذا التحول في الهيمنة العالمية تتقاطع في جوهرها مع ما أوضحته ميدوز حول آلية النمط. وأولى هذه العوامل الحقيقةُ التاريخية الثابتة، إذ كانت آسيا تمتلك تقنيةً متقدمةً متطورة قبل أن يبسط المستكشفون الغربيون سيطرتهم على العالم بأمد بعيد. ويضرب زكريا لذلك مثلًا بالأميرال الصيني الشهير تشنغ خه الذي قاد عام ١٤٠٥م أسطولًا من السفن العملاقة يبلغ طول كل منها أربعمائة قدم على متنها ثمانية وعشرون ألف بحار. وهذه الأبعادُ تفوق بمراحل سفنَ كريستوفر كولومبوس التي أبحرت بعد عقود من ذلك لا تعدو أربع سفن تحمل مائة وخمسين ملاحًا (Fareed Zakaria, ٢٠٠٨, p. ٤٩-٥١).

وثاني هذه العوامل عاملُ السياسة الداخلية، فقد آثرت الصينُ في القرن الخامس عشر تدميرَ أسطولها والانكفاءَ عن العالم الخارجي. وفي المقابل، شهد الغربُ نهضةً فكريةً كبرى أفرزت المنهجَ العلمي والتجريبَ والساعةَ الميكانيكية أداةً لقياس الوقت وقيمة العمل، فضلًا عن المؤسسات المالية الحديثة التي غذّت روحَ الابتكار وأمدّتها بأسباب الاستمرار. وبينما انكبّ الغربُ على هذا المسار التجديدي، ظلت آسيا رهينةَ إنتاجيةٍ تقوم على كثافة العمل اليدوي دون أن ترفدها تطوراتٌ تكنولوجية حقيقية (Fareed Zakaria, ٢٠٠٨, p. ٥١)

وثالث هذه العوامل عاملُ التكيف والاستيعاب، إذ نهضت دولٌ كالصين والهند عبر تبني أيديولوجية الرأسمالية والانخراط فيها. والتحولُ في موازين الهيمنة اليوم ليس وليدَ الصدفة، بل هو ثمرةٌ لنجاح الدول الآسيوية في استيعاب منظومة الرأسمالية والسوق الحرة

والتجارة والتكنولوجيا التي أشعل الغربُ فتيلها أول الأمر، والتفوق فيها (Fareed Zakaria, ٢٠٠٨, pp. ٢١ & ٤٨).

ومن هذا البيان يتضح جليًّا أن الحضارةَ الإنسانية تسير في نمط دائري متواصل: تنطلق من رحم الابتكار، وتبلغ أوج المجد والازدهار، ثم تصطدم بمرحلة التحديات والتحولات، لتُفضي في نهاية المطاف إلى ميلاد مراكز حضارية جديدة تحمل مشعل الريادة إلى الأمام.

ويُؤكِّد هذا التطورُ أهميةَ الانتباه إلى الكيفية التي تُعالج بها الرواياتُ الخيالية حركةَ التاريخ الكبرى وتُصيِّرها في قالب سردي خطي، إذ إن تشكيلَ البنية القصصية والحساسيةَ الموضوعية داخل النص يُؤثِّران تأثيرًا بالغًا في طريقة تصوير مراحل ميلاد الأمة ونموِّها ثم انهيارها. وفي هذا السياق، تحتلُّ روايةُ " أنتيخريستوس " مكانةً محوريةً في خطاب الأدب العربي المعاصر، وذلك بفضل قدرتها الجذرية على إعادة بناء ديناميات التحولات في موازين القوى العالمية عبر الخيال التأملي (مصطفى, ٢٠١٥).

والنزعةُ الموضوعية في هذا السرد تسير في اتجاه المراقبة النقدية لنقاط انعطاف انهيار الإمبراطوريات الكبرى، والتفككِ الاجتماعي، والصدامِ الجيوسياسي العالمي. ويتجلى ذلك في اتساع الرقعة التاريخية المدمجة في النص، إذ تمتد من حقبة بابل القديمة، مرورًا بالدولة العثمانية، وصولًا إلى هياكل السياسة في العصر الحديث. ونمطُ الحكي المتخطي للحدود الجغرافية والتسلسل الزمني يزيدُ من رسوخ مكانة هذه الرواية نصًّا أدبيًّا متجاوبًا مع خطاب الصراع على السلطة بين الحضارات.

وبهذه الخصائص السردية وعمق النسيج التاريخي المتشابك، يمكن قراءةُ أنتيخريستوس بوصفها تعبيرًا نصيًّا وتمثيلًا ملموسًا لقانون دورة الحضارة في آنٍ واحد. والرحلةُ المتجولة عبر القرون القديمة المتعاقبة تتحول إلى فضاء للتأمل يمزج تفاصيلَ

الأحداث بالأساطير ومؤامرات النخب، حتى إن المسار التاريخي في هذه الرواية لا يضطلع بمجرد دور الخلفية الزمنية، بل يغدو نصًّا ثقافيًّا يقرأه أبطالُ الرواية ويُعيدون تأويله لاستشراف كيفية بلوغ حضارةٍ ما ذروةَ هيمنتها، قبل أن تعتريها البلادةُ الداخلية فتنهار، ويخلفها في الريادة قوةٌ صاعدة جديدة.

أما النظريةُ المعتمدة في هذا البحث فهي نظريةُ النقد الأدبي الأصيل التي أرسى دعائمها نورثروب فراي في كتابه "تشريح النقد". وتقوم هذه النظريةُ على النظر إلى الأدب بوصفه منظومةً من البنى المستقلة ذاتِ الأنماط الثابتة، لا مجرد انعكاسٍ لسيرة المؤلف أو صدىً لظروف اجتماعية بعينها (Alim وآخ., ٢٠٢٣). يُضاف إلى ذلك أن نظريةَ فراي الأصيلة تقوم في أساسها على الجدلية، مما يعني أن كل نمط في النقد الأدبي يسير وفق مسار متكرر ودائري، وهو ما يتوافق تمامًا مع طبيعة دورة الحضارة التي يتناولها هذا البحث، إذ يتسم موضوعُها بالتعريف بمسار قصصي يتكرر في حضارات الأمم كافة على اختلافها وتباينها. ومن ثَمَّ، فإن الانسجامَ بين النظرية الأساسية والموضوع المطروح للبحث يُمثِّل أقوى مسوّغ وأمتن سند لاعتماد هذه النظرية دون سواها (Frye, 1957).

وأما السببُ الذي دفع فراي إلى ربط هذه الدورة بالفصول الأربعة، فمرجعُه أن هذه الدورة تحكمها مبادئ تتشابه في جوهرها مع مبدأ تعاقب الفصول وتناوبها الدائم. ورواية " أنتيخريستوس" تستوفي في هذا الشأن معايير المنهج البحثي المعتمد، إذ يجمع سردُها بين شخصيات محورية ورموز تاريخية راسخة من شأنها أن تُولِّد نمطًا دوريًّا يتحرك في مسار الميلاد والازدهار والانحطاط والانهيار. واختيارُ هذه الرواية ليس اعتباطًا، بل هو اختيارٌ تحكمه الملاءمةُ البحثية الواضحة، إذ تُتيح ميدانًا تحليليًّا خصبًا ثريًّا لاختبار آلية اشتغال الأنماط الأصيلة داخل بنية أدبية متكاملة ومتماسكة.

وفيما يتعلق بموضوع هذا البحث حول دورة الحضارة، فقد رصد الباحثُ جملةً من الدراسات السابقة التي تتقاطع مع الموضوع الذي يتناوله البحثُ الراهن، وذلك على سبيل المقارنة والموازنة. وتؤدي هذه الدراساتُ وظيفةً مزدوجة: أولاها الكشفُ عن الفجوة البحثية القائمة بين هذا البحث وما سبقه من دراسات، وثانيتها تقديمُ إسهام معرفي جديد يُوسِّع آفاق المعرفة ويُثري الخزانة العلمية، ولا سيما في ميدان النقد الأدبي.

ومن أبرز هذه الدراسات السابقة دراسةُ أغوستين (٢٠٢٤) التي تناولت السيميائيةَ الرمزية السردية، وكذلك دراسةُ محمد حسين محجوب (٢٠١٧) التي تناولت وظيفةَ الأساطير العربية الإسلامية في تشكيل الهوية الثقافية للمجتمع. ويُضاف إلى ذلك دراسةُ خان (٢٠٢٢) التي كشفت عن العناصر الأسطورية في البنية الدورية الكتابية، وتطبيقُ دورة الفصول على الرواية المعاصرة لتتبع مسار حياة الشخصية الرئيسية، فضلًا عن دراسة أونيسوارا (٢٠٢٥) التي درست الأنماطَ الكوميدية في الحكايات الخرافية، والتحليلِ المقارن بين سفر أستير والأساطير الرافدينية.

وثمةَ دراساتٌ أخرى جمعت بين نظرية الأنماط الأصيلة وصياغات بنيوية قصصية مغايرة، كدراسة أنجاني وآخرين (٢٠٢٥) التي مزجت بين وظائف فلاديمير بروب والإطار النظري لنورثروب فراي في آنٍ معًا. وختامًا، تبرز دراسةُ سوليستيانينغروم (٢٠١٥) التي عالجت إشكاليةَ أسطورة الجمال بوصفها أداةً مُقوِّضةً لهوية الأقليات، ودراسةُ سيبينيويو (٢٠٢٣) التي تناولت الميثولوجيا الكلاسيكية في الشعر الحداثي الإنجليزي بوصفها حقلًا للسلطة والهيمنة، ودراسةُ جمال بلقاسم (٢٠١٤) التي فككت الميثولوجيا البيضاء الغربية من منظور الاستعمار ونقده، وأخيرًا دراسةُ جيجو وجورج (٢٠٢١) التي أوضحت كيف يُوفِّق نورثروب فراي بين النقد البنيوي المنصبِّ على الأنماط الداخلية للنص والنقدِ التاريخي الناظر في السياق الاجتماعي وأصول الأساطير، ليصوغ منهما معًا ما بات يُعرف بالنقد الأصيل.

ويكشف رسمُ خارطة الدراسات السابقة أن البحوث المتعلقة بالأساطير والأنماط الأصيلة في الأعمال الأدبية تتقاطع مع هذا البحث الراهن في محاور تجمعها أربعُ كفاءات رئيسية.

أما الكفاءةُ الأولى فتتمثل في توجه عدد من الدراسات نحو توظيف الأسطورة بوصفها أداةً لتشكيل الهوية الجماعية وإضفاء الشرعية على السلطة وصون المتانة الروحية للمجتمع. ويتجلى ذلك في التحليل السيميائي للرموز السردية في الأعمال الأدبية اليابانية والإندونيسية الذي أجرته أغوستين (٢٠٢٤)، وكذلك في دراسة محجوب (٢٠١٧) التي كشفت عن وظيفة الأساطير العربية الإسلامية في تشكيل الهوية الثقافية والروحية للمجتمع عبر المقاربة الميتوشعرية والتناصية.

وأما الكفاءةُ الثانية فتتمحور حول توظيف نظرية الأنماط الأصيلة والأساطير عند نورثروب فراي توظيفًا مباشرًا في النصوص الأدبية والنصوص المقدسة. ويندرج في هذا السياق بحثُ خان (٢٠٢٢) القائم على تحليل أمثال الكتاب المقدس الذي كشف عن العناصر الأربعة للأسطورة في بنية الدورة الكاملة، وتطبيقُ دورة فراي الفصلية على الرواية المعاصرة التي أظهرت مسيرة البطل الرئيسي وفق إيقاع الفصول الأربعة من الرومانسية حتى المأساة، ودراسةُ أونيسوارا (٢٠٢٥) التي اختبرت الأنماطَ الكوميدية في جنس الحكايات الخرافية والرومانسية مثبتةً سريانَ النمط الأصيل عبر الأجناس الأدبية المختلفة، فضلًا عن تحليل النمط الأصيل للبطل ونقيضه في سفر أستير مقارنةً بأساطير بلاد الرافدين.

وتنصبُّ الكفاءةُ الثالثة على مساعي بعض الدراسات إلى دمج نظرية الأنماط الأصيلة مع المناهج البنيوية والسرديات، ومنها دراسةُ أنجاني وآخرين (٢٠٢٥) التي جمعت بين وظائف فلاديمير بروب وأجناس فراي في تحليل الأفلام السينمائية. ويُضاف إليها دراسةُ جيجو وجورج (٢٠٢١) التي وفّقت بين النقد الأدبي البنيوي والنقد الأدبي

الأصيل عند نورثروب فراي، سعيًا إلى دحض ما ذهب إليه بعض النقاد من أن نظرية فراي باتت متهالكةً فاقدة الصلة بالواقع بحجة ما تنطوي عليه من إسقاط قسري للمفاهيم على مختلف الأعمال الأدبية.

وأما الكفاءةُ الرابعة فتتجلى في عدد من الدراسات التي وظّفت الأسطورة بوصفها استراتيجيةً أيديولوجيةً وتناصيةً في السياقين الحديث وما بعد الاستعماري. ويشمل ذلك تحليلَ أسطورة الجمال بوصفها أداةً للغزو الثقافي المقوِّض لهوية الجماعات الأقلياتية كما تكشف عنه دراسةُ سوليستيانينغروم (٢٠١٥)، واستحضارَ الميثولوجيا الكلاسيكية في شعر الحداثة الإنجليزية بوصفه حقلًا للتفاوض على السلطة وإعادة بناء الموروث في دراسة سيبينيويو (٢٠٢٣)، وتفكيكَ الخطاب المركزي الأوروبي الذي يكشف كيف فُرضت الميثولوجيا البيضاء الغربية على العالم بأسره عبر آليات الاستعمار في دراسة جمال بلقاسم (٢٠١٤).

ويتضح من استعراض أوجه التقاطع بين الدراسات السابقة والبحث الراهن أن القاسمَ المشترك الجامع بينها هو النزوعُ إلى توظيف الأسطورة والنمط الأصيل بوصفهما بنيةً أساسيةً في فهم دورة الحياة كما تنعكس في الأعمال الأدبية والنصوص المقدسة على حدٍّ سواء. يُضاف إلى ذلك أن عناصر دورة الحضارة من النهوض حتى الانهيار قد استأثرت باهتمام الباحثين السابقين من زوايا متعددة تمتد من الأبعاد الثقافية حتى أعماق سيكولوجيا ما بعد الاستعمار.

غير أن هذا البحثَ يتميز عن الدراسات السابقة بفوارق جوهرية تمس النظريةَ والمنهجَ وصميمَ الإشكالية في آنٍ واحد. فإذا نظرنا إلى المجموعة الأولى المتمثلة في دراسة محجوب (٢٠١٧) وأغوستين (٢٠٢٤)، تبين أنهما يُعنيان أساسًا برصد كيفية توظيف الأسطورة في تشكيل هوية المجتمع وثقافته. وأما أنجاني وآخرون (٢٠٢٥) فيميلون إلى استخدام الأسطورة بوصفها نمطًا قصصيًّا جامدًا كما هو الحال في التحليل القائم على

نظرية ميخائيل بروب. والبحثُ الراهن يتخطى هذه الحدود متقدمًا خطوةً إلى الأمام، إذ يربط التعاليمَ الدينية المتعلقة بأشراط الساعة وأحداث آخر الزمان بالبنية الأدبية السردية للرواية.

والفارقُ الثاني والأبرز يكمن في طريقة توظيف نظرية نورثروب فراي ذاتها. فدراساتُ خان (٢٠٢٢) وأونيسوارا (٢٠٢٥) وجيجو وجورج (٢٠٢١) تسلك في الغالب مسلكًا مستقيمًا في تطبيق نظرية فراي، أي تتبع دوران الفصول الأربعة لرصد مسيرة البطل التي تنتهي إما بالسعادة وإما بالحزن. وعلى النقيض من ذلك، يقرأ هذا البحثُ روايةَ " أنتيخريستوس " بوصفها استثناءً خارجًا عن هذا المألوف، إذ لا تحكي الروايةُ دورةَ الفصول الطبيعية المعتادة، بل تُصوِّر فوضى الأزمنة الأخيرة وانهيار العالم في مشهد ديستوبي قاتم. وفي هذا السياق، يعمد الشخصيةُ المضادة للبطل أي أنتيخريستوس إلى تمزيق دوران الفصول وتحطيمه، فيُنتج تصادمًا حادًّا مروِّعًا بين أجواء الشتاء الممثلة للسخرية والمفارقة وأجواء الخريف الرامزة إلى المأساة والحزن.

والفارقُ الثالث يتجلى في الخلفية الثقافية ونوعية النص المدروس، إذ يختلف هذا البحثُ اختلافًا جذريًّا عن المجموعة المتمثلة في دراسات سوليستيانينغروم (٢٠١٥) وسيبينيويو (٢٠٢٣) وجمال بلقاسم (٢٠١٤). فهؤلاء يدرسون في الغالب ثقافةً واحدة بعينها أو يتمحورون حول إشكالية المقاومة للثقافة الغربية كأسطورة الجمال والميثولوجيا المركزية الأوروبية. وأما رواية " أنتيخريستوس " فتمتلك سردًا فريدًا من نوعه، إذ تقفز من حقبة تاريخية عالمية إلى أخرى، من عصر مصر القديمة حتى الحقبة الحديثة. وهذا النصُّ العربي المعاصر المشبع بالنبوءات الخاصة بآخر الزمان ذات الطابع الشرق أوسطي يُخضَع للتشريح والتحليل وفق نظرية "تشريح النقد" لفراي المنبثقة من أصول الموروث الفكري الغربي.

وخلاصةُ القول، إن الفارق الجوهري الذي يُميِّز هذا البحث لا يقتصر على مجرد استبدال النص المدروس، بل يتعداه إلى أنه يكشف ويُثبت كيف أن نظرية الأنماط الأصيلة الغربية عند فراي قادرةٌ على تشريح رواية عربية معاصرة حافلة بسرديات المؤامرة ونبوءات آخر الزمان المتشعبة المعقدة. وهذا التساؤلُ العلمي هو بعينه ما لم يُجب عنه الباحثون السابقون ولم يطرقوا بابه من قبل.

وانطلاقًا من خارطة الدراسات السابقة، يتبوأُ هذا البحثُ موقعًا أكاديميًّا متميزًا لم تبلغه دراسةٌ سابقة قط ولم تطأه. فالدراساتُ المرصودة المصنَّفة كلُّها تشتركُ في سمة جوهرية واحدة، وهي أن نطاق تحليلها يظل محدودًا بنص واحد، أو جنس أدبي واحد، أو شخصية واحدة، أو حقبة تاريخية مستقلة بذاتها. ودليلُ ذلك أن الدراسات التي وظّفت نظريةَ نورثروب فراي بالذات إنما وظّفتها في الغالب توظيفًا جزئيًّا مقيَّدًا، لا تعدو فيه تتبُّعَ رحلة بطل واحد من فصل إلى فصل. وعلى هذا المنوال ذاته، تبقى دراساتُ الأسطورة في وظائفها الثقافية وما بعد الاستعمارية أسيرةَ إشكالية واحدة بعينها في رقعة جغرافية أو حقبة زمنية محددة. وعند هذا الحد تتكشف الفجوةُ الأكاديمية الأعمق والأكثر جوهريةً. فلم يطرح أيٌّ من الباحثين السابقين حتى اليوم سؤالًا من هذا القبيل: كيف تستطيع روايةٌ ما أن تُمثِّل انهيارَ الحضارات ونهوضها بوصفه نمطًا أصيلًا متكررًا على المستوى الماكرو تاريخي، متخطيًا حدود شخصية واحدة أو صراع واحد أو حقبة واحدة؟ ولم تجرؤ دراسةٌ واحدة حتى الآن على إخضاع دورة الحضارة بكامل تعقيداتها البيئية والاجتماعية والسياسية والكوسمولوجية للتحليل الأصيل المتكامل في نص أدبي عربي معاصر.

ولهذا السبب بعينه تنبثقُ الجدةُ العلمية الصريحة التي يُقدِّمها هذا البحث، وهي جعلُ رواية " أنتيخريستوس" لأحمد خالد مصطفى ميدانًا اختباريًّا جديدًا لتوسيع وظائف نظرية نورثروب فراي وتجديد أفقها. وهذه الروايةُ نصٌّ فريد صُمِّم سرديًّا في

جوهره ليحتمل أعباء التحليل الماكرو-تاريخي ويستوعبها. ويجد القارئُ في ثنايا هذه الرواية نسيجًا من الأحداث الكبرى المتشابكة عبر تاريخ العالم، تمتد من سحر بابل القديمة إلى الحروب الصليبية إلى قبضة الاستعمار وصولًا إلى المأساة الإنسانية في فلسطين، وتجمعها جميعًا خيطٌ أصيل واحد يسير نحو غاية واحدة هي تهيئة العرش لظهور المسيح الدجال وإعداد المسرح له (Frye, ١٩٥٧). ومن ثَمَّ فإن الباحثَ لن يقتصر على استجلاء الأبعاد الحضارية وحدها، بل سيربطها بالخيط الجامع الذي يقصده أحمد خالد مصطفى ويتوخاه، وهو دورةُ الحضارة المتجهة نحو ظهور المسيح الدجال في آخر الزمان بوصفه الطورَ الختامي لمسيرة الحضارة الإنسانية بأسرها، المؤسَّسة على التصور الإسكاتولوجي الإسلامي في أشراط الساعة.

وباختيار هذا النص موضوعًا للدراسة، يُفلح هذا البحثُ في الانعتاق من القيود الضيقة للدراسات السابقة والتحرر منها. فنظريةُ الأنماط الأصيلة عند فراي لن تُقرأ من الآن بوصفها أداةً جامدةً مبتسرة لنقد الأجناس أو لتتبع مصائر الشخصيات الرئيسية فحسب، بل تُرفَع إلى مصاف إطار شامل أرحب لقراءة دورات المد والجزر في الحضارة الإنسانية عبر الأحقاب المتعاقبة (Frye, ١٩٥٧). وعبر هذه المقاربة يجيءُ هذا البحثُ ليسدَّ فراغًا حقيقيًّا في عالم النقد الأدبي، ويُقدِّم في الوقت ذاته منظورًا مبتكرًا جديدًا في قراءة الرواية العربية الحديثة وتأويلها.

ب. أسئلة البحث

١. كيف يتم تمثيل الدورة الحضارية في رواية ‘‘أنتيخريستوس" لأحمد خالد مصطفى من خلال منظور نظرية النقد الأركيتيبي عند نورثروب فراي؟

٢. ما هي العوامل المسببة للدورة الحضارية في رواية "أنتيخريستوس" لأحمد خالد مصطفى من خلال منظور نظرية النقد الأركيتيبي عند نورثروب فراي؟

ج. أهمية البحث

١. من الناحية النظرية، يُسهم هذا البحث في تنمية معارف الباحث وطلبة قسم اللغة العربية وآدابها حول كيفية تحليل الأعمال الأدبية العربية باستخدام نظرية النقد الأركيتيبي عند نورثروب فراي، ولا سيما في فهم تمثيل دورة الحضارة في رواية أنتيخريستوس. كما يُعدّ هذا البحث أحد المتطلبات الأكاديمية لإتمام مرحلة البكالوريوس (S1) في قسم اللغة العربية وأدبها.

٢. من الناحية التطبيقية، يُتوقع أن يُسهم هذا البحث في إثراء المكتبة العلمية بقسم اللغة العربية وأدبها في كلية العلوم الإنسانية، خاصة فيما يتعلق بدراسات النقد الأدبي العربي، وتحليل الرواية العربية الحديثة، وتطبيق النظرية الأركيتيبية في الدراسات الأدبية.

د. حدود البحث

١) الحدود النظرية: يقتصر هذا البحث على توظيف منظور النقد الأركيتيبي عند نورثروب فراي كما ورد في كتابه تشريح النقد. غير أنه لا يتناول جميع جوانب نظرية فراي، بل يركّز على عنصرين أساسيين، وهما: (١) مفهوم *الميثوي* المرتبط بالبنية الدورية للفصول، و(٢) مفهوم الأركيتايب في الشخصيات، خاصة ما يتعلق بالشخصيات المحورية المرتبطة بالسلطة، والبطولة، والانحطاط، والانهيار (Frye, ١٩٥٧).

٢) حدود الموضوع: يقتصر موضوع هذا البحث على رواية *أنتيخريستوس* لأحمد خالد مصطفى بوصفها النص الرئيس للتحليل، مع التركيز على تمثيل دورة الحضارة في بنيتها السردية، ولا سيما في أنماط الميلاد، والازدهار، والتدهور، والانهيار داخل النص.

الفصل الثاني
الإطار النظري

أ. المبحث الأول: نظرية النقد الأركيتيبي

يُعدُّ النقدُ الأركيتيبي أحدَ أبرز المناهج في نظرية الأدب الحديثة، وقد وضع أسسَه ودعائمَه الناقدُ نورثروب فراي في كتابه تشريح النقد.(١٩٥٧) وتنطلقُ هذه النظريةُ من مبدأ جوهري مفاده أن الأعمال الأدبية لا تُقرأ بمعزل عن بعضها، بل تنتظم في شبكة متشابكة من الرموز والصور والبنى المتكررة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان والثقافة. ويُسمِّي فراي هذه البنى المتكررةَ بالأنماط الأصيلة أو الأركيتيبات، وهي نماذجُ أولية تنبثقُ في الأدب الإنساني بصور شتى دون أن تزول. وتهدفُ هذه النظريةُ إلى تحويل مركز الثقل النقدي من الحكم الذاتي على المؤلف إلى الكشف عن الأنماط التخيلية الجماعية التي تُشكِّل التراثَ الأدبي الإنساني في مجمله. وعلى هذا الأساس، يسعى هذا المبحثُ إلى عرض مفهوم هذه النظرية وأنواعها الكبرى بوصفها الإطارَ النظري الحاكم لهذا البحث.

١. مفهوم نظرية النقد الأركيتيبي

يُعرِّف نورثروب فراي في كتابه "تشريح النقد: أربع مقالات" (١٩٥٧) نظريةَ الأنماط الأصيلة بأنها مقاربةٌ في النقد الأدبي تسعى إلى الكشف عن الأنماط الأساسية والصور المتكررة والرموز الكونية والبنى السردية التي تظهر بصورة منتظمة في شتى الأعمال الأدبية عبر الأزمنة والثقافات المختلفة (Frye, ١٩٥٧, p. ٩٩). ويُؤكِّد فراي أن العملَ الأدبي لا يقوم قائمًا بذاته بوصفه إبداعًا فرديًّا معزولًا، بل يرتبط بغيره من الأعمال في شبكة متشابكة من الأعراف والأساطير والأشكال الرمزية المتكررة.

والنقدُ الأصيل لا يتوجه نحو الحكم الأخلاقي أو النفسي على المؤلف، بل ينصبُّ على الكشف عن الأنماط التخيلية الجماعية التي تُشكِّل التراثَ الأدبي في مجمله وتبني صرحه.

ويستعمل فراي مصطلحَ "النمط الأصيل" استنادًا إلى الأصل اليوناني (archetype) الذي يعني النموذجَ الأساسي أو المثالَ الأول، وهو في الدلالة الأنثروبولوجية والنفسية النموذجُ الأصلي الذي يظل يعود ويتكرر في صور وأشكال متجددة عبر مختلف التقاليد الأدبية (Frye, ١٩٥٧, p. ٩٥). وتُمثِّل هذه المقاربةُ تحولًا جوهريًّا في مركز الثقل النقدي، من الخصوصية الفردية للمؤلف نحو البنية الجماعية للأدب بوصفه منظومةً مستقلةً ذات أنماط متكررة. وفي إطار نظريته، يُحدِّد فراي ثلاثةَ مجالات للرمزية الأصيلة تُشكِّل معًا طيفَ الدلالة وامتداده: المجالُ الأبوكاليبتي، والمجالُ الشيطاني، والمجالُ التمثيلي أو الأنالوجي (Frye, ١٩٥٧, p. ١٤٧). وهذه المجالاتُ الثلاثة بنىً معرفيةٌ تُحدِّد الكيفيةَ التي يُدرك بها القارئُ الواقعَ داخل النص الأدبي ويستوعبه.

٢. أنواع نظرية الأركيتيبي

يُصنِّفُ نورثروب فراي الأنماطَ الأصيلة في تشريح النقد إلى ثلاثة مجالات رمزية كبرى تمتدُّ على طيف واسع من الدلالة، من أعلى درجات الكمال والنظام إلى أشد حالات الانهيار والفوضى قتامةً. وتُمثِّلُ هذه المجالاتُ الثلاثة بنىً معرفيةً تُحدِّد الكيفيةَ التي يُدرك بها القارئُ الواقعَ داخل النص الأدبي، وتعكسُ في الوقت ذاته الطيفَ الأنطولوجي الكامل للتجربة الإنسانية. وهذه المجالات هي الأركيتيب الأبوكاليبتي الذي يُمثِّل عالم الكمال والنظام الأتم، والأركيتيب الديموني الذي يُمثِّل عالم الانهيار والفوضى المطلقة، والأركيتيب الأنالوجي الذي يقعُ في المنزلة الوسطى بينهما مُجسِّدًا

تجارب الإنسان في حدود الواقع المألوف. وفيما يلي عرضٌ تفصيلي لكل مجال من هذه المجالات الثلاثة.

أ) الأركيتيب الأبوكاليبتي

ويتصدرُ النمطُ الأصيل الأبوكاليبتي أعلى مراتب بنية الدلالة الرمزية. ويُمثِّل هذا المجالُ رؤيةً للعالم الذي بلغ صورته المثلى وكماله الأتم، عالمٌ أُعيد إليه نظامُه وصُفِّي وتوحَّد في انسجام تام وشامل. وفي هذا المجال تتسم الرموزُ بالتنظيم المتقن والبناء المحكم: يحلُّ البستانُ محل الغابة البرية، وتقوم المدينةُ مقام القفر الموحش، ويخلف حظيرةُ الغنم عالمَ البهائم الفوضوي المضطرب. وهذه الأشكالُ جميعها ثمرةٌ يُنتجها عمرانُ الحضارة وصناعتها، فيغدو العالمُ الأبوكاليبتي عالمًا مُهذَّبًا مُشبَّعًا بالدلالة الرمزية من كل جانب.

والمبدأُ الجوهري الحاكم لمجال النمط الأصيل الأبوكاليبتي هو ما يُسميه فراي "الكليَّ المحسوس"، وهو واقعٌ تنوب فيه الجزئيةُ عن الكلية وتُعبِّر عنها. فمدينةٌ واحدة تستطيع أن تُمثِّل كمالَ النظام الاجتماعي بأسره، وشجرةٌ واحدة تتضمن في ذاتها جوهرَ الحياة النباتية كلها، وشخصيةٌ إنسانية مثالية واحدة تستوعب الإنسانيةَ جمعاء وتُجسِّدها. وفي السياق الديني، يتجلى هذا المبدأُ في تصوير المسيح إلهًا وإنسانًا في آنٍ واحد، جامعًا في هويته المفردة بين الطبيعتين الإلهية والبشرية معًا (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٤١–١٤٢).

ب) الأركيتايب الديموني

ويقعُ الأرشيتايب الديموني في الطرف النقيض التام من الأرشيتايب الأبوكاليبتي، إذ يرسمُ صورةً لعالمٍ بالغ البُعد عن المثال والكمال. وتسمُ هذا العالمَ

أربعُ سماتٍ جوهرية: غربةُ الشخصية الرئيسية عن القوى الكونية، وقهرُ البنى الاجتماعية للإنسان، وانهيارُ العلاقات البشرية وتداعيها، وغيابُ القيم المتعالية غيابًا تامًّا. ويُقارنُ فراي الأرشيتايبَ الديمونيَّ بالجحيم" في ملحمة دانتي أليغييري، حيث يبدو اللهُ معرضًا عن عباده تاركًا إياهم يتخبطون في ظلمات المعاناة والعذاب.

وتتعرضُ الرموزُ في الأرشيتايب الديموني للتشويه والانقلاب في دلالاتها انقلابًا تامًّا. فتظهرُ الحيواناتُ كواسرَ ووحوشًا مفترسة، وتحضرُ النباتاتُ في هيئة غاباتٍ موحشة أو أراضٍ جرداء لا تهب الحياة ولا تمنحها. وتتجلى الأماكنُ قفارًا موحشةً وأطلالًا دارسةً وسجونًا مظلمةً ومتاهاتٍ تأسر من يقع فيها فلا تُفلته. والمجتمعُ في الأرشيتايب الديموني بنيةٌ قائمةٌ على القهر والولاء المفروض بالإكراه والتضحية الرمزية. ويتجلى ذلك أجلى تجلٍّ في رواية "١٩٨٤" لجورج أورويل، التي تصوّرُ دولةً شمولية يفقدُ فيها الفردُ حريتَه وهويتَه معًا فقدانًا نهائيًّا لا رجعة منه (Frye, ١٩٥٧, p. ١٤٧).

ج) الأركيتايب الأنالوجي

والأرشيتايب الأنالوجي بنيةٌ وسيطة تجسر الهوةَ بين القطبين المتطرفين، وهما الأرشيتايب الأبوكاليبتي والأرشيتايب الديموني. فإذا كان الأرشيتايب الأبوكاليبتي يصوّر عالمًا بالغ الكمال والمثالية، والأرشيتايب الديموني يستحضر عالمًا بالغ الفساد والانهيار، فإن الأرشيتايب الأنالوجي يعرضُ عالمًا قد صاغته الخيالُ وشكَّلته، غير أنه يبقى في حدود التجربة الإنسانية المألوفة ولا يتجاوزها (Frye, ١٩٥٧, p. ١٥١). ولا يشتغلُ هذا الأرشيتايب عبر الاستعارة المطلقة كالجنة والنار،

بل يعملُ من خلال أنماط الصور التي تبني المناخَ العام وتُرسِّخ التوجهات القيمية المعينة.

ويُقسِّم نورثروب فراي الأرشيتايبَ الأنالوجي إلى ثلاثة مستويات متمايزة. فالمستوى الأول هو الأنالوجي الرومانسي، وهو بنيةٌ تعرضُ عالمًا مأمولًا لم يبلغ بعد درجة الكمال التام. ويُظهِر المسارُ القصصي فيه استقرارًا مرتكزًا على صلابة الإخلاص الأخلاقي. وتتسمُ الشخصياتُ فيه بالوضوح الأخلاقي البيِّن، إذ يبرزُ البطلُ في مقابل الخصم بصورة جلية، وتهيمنُ على المشهد أمكنةٌ كالبساتين والغابات المحمية والقصور النائية بوصفها خلفيةً سردية مسيطرة. والأنالوجي الرومانسي وظيفتُه أن يكون النسخةَ الإنسانية من الأرشيتايب الأبوكاليبتي، أي مشروعَ الرغبة في النظام الذي لا يزال بلوغُه ممكنًا في حدود الواقع. وفي الأنالوجي الرومانسي لا يُدمِّر الصراعُ المنظومةَ تدميرًا كاملًا، ويتجهُ حلُّ الأحداث نحو استعادة نظام أفضل وإن ظل قاصرًا عن الكمال. والبطلُ في هذا المستوى شخصيةٌ تعتريها نقائص الطبيعة الإنسانية، غير أنه يضطلعُ بدور العامل الأخلاقي الفاصل بين النور والظلام فصلًا حاسمًا لا تردد فيه (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٥١–١٥٣).

والمستوى الثاني هو الأنالوجي الميمتيك العالي، وهو بنيةٌ تقوم على العقلانية والنظام الاجتماعي. ويقتربُ المسارُ القصصي فيه من الواقع اقترابًا أكبر مع التشديد على التراتبية الاجتماعية وشرعية السلطة والمؤسسات القائمة. وتُقدَّمُ شخصيةُ الملك أو الزعيم أو الإمام بوصفها تجسيدًا للقيم الروحية في صورتها المؤسسية. وتعكسُ رموزُه الكبرى النظامَ والأبهة الملكية: القصورُ والعواصم وشارات الملك وطقوس الدولة الرسمية. وعلى هذا المستوى لا يُعاشُ العالمُ من خلال الصراع الأخلاقي البسيط بين الخير والشر، بل يُدرَك من خلال تعقيد الأدوار الاجتماعية والمسؤوليات الجماعية. والشخصيةُ في هذا المستوى ليست

خيِّرةً أو شريرةً فحسب، بل هي أيضًا مقيَّدةٌ بالبنى التي تحدُّ من حريتها وتكبّلها. وتنبثقُ المأساة في الأنالوجي الميمتيك العالي حين يعجزُ الفردُ عن الوفاء بمتطلبات دوره، أو حين تُصاب المؤسسةُ ذاتها بالانحطاط والتداعي (Frye, ١٩٥٧, p. ٢٠٠).

والمستوى الثالث هو الأنالوجي الميمتيك المنخفض، وهو بنيةٌ ترتكز على التجربة الحياتية الملموسة اليومية. والعالمُ المعروض فيه عالمُ العمل والولادة والعلاقات الاجتماعية اليومية والصراعات الواقعية. ولا تهيمنُ فيه شخصيةٌ إلهية أو رموزٌ كونية كبرى، إذ يُنشَد فيه البحثُ عن التجربة الإنسانية الأصيلة في تفاصيل الحياة اليومية. وتتسمُ رموزُه بالطابع العام المألوف كالحقول والمدن الحديثة والفضاءات المنزلية والبحار والنيران. وعلى هذا المستوى يميلُ المثاليةُ إلى التعرض للمحاكاة الساخرة، وكثيرًا ما تستحضرُ السردياتُ الأدبية فيه السخريةَ من الادعاءات الأخلاقية المطلقة. والأنالوجي الميمتيك المنخفض بنيةٌ تمتلك علاقةً محتملةً بالأرشيتايب الديموني، إذ ينبثقُ من هذا العالم الواقعي الوعيُ بالمحدودية والإخفاق والعبثية ويتنامى. والشخصياتُ فيه بشرٌ عاديون بكل ما يحملونه من ضعف ونقص، والسردُ يُركِّز على المعاناة الوجودية ومكابدة الحياة تركيزًا أعمق مما يعتني بالانتصارات البطولية (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٥٤–١٥٥).

ب. المبحث الثاني: نَظَرِيَّةُ الْمِيثُولُوجِيَا

تُمثِّلُ نظريةُ الميثولوجيا عند نورثروب فراي الركيزةَ الثانية في منظومة النقد الأصيل، وهي تكملُ نظريةَ الأركيتيب وتمتدُّ منها امتدادًا عضويًّا. ويرى فراي أن الأدبَ في جوهره نظامٌ سردي قائم على الميثوس، أي البنيةِ القصصية الكونية التي تنبثق منها جميعُ الأشكال الأدبية وتعود إليها. وليس الميثوسُ عنده حكايةً خرافيةً قديمة تنتمي إلى عالم الأوهام والأساطير البدائية، بل هو النمطُ السردي الأكثر أصالةً وجوهريةً في

الأدب الإنساني، إذ يحتلُّ أعلى مراتب التراتبية التخيلية حين تمتلك الشخصياتُ قدراتٍ تتجاوز حدود الطبيعة البشرية وتتخطى قوانين الواقع المألوف. ومن هذا المنطلق، يربطُ فراي الميثوسَ بدورة الطبيعة ربطًا عضويًّا محكمًا، مُنتهيًا إلى تقسيمه أربعةَ أنماط سردية كبرى تتوازى مع الفصول الأربعة وتُجسِّد معًا دورةَ الحياة الكاملة: ميلادًا ونموًّا وانهيارًا وموتًا ثم تجددًا. وعلى هذا الأساس يسعى هذا المبحثُ إلى عرض مفهوم نظرية الميثولوجيا وأنواعها الأربعة بوصفها الإطارَ السردي التحليلي الذي يُفسِّر تمثيلَ دورة الحضارة في رواية *أنتيخريستوس*.

١. مفهوم نَظَرِيَّة الْمِيثُولُوجِيَا

يُعرِّف نورثروب فراي في كتابه تشريح النقد الميثوسَ لا بوصفه حكايةً قديمةً خرافيةً أو ضربًا من الأوهام والخزعبلات، بل بوصفه البنيةَ السردية الأكثر أصالةً وجوهريةً في الأدب. والميثوسُ عند فراي شكلٌ من أشكال السرد يتربع على أعلى درجات سلَّم التراتبية في الفكشن، وذلك حين تمتلك الشخصياتُ قدراتٍ تتجاوز طاقة البشر العاديين وتتخطى حدودها، وحين تجري الأحداثُ خارج سنن الواقع المألوف وقوانينه. وبعبارة أجمع، الميثوسُ نمطٌ سردي يدور حول الآلهة والكائنات الخارقة والقوى الكونية، ويُمثِّل الإطارَ الأساسي الذي تنبثق منه سائر الأشكال الأدبية وتقوم عليه (Frye, ١٩٥٧, p. ٣٣).

ويرى فراي أن جميع الأعمال الأدبية تنمو وتتطور انطلاقًا من نمط الميثوس هذا. ويصفُ الأدبَ بأنه منظومةٌ مبنية على التكرار والإعادة. وفي منظوره، تُمثِّل أجناسُ الأدب كالكوميديا والتراجيديا والرومانس والإيرونيا والساتير تنويعاتٍ على بنية الميثوس الأقدم أو اشتقاقاتٍ منها. ومن ثَمَّ فالميثوسُ الإطارُ البنيوي الذي يُحدِّد طريقةَ تشكُّل الحكاية وسيرها.

ويرتكز المنطلقُ الذي أفضى إلى نظرية الميثوس عند فراي على رصده للانتظام النمطي في الأدب الغربي، ولا سيما في الأعمال الكلاسيكية والكتاب المقدس وأدب عصر النهضة. وقد لاحظ فراي أنه على الرغم من تباين العصور والمؤلفين الذين نبتت فيهم الأعمالُ الأدبية، تظل أنماطُها السردية متشابهةً متقاربة في جوهرها: ثمة قصةُ الميلاد والنهوض والتضحية والرحلة البطولية والسقوط والموت والتجدد (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٣١–١٣٤).

ويكشفُ هذا التكرارُ أن الأدب يقوم على أساس ميثولوجي جماعي مشترك. ومن هنا صاغ نورثروب فراي فكرتَه القائلة بأن النقد الأدبي ينبغي أن يعكف على رسم خارطة تلك الأنماط ورصدها بصورة منهجية منضبطة. ويربطُ فراي نظريةَ الميثوس بدورة الطبيعة ربطًا عضويًّا، إذ يُقسِّمُ الميثوسَ إلى أربعة أنماط كبرى تتوازى مع الفصول الأربعة: الكوميديا (فصل الربيع)، والرومانس (فصل الصيف)، والتراجيديا (فصل الخريف)، والإيرونيا أو الساتير (فصل الشتاء). ويكشفُ هذا التقسيمُ أن الميثوس يشتغلُ وفق دورة الحياة ذاتها: ميلادٌ ونموٌّ وانهيارٌ وموت، ثم تكرارٌ متجدد في أشكال أدبية متنوعة لا تنقطع (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٥٨–١٦٠).

ويُوضِّح فراي في "تشريح النقد" أن الميثوس يحتلُّ المرتبةَ العليا في منظومة الأدب بوصفه رمزًا، أي أنه يغدو النمطَ الأصيل المنظِّم للموضوعات والشخصيات والحبكة في أربعة أنماط لأطر السرد، هي: الكوميديا، والرومانس، والتراجيديا، والإيرونيا أو الساتير. والميثوسُ في هذا المفهوم عالمٌ سردي متماسك وشامل تمتلك فيه الشخصياتُ في الغالب مؤهلاتٍ تفوق البيئةَ المحيطة وسنن الطبيعة، فيضطلع بدور المصفوفة البنيوية لسائر الأشكال الأدبية الأكثر واقعية. ومن ثَمَّ تُرسِّخ نظريةُ الميثوس عند فراي الميثوسَ بوصفه منظومةً تخيلية كونية تُشكِّل بنيةَ الدلالة الجماعية، وتُتيح قراءةَ الأعمال الأدبية بوصفها أجزاءً من نمط دوري رمزي يتكرر في الأدب

تكرارًا لا ينقطع (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٣٤–١٣٦). وسيأتي تفصيلُ هذه الأنماط الأربعة لأطر السرد في القسم التالي من هذا البحث.

٢. أنواع نَظَرِيَّة الْمِيثُولُوجِيَا

يُقسِّمُ نورثروب فراي في تشريح النقد الميثوسَ الأدبيَّ إلى أربعة أنماط سردية كبرى تُوازي الفصولَ الأربعة في دورة الطبيعة، وتُشكِّل معًا منظومةً دوريةً متكاملةً تعكسُ مسيرةَ الوجود الإنساني من الميلاد حتى الفناء ثم الانبعاث من جديد. وهذه الأنماطُ ليست أصنافًا منعزلةً مستقلةً بعضها عن بعض، بل هي حلقاتٌ متواصلة في دورة واحدة متصلة: فميثوسُ الكوميديا يُمثِّل فصلَ الربيع بما يحمله من انبثاق الحياة وتجدُّدها، وميثوسُ الرومانس يُجسِّد فصلَ الصيف بما ينطوي عليه من ذروة المجد والقوة والازدهار، وميثوسُ التراجيديا يُعبِّر عن فصل الخريف بما يُمثِّله من انحدار وسقوط لا مرد له، وميثوسُ الإيرونيا والساتير يُجسِّد فصلَ الشتاء بما يحمله من تفكُّك وانهيار وظلام وجودي شامل. ويكشفُ هذا التوازي أن الأدبَ لا يحكي أحداثًا عرضيةً فحسب، بل يُعيدُ إنتاجَ الدورة الكونية في أشكال سردية متجددة لا تنقطع. وفيما يلي عرضٌ تفصيلي لكل نمط من هذه الأنماط الأربعة.

أ) مِيثُولُوجِيَا الْكُومِيدِيَا

ويكشفُ ميثوس الكوميديا عن مسار سردي يتجه من القهر نحو التحرر، ومن الكبت والتضييق نحو نظام اجتماعي جديد أكثر انسجامًا وتوافقًا. ومن ثَمَّ فإن بناءَ الشخصيات في الدراما لا يتحدد بعمق الأداء النفسي للممثل وحده، بل يتحددُ كذلك بالوظيفة البنيوية التي تضطلع بها الشخصيةُ في نمط الحبكة السردية.ويُقرِّر نورثروب فراي أن ثمة شخصياتٍ بعينها لا بد من حضورها في

الإطار السردي الأدبي، وهي أنماطٌ ثابتة تتمثل في: الألازون، وهو الشخصيةُ المتنكرة المدَّعية التي تُضخِّم سلطتها وتُبالغ في ادعاء مكانتها؛ والإيرون، وهو الشخصيةُ المتواضعة المتخفية التي تغدو في الحقيقة العاملَ الفعلي للتحول والتغيير؛ والبوفون، وهو الشخصيةُ المعزِّزة لأجواء الاحتفال والبهجة؛ والأغرويكوس، وهو الشخصيةُ المتزمتة أو الطهرانية الجافة. وتُسهم هذه الأنماطُ الأربعة مجتمعةً في بناء التضاد الدرامي وإقامة توتراته (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٧١–١٧٦).

ويُفضي ذلك إلى اندلاع صراع حاد بين النور والظلام. وبنيةُ الكوميديا تتجهُ باستمرار نحو حل يقلب التهديد ويُبطله، وكثيرًا ما يتم ذلك عبر ما يُعرف بـ"بوينت أوف ريتشوال ديث"، أي اللحظة المشرفة على الموت. ومعنى ذلك أن السردَ يتمحور حول مواجهة الشخصية الرئيسية وحلفائها تهديدَ الموت، سواء أكان موتًا حرفيًّا واقعيًّا أم موتًا رمزيًّا دلاليًّا.

ويرى نورثروب فراي أن النمط السردي في الأعمال الأدبية يتطور عبر ست مراحل متتالية:فالمرحلةُ الأولى هي الكوميديا الأولية، وتهيمنُ فيها على السرد شخصيةُ الحاكم الطاغية، فيما يكتفي المجتمعُ بالانصياع الظاهري أمامه مع إضمار ما يُخالفه. وتُمثِّل المجتمعُ في هذه المرحلة رمزًا للكوميديا المشبعة بالخداع والحيل. والمرحلةُ الثانية هي مرحلة الكيخوتية، وفيها تفرُّ الشخصيةُ الرئيسية من عالمها العبثي أو تبني وهمًا لا يملك من القوة ما يكفي ليحل محل الواقع، وذلك لأن صراعًا مأساويًّا قد نشب بين مثالية الشخصية الرئيسية والواقع الاجتماعي القائم في السرد. والمرحلةُ الثالثة هي الكوميديا المعيارية، وفيها تنجح الشخصيةُ الرئيسية من الجيل الصاعد في هزيمة الجيل القديم المظلم. ومثالُ ذلك في الدراما العاطفية أن الشخصية الرئيسية تصطدم بعقبة حرمان والد المرأة من الموافقة على زواجهما، ثم تُثبت في نهاية المطاف جدارتَها لتنال يدها. والمرحلةُ الرابعة هي دراما

العالم الأخضر، وهي مرحلةُ التحول من أحداث تجري في بيئات مألوفة كالمدن والممالك والأرياف، ثم تنتقلُ إلى عالم بري مفتوح خارج قيود الأعراف الاجتماعية وحدودها. والمرحلةُ الخامسة هي الكوميديا الرومانتيكية العليا، وتنطوي على عناصر مأساوية في طياتها. والاستعادةُ فيها لا تقتصر على البُعد الاجتماعي، بل تتجاوزه إلى البُعد الوجودي، حتى لكأن الشخصيةَ تمر بتحول أنطولوجي عميق يمس جوهر وجودها. والمرحلةُ السادسة هي ديسانتغريشن الكوميديا، وفيها ينكمشُ المسارُ السردي إلى فضاء ضيق باطني. وتكتسبُ النبرةُ طابعًا أكثر قتامةً وتأمليةً، مقتربةً من عالم الغوثيك أو المناخ الصوفي الغامض (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٧٧–١٨٦).

ب)مِيثُولُوجِيَا الرُّومَانْسِيَّةِ

يتمحورُ ميثوس الرومانس أو ميثوس فصل الصيف في إطار النقد الأصيل حول نمط الكويست، إذ يُقدِّم البطلَ شخصيةً تنتقل من عالم مهدَّد نحو استعادة نظام أرفع وأسمى، ويُفصَّل ذلك من خلال بنية جدلية واضحة المعالم نسبيًّا بين النظام الكوني والفوضى التي يُجسِّدها التنين والعملاق وقوى الليفياثان. وجوهرُ ميثوس الرومانس الصراعُ، أي المواجهة البطولية التي تُمثِّل المحورَ السردي الأساسي. ثم يعقبُ ذلك طورُ المعاناة أو الاقتراب من الموت الذي يُسمى البايثوس، واحتمالُ التدمير أو التمزق الرمزي للجسد الذي يُعرف بالسباراغموس، وأخيرًا الانبعاثُ والنهوض الذي يُدعى الأناغنوريسيس، وهو اللحظة التي تُؤذن باستعادة العالم الجديد (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٨٦–١٩٢).وفي ميثوس الرومانس تمرُّ حياةُ الشخصية الرئيسية بست مراحل متتالية: الميلاد، والشباب، والمجد، والسقوط، والعزلة، والاستعادة (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٩٨–٢٠٣).

فالمرحلةُ الأولى هي مرحلة الميلاد الغامض للبطل، وتتناول أصلَ البطل ومنشأه، والولادةَ المحجوبة المخفية، والطفلَ الذي يُلقى في الأمواج أو يُعزَل في السفينة، والأماراتِ الكونية التي تُرافق مقدمه (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٩٩–٢٠٠).والمرحلةُ الثانية هي مرحلة شباب البطل، وتصفُ طفولتَه وصبَاه وهو ينشأ في الغالب في بيئة زراعية أو رعوية، قبل أن يدرك نداءَ مهمته الكويست ويستجيب له (Frye, ١٩٥٧, pp. ١٩٩–٢٠٠).

والمرحلةُ الثالثة هي مرحلة المجد، وتحكي أيامَ ازدهار البطل وانتصاراته، إذ يُصارع الوحوشَ ويُخضعها ويُتم مهمته الكبرى (Frye, ١٩٥٧, pp. ٢٠٠–٢٠١). والمرحلةُ الرابعة هي مرحلة السقوط، وتحكي انعطافَ مسيرة البطل نحو نظام أشد قتامةً وظلامًا، حيث تُختبر جدارتُه من جديد عبر أزمة حادة، أو يفقدُ براءتَه إزاء عالمه الماضي، أو يتهددُه خطرُ الهبوط من مكانته الرفيعة (Frye, ١٩٥٧, pp. ٢٠١–٢٠٢).والمرحلةُ الخامسة هي مرحلة العزلة، وفيها يغدو النمطُ السردي أكثر صمتًا وكآبةً، إذ يمرُّ البطلُ بطور العزلة مبتعدًا عن المجتمع أو منغمسًا في التأمل العميق، ويُرمز إلى ذلك في الغالب بالمغامرة تحت الأرض أو التيه في المتاهات (Frye, ١٩٥٧, pp. ٢٠٢–٢٠٣). والمرحلةُ السادسة هي مرحلة الاستعادة، وهي الختامُ الذي تتحقق فيه الاستعادة الكونية الشاملة. ويتمحورُ السردُ حول شخصيات الحكماء المتحررة من قيود الزمن، والطمأنينةِ الوجودية، واستمرارِ الحياة متجددةً عبر الأجيال القادمة (Frye, ١٩٥٧, p. ٢٠٣). ويُمثِّل ميثوسُ الرومانس هذا نقطةَ التقاء بين الأرشيتايب الأبوكاليبتي والأرشيتايب الميمتيك العالي، وهو ما يُسميه نورثروب بمصطلح الإيبيفاني، إذ لا تواجه الشخصيةُ الرئيسية في مسار الحكاية العالمَ المثالي فحسب، بل تمرُّ كذلك في أطوار بعينها بوصفها إنسانًا يعيش في واقع ناقص غير مكتمل. وهذا الإيبيفاني

ضرورةٌ لا غنى عنها؛ إذ يُتيح للشخصية الرئيسية أن تواصل نموَّها، ويخدم في الوقت ذاته ضروراتِ المسار السردي ومتطلباته (Frye, ١٩٥٧, pp. ٢٠٣–٢٠٤).

ج) مِيثُولُوجِيَا التَّرَاجِيدِيَا

يُفهَم ميثوسُ التراجيديا في إطار الأرشيتايب عند نورثروب فراي بوصفه ميثوس أوتوم، أي النمطَ السردي الذي يُجسِّد حركةَ السقوط من حالة نسبية من التمام والحرية نحو التقييد والارتهان والانهيار. وميثوسُ التراجيديا في جوهره رحلةٌ من عالم الإمكان نحو حقيقة مرَّة لا مفر منها ولا مهرب. وتتجاذبُ النفسَ في هذا الميثوس مشاعرُ متضاربة متعارضة: نشعرُ بأن سقوطَ الشخصية ضرورةٌ منطقية محتومة، غير أن قلوبنا في الوقت ذاته لا تملك إلا أن تتألم لما يحل بها (Frye, ١٩٥٧, pp. ٢٠٦–٢١٤).

ويُشبهُ هذا النمطُ طقوسَ التضحية القديمة التي كانت تهدف إلى توحيد مشاعر جماعة المشاهدين والإذعانِ لقوى الكون الأعظم. وإن لم يُقدَّم البطلُ في الحكاية قربانًا حرفيًّا واقعيًّا، فإن انهيارَه يكشفُ عن سنة كونية تتجاوز طموح أي إنسان وتعلو عليه. وفي لحظة السقوط تلك يُخيَّل إلينا أننا نُطلُّ لوهلة على حقيقة عالم أرحب وأكثر غموضًا وسرًّا، حقيقةٌ ظلت مختبئةً وراء غرور الشخصية وعظمتها، غير أنها تبقى في نهاية المطاف بعيدةً عن متناول الإنسان. وفي دراسة الأرشيتايب الأدبي، يتسمُ دورُ الزمن في التراجيديا بالطابع الحتمي الجبري المتناقض تناقضًا صريحًا مع وظيفة الزمن في الكوميديا (Frye, ١٩٥٧, p. ٢١٤).

فإذا كانت الكوميديا تجعلُ من الزمن قوةً استعاديةً شافية، فإن الزمنَ في التراجيديا يضطلعُ بدور النيميسيس الذي يكفل تراكمَ كل عواقب الأفعال تراكمًا دائمًا لا يُمحى. وتتمحورُ هذه البنيةُ حول لحظة الأوغنبليك، أي النقطة

الفاصلة التي تتقاطع فيها مسالكُ الإمكان مع الحقيقة التي لا مناص منها ولا فرار. وكثيرًا ما يتعثرُ مسارُ الشخصية الرئيسية في هذه المرحلة التراجيدية بسبب الهيبريس أو ضيق الأفق، فتعجزُ عن إدراك البدائل المتاحة في حياتها (Frye, ١٩٥٧, p. ٢١٤).

ويرى نورثروب فراي أن ثمة نمطًا متكررًا في مرحلة التراجيديا يُؤسِّس مسار الحكاية ويُقيم دعائمه، ويتجلى في خمسة عناصر:فالعنصرُ الأول هو الشخصية المنتفخة الألازون، وهي الشخصيةُ الرئيسية التي تمتلك مكانةً رفيعة غير أنها تنخدع بصورتها المضخَّمة عن ذاتها. وسقوطُها مأساوي لأنه يكشفُ الهوةَ السحيقة بين حقيقتها وبين الوهم الذي رسمته لنفسها.والعنصرُ الثاني هو عامل الدمار النيميسيس، وقد يتجسدُ في عدو أو في سنة طبيعية. وهؤلاء ليسوا أشرارًا محضًا، بل هم أداةٌ تضمن سير التراجيديا حتى نهايتها المحتومة. والعنصرُ الثالث هو الضعيف المستضعَف السوبليانت، أي شخصياتٌ كالأطفال الصغار والنساء البالغات أقصى درجات الهشاشة. ووجودُها يُبيِّن مدى قسوة ذلك العالم وضراوته. وحين يُهمَل هؤلاء ويُتركون، يدركُ المتلقي أن القيمَ الإنسانية في ذلك العالم قد انهارت تمامًا. والعنصرُ الرابع هو صوت العقل الكوروس أو البلين ديلر، وهو الشخصيةُ التي تُمثِّل معايير المجتمع وأعرافه. وتقفُ هذه الشخصيةُ في الهامش متأملةً مشيرةً إلى البُعد الشاسع الذي انحرف فيه البطلُ عن جادة الصواب. والعنصرُ الخامس هو الإيزوليشن، وهو الطورُ الأخير الذي لا تمتلك فيه الشخصيةُ الرئيسية موطئَ قدم ولا سلطةً من أي نوع. فتموتُ في وحشة الوجود المطلق. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل يبدأُ المقربون منها بالتفرق والنأي عنها، تاركين إياها في وحدة قاتلة لا يُؤنس وحشتَها شيء (Frye, ١٩٥٧, pp. ٢١٦–٢١٩).

ويُقسِّمُ نورثروب موقعَ الشخصية الرئيسية في مرحلة التراجيديا إلى ست مراحل:فالمرحلةُ الأولى مرحلةُ الشهيد، وهي حين تكون الشخصيةُ الرئيسية ذاتَ مكانةٍ رفيعةٍ وتكاد تخلو من كل ذنب، غير أنها تقعُ ضحيةَ البهتان أو تُقدَّم قربانًا في سبيل قيمة بعينها.والمرحلةُ الثانية مرحلةُ البراءة المنهارة، وهي التراجيديا التي تنزلُ بالأحداث وعديمي التجربة، حيث يسحقُ العالمُ القاسي نقاءَهم سحقًا لا هوادة فيه.والمرحلةُ الثالثة مرحلةُ الانتصار الروحي، وتدلُّ على أنه وإن تهشَّمت الشخصيةُ جسدًا أو لقيت حتفَها كما في قصة الصلب، فإن موتَها انتصارٌ للروح لا هزيمة.

والمرحلةُ الرابعة مرحلةُ الهيبريس، وهي الصورة الكلاسيكية التي يهوي فيها البطلُ جراء غروره وكبريائه أو الخطأ المميت الذي اقترفه بيده. والمرحلةُ الخامسة مرحلةُ الإيرونيا والإيزوليشن، وفيها لا تبدو الشخصيةُ بهيةً مهيبةً بعد الآن، بل تظهرُ صغيرةً وحيدة، ويأخذُ أثرُ بطولتها في الأفول والاضمحلال شيئًا فشيئًا.والمرحلةُ السادسة مرحلةُ الهول السباراغموس، وهي أشد المراحل قتامةً، تعجُّ بالمعاناة الجسدية والتعذيب والإهانة أمام الملأ. ولا يبقى فيها من الجانب البطولي أثرٌ، ولا يظل سوى إنسان عاجز بين براثن قوة لا ترحم ولا تُبقي (Frye, ١٩٥٧, pp. ٢١٩–٢٢٣).

ووفق الأرشيتايب عند نورثروب، ميثوسُ التراجيديا ليس نهايةَ المطاف، بل هو حلقةٌ من دورة كبرى تشملُ الكوميديا والرومانس. ومثالُ ذلك أن قصة المعاناة في تقاليد بعينها لا تكتملُ دلالتُها إلا إذا أعقبها انبعاثٌ ونهوض. بيد أن حركة البنية التراجيدية في ذاتها تتجهُ دومًا نحو التضيُّق: من الحرية إلى الأسر، ومن الجماعة إلى العزلة، ومن الآفاق الرحبة إلى الواقع الضيق المحدود (Frye, ١٩٥٧, p. ٢٠٧).

د) مِيثُولُوجِيَا الهجائي والْإِيرُونِيَ

يُطوِّرُ نورثروب فراي في تشريح النقد مفهومَ ميثوس الإيرونيا بوصفه أحد الأنماط السردية الكبرى في الأدب. ويكشفُ ميثوسُ الإيرونيا عن عالم متصدع وقيم مضطربة وإنسان فقد بهاءه البطولي. وتُصوَّرُ فيه الشخصيةُ الرئيسية ضعيفةً عاجزة، بل محاصرةً في منظومة أكبر منها وأعتى (Frye, ١٩٥٧, p. ٢٢٣). وفي إطار تفكير نورثروب فراي، الإيرونيا والساتير ليستا مجرد أداة للسخرية والتهكم، بل هما نمطٌ يُفكِّك أوهام الواقع ليُحرِّر التجربة الإنسانية من جمود الدوغما وأسرها. ويُقسِّمُ نورثروب فراي مراحلَ تطور ميثوس الإيرونيا إلى مراحل منهجية تتدرج من النقد الاجتماعي السطحي وصولًا إلى أعماق الجحيم الوجودي.

فالمرحلةُ الأولى هي مرحلة الأومفالي، أي انهيار الصورة البطولية. وفي هذا الطور الأول لا تزال الساتير تستندُ إلى بقايا البنية البطولية. ويبرزُ هنا ناقدٌ يبدو أكثر وعيًا من محيطه، يشنُّ هجومَه على "العمالقة" المتمثلين في الجهل والزيف والنفاق الاجتماعي. غير أن الجوهر الحقيقي لهذه المرحلة لا يكمن في انتصار الناقد، بل في الكشف عن ضياع قيمة البطولة ذاتها. ويُسميها فراي أرشيتايب الأومفالي، حيث تنهارُ الرجولة البطولية ويحلُّ محلها شخصياتٌ مقهورة أو تبدو متقزِّمة في تفاعلاتها الاجتماعية. والفكاهةُ المتولِّدة فيها هي فكاهةُ فشل الأدوار وتعثرها.

والمرحلةُ الثانية هي المرحلة الكيخوتية، أي صدام الدوغما مع الواقع. وتبدأُ فيها الساتيرُ بالتشكيك في الأعراف ذاتها. وهي مرحلةٌ مستوحاة من شخصية دون كيخوته، تُسلِّط الضوءَ على الصدام بين المنظومات الفكرية والنظريات والفلسفات المتماسكة ظاهريًّا وبين واقع الحياة الفوضوي المعقد.

وتُظهرُ الساتيرُ في هذا الطور أن أكثر المثاليات انضباطًا وتنظيمًا تبدو عبثيةً حين تُفرض قسرًا على ممارسة الحياة. والساتيرُ عند فراي في هذا المقام ليست موقفًا معاديًا للفلسفة، بل هي أسلوبٌ فني للحفاظ على مسافة إبداعية تحول دون وقوع الإنسان أسيرَ تبسيط التجربة ودوغمتها.

والمرحلةُ الثالثة هي مرحلة انزياح المنظور، أي الإنسان في مرآة الغروتيسك. وتدخلُ الإيرونيا فيها منطقةً أشد قتامةً إذ تهدمُ الثقةَ بالعقلانية. وينزاحُ المنظورُ انزياحًا حادًّا حتى لا يُرى الإنسانُ بعد الآن مركزًا للكون، بل كائنًا مثيرًا للاشمئزاز والنفور. ويُقوِّضُ هذا الانزياحُ استقرارَ العالم المثالي، ويُصوَّرُ الواقعُ عالمًا متحولًا ديناميكيًّا قابلًا للتغير في أي لحظة تبعًا لزاوية النظر إليه.

والمرحلةُ الرابعة هي مرحلة الديموني إيبيفاني، أي ذروة الظلام والسجن الوجودي. وأشد المراحل قتامةً تحدثُ حين تلتقي الإيرونيا مباشرةً بالتراجيديا. ويُصوَّرُ العالمُ فيها فضاءً مغلقًا خانقًا كالسجن والمصح النفسي. وعند هذا الحد يُسميها نورثروب فراي مرحلة الديموني إيبيفاني، أي تجلّي الواقع في أكثر صوره قتامةً وانعدامًا للأمل. وتتسمُ البنيةُ السردية في هذه المرحلة بالتشظي والفوضى المتعمَّدة، رافضةً أن تستقر في منظومة راسخة بوصفها شكلًا من أشكال المقاومة لوهم الكمال.

والمرحلةُ الخامسة هي مرحلة نقطة التحول، أي جدلية دانتي وحرية المنظور. وعلى الرغم من اتجاه ميثوس الإيرونيا نحو الظلام المطلق، فإنه عند فراي لا ينتهي باليأس والقنوط. ومستندًا إلى الكوميديا الإلهية لدانتي، يُبيّن فراي أنه في أحلك لحظات الشخصية الرئيسية وأشدها انحدارًا، ينقلبُ المنظور رأسًا على عقب. فحين يجتاز دانتي مركز الأرض، ينقلبُ الهبوطُ فجأةً صعودًا. وميثوسُ الإيرونيا يضطلعُ في نهاية المطاف بدور العملية التحليلية التي تُحرِّر

الإنسان من هيمنة أي منظومة، وتُفكِّك الصور النمطية والمخاوف اللاأساسية، لتنطلقَ الحياة من جديد دون قيود اليقين الزائف (Frye, ١٩٥٧, pp. ٢٢٦–٢٣٩).

الفصل الثالث

منهج البحث

أ. نوع البحث

يعتمدُ هذا البحثُ المنهجَ الكيفي الوصفي نوعًا للبحث. والبحثُ الكيفي منهجٌ علمي يرمي إلى فهم الفينومينولوجيا فهمًا عميقًا متأنيًا. ويتمحورُ اهتمامُه حول عمق الدلالة والوصف الدقيق واستيعاب الموضوع استيعابًا شاملًا (Prof. Dr. Sugiyono, ٢٠١٣, p. ١-٣) ويُختارُ هذا النوعُ من البحث لأنه يلائمُ صياغةَ إشكالية البحث ملاءمةً تامة، وهي: كيف يتجلى سيكلوس الحضارة ويتمثَّل في صورة مقتطفات باللغة العربية من السرد الروائي لرواية أنتيخريستوس لأحمد خالد مصطفى من خلال منظور نظرية النقد الأصيل عند نورثروب فراي، وما العوامل التي تقفُ وراء وقوع سيكلوس الحضارة الذي تُمثِّله هذه الرواية وتعكسه.

ب. الْبَيَانَاتُ وَمَصَادِرُ الْبَيَانَاتِ

تنقسمُ بيانات البحث إلى فئتين رئيسيتين بحسب مصادر الحصول عليها، وهما البيانات الأولية والبيانات الثانوية. فالبياناتُ الأوليةُ هي البيانات التي يستقيها الباحثُ مباشرةً من مصدرها الأصلي، في حين تُمثِّل البياناتُ الثانوية البياناتِ التي يحصلُ عليها الباحثُ بصورة غير مباشرة. ومصادرُ البيانات هي الموضوعات التي تنبثقُ منها بياناتُ البحث وتُستقى. ويستوجبُ انتقاءُ هذه المصادر عنايةً فائقةً ودقةً بالغة حتى تتمتعَ نتائجُ البحث بصدق عالٍ وموثوقية راسخة (Prof. Dr. Sugiyono, ٢٠١٣, pp. ١٩٣–١٩٤). ويوظِّفُ هذا البحثُ جملةً من مصادر البيانات والبيانات التي تُشكِّلُ قاعدتَه العلمية وترتكزُ عليها. وفيما يلي بيانُ ذلك وتفصيله:

١. مَصْدَرُ الْبَيَانَاتِ الأساسية

ومصدرُ البيانات الأساسية هو المصدرُ الذي يُمدُّ الباحثَ بالبيانات مباشرةً دون أن يمرَّ بوسيط أو يتخلله طرفٌ ثالث (Prof. Dr. Sugiyono, ٢٠١٣, p. ٢٢٥). ويتمثَّلُ مصدرُ البيانات الأولية في هذا البحث في رواية أنتيخريستوس لأحمد خالد مصطفى الصادرة عام ٢٠١٥م. وتحملُ هذه الروايةُ رقمَ الإيداع الدولي ISBN: ٩٧٨-٩٧٧-٨٥١٥٦-٧-١، ورقمَ الإيداع ٢٠١٥/٢١١٧١، وتقعُ في ٣١٢ صفحة. ويوظِّفُ البحثُ هذه الروايةَ موضوعًا رئيسيًّا للدراسة، إذ يدرسُ من خلالها تمثُّلَ سيكلوس الحضارة عبر رموز الأرشيتايب وبنية الميثوس استنادًا إلى منظور النقد الأصيل عند نورثروب فراي.

٢. الْبَيَانَاتُ الأساسية

البيانات الأساسية هي البيانات التي يحصل عليها الباحث مباشرةً من المصدر الرئيسي المتعلق بموضوع البحث (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ١٣٧). وتشتمل البيانات الأولية في هذا البحث على الاقتباسات العربية التي ترد في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى، إذ يعتمد الباحث على هذه الاقتباسات باعتبارها مصدرًا رئيسيًا يُمثِّل موضوع الدراسة ويُشكِّل أساسها التحليلي. وتتضمن هذه البيانات جميع النصوص العربية التي تظهر في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى، والتي يُوظِّفها الباحث في تحليل الظواهر اللغوية محلَّ البحث. ومن ثَمَّ، يُلاحَظ أن هذه البيانات تنبثق مباشرةً من النص الأدبي الأصلي دون توسُّط مصادر أخرى، مما يجعلها تحتلُّ مكانةً محوريةً في منهجية هذا البحث وتُسهم في تحقيق أهدافه العلمية.

١. مَصْدَرُ الْبيانات الثَّانَوِيَّة

البيانات الثانوية هي البيانات التي لا يحصل عليها الباحث مباشرةً من مصدرها الأول، بل تصله عن طريق وسيط، كالوثائق المكتوبة ونتائج الدراسات السابقة (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ١٣٧). وتتمثل البيانات الثانوية الرئيسية في هذا البحث في كتاب تشريح النقد لنُورْثْرُوب فْرَاي (١٩٥٧)، الذي يُوظِّفه الباحث أساسًا نظريًا لتحليل الرموز الأركيتيبية، وبنية الأسطورة، وتمثيل دورة الحضارة في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى.

وفضلًا عن ذلك، تشتمل البيانات الثانوية الأخرى على الكتب والمقالات العلمية التي تتراوح بين المصادر الشعبية والمجلات الدولية المحكَّمة. وتتضمن البيانات الثانوية التي يستند إليها الباحث في هذا البحث جملةً من المصادر الأساسية التي يعتمد عليها في تعميق التحليل وتعزيز الحجج العلمية، وهي على النحو الآتي: كتاب المقدمة لابن خلدون (١٣٧٧)، وكتاب دراسة التاريخ لتوينبي (١٩٤٦) ، وكتاب انهيار وكتاب الأسلحة والجراثيم والفولاذ لجاريد دايموند (٢٠٠٥)، وكتاب تشريح النقد لنورثروب فراي (١٩٥٧)، وكتاب صراع الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي لصامويل هنتنجتون (١٩٩٦) وكتاب لماذا تفشل الأمم لدارون عاصم أوغلو وجيمس أ. روبنسون (٢٠١٢)وكتاب تقديم الذات في الحياة اليومية لغوفمان (١٩٥٦)، وكتاب تربية المقهورين لباولو فريري (٢٠٠٥)، وكتاب الحداثة السائلة لزيجمونت باومان(٢٠٠٠) ، وكتاب النظام السياسي والاضمحلال السياسي لفرانسيس فوكوياما (٢٠١٤)، وكتاب إلغاء الإنسان للويس (١٩٤٧).

وللإجابة عن السؤال البحثي الثاني، يستخلص الباحث أولًا نتائج استقرائية من تحليل السؤال البحثي الأول، ثم يُؤَكِّد تلك النتائج ويُعزِّزها بالاستناد إلى منظورات البيانات الثانوية ذات الصلة. أما المقالات العلمية، فيستخدمها الباحث بوصفها دراسات سابقة، وقد استقاها من أبحاث (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣)، وغيرها من الدراسات ذات الصلة، لا سيما أن الباحث يُشير إلى هذه البيانات الثانوية في قسم المقدمة من هذا البحث. وتؤدي المجلات العلمية وظيفةً مزدوجةً في هذا البحث؛ إذ تُوظَّف دراساتٍ سابقةً تُسهم في المقارنة بين البحث الحالي والدراسات السابقة، وتكشف عن جوانب القصور في تلك الدراسات. في حين تُوظَّف مصادر الكتب المذكورة أعلاه في تعميق التحليل وتمتين الحجج العلمية التي يُصيغها الباحث في الإجابة عن أسئلة البحث.

٢. بيانات ثانوية

البيانات الثانوية هي البيانات التي لا يحصل عليها الباحث مباشرةً من المصدر الرئيسي، بل تنبثق من مصادر داعمة متنوعة، كالكتب ونتائج الدراسات السابقة (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ١٣٧). وتتمثل البيانات الثانوية في هذا البحث في المعلومات النظرية، والمفاهيم، والتعريفات، ونتائج الدراسات، وآراء الخبراء المتعلقة بنظرية الأركيتيب، والأسطورة، والبنية السردية، ودورة الحضارة في كتاب تشريح النقد لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

وبالاستناد إلى مصادر الأدبيات الموثوقة والمتنوعة، يسعى الباحث إلى إنتاج تحليل عميق وشامل ودقيق. وتُقدِّم الكتب المتعددة التي أشار إليها الباحث آنفًا بيانات إضافية تتعلق بكيفية وقوع دورة الحضارة، كما تُعمِّق فهم الباحث في ما يخص العوامل الجزئية والكلية التي تُؤثِّر في الأنماط الناشئة وتُحدِّد مساراتها.

وعلاوةً على ذلك، تشتمل البيانات الثانوية أيضًا على نتائج الدراسات السابقة التي تناولها الباحث في قسم الدراسات الاستهلالية، سواءٌ أكانت رسائل علمية، أم مجلات علمية محكَّمة، أم مقالات أكاديمية ذات صلة بدراسة النقد الأدبي الأركيتيبي. وتُوظَّف هذه البيانات في دعم نتائج التحليل المتعلق بالبيانات الأولية وتعزيزها والمقارنة بينها، بما يُكسب البحث أساسًا نظريًا وأكاديميًا أكثر رسوخًا وإحكامًا.

ج. تقنية جمع البيانات

تشتمل أساليب جمع البيانات المطبَّقة في هذا البحث على أسلوبين رئيسيين، هما أسلوب القراءة وأسلوب التدوين (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ١٣٨). ويُوظِّف الباحث كلا الأسلوبين للحصول على البيانات ذات الصلة بأسئلة البحث، وهي تمثيل دورة الحضارة في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى، والعوامل التي تُشكِّل خلفية وقوع دورة الحضارة استناداً إلى منظور النقد الأدبي الأركيتيبي لـ نورثروب فراي.

ويُنفَّذ أسلوب جمع البيانات بصورة منهجية ومنظَّمة، بحيث تتوافق البيانات التي يحصل عليها الباحث مع محور البحث، وتقبل التحليل وفق مفهوم الأركيتيب، والأسطورة، والنمط السردي في نظرية نورثروب فراي. إذ يقرأ الباحث النص الأدبي قراءةً متأنيةً ومعمَّقةً، ثم يُدوِّن البيانات ذات الصلة بأسئلة البحث تدويناً دقيقاً ومنضبطاً، مما يجعل عملية جمع البيانات تسير وفق خطوات علمية مُحكَمة تُسهم في تحقيق أهداف البحث وتعزيز موثوقية نتائجه.

١. تقنية القراءة

تقنية القراءة هو الأسلوب الذي يُوظِّفه الباحث للحصول على المعلومات، وفهم الأفكار، وتفسير المعاني المتضمَّنة في نص مكتوب، بحيث يستطيع الباحث أن يفهم موضوع الدراسة فهماً عميقاً ومتكاملاً (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ١٣٨). ويُطبِّق الباحث في هذا البحث أسلوب القراءة على رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى بوصفها المصدر الرئيسي للبيانات، إذ يسعى الباحث من خلال هذا الأسلوب إلى فهم مسار الأحداث، وشخصيات الرواية، والأنماط المتكررة في كل موضوع من موضوعات الرواية.

وتتمثل خطوات أسلوب القراءة التي يتَّبعها الباحث في هذا البحث على النحو الآتي:

أ) يقرأ الباحث كامل محتوى رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى للحصول على السياق العام المتعلق بمسار الأحداث، والشخصيات، والخلفية، والصراع، والموضوعات التي ترتبط بالسؤال البحثي الأول والسؤال البحثي الثاني، اللذين يُبيِّنان كيفية تمثيل دورة الحضارة وفق منظور النقد الأدبي الأركيتيبي لنورثروب فراي، والعوامل المسبِّبة لها (Frye، ١٩٥٧).

ب) يُجري الباحث قراءةً متكررةً لتعميق الفهم في ما يخص سياق الأحداث، واكتشاف التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالسؤال البحثي الأول والسؤال البحثي الثاني استناداً إلى منظور نظرية النقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

ج) يُعيد الباحث القراءة بصورة مكثَّفة، إذ يُحدِّد البيانات ذات الصلة والمتسقة والأكثر قوةً في الإجابة عن السؤال البحثي الأول والسؤال البحثي الثاني، بحيث تكون جاهزةً للتحليل باستخدام الإطار النظري للنقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

٢. تقنية التدوين

تقنية التدوين هي المنهج الذي يُوظِّفه الباحث لتسجيل البيانات المستخلصة من عملية القراءة، وانتقاء الأجزاء التي تتوافق مع متطلبات البحث في آنٍ واحد (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ١٣٨). ومن خلال تقنية التدوين، يستطيع الباحث أن يفهم النصوص ذات الصلة من رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى وفق محوري هذا البحث، وهما شرح تمثيل دورة الحضارة والعوامل المسبِّبة لها من خلال منظور النقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي، بحيث تتَّسم نتائج التحليل بالتنظيم المنهجي الذي يُيسِّر سير عملية البحث ويُعزِّز دقتها. وتتمثل خطوات تقنية التدوين في هذا البحث على النحو الآتي:

أ) يُدوِّن الباحث الاقتباسات الواردة في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى التي تتصل بموضوع البحث، وهو دورة الحضارة والعوامل المسبِّبة لها، وذلك وفق الإطار النظري للنقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

ب) يُدوِّن الباحث سياق كل قصة إبيسودية من رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى، لتكون مادةً للتحليل المنهجي المنظَّم استناداً إلى نظرية النقد الأدبي الأركيتيبي لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

ج) يُثبِّت الباحث رقم الصفحة لكل اقتباس للحفاظ على دقة البيانات، كما يُدوِّن المعلومات الداعمة من الكتب والدراسات السابقة ذات الصلة لتعزيز تحليل البحث استناداً إلى منظور نظرية النقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

د. تقنية تحليل البيانات

تقنية تحليل البيانات هي عملية التحليل التي تشتمل على تقليص البيانات، وعرض البيانات، وصياغة الاستنتاجات (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ٢٤٤). وتُوظَّف هذه التقنية في تحليل البيانات لكونها تتوافق مع البحث النوعي الذي يُرَكِّز على معالجة البيانات التي تتَّخذ شكل النصوص، والسرد، والاقتباسات الأدبية بصورة منهجية وتفسيرية (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ٢٤٤). وفي تطبيقها، تُربط عملية تحليل البيانات بنظرية النقد الأدبي الأركيتيبي لنورثروب فراي بوصفها الأساس الرئيسي في تحديد الرمز الأركيتيبي، وبنية الأسطورة، وتمثيل دورة الحضارة في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى (Frye، ١٩٥٧). وفيما يلي شرح ذلك تفصيلاً:

١. اختزال البيانات

تقليصُ البيانات عمليةٌ جوهريةٌ يُنفِّذها الباحث من خلال تلخيص البيانات، واختيار العناصر الجوهرية، والتركيز على الأمور الأساسية، والبحث عن الموضوعات وأنماطها، وحذف ما لا يلزم. وهذه العمليةُ ضروريةٌ لكي يحصل الباحث على صورة أكثر وضوحاً ودقةً، وتُيسِّر عليه عملية جمع البيانات. والباحثُ مطالَبٌ في هذه المرحلة بأن يعمل بصورة متواصلة من خلال تفكير حاد ودافعية قوية. والصلاحيةُ ثابتةٌ للباحث في حذف البيانات التي يرى أنها لا تتصل بموضوع البحث، كما يستطيع أن يُضيف بيانات جديدة إن رأى أنها لا تزال ناقصة طوال مدة سير البحث (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ٢٤٧). والخطواتُ المتسلسلة لتقليص البيانات في هذا البحث مبيَّنةٌ على النحو الآتي:

أ) الخطوةُ الأولى يُنفِّذها الباحث إذ يُلخِّص البيانات التي حصل عليها من خلال تقنية القراءة والتدوين، لكي يفهم الأفكار الجوهرية من الاقتباسات العربية الواردة

في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى، للإجابة عن السؤال البحثي الأول والسؤال البحثي الثاني اللذين يُبيّنان تمثيل دورة الحضارة والعوامل التي تُشكّل خلفيتها وفق منظور النقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

ب) الخطوةُ الثانية يُنجزها الباحث إذ يُحدّد النقاط الرئيسية ويُصنّفها وفق محور الإشكالية، وهو الكيفية التي يُمثّل بها أحمد خالد مصطفى نمط دورة الحضارة في رواية أنتيكريتوس، والعوامل المسبّبة لها وفق الإطار النظري للنقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

ج) الخطوةُ الثالثة يُطبّقها الباحث إذ يُركّز على البيانات ذات الصلة بالإجابة عن السؤال البحثي الأول والسؤال البحثي الثاني، وهي تمثيل دورة الحضارة والعوامل المسبّبة لها في رواية أنتيكريتوس وفق منظور النقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

د) الخطوةُ الرابعة يُمارسها الباحث إذ يُصنّف البيانات وفق موضوع البحث، وهو نمط دورة الحضارة والعوامل المسبّبة لوقوعها استناداً إلى الإطار النظري للنقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

هـ) الخطوةُ الخامسة يُتمّها الباحث إذ يتجاهل البيانات التي لا تتصل بمحور الإشكالية، وهي الكيفية التي يستطيع بها فهم رواية أنتيكريتوس بوصفها تمثيلاً لنمط دورة الحضارة، وشرح العوامل المتنوعة التي تُسبّبها وفق منظور نظرية النقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

٢. عرض البيانات

عرضُ البيانات مرحلةٌ أساسيةٌ يهدف إلى تيسير رؤية الباحث للصورة الكلية أو الأجزاء المحددة من البحث. والعرضُ المنظَّمُ للبيانات يجعل الباحث يفهم ما يجري في مسار البحث، ويُخطِّط للخطوات اللاحقة استناداً إلى ما استوعبه من نتائج (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ٢٣١-٢٤٠). والخطواتُ المتسلسلة لعرض البيانات في هذا البحث مبيَّنةٌ على النحو الآتي:

أ) الخطوةُ الأولى يُنفِّذها الباحث إذ يُصنِّف البيانات في فئات تتوافق مع محوري إشكالية البحث، وهما شرح تمثيل دورة الحضارة في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى، وشرح العوامل المسبِّبة لها وفق نظرية النقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

ب) الخطوةُ الثانية يُنجزها الباحث إذ يُحدِّد صيغة العرض الملائمة للاقتباسات العربية الواردة في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى لفهم دورة الحضارة والعوامل المسبِّبة لها وفق نظرية الأركيتيب والأسطورة لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

ج) الخطوةُ الثالثة يُطبِّقها الباحث إذ يُرتِّب البيانات بصورة منهجية يتجلى فيها الترابط بين الفصول الفرعية وفق الإطار النظري للنقد الأدبي الأركيتيبي والأسطورة لنورثروب فراي، لفهم الشرح المتعلق بدورة الحضارة وعواملها بوصفها تمثيلاً من رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى (Frye، ١٩٥٧).

د) الخطوةُ الرابعة يُمارسها الباحث إذ يُفسِّر البيانات التي رتَّبها للإجابة عن محور إشكالية هذا البحث، وهو البحث عن شرح دورة الحضارة والعوامل المسبِّبة لها التي يستوعبها الباحث من خلال رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى (Frye، ١٩٥٧).

٣. استخلاصُ النتائج

استخلاصُ الاستنتاجات مرحلةٌ ختاميةٌ في تحليل البيانات يُنفِّذها الباحث من خلال صياغة نتائج البحث استناداً إلى الأنماط والعلاقات بين البيانات التي اكتشفها (Prof. Dr. Sugiyono، ٢٠١٣، ص. ٢٤٠). والخطواتُ المتسلسلة لاستخلاص الاستنتاجات في هذا البحث مبيَّنةٌ على النحو الآتي:

أ) الخطوةُ الأولى يُنفِّذها الباحث إذ يصوغ الاستنتاجات استناداً إلى البيانات التي مرَّت بعملية تقليص البيانات، والتصنيف، والتحليل وفق نظرية الأركيتيب لنورثروب فراي (Frye، ١٩٥٧).

ب) الخطوةُ الثانية يُنجزها الباحث إذ يستخلص النتائج النهائية للبحث بصورة موجزة ومنهجية تتوافق مع أسئلة البحث المتعلقة بتمثيل دورة الحضارة والعوامل التي تُشكِّل خلفيتها في رواية أنتيكريتوس للكاتب أحمد خالد مصطفى (Frye، ١٩٥٧).

الفصل الرابع
نتائج البحث

سيتناول هذا المبحث تبيان تمثيل دورة الحضارة والعوامل الباعثة عليها في رواية أنتيخريستوس لمؤلفها أحمد خالد مصطفى، مستندا في ذلك إلى منظور نظرية النقد الأدبي للنمط البدئي لنورثروب فراي. وسيفصل الباحث هذا المبحث على وفق البنيان النظري لنورثروب فراي، وهو بنيان ينقسم إلى شطرين عظيمين، هما: أنماط النماذج البدئية، وأنماط الأسطورة. وأما ما يتصل بالعوامل المولدة لدورة الحضارة هذه، فإن الباحث سيقسمها إلى تمثيلين اثنين على مقتضى الإطار النظري؛ أولهما: العوامل الكلية التي يمكن جلاؤها بإطار نظرية النمط البدئي لنورثروب فراي، وثانيهما: العوامل الجزئية التي يمكن تمثيلها بإطار نظرية الأسطورة.

أ. تَمْثِيلُ الدَوْرةِ الحضارَيةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ لِأَحْمَدَ خَالِدِ مُصْطَفَى: مِنْ مَنْظُورِ نَظَرِيَّةِ النَّقْدِ الأَدَبِيّ القَائِمِ عَلَى الأَرْكِيتَايْب وَالمِيثُوس لِنُورْثُرُوب فْرَاي.

يبتغي الباحث في هذا التحليل الأول صياغة الجواب عن المسألة الأولى المطروحة، وهي المعنية ببيان كيفية تمثيل نظرية النقد الأدبي للنمط البدئي لنورثروب فراي لدورة الحضارة التي تتجدد تعاقبا وتكرارا، يرتكز هذا التحليل على مستويين متكاملين يُشكِّلان معاً المنظومةَ الكاملة للنقد الأنماطي كما صاغها نورثروب فراي في كتابه "تشريح النقد" (١٩٥٧م): المستوى الكلي ويُعنى بالصور الأركيتيبية والأنماط الكونية الكبرى المتمثّلة في النظرية الأرشيتيبية ذات البُعدين الأبوكاليبسي والديموني والأنالوجي، والمستوى الجزئي ويُعنى بالأنماط الميثية الأربعة المرتبطة بفصول السنة الأربعة: الكوميديا (الربيع)

والرومانسية (الصيف) والتراجيديا (الخريف) والهجاء/الأيروني (الشتاء). وإليك بيان هذا التحليل على وجه التفصيل:

١. المستوي الكلي

واما هذه المرحلة الباحث ركز الى تحليل الدورة الحضارية عبر المستوى الكلي. ومن ثم, الباحث إتخذ من منظور الاركيتيبية التي تصنف الى أنواع الرموز الانماطية الحضارية. الباحث دخل جميع أنواع الاركيتبية, وهي يقسم الى ثلاثة أنواع: الأَرْكِيتَايْب الأَبُوكَالِيبْتِي, و الأَرْكِيتَايْب الدينومي, و الأَرْكِيتَايْب الانالوجي. واليك التحليل التالي:

أ) الأَرْكِيتَايْب الأَبُوكَالِيبْتِيُّ: الربيع الحضاري

تُشكِّل الصور الأبوكاليبسية في منظور فراي المرتبةَ العليا للصور الإيجابية في النظرية الأركيتيبية، وهي مجموعة الصور التي تُعبِّر عن المثال الأعلى للوجود الإنساني: عالم النور الكامل والانسجام الشامل والاكتمال المطلق. وفي دور الربيع تحضر هذه الصور بوصفها أفقاً يشدّ إليه الشخصيات ويمنحها معنى النضال.وتنقسم الصور الأبوكاليبسية كما رصدها فراي إلى خمسة عوالم: العالم الإلهي، والعالم الإنساني، والعالم الحيواني، والعالم النباتي، والعالم المعدني. وفي دور الربيع من رواية " أنتيخريستوس" تتجلّى هذه العوالم في الصورة التالية:

١) رَمْزُ العَالَمِ الإِلَهِيّ: الوِحْدَةُ الكَوْنِيَّةُ قَبْلَ التَّنَازُعِ.

يُوجِبُ رَمْزُ العَالَمِ الإِلَهِيّ إِيْحَاءً بِوُجُودِ نِظَامٍ يَتَسَامَى فَوْقَ مَعْهُودِ الحَيَاةِ البَشَرِيَّةِ اليَوْمِيَّةِ. وَلَيْسَ يَنْحَصِرُ تَجَلِّي هَذَا الرَّمْزِ فِي المِظَاهِرِ الدِّيْنِيَّةِ المَبَاشِرَةِ، بَلْ يَتَرَاءَى مُنْعَكِسًا فِي كَنَفِ حَيَاةٍ تَجْرِي عَلَى سُنَنِ السَّكِيْنَةِ وَالاعْتِدَالِ. وَفِي هَذِهِ الحَالِ، يُبْرِزُ عَالَمُ الحِكَايَةِ ائْتِلَافًا تَامًّا يَرْبِطُ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَمُحِيْطِهِ وَالقِيَمِ المُنَظِّمَةِ لِمَعَاشِهِمْ. وَيُثْمِرُ هَذَا الائْتِلَافُ رَسْمًا لِدُنْيَا لَا تَزَالُ فِي حَيِّزِ السَّلَامَةِ وَالتَّمَامِ، فَلَمْ تَجِدْ صُرُوفُ التَّنَازُعِ وَالتَّنَافُرِ مُتَّسَعًا لِلظُّهُورِ. وَعَلَى هَذَا

الأَصْلِ، فَإِنَّ تَتَبُّعَ رَمْزِ العَالَمِ الإِلَهِيِّ وَاسْتِقْصَاءَهُ يَنْصَرِفَانِ إِلَى تِلْكَ التَّمْثِيْلَاتِ الشَّاهِدَةِ بِحُلُولِ الطُّمَأْنِيْنَةِ وَاسْتِتْبَابِ النِّظَامِ فِي غُضُونِ ذَلِكَ العَالَمِ القَصَصِيِّ.

(١) فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ لِتَسْتَوِيَ فَوْقَ الرُّؤُوسِ فَتَحْرِقَ، وَلَا لِتَغِيبَ فَتَتْرُكَ خَلْفَهَا ظُلْمَةً مُفْزِعَةً. بَلْ كَانَ النُّورُ يَنْبَعِثُ مِنَ الْهَوَاءِ نَفْسِهِ؛ لَطِيفاً، دَافِئاً، وَمُنْتَشِراً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ، حَتَّى لَمْ يَكُنْ لِأَيِّ مَخْلُوقٍ أَنْ يُلْقِيَ ظِلًّا أَسْوَدَ عَلَى الْأَرْضِ. وَعِنْدَمَا كَانُوا يَتَوَاصَلُونَ عَبْرَ "رَنِينِ الْقُلُوبِ"، لَمْ يَكُنْ لِلْكَذِبِ مَوْضِعٌ، لِأَنَّ كُلَّ خَاطِرَةٍ كَانَتْ بَهِيَّةً كَالنُّورِ الَّذِي يَحْتَوِيهِمْ. (٢٠٧)

يُصَوِّرُ البَيَانُ الأَوَّلُ بِلَادَ أَيْثِلْغَارْدَ عَالَمًا مِثَالِيًّا يَسْتَقِرُّ فِي كَنَفِ الِائْتِلَافِ وَيَبْرَأُ مِنْ شَوَائِبِ النِّزَاعِ، فَتَجْرِي حَيَاةُ المجْتَمَعِ هُنَالِكَ فِي سَكِينَةٍ وَإِخَاءٍ؛ إِذْ يَقُومُ التَّوَاصُلُ بَيْنَهُمْ عَلَى التَّعَاطُفِ الوِجْدَانِيِّ الَّذِي يَنْفِي الكَذِبَ وَاللَّبْسَ. وَعَلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، يَنْتَفِي التَّفَاوُتُ الطَّبَقِيُّ وَالتَّنَازُعُ عَلَى السُّلْطَانِ وَالمِلْكِيَّةُ الفَرْدِيَّةُ البَاعِثَةُ عَلَى الشِّقَاقِ، وَهَذَا الِائْتِلَافُ تَعْضُدُهُ بِيئَةٌ مُتَوَازِنَةٌ، فَيَغْدُو الإِنْسَانُ وَالطَّبِيعَةُ وَالعِمْرَانُ فِي حَالٍ مِنَ التَّمَامِ وَالِانْضِبَاطِ.

تُمَثِّلُ بِلَادُ أَيْثِلْغَارْدَ نِظَامَ حَيَاةٍ يَقُومُ عَلَى أَصْلِ التَّنَاسُقِ، نَائِيًا عَنِ الطَّبْعِ التَّنَافُسِيِّ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى السِّيَاقِ الِاجْتِمَاعِيِّ المعْهُودِ؛ فَلَمْ يُصَوَّرِ المعْشَرُ فِيهَا فِي صُورَةِ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ يُمَزِّقُهَا التَّكَالُبُ عَلَى السُّلْطَانِ أَوِ المَوَارِدِ، بَلْ هُمْ جُزْءٌ مِنْ بِيئَةٍ جَامِعَةٍ مُتَكَامِلَةٍ، يُؤَدِّي فِيهَا كُلُّ عُنْصُرٍ دَوْرَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعُودَ عَلَى غَيْرِهِ بِالضَّرَرِ وَالأَذَى. وَفِي هَذَا الفَضَاءِ القَصَصِيِّ، لَا تُجْعَلُ الطَّبِيعَةُ مَادَّةً مَقْهُورَةً لِلِاسْتِيلَاءِ، بَلْ هِيَ كِيَانٌ يَنْمُو جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ الإِنْسَانِ، وَيُنْشِئُ هَذَا البِنَاءُ مَقَالَةً فِي ذِكْرِ عَالَمٍ خَالٍ مِنَ الاضْطِرَابَاتِ البُنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَعْتَوِرُ الحَيَاةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ الوَاقِعِيَّةَ عَمَلِيًّا.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَإِنَّ أَيْثِلْغَارْدَ جَسَدٌ لِتِلْكَ المِثَالِيَّةِ الَّتِي كَثِيرًا مَا تَغِيبُ عَنْ وَاقِعِ النَّاسِ اليَوْمِيِّ؛ فَلَيْسَ صَلَاحُ الحَالِ فِي هَذِهِ البِلَادِ نَاشِئًا عَنْ غَلَبَةٍ وَاسْتِعْلَاءٍ، بَلْ مَبْنَاهُ عَلَى قُدْرَةِ

كُلِّ مُقَوِّمٍ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الحَيَاةِ عَلَى رَفْدِ صَاحِبِهِ فِي صِلَةٍ تَبَادُلِيَّةٍ نَافِعَةٍ. وَلَمْ يَقَعِ المَقْصِدُ الأَسْنَى فِي السِّيَاقِ عَلَى عُلُوِّ القُوَّةِ أَوْ ظَفَرِ الآحَادِ، بَلْ مَدَارُ الأَمْرِ عَلَى اتِّسَاقِ البَقَاءِ المُشْتَرَكِ، وَهَذَا يَكْشِفُ عَنْ قَضِيَّةٍ مَفَادُهَا أَنَّ الِانْضِبَاطَ الحَقِيقِيَّ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا ارْتَفَعَتْ لُغَةُ القَهْرِ وَالِاسْتِبْدَادِ عَنِ الصِّلَاتِ القَائِمَةِ بَيْنَ البَشَرِ وَبِيئَتِهِمْ.

فَبِنَاءً عَلَى هَذَا، تَعْمَلُ بِلَادُ أَيْثِلْغَارْدَ بِوَصْفِهَا أُفُقًا لِلْقِيَمِ يَصِيرُ مِعْيَارًا لِلصَّيْرُورَةِ السَّرْدِيَّةِ فِي جُمْلَتِهَا. وَبِمَا أَنَّهَا فَضَاءٌ يَسُودُهُ السَّلَامُ وَالِانْفِتَاحُ، فَهِيَ تُمَثِّلُ ضَابِطَ المِثَالِيَّةِ الَّذِي يُشَكِّلُ أُفُقَ التَّأْوِيلِ لِمُخْتَلِفِ الدِّينَامِيكِيَّاتِ الَّتِي تَطْرَأُ بَعْدَئِذٍ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، لَا يُفَسَّرُ كُلُّ اضْطِرَابٍ يُصِيبُ الِائْتِلَافَ القَائِمَ بِأَنَّهُ خُصُومَةٌ إِقْلِيمِيَّةٌ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ تَدَنٍّ وَانْحِطَاطٌ فِي القِيَمِ التَّأْسِيسِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا عِمَادُ ذَلِكَ النِّظَامِ. وَكُلَّمَا أَمْعَنَ السَّرْدُ فِي الِابْتِعَادِ عَنْ هَذِهِ الحَالِ المِثَالِيَّةِ، تَبَدَّى بِوُضُوحٍ تَصَدُّعُ العَلَائِقِ البَشَرِيَّةِ وَالبِيئِيَّةِ، ذَلِكَ التَّصَدُّعُ الَّذِي يَغْدُو المُحَفِّزَ الأَسَاسَ لِنُشُوءِ المُعَانَاةِ وَالصِّرَاعِ الوُجُودِيِّ.

إِنَّ التَّحْلِيلَ المَذْكُورَ سَلَفًا يَتَّسِقُ وَدِرَاسَةَ (عَابِدِينَ، ٢٠١٦) المَوْسُومَةَ بِـ أَثَرِ الميثُولُوجْيَا الدِّمَشْقِيَّةِ فِي نُشُوءِ المَدِينَةِ وَتَطَوُّرِهَا مَنْهَجِيَّةٌ فِي تَارِيخِ دُورِ العِبَادَةِ؛ إِذْ تَمْحَضَ اهْتِمَامُ تِلْكَ الدِّرَاسَةِ فِي بَيَانِ دَوْرِ الميثُولُوجْيَا فِي صِيَاغَةِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَالفَضَاءِ المُقَدَّسِ لِلْمَعَاشِرِ، مُسْتَعْمِلَةً المَنْهَجَ الِاسْتِقْرَائِيَّ التَّحْلِيلِيَّ وَالمُقَارَبَةَ التَّارِيخِيَّةَ. وَأَظْهَرَتْ نَتَائِجُ البَحْثِ أَنَّ الأُسْطُورَةَ تَكُونُ رَكِيزَةً قِيَمِيَّةً تُصَاغُ بِهَا هُوِيَّةُ المَعْشَرِ وَانْضِبَاطُهُمُ الِاجْتِمَاعِيُّ، وَهَذَا المَنْزَعُ يُوَافِقُ رَسْمَ بِلَادِ أَيْثِلْغَارْدَ بِوَصْفِهَا وَطَنًا مِثَالِيًّا قَامَ عَلَى الوَعْيِ الجَمْعِيِّ وَالقِيَمِ الِائْتِلَافِيَّةِ الَّتِي تُدَبِّرُ شُؤُونَ حَيَاةِ أَهْلِهَا. وَقَدْ خَلَصَتْ دِرَاسَةُ عَابِدِينَ إِلَى أَنَّ بَقَاءَ المُجْتَمَعِ لَا يَرْتَهِنُ بِالبِنْيَةِ الفِيزْيَائِيَّةِ فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى السَّرْدِ الميثُولُوجِيِّ المُشْتَرَكِ بَيْنَهُمْ. بَيْدَ أَنَّ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ الحَالِيَّةَ تَخْتَلِفُ عَنْهَا نَظَرًا لِكَوْنِهَا تَقْتَفِي تَمْثِيلَ العَالَمِ الإِلَهِيِّ فِي النَّمَطِ البَدْئِيِّ الأَبُوكَالِيبْتِيِّ

لِنُورْثْرُوب فِرَاي، فِي حِينٍ بَاتَ فِيهِ اهْتِمَامُ دِرَاسَةِ عَابِدِينَ مَقْصُورًا عَلَى الميثُولُوجْيَا الدِّمَشْقِيَّةِ فِي سِيَاقِ تَارِيخِ دُورِ العِبَادَةِ.

يُبِينُ التَّحْلِيلُ السَّرْدِيُّ لِرِوَايَةِ أَنْتيخْرِيستُوسَ عَنْ كَوْنِ بِلَادِ أَيْتِلْغَارْدَ تُمَثِّلُ تَجَلِّيَ العَالَمِ الإِلَهِيِّ فِي النَّمَطِ البَدْئِيِّ الأَبُوكَالِيبْتِيِّ لِنُورْثْرُوب فِرَاي تَمْثِيلًا تَامًّا. وَلَمْ يَكُنِ الِانْضِبَاطُ المرْسَى فِي أَيْتِلْغَارْدَ، عَبْرَ الِائْتِلَافِ المتِينِ بَيْنَ البَشَرِ وَالطَّبِيعَةِ وَالنِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ، مُجَرَّدَ رَسْمٍ لِمَدِينَةٍ فَاضِلَةٍ مَوْهُومَةٍ، بَلْ إِنَّهُ مِرْآةٌ تَعْكِسُ التَّنَاسُقَ بَيْنَ القِيَمِ المتَعَالِيَةِ وَوَاقِعِ المعَاشِ. فَقَدْ غَدَتْ أَيْتِلْغَارْدُ رِبَاطًا أَخْلَاقِيًّا يُؤَكِّدُ أَنَّ الِانْضِبَاطَ الحَقِيقِيَّ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْرِيستُوسَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا ارْتَفَعَتْ لُغَةُ الِاسْتِعْلَاءِ لِتَحُلَّ مَحَلَّهَا مَعْرِفَةٌ قَائِمَةٌ عَلَى الِارْتِبَاطِ الكَوْنِيِّ الخَالِصِ.

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ البَحْثَ يَكْشِفُ عَنْ أَنَّ دَوْرَ أَيْتِلْغَارْدَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْرِيستُوسَ قَدْ جَاوَزَ حُدُودَ التَّمْثِيلِ لِلْحَالِ المِثَالِيَّةِ؛ إِذْ بَاتَتْ تَعْمَلُ بِوَصْفِهَا نُقْطَةَ قِيَاسٍ جَوْهَرِيَّةً تُهْتَدَى بِهَا فِي رَسْمِ مَسَارِ الصِّرَاعِ الأُخْرَوِيِّ الإِسْكَاتُولُوجِيِّ فِي غُضُونِ السَّرْدِ. وَقَدْ نُظِمَ وُجُودُ رَمْزِ العَالَمِ الإِلَهِيِّ لِيَكُونَ نَقِيضًا مُبَاينًا لِتَدَخُّلِ قُوَّةِ أَنْتيخْرِيستُوسَ الَّتِي تَسْعَى عَلَى وَجْهٍ مُنَظَّمٍ إِلَى تَقْوِيضِ البِنْيَةِ، وَطَمْسِ وِجْهَةِ القِيَمِ، وَإِقْصَاءِ البَشَرِ عَنِ الأُصُولِ الرَّبَّانِيَّةِ. وَمِنْ خِلَالِ هَذَا الرَّسْمِ المنْهَجِيِّ، يَتَبَدَّى رِبَاطٌ بِنْيَوِيٌّ يَجْعَلُ رَمْزَ العَالَمِ الأَبُوكَالِيبْتِيِّ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْرِيستُوسَ عَلَامَةً دَالَّةً عَلَى مَنْحَى الصِّرَاعِ الأَسَاسِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ صَوْبَ أُفُقِ الإِسْكَاتُولُوجْيَا الإِسْلَامِيَّةِ.

وَصَفْوَةُ القَوْلِ، إِنَّ رِوَايَةَ أَنْتيخْرِيستُوسَ تُقِيمُ صِرَاعًا كَوْنِيًّا بَيْنَ الِانْضِبَاطِ الإِلَهِيِّ وَالفَوْضَى المنَهَّجَةِ الَّتِي تَتَقَدَّمُ مَرْحَلَةَ آخِرِ الزَّمَانِ. وَقَدْ مُثِّلَ أَنْتيخْرِيستُوسُ بِوَصْفِهِ قُوَّةً تَرُومُ نَقْلَ العِمْرَانِ مِنْ نِظَامِ الأَبُوكَالِيبْتِيِّ إِلَى الِانْحِلَالِ الشَّيْطَانِيِّ الدِّيمُونِيِّ الحَتْمِيِّ. وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الرَّسْمِ النَّمَطِيِّ البَدْئِيِّ، يُؤَكِّدُ البَحْثُ أَنَّ الخُصُومَةَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْرِيستُوسَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ نِزَاعٍ اجْتِمَاعِيٍّ أَوْ سِيَاسِيٍّ، بَلْ هِيَ تَمْثِيلٌ لِلْمَلْحَمَةِ الوُجُودِيَّةِ البَشَرِيَّةِ فِي سَبِيلِ الصِّيَانَةِ لِلْفِطْرَةِ وَالقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ أَمَامَ جَحَافِلِ تَيَّارِ انْحِلَالِ المعَانِي الَّذِي هُوَ طَابَعٌ أُخْرَوِيٌّ لِآخِرِ الزَّمَانِ. وَتَجْزِمُ

السَّرْدِيَّةُ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ بِأَنَّ مُسْتَقْبَلَ الحَضَارَةِ مَرْهُونٌ بِثَبَاتِ الإِنْسَانِ عَلَى اسْتِمْسَاكِهِ بِالأُفُقِ الإِلَهِيِّ فِي خِضَمِّ السَّعْيِ المَنظَّمِ لِهَدْمِ البِنْيَةِ الأَخْلَاقِيَّةِ وَالسَّيْرِ بِهَا نَحْوَ الفَوْضَى المطْلَقَةِ.

٢) رَمْزُ عَالَمِ الإِنْسَانِ وَالحَيَوَانِ: الِائْتِلَافُ فِي أَوْجِ العِمْرَانِ.

فِي مُسْتَهَلِّ السَّرْدِ، تُصَوَّرُ حَيَاةُ البَشَرِ جَارِيَةً بِلَا اضْطِرَابٍ يُذْكَرُ؛ فَالشَّخْصِيَّاتُ لَمْ تَزَلْ تَعِيشُ أَيَّامَهَا فِي فَضَاءٍ يَمْنَحُ الأَمْنَ وَاليَقِينَ، بِحَيْثُ لَمْ يَظْهَرْ بَعْدُ أَيُّ تَهْدِيدٍ يُكَدِّرُ صَفْوَ تِلْكَ الطُّمَأْنِينَةِ. وَتِلْكَ الحَالُ تَنْعَكِسُ أَيْضًا عَلَى صِلَتِهِمْ بِالبِيئَةِ المحِيطَةِ الَّتِي تَمْضِي فِي اتِّسَاقٍ وَتَنَاسُقٍ، إِذْ تَقُومُ حَيَاةُ الإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ عَلَى صِلَةٍ مِنَ التَّعَاضُدِ التَّبَادُلِيِّ، مِمَّا يَكْشِفُ عَنْ عَالَمٍ لَمْ يَعْتَوِرْهُ بَعْدُ تَصَدُّعٌ وَلَا نِزَاعٌ. وَهَذَا المنَاخُ يُرْسِي انْطِبَاعًا عَنْ نِظَامٍ لَمْ يَزَلْ كَامِلًا وَمُسْتَقِرًّا؛ فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، سَيَتَتَبَّعُ البَحْثُ الآتِي شَتَّى التَّمْثِيلَاتِ الَّتِي تُبِينُ تَنَاسُقَ حَيَاةِ البَشَرِ مَعَ البِيئَةِ الَّتِي تَكْتَنِفُهُمْ فِي عَالَمِ القِصَّةِ.

(٢) سنجعل العالم كله بلداً واحداً.. بلا حدود.. وبلا حروب.. وسنجمع الناس كلهم على قلب رجل واحد.." (ص: ٢١٥)

يُصَوِّرُ البَيَانُ الثَّانِي حَالَ المجْتَمَعِ العَالَمِيِّ وَقَدْ أَصَابَتْهُ الصَّدْمَةُ النَّفْسِيَّةُ العَمِيقَةُ مِنْ جَرَّاءِ الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الأُولَى وَالحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ. وَقَدِ اسْتَغَلَّتْ هَذَا الوَضْعَ نُخْبَةٌ عَالَمِيَّةٌ لِتَشْيِيدِ نِظَامٍ عَالَمِيٍّ جَدِيدٍ بِوَاسِطَةِ المؤَسَّسَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، وَوَسَائِلِ الإِعْلَامِ، وَالتَّعْلِيمِ، وَالثَّقَافَةِ الجَمَاهِيرِيَّةِ الشَّائِعَةِ، غَايَتُهَا فِي ذَلِكَ إِيجَادُ السَّلَامِ الشَّامِلِ. وَفِي مَسَارِ هَذِهِ الصَّيْرُورَةِ، طُمِسَتِ الهُوِيَّاتُ الدِّينِيَّةُ وَالثَّقَافَاتُ المحَلِّيَّةُ تَدْرِيجِيًّا لِأَجْلِ صِيَاغَةِ تَجَانُسٍ فِكْرِيٍّ عِلْمَانِيٍّ وَمَادِّيٍّ. فَلَمَّا أَنْ صَارَ هَذَا النِّظَامُ مَقْبُولًا عَلَى نِطَاقٍ عَرِيضٍ، أَسْلَمَتِ المعَاشِرُ زِمَامَ القِيَادَةِ العَالَمِيَّةِ طَوْعًا إِلَى شَخْصٍ حَسِبَتْهُ مُخَلِّصًا، وَهُوَ أَنْتيخْريستُوسُ.

إِنَّ النِّظَامَ الِاجْتِمَاعِيَّ لِمَا بَعْدَ الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ، المرْسُومَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، لَيُمَثِّلُ حَضَارَةً قَدْ تَسَامَتْ فَوْقَ التَّشَظِّي الوُجُودِيِّ؛ فَلَمْ تَعُدِ المعَاشِرُ فِيهَا حَبِيسَةً بَيْنَ جُدْرَانِ الهُوِيَّاتِ أَوْ مَصَالِحِ الفِئَاتِ الَّتِي جَرَتِ العَادَةُ بِأَنَّهَا جِذْرُ النِّزَاعِ البُنْيَوِيِّ. وَقَدْ بَاتَتْ وِحْدَةُ الوِجْهَةِ نَفَسًا أَسَاسًا لِلْحَيَاةِ الجَمْعِيَّةِ، حَيْثُ لَا يُنْظَرُ إِلَى الِاخْتِلَافِ بِوَصْفِهِ نَقِيضًا مُبَايِنًا، بَلِ انْصَهَرَ فِي غُضُونِ انْضِبَاطٍ كَامِلٍ. وَفِي مَنْظُورِ النَّمَطِ البَدْئِيِّ لِنُورْثْرُوب فِرَاي، لَيْسَ مُجْتَمَعُ أَيْثِلْغَارْدَ جَمَاعَةً مِنَ الآحَادِ يَتَقَابَلُونَ فِي تَنَافُسٍ تَدْمِيرِيٍّ، بَلْ هُوَ مُجْتَمَعٌ عُضْوِيٌّ يَعْمَلُ بِاتِّسَاقٍ فِي كَنَفِ نِظَامٍ رَاسِخٍ. وَإِنَّ زَوَالَ عَلَائِقِ الِاسْتِعْلَاءِ لَعَلَامَةٌ صَادِقَةٌ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الحَضَارَةَ قَدْ بَلَغَتِ المرْحَلَةَ الأَبُوكَالِيبْتِيَّةَ، حَيْثُ يَحْيَا الإِنْسَانُ فِي شَبَكَةِ حَيَاةٍ مُتَكَامِلَةٍ تَكَامُلًا مُطْلَقًا بِلَا ظِلَالٍ مِنَ التَّنَازُعِ.

وَيَمْتَدُّ هَذَا التَّنَاسُقُ حَتَّى يَبْلُغَ المدَى البِيئِيَّ، إِذْ تَهَاوَتْ فِيهِ ثُنَائِيَّةُ الإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ أَيْضًا؛ فَلَمْ تُجْعَلِ الطَّبِيعَةُ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ مَادَّةً مَقْهُورَةً لِلِاسْتِيلَاءِ أَوْ كِيَانًا غَرِيبًا يُثِيرُ التَّوَتُّرَ، بَلْ أَصْبَحَتْ شَرِيكًا فِي نِظَامِ حَيَاةٍ مُتَكَافِئٍ. وَتَتَجَاوَزُ الصِّلَةُ بَيْنَ البَشَرِ وَالحَيَوَانِ مُجَرَّدَ التَّعَايُشِ؛ إِذْ هُمَا رَمْزُ التَّنَاسُقِ الكَوْنِيِّ الَّذِي يُؤَكِّدُ نَجَاحَ الحَضَارَةِ فِي التَّأْلِيفِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ: الثَّقَافَةِ وَالبِيئَةِ.

وَيُظْهِرُ التَّآزُرُ بَيْنَ الِانْضِبَاطِ الجَمْعِيِّ البَشَرِيِّ وَالتَّوَازُنِ البِيئِيِّ لِعَالَمِ الحَيَوَانِ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ صُورَةَ حَضَارَةٍ قَدْ بَرِئَتْ مِنْ جِرَاحِ الصِّرَاعِ الجَوْهَرِيِّ؛ إِذْ لَمْ يَعُدِ الإِنْسَانُ وَالمحِيطُ مُفْتَرِقَيْنِ بِفَاصِلِ مَصَالِحَ، بَلْ جَمَعَهُمَا إِيقَاعُ حَيَاةٍ مُتَّحِدُ النَّغْمَةِ. وَهَذَا الِائْتِلَافُ هُوَ الَّذِي يُشَكِّلُ جَوْهَرَ العَالَمِ الأَبُوكَالِيبْتِيِّ، وَهُوَ غَايَةٌ يَلْتَقِي فِيهَا النِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ وَالنِّظَامُ الطَّبِيعِيُّ فِي نُقْطَةِ وِحْدَةٍ خَالِصَةٍ، تَنْفِي كُلَّ صُورَةٍ مِنَ الِاغْتِرَابِ الَّذِي يُقَيِّدُ الوُجُودَ البَشَرِيَّ. وَيَبْنِي هَذَا التَّكَامُلُ عَلَى وَجْهِ النَّمَطِ البَدْئِيِّ بِلَادَ أَيْثِلْغَارْدَ بِوَصْفِهَا فَضَاءً مِثَالِيًّا خَالِيًا مِنَ

التَّضَادِّ، كَمَا يَصِيرُ مُرْتَكَزًا لِلْقَارِئِ لِيَفْهَمَ كَيْفَ أَنَّ القُوَى التَّدْمِيرِيَّةَ الَّتِي سَتَظْهَرُ بَعْدَئِذٍ سَتُهَدِّدُ هَذَا النِّظَامَ.

وَتَتَّصِلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ بِالبَحْثِ الَّذِي أَجْرَتْهُ (يُونِيتَا وَسُوجِيَارْتِي، ٢٠١٩) المَوْسُومِ بِـ الأُسْطُورَةِ فِي رِوَايَةِ أَرُومَا كَارْسَا لِمُؤَلِّفَتِهَا دِيوِي لِيسْتَارِي؛ إِذْ تَمَحَّضَ اهْتِمَامُ ذَلِكَ البَحْثِ لِبَيَانِ كَيْفِيَّةِ تَمْثِيلِ الأُسْطُورَةِ فِي طَيَّاتِ الرِّوَايَةِ، وَمَعْرِفَةِ وَظِيفَتِهَا فِي صِيَاغَةِ حَقِيقَةِ السَّرْدِ. وَقَدْ سَلَكَتِ البَاحِثَتَانِ فِيهِ مَنْهَجَ البَحْثِ الكَيْفِيِّ، مُسْتَعِينَتَيْنِ بِالمُقَارَبَةِ المِيثُولُوجِيَّةِ وَتَحْلِيلِ مَضْمُونِ السَّرْدِ. وَأَسْفَرَتْ نَتَائِجُ البَحْثِ عَنْ أَنَّ الأُسْطُورَةَ فِي رِوَايَةِ أَرُومَا كَارْسَا تَقُومُ مَقَامَ الوَسِيلَةِ لِتَفْسِيرِ وَاقِعٍ يَتَسَاوَقُ مَعَ مَا خَرَجَ عَنْ طَوْقِ العَقْلِ البَشَرِيِّ، وَذَلِكَ عَبْرَ المُرْتَكَزَاتِ الِاعْتِقَادِيَّةِ المَحَلِّيَّةِ وَالأَقَاصِيصِ السَّائِرَةِ فِي المُجْتَمَعِ. وَتُوَافِقُ هَذِهِ النَّتِيجَةُ مَا خَلَصَتْ إِلَيْهِ دِرَاسَتُنَا الحَالِيَّةُ؛ إِذْ تُبَيِّنُ كِلْتَاهُمَا أَنَّ لِلْأُسْطُورَةِ أَثَرًا بَالِغًا فِي صِيَاغَةِ مَنْظُورِ الفِكْرِ وَالوَعْيِ الجَمْعِيِّ لِلْمَعَاشِرِ. بَيْدَ أَنَّ التَّمَايُزَ بَيْنَهُمَا يَقَعُ فِي أَنَّ الأُسْطُورَةَ فِي رِوَايَةِ أَرُومَا كَارْسَا قَدْ وُظِّفَتْ لِصِيَانَةِ القِيَمِ وَالمُعْتَقَدَاتِ المَحَلِّيَّةِ، فِي حِينِ أَنَّهَا فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ صَارَتْ أَدَاةً مَذْهَبِيَّةً إِيدْيُولُوجِيَّةً لِبِنَاءِ نِظَامٍ اجْتِمَاعِيٍّ عَالَمِيٍّ مُتَمَاثِلٍ، تَسِيرُ بِهِ أَقَاوِيلُ السِّلْمِ وَالوِحْدَةِ الكَوْنِيَّةِ.

يُمَثِّلُ الِانْدِمَاجُ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَعَالَمِ الحَيَوَانِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ الطَّوْرَ الأَبُوكَالِيبْتِيَّ الَّذِي يَرْتَكِزُ فِيهَا بَقَاءُ الحَيَاةِ الجَمْعِيَّةِ عَلَى تَقَادُرٍ بِيئِيٍّ رَاسِخٍ. وَلَمْ يَكُنِ المَفْهُومُ مِنَ الطَّبِيعَةِ فِي هَذَا السَّرْدِ أَنَّهَا مَادَّةٌ لِلِاسْتِغْلَالِ وَالِاسْتِنْزَافِ، بَلْ هِيَ رُكْنٌ أَسَاسٌ يَعْمُرُ بِهِ الِاسْتِقْرَارُ الِاجْتِمَاعِيُّ وَالِاقْتِصَادِيُّ. وَلَيْسَتْ قُوَّةُ الحَضَارَةِ فِي هَذَا المَنْزَعِ النَّظَرِيِّ مَقِيسَةً بِالقُدْرَةِ عَلَى الهَيْمَنَةِ المَادِّيَّةِ الَّتِي لَا تَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ، بَلْ مَدَارُهَا عَلَى دِقَّةِ البَشَرِ فِي صِيَانَةِ التَّنَاسُقِ بَيْنَ الِانْتِفَاعِ بِالمَوَارِدِ وَحِفْظِ البِيئَةِ. فَإِذَا مَا اخْتَلَّ هَذَا التَّوَازُنُ، كَانَ الوَهَنُ الِاجْتِمَاعِيُّ وَالتَّهْدِيدُ العَائِدُ عَلَى وُجُودِ العِمْرَانِ نَتِيجَةً لَا مَحِيدَ عَنْهَا، تُؤْذِنُ بِبَدْءِ طَوْرِ التَّدَنِّي وَالِانْحِطَاطِ.

وَتَقَعُ الطَّرَافَةُ النَّاشِئَةُ عَنْ هَذَا الرَّسْمِ السَّرْدِيّ فِي كَيْفِيَّةِ جَعْلِ رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ العَلَاقَةَ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ مَيْدَانًا رَئِيسًا لِتَدَخُّلِ قُوَّةٍ أَنْتيخْريستُوسَ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فَسَادُ النِّظَامِ البِيئِيّ فِي السِّيَاقِ مُجَرَّدَ خَلْفِيَّةٍ تَقَعُ فِيهَا الوَقَائِعُ، بَلْ هُوَ عَرَضٌ أَوَّلِيٌّ يُؤْذِنُ بِالِانْتِقَالِ البِنْيَوِيّ المَمَنْهَجِ مِنَ العَالَمِ الأَبُوكَالِيبْتِيّ إِلَى الطَّوْرِ الدِّيمُوبِيّ. فَيَعْمَلُ أَنْتيخْريستُوسُ عَلَى وَجْهٍ خَفِيٍّ دَقِيقٍ بِتَقْوِيضِ دَعَائِمِ الصِّلَةِ الِائْتِلَافِيَّةِ بَيْنَ البَشَرِ وَمُحِيطِهِمْ، وَهُوَ مَا يَقْطَعُ فِي الجَوْهَرِ سَبِيلَ الإِنْسَانِ إِلَى النِّظَامِ الَّذِي يَعْضُدُ بَقَاءَ الحَيَاةِ عَلَى وَجْهِ الِاجْتِمَاعِ.

وَعَلَى هَذَا السَّنَنِ، تَجْزِمُ رِوَايَةُ أَنْتيخْريستُوسَ بِأَنَّ الأَزْمَةَ البِيئِيَّةَ، وَالتَّدَنِّيَ الأَخْلَاقِيَّ، وَتَقَوُّضَ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيّ، كُلُّ ذَلِكَ نَسِيجٌ وَاحِدٌ مُتَتَالٍ يَتَحَرَّكُ صَوْبَ أُفُقِ الإِسْكَاتُولُوجْيَا الإِسْلَامِيَّةِ. فَلَمْ يَكُنْ تَدَخُّلُ أَنْتيخْريستُوسَ مَقْصُورًا عَلَى الأَبْعَادِ الرُّوحِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ فَحَسْبُ، بَلْ عَمَدَ إِلَى إِهْلَاكِ نِظَامِ المَعَاشِ الَّذِي يُمَكِّنُ الإِنْسَانَ مِنْ حِفْظِ اعْتِدَالِهِ مَعَ الأَكْوَانِ. وَكُلَّمَا نَكَبَتِ الحَضَارَةُ عَنْ أَصْلِ التَّنَاسُقِ وَمَضَتْ بَعِيدًا، دَنَتْ مِنِ اِنْحِلَالِ المَعَانِي الحَتْمِيّ الفَاتَالِيسْتِيّ. وَيَبْنِي السَّرْدُ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ فِي المَفْهُومِ الضِّمْنِيّ الطَّوْرَ الدِّيمُوبِيَّ مَصَبًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ زَوَالُ الوَعْيِ البِيئِيّ، وَهُوَ مَا يَغْدُو فِي البِنْيَةِ الكُلِّيَّةِ لِلرِّوَايَةِ سِلْسِلَةً مِنَ الوَقَائِعِ الخَطِيرَةِ الَّتِي تَسُوقُ إِلَى الصِّرَاعِ الأُخْرَوِيّ لِآخِرِ الزَّمَانِ.

٣) رَمْزُ عَالَمِ الفِيجِيتَاسِي وَالمِينيرَالِ: الفَيْضُ وَالسَّعَةُ بِوَصْفِهِمَا أَمَارَةَ العِزِّ وَالسُّؤْدُدِ

ثُمَّ إِنَّ مَعْنَى رَمْزِ عَالَمِ الفِيجِيتَاسِي هُوَ المَوْضِعُ الَّذِي لَا يَكُونُ الإِنْسَانُ فِيهِ مُقَيَّدًا بِالأَعْرَافِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّدَابِيرِ الإِدَارِيَّةِ الجَامِدَةِ، أَيْ: البِرِّيَّةُ الخَلَاءُ. وَيُصَوِّرُ عَالَمُ الفِيجِيتَاسِي هَذَا بِالمُرُوجِ الخَضْرَاءِ، وَالغُدْرَانِ الصَّافِيَةِ، وَالنَّسِيمِ العَلِيلِ، وَالشَّمْسِ المُشْرِقَةِ المُنِيرَةِ. بَيْدَ أَنَّ البِرِّيَّةَ فِي نِطَاقِ النَّمَطِ البَدْئِيّ الأَبُوكَالِيبْتِيّ لَيْسَتْ مَخُوفَةً وَلَا مُسْتَفِزَّةً، بَلْ هِيَ فَضَاءٌ آمِنٌ يَبْعَثُ عَلَى السَّكِينَةِ (فْرَاي، ١٩٥٧). وَعِنْدَ نُورْثْرُوب فِرَاي، غَدَا هَذَا العَالَمُ تَمْثِيلًا لِرَمْزِ الوِلَادَةِ الثَّانِيَةِ، وَالنَّمَاءِ، وَالحَيَاةِ المُحْتَفَى بِهَا (فْرَاي، ١٩٥٧). وَفِي كِتَابِهِ أَنَاتُومِي أُوفْ

كْرِيتِيسِيزْم، يَكُونُ عَالَمُ الفِيجِيتَاسِي نَتَاجًا لِتَخَيُّلِ جَنَّةِ عَدْنٍ، وَهِيَ الفِرْدَوْسُ الَّذِي يُقْضَى فِيهِ كُلُّ مَطْلُوبٍ لِلإِنْسَانِ وَيَتَحَقَّقُ فِيهِ ابْتِغَاؤُهُ حَتْمًا (فْرَاي، ١٩٥٧). وَآخِرُ ذَلِكَ هُوَ عَالَمُ المِينَيرَال، وَهُوَ المَوْقِعُ السَّرْدِيُّ الَّذِي فِيهِ احْتَشَدَ البَشَرُ فِي بِنْيَةٍ جَمَاعِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، لِيُعَالِجُوا المَوَادَّ الأَوَّلِيَّةَ مِنَ الطَّبِيعَةِ وَيُصَيِّرُوهَا جُزْءًا مِنَ الثَّقَافَةِ وَالعِمْرَانِ (فْرَاي، ١٩٥٧). وَفِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ، يُصَوَّرُ عَالَمُ المِينَيرَال الَّذِي يَسْكُنُهُ الإِنْسَانُ وَيُزَاوِلُ فِيهِ نَشَاطَهُ بِوَصْفِهِ جُزْءًا مِنَ العَالَمِ المِثَالِيِّ الِائْتِلَافِيِّ المَشْحُونِ بِالرَّغَدِ وَصَلَاحِ الحَالِ.

(٣) بابل.. تلك المدينة العظيمة التي كانت واحة خضراء وسط صحراء قاحلة.. يرتفع في وسطها برج بابل العظيم الذي يكاد يلامس السحاب.. كانت المدينة منظمة بشكل مذهل، تحيط بها الأسوار المنيعة، وتجري فيها المياه في قنوات دقيقة هندسياً هندسة لم يعرفها بشر من قبل.. كان كل شيء فيها مستقراً، فالزرع لا يموت والماء لا يجف، وكأن الطبيعة قد خضعت تماماً لإرادة ملكها النمرود. (ص: ٢٤)

وَيَسْرِدُ البَيَانُ الثَّالِثُ خَبَرَ بُرْجِ بَابِلَ فِي حِقْبَةِ بَابِلَ القَدِيمَةِ إِبَّانَ حُكْمِ نَمْرُودَ وَسَمِيرَامِيسَ. وَفِي غُضُونِ الرِّوَايَةِ، يُصَوَّرُ نَمْرُودُ وَقَدْ حَازَ السُّلْطَانَ عَبْرَ عَقْدِ حِلْفٍ مَعَ لُوسِيفِرَ، مُسْتَعْمِلًا السِّحْرَ لِتَصْرِيفِ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ وَتَدْبِيرِهَا. وَبِفَضْلِ هَذِهِ المَقْدِرَةِ، كَانَتْ أَقَالِيمُ بَابِلَ تَنْعَمُ بِمَنَاخٍ رَاتِبٍ مُسْتَقِرٍّ وَتُرْبَةٍ خَصِيبَةٍ، غَيْرَ مَعْرُوضَةٍ لِغَوَائِلِ النَّوَازِلِ وَالآفَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ. وَفِي خِضَمِّ ذَلِكَ الرَّغَدِ العَمِيمِ، شَادَ نَمْرُودُ بُرْجَ بَابِلَ لِيَكُونَ مَحْوَرًا لِسُلْطَانِهِ، يَقُومُ عَلَى نِظَامٍ مُحْكَمٍ لِتَدْبِيرِ البِيئَةِ وَسِيَاسَتِهَا. وَقَدْ أَوْرَثَتْ هَذِهِ الحَالُ أَهْلَ بَابِلَ يَقِينًا بِأَنَّ نَمْرُودَ قَادِرٌ عَلَى كِفَايَةِ رَفَاهِهِمْ وَإِصْلَاحِ مَعَاشِهِمْ، حَتَّى بَاتَ مَنْظُورًا إِلَيْهِ بِوَصْفِهِ ذَا سُلْطَانٍ كَسُلْطَانِ الإِلَهِ.

تَمْثُلُ أُبَّهَةُ بَابِلَ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ الِانْدِمَاجَ الرَّمْزِيَّ بَيْنَ عَالَمِ الفِيجِيتَاسِي وَعَالَمِ المِينَيرَالِ، ذَلِكَ الَّذِي يَعْكِسُ ذِرْوَةَ النِّظَامِ الأَبُوكَالِيبْتِيِّ. وَإِنَّ خُصُوبَةَ المَنَاخِ الَّتِي صُرِّفَتْ بِسُلْطَانِ نَمْرُودَ وَمَعُونَةِ لُوسِيفِرَ، قَدْ أَخْرَجَتْ عَالَمَ الفِيجِيتَاسِي عَنْ كَوْنِهِ قُوَّةً جَامِحَةً لَا تُسْتَقْرَأُ

عَقَابِيلُهَا، لِتَضَعَهُ عُنْصُرًا خَاضِعًا خُضُوعًا تَامًّا لِإِيقَاعِ العِمْرَانِ؛ إِذْ سُلِبَتِ الطَّبِيعَةُ نَزْعَتَهَا الِاسْتِقْلَالِيَّةَ الذَّاتِيَّةَ، لِتَسْتَحِيلَ قِوَامًا لِلِاسْتِقْرَارِ المَحْفُوظِ المَتِينِ. وَفِي المُقَابِلِ، يَتَجَلَّى عَالَمُ المِينَيرَالِ فِي فَخَامَةِ الِارْتِقَاءِ الهَنْدَسِيِّ لِلْمَدِينَةِ وَبُرْجِ بَابِلَ. وَفِي رِحَابِ النَّمَطِ البَدْئِيِّ، تَكُونُ تِلْكَ البِنْيَةُ الصَّرْحِيَّةُ تَعْبِيرًا جُسْمَانِيًّا عَنِ الِانْضِبَاطِ؛ إِذْ كُلَّمَا أَمْعَنَ المِعْشَرُ حِذْقًا فِي قَهْرِ تَقَاسِيمِ الأَرْضِ لِتَصْيِيرِهَا بِقَاعًا مُحْكَمَةَ التَّرْتِيبِ، عَزَّ رَمْزُ المِينَيرَالِ الشَّاخِصُ فِيهَا فَيُشِعُّ بِشَرْعِيَّةِ عِمْرَانِهَا.

وَإِنَّ التَّآزُرَ القَائِمَ بَيْنَ خُصُوبَةِ الفِيجِيتَاسِي وَمَتَانَةِ المِينَيرَالِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ لَيُنْتِجُ صُورَةً لِحَضَارَةٍ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُوَائِمَ بَيْنَ الِامْتِدَادِ البِيُولُوجِيِّ الحَيَوِيِّ وَالِاسْتِقْرَارِ النِّظَامِيِّ المَمَنْهَجِ؛ إِذْ يَعْمَلَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لِتَأْسِيسِ ظَرْفٍ لَا تَكُونُ فِيهِ الطَّبِيعَةُ وَالثَّقَافَةُ فِي مَقَامِ التَّنَازُعِ العَدَائِيِّ، بَلْ هُمَا يَلْتَحِمَانِ فِي غُضُونِ بِنْيَةٍ وَاحِدَةٍ خَاضِعَةٍ لِلتَّدْبِيرِ. وَتُصَوَّرُ بَابِلُ بِوَصْفِهَا أَوْجَ المَكْسَبِ البَشَرِيِّ القَادِرِ عَلَى صِيَاغَةِ البِيئَةِ وَتَوْجِيهِهَا لِتَغْدُوَ فَضَاءً مُسْتَقِرًّا مُسْتَدِيمًا. بَيْدَ أَنَّ النَّظَرَ النَّقْدِيَّ الفَاحِصَ فِي هَذَا الِاتِّسَاقِ يَكْشِفُ عَنْ وُجُودِ خَلَلٍ أُونْتُولُوجِيٍّ جَوْهَرِيٍّ؛ إِذْ إِنَّ التَّمَامَ المَرْئِيَّ الَّذِي تُبْدِيهِ بَابِلُ هُوَ فِي الحَقِيقَةِ قَائِمٌ عَلَى تَدَخُّلِ لُوسِيفِرَ، مِمَّا يُشَيِّدُ مُفَارَقَةً جَذْرِيَّةً فِي جَوْهَرِ النَّمَطِ البَدْئِيِّ.

وَمِنْ مَنْزَعٍ فِينُومِينُولُوجِيٍّ، نَجِدُ بَابِلَ قَدِ اسْتَوْفَتْ خَصَائِصَ الأَبُوكَالِيبْتِيِّ كُلَّهَا، مِنَ الرَّفَاهِ وَالعِظَمِ وَالِانْضِبَاطِ، غَيْرَ أَنَّ الأُسَّ الَّذِي يَعْمَدُ هَذَا المَبْنَى بِكُلِّيَّتِهِ ذُو صِبْغَةٍ دِّيمُونِيَّةٍ. وَعَبْرَ هَذَا الرَّسْمِ المَبْنِيِّ، يُقَرِّرُ أَحْمَدُ خَالِد مُصْطَفَى أَنَّ الِانْضِبَاطَ وَالتَّرْتِيبَ لَا يَتَلَازَمَانِ طَرْدًا مَعَ الحَقِيقَةِ وَالحَقِّ؛ إِذْ تُفَكِّكُ رِوَايَةُ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ السِّيمَاءَ الأَبُوكَالِيبْتِيَّةَ الظَّاهِرَةَ بِالمِثَالِيَّةِ، حَيْثُ تَكْشِفُ عَنْ أَنَّ فِخَامَةَ الحَضَارَةِ المؤَسَّسَةِ عَلَى مَعِينِ سُلْطَةٍ زَائِغَةٍ مَعِيبَةٍ لَمْ تَكُنْ إِلَّا قِنَاعًا طَلِيًّا. وَهَذِهِ الحَالُ تَجْعَلُ بَابِلَ مَوْقِعًا أَبُوكَالِيبْتِيًّا زَائِفًا، تَنْطَوِي فِيهِ البِنْيَةُ الفِيزْيَائِيَّةُ الكَامِلَةُ عَلَى بَذْرَةِ الِانْحِلَالِ الَّتِي تَتَرَبَّصُ لِتَقْوِيضِ الحَضَارَةِ مِنْ دَاخِلِ قَلْبِهَا.

تَتَّصِلُ دِرَاسَةُ (يُونِيتَا وَسُوجِيَارْتِي، ٢٠١٩) المَوْسُومَةُ بِدِرَاسَة مِيثُوس فِي رِوَايَةِ أَرُومَا كَارْسَا لِمُؤَلِّفَتِهَا دِيوِي لِيسْتَارِي مِنْ مَنْظُورِ الإِيكُولُوجْيَا الثَّقَافِيَّةِ، بِعِنَايَةٍ تَمَحَّضَتْ لِبَيَانِ وَقَائِعِ المِيثُوسِ، وَوَظَائِفِهِ، وَمَدَى تَعَلُّقِهِ بِالمحِيطِ الثَّقَافِيّ. وَقَدْ أَعْمَلَتِ البَاحِثَتَانِ فِيهِ مَنْهَجَ البَحْثِ الدِّيسْكْرِيبْتِيف الكُوَالِيتَاتِيف، مُسْتَعِينَتَيْنِ بِمُقَارَبَةِ الإِيكُولُوجْيَا الثَّقَافِيَّةِ وَنَظَرِيَّةِ السِّتْرُوكْتُورَالِيسْم المِيتِيم لِكْلُود لِيفِي سْتْرَاوْس. وَأَسْفَرَتْ نَتَائِجُ هَذَا النَّظَرِ عَنْ أَنَّ المِيثُوسَ يَقُومُ مَقَامَ الوَسِيلَةِ لِتَنْبِيهِ الإِنْسَانِ إِلَى شُهُودِ القُوَّةِ الغَيْبِيَّةِ، وَبَذْلِ ضَمَانِ المعَاشِ، وَالتَّأْثِيرِ فِي مَنَاحِي الفِكْرِ وَالاِعْتِقَادِ، فَضْلًا عَنْ تَعْرِيفِ صِلَةِ البَشَرِ بِعَالَمِ الطَّبِيعَةِ. وَخَلَصَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى أَنَّ الاِعْتِقَادَاتِ المحَلِّيَّةَ كَمِيثُوسِ جَبَلِ لَاوُو وَقَرْيَةِ دْوَارَابَالَا قَدْ جُعِلَتْ حَقِيقَةً حَاضِرَةً تَعِيشُ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ الإِنْسَانِ.

وَمِنْ هُنَا، يَتَّفِقُ هَذَا المكْشُوفُ عَنْهُ مَعَ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ البَيَانُ الثَّالِثُ؛ إِذْ يُبَيِّنَانِ مَعًا أَنَّ لِلْمِيثُوسِ أَثَرًا بَالِغًا فِي صِيَاغَةِ مَنْظُورِ المعْشَرِ إِزَاءَ السُّلْطَانِ وَالحَقِيقَةِ المحِيطَةِ بِهِمْ. فَفِي سِيَاقِ نَمْرُودَ، أُعْمِلَتِ القُوَّةُ السِّحْرِيَّةُ لِإِقَامَةِ اسْتِقْرَارِ الطَّبِيعَةِ وَحِيَازَةِ الشَّرْعِيَّةِ بِوَصْفِهِ حَاكِمًا قَادِرًا فِي ظَنِّهِمْ عَلَى كِفَايَةِ رَغَدِ الأُمَّةِ وَنَعِيمِهَا. بَيْدَ أَنَّ التَّمَايُزَ بَيْنَهُمَا يَقَعُ فِي أَنَّ دِرَاسَةَ يُونِيتَا وَسُوجِيَارْتِي قَدْ قَصَرَتْ هِمَّتَهَا عَلَى وَظِيفَةِ المِيثُوسِ فِي صِيَانَةِ صِلَةِ البَشَرِ بِالمحِيطِ الثَّقَافِيّ، فِي حِينِ أَنَّ البَيَانَ الثَّالِثَ يَكْشِفُ عَنْ كَيْفِيَّةِ صَيْرُورَةِ المِيثُوسِ وَالقُوَّةِ السُّوبْرَانَاتُورَال أَدَاةً لِشَرْعِيَّةِ الحُكْمِ وَالكُنْتُرُول الاِجْتِمَاعِيّ فِي غُضُونِ العِمْرَانِ البَابِلِيّ.

وَحَاصِلُ القَوْلِ، يَخْلُصُ البَاحِثُ إِلَى أَنَّ رِوَايَةَ أَنْتِيخْرِيستُوسَ تُصَوِّرُ الاِنْضِبَاطَ الأَبُوكَالِيبْتِيَّ بِائْتِلَافٍ جَامِعٍ بَيْنَ النَّاسِ وَالطَّبِيعَةِ وَالعَنَاصِرِ المتَعَالِيَةِ. وَمَا كَانَ المفْهُومُ مِنَ الطَّوْرِ الأَبُوكَالِيبْتِيّ فِيهَا بَسْطَ يَدِ الإِنْسَانِ بِالقَهْرِ المطْلَقِ عَلَى الوَاقِعِ، بَلْ هُوَ حَقِيقَةُ التَّنَاسُقِ الوُجُودِيّ بَيْنَ خَلَائِقِ البَشَرِ وَالنَّامُوسِ الكَوْنِيّ. فَإِذَا كَانَ التَّآزُرُ بَيْنَ عَالَمِ الفِيجِيتَاسِي البَاذِلِ لِقِوَامِ المعَاشِ وَعَالَمِ المِينَيرَالِ الحَاكِي لِلِاسْتِقْرَارِ البِنْيَوِيّ كَمَا شَخَصَ فِي أُبَّهَةِ بَابِلَ لَكِفَايَةٌ فِي

البُرْهَانِ عَلَى أَنَّ صَلَاحَ العِمْرَانِ مَنُوطٌ بِالقُدْرَةِ عَلَى رِعَايَةِ التَّقَادُرِ البِيئِيّ وَالِاجْتِمَاعِيّ. وَفِي هَذِهِ المَرْتَبَةِ، تَمْضِي الحَيَاةُ الجَمْعِيَّةُ فِي نِطَاقٍ مِنَ التَّرْتِيبِ الرَّاسِخِ؛ إِذْ يَتَمَثَّلُ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ عُضْوًا نَامِيًا فِي جَسَدِ هَذَا النِّظَامِ الأَعْظَمِ، لَا ذَاتًا مُسْتَبِدَّةً مَبْتُورَةً عَنْ مُحِيطِهَا.

بَيْدَ أَنَّ الرِّوَايَةَ تَكْشِفُ عَنْ كَوْنِ ذَلِكَ الِاسْتِقْرَارِ عُرْضَةً لِلِازْدِيَاحِ وَالِاخْتِلَالِ بِالتَّدَخُّلِ الخَارِجِيّ؛ إِذْ لَمْ يَجْعَلْ أَحْمَدُ خَالِد مُصْطَفَى شَخْصَ أَنْتِيخْرِيستُوسَ مُجَرَّدَ ضِدٍّ جُسْمَانِيّ، بَلْ هُوَ قُوَّةٌ سَارِيَةٌ تَعْمَلُ بِالتَّفْكِيكِ البِنْيَوِيّ المَمَنْهَجِ. فَيَعْمَدُ صَنِيعُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ عَلَى سَنَنٍ مُطَّرِدٍ إِلَى تَقْوِيضِ الدَّعَائِمِ الرُّوحِيَّةِ وَالبِيئِيَّةِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا التَّنَاسُقُ، وَهَذِهِ الحَالُ تُنْتِجُ مُفَارَقَةً أَرْكِيتَايْبِيَّةً جَذْرِيَّةً؛ إِذْ يَبْدُو النِّظَامُ فِي ظَاهِرِ المَرْأَى مِثَالِيًّا مُنْضَبِطًا، غَيْرَ أَنَّهُ فِي المَحْصُولِ الأُونْتُولُوجِيّ قَدْ مُسِخَ وَتَشَوَّهَ بِالأَغْرَاضِ الدِّيمُونِيَّةِ. فَلَمْ تَكُنْ فَخَامَةُ بَابِلَ العَيْنِيَّةُ وَتَصْرِيفُ مَنَاخِهَا عُنْوَانًا لِلْحَقِّ، بَلْ هِيَ ضَلَالَةٌ تَدَّثِرُ بِسِيمَاءِ الِانْضِبَاطِ لِتَعْمِيَةِ مَقَاصِدِ الإِهْلَاكِ العَائِدَةِ عَلَى النَّامُوسِ الإِلَهِيّ.

وَإِنَّ صَيْرُورَةَ الِانْتِقَالِ مِنَ الطَّوْرِ الأَبُوكَالِيبْتِيّ إِلَى الطَّوْرِ الدِّيمُونِيّ فِي غُضُونِ الرِّوَايَةِ لَتَحْكِي تَقَوُّضَ العِمْرَانِ النَّاشِئِ عَنْ زَوَالِ الوِجْهَةِ الرُّوحِيَّةِ. فَإِنَّ فَسَادَ صِلَةِ البَشَرِ بِالطَّبِيعَةِ، وَوَهَنَ القِيَمِ الإِلَهِيَّةِ، وَمَا نَجَمَ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الِانْحِرَافِ الِاجْتِمَاعِيّ، لَيْسَ إِلَّا سِلْسِلَةً مُمَنْهَجَةً تُؤْذِنُ بِتَدَنِّي العِمْرَانِ وَانْحِطَاطِهِ. وَيَقَعُ السَّرْدُ هُنَا فِي مَقَامِ جَعْلِ كَفَاحِ الإِنْسَانِ لِصِيَانَةِ التَّنَاسُقِ ضَرْبًا مِنَ المُقَاوَمَةِ البَالِغَةِ لِأَمْوَاجِ انْحِلَالِ المَعَانِي. وَعَلَى هَذَا المِسَاقِ البَيَانِيّ، لَا يَقِفُ مَدَارُ التَّنَازُعِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ عِنْدَ حُدُودِ التَّصَادُمِ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، بَلْ هُوَ تَمْثِيلٌ لِجِهَادِ البَشَرِ فِي حِفْظِ دَعَائِمِ حَضَارَتِهِمْ أَمَامَ غَارَاتِ القُدُرَاتِ الَّتِي تَسِيرُ حَتْمًا صَوْبَ المَرْحَلَةِ الأُخْرَوِيَّةِ، جَرْيًا عَلَى مُقْتَضَى الإِسْكَاتُولُوجْيَا الإِسْلَامِيَّةِ.

ب) الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيُّ: تَقَوُّضُ الحضارة وَانْحِطَاطُهُ.

يُقَابِلُ الطَّوْرُ الدِّيمُونِيُّ الرِّحَابَ الأَبُوكَالِيبْتِيَّةَ مُضَادَّةً كَامِلَةً، فَيَرْسُمُ عَالَمًا بَعِيدًا كُلَّ البُعْدِ عَنِ المِثَالِيَّةِ؛ إِذْ يَسْتَعْجِمُ البَطَلُ الرَّئِيسُ وَيَغْتَرِبُ عَنِ القُدُرَاتِ الكَوْنِيَّةِ، وَتَجُورُ البِنْيَةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ قَهْرًا وَتَسَلُّطًا، وَتَتَفَكَّكُ الرَّوَابِطُ البَشَرِيَّةُ فَسَادًا، وَتَغِيبُ القِيَمُ المِتَعَالِيَةُ فِيهِ فِقْدَانًا (Frye, 1957). وَتَتَأَلَّفُ عَنَاصِرُ النَّظَرِيَّةِ فِي هَذَا الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيّ مِنَ: الأِيجُو–مُولِيكُولِير، وَالجَانِحَةِ التَّدْمِيرِيَّةِ، وَالحَاكِمِ الطَّاغِيَةِ، وَالفَارْمَاكُوس، وَالمِتَاهَةِ؛ حَيْثُ تَنْقَسِمُ المِتَاهَةُ قِسْمَيْنِ هُمَا: مَتَاهَةُ التَّارِيخِ، وَمَتَاهَةُ المِدِينَةِ. ثُمَّ يَتْلُو ذَلِكَ السِّجْنُ، وَالقَفْرُ الوَحْشِيُّ، وَمَاءُ المَوْتِ. وَسَيَعْمَدُ البَاحِثُ إِلَى حَدِّ هَذِهِ العَنَاصِرِ النَّظَرِيَّةِ وَتَعْرِيفِهَا مُقْتَرِنَةً بِتَحْلِيلِ المَادَّةِ العِلْمِيَّةِ وَمُقَابَلَتِهَا بِالنَّظَرِيَّةِ مُقَابَلَةً تَحْقِيقِيَّةً مُحْكَمَةً.

تُمثّل الصور الديمونية في النظرية الأرشيتيبية الفرايية الطرفَ المقابل تماماً للصور الأبوكاليبسية؛ فهي مجموعة الصور التي تُعبّر عن عالم الشر المطلق والفوضى والفناء. وفي دور الربيع تحضر الصور الديمونية بصورة خافتة لكنها مُعرِّفة لوجود الخطر. وتتجلّى الديمونية في هذا الدور في الإشارات الأولى إلى مشروع الدجّال وبنيته التحتية التي تعمل في الخفاء: شبكات التأثير الفكري، ومراكز الهيمنة الاقتصادية، والتشكُّلات الأيديولوجية التي تُزيّن الانحراف وتُقدِّمه في ثياب الإصلاح. وهذه الصور الديمونية الأولية تُضفي على دور الربيع توتُّراً درامياً مضاعفاً: فالانبعاث يجري في مواجهة لا تزال شرطها التفوّق الكمّي للعدو.

(٤) هُزم النمرود في هذه المعركة هزيمةً مروّعة؛ فقد فيها جيشه الذي خسر جمعه كاملًا، ولم يبقَ سوى جيش بسيط يحمي برج بابل. أمّا جيش "كاوي"، فلمّا رأوا تلك المعجزة سجدوا جميعًا شكرًا لله، وأسلم منهم من لم يكن مسلمًا، ثم رفع "كاوي" الحداد رايته عاليًا وقاد جيشه متوجهًا نحو برج بابل حيث قصر النمرود وعرشه.أما النمرود فقد كانت حالته شديدة البؤس؛ البعوضة التي دخلت في منخره استقرت في دماغه، وكانت كلما تحركت يجنّ جنونه، ولا يهدأ إلا إذا ضربه جنوده بالنعال على

رأسه ووجهه. وكانت "سميراميس" تنظر إليه وعيناها تدمعان حزنًا وعجزًا، تتمنى لو تفديه بنفسها، وتولت مهمة إطعام الثعبانين اللذين على منكبيه كل يوم حتى لا يهلكاه. أي مصير هذا الذي وضع النمرود نفسه فيه؛ ثعبانان وبعوضة متوحشة؟ لقد تمرد على قوى لا طاقة له بها، ولا طاقة لأحد بها، لكنه ظل عنيدًا متمردًا .وصلت جيوش "كاوي" وبدأت تحاصر برج بابل، بينما استبسل جيش النمرود القليل في الدفاع عنه. استمر الحصار أربعين يومًا كاملة، ولم يدرِ أحد ما الذي يحدث داخل البرج. كانت عينا النمرود حمراوين ووجهه متورمًا من الضرب بالنعال. وفجأة انكسرت بوابات برج بابل، ودخل "كاوي" الحداد يتبعه جيشه. لم يكن هناك ما يمكنه أن يوقف "كاوي" في طريقه؛ فقد كان يسعى للانتقام لما فعله النمرود بولديه، ويبدو أنه قد نال ما أراد (ص: ٤٠)

يُمَثِّلُ البَيَانُ الرَّابِعُ مَرْحَلَةَ سُقُوطِ نَمْرُودَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، وَهِيَ المَرْحَلَةُ الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ نُشُوءِ الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيّ. فَإِنَّ نَمْرُودَ قُبَيْلَ انْقِضَاءِ سُلْطَانِهِ قَدْ خَسِرَ شَرْعِيَّتَهُ بِسَبَبِ جَوْرِهِ وَعُتُوِّهِ عَلَى رَعِيَّتِهِ، نَحْوَ مَا أَعْمَلَهُ فِيهِمْ مِنَ الِاضْطِهَادِ، وَغَصْبِ الحُقُوقِ، وَصُنُوفِ العُنْفِ. وَهَذِهِ الأَحْوَالُ السَّيِّئَةُ قَدْ أَذْكَتْ نَارَ ثَوْرَةٍ عَارِمَةٍ قَادَهَا كَاوِي وَآزَرَهُ فِيهَا مَعْشَرُ بَابِلَ. عَلَى أَنَّ خِذْلَانَ نَمْرُودَ وَسُقُوطَهُ قَدْ جُعِلَا أَيْضًا صُورَةً مِنْ صُوَرِ التَّدَخُّلِ الإِلَهِيّ؛ إِذْ شَهِدَتِ المَلْحَمَةُ هُجُومَ جَحَافِلِ البَعُوضِ عَلَى نَمْرُودَ وَآلِ بَيْتِهِ وَجُنُودِهِ. وَبِنَاءً عَلَى هَذَا المِسَاقِ، لَمْ يَكُنْ تَقَوُّضُ بَابِلَ نَاشِئًا عَنْ مُقَاوَمَةِ الرَّعِيَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ كَانَ مَقْضِيًّا بِالمَشِيئَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي جَازَتْ نَمْرُودَ عَلَى كِبْرِيَائِهِ وَإِفْسَادِهِ فِي الأَرْضِ وَسُوءِ اسْتِخْدَامِهِ لِلْحُكْمِ.

لَمْ تَعُدْ صِلَاتُ السُّلْطَانِ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ قَائِمَةً عَلَى عَقْدٍ اجْتِمَاعِيٍّ يَتَعَاهَدُ عَلَيْهِ الفَرِيقَانِ، بَلْ صَارَتْ تَرْتَكِزُ عَلَى اسْتِبْدَادٍ مُطْلَقٍ يَسْتَمِدُّ جُذُورَهُ مِنَ المِخَافَةِ وَالتَّرْهِيبِ. فَإِنَّ نَمْرُودَ قَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ مَرْكَزًا لِلأِيجُو مُولِيكُولِير يَمْتَصُّ كُلَّ فِجَاجِ المحِيطِ

الِاجْتِمَاعِيِّ وَيَصْهَرُهَا فِي بَوْتَقَةِ مَشِيئَتِهِ الذَّاتِيَّةِ، مُخْتَزِلًا جَمَاعَةَ النَّاسِ مِنْ ذَوَاتٍ فَاعِلَةٍ إِلَى مُجَرَّدِ آلَاتٍ وَظِيفِيَّةٍ لِخِدْمَةِ حُكْمِهِ. وَفِي مِثْلِ هَذَا النَّسَقِ، كَانَ تَعَاظُمُ حَشْدِ القُوَّةِ عَلَى وَجْهٍ مُفْرِطٍ سَبَبًا فِي إِيجَادِ وَهَنٍ بِنْيَوِيٍّ دَاخِلِيٍّ؛ إِذْ أَصَابَ الشَّرْعِيَّةَ النَّمْرُودِيَّةَ تَأَكُّلٌ عَمِيقٌ، لَا لِأَجْلِ سِيَاسَاتِهِ الجَائِرَةِ حَسْبُ، بَلْ لِكَوْنِ بِنْيَةِ السُّلْطَانِ نَفْسِهَا قَدْ عَرِيَتْ عَنِ القَوَاعِدِ الأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي تَعْمِدُ إِلَى إِسْنَادِهَا. وَمِنْ هُنَا، كَانَ خُرُوجُ كَاوِي وَنُشُوءُ حَرَكَةِ المُقَاوَمَةِ فِي مَجْرَى القِصَّةِ مَظْهَرًا لِتَرَاكُمِ الضُّغُوطِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي بَلَغَتْ حَدَّ الِاحْتِقَانِ الطَّافِحِ، وَصَارَ هَذَا الِارْتِدَادُ عَلَامَةً فَاصِلَةً عَلَى مَوْتِ نَوَامِيسِ الإِصْلَاحِ فِي جَسَدِ الدَّوْلَةِ، حَتَّى غَدَا التَّحَوُّلُ الِاجْتِمَاعِيُّ مُمْتَنِعًا إِلَّا بِوُقُوعِ الصِّدَامِ المَحْتُومِ.

وَإِنَّ طُمُوحَهُ فِي بِنَاءِ بَرْجِ بَابِلَ لَيُؤَكِّدُ حَالَةَ نَمْرُودَ بِوَصْفِهِ حَاكِمًا طَاغِيَةً ارْتَكَسَ فِي أَوْهَامِ التَّسَلُّطِ وَالعُلُوِّ؛ إِذْ تَتَجَاوَزُ رَمْزِيَّةُ البَرْجِ مَنَافِعَهُ المَادِّيَّةَ فِي حَضَارَةِ البَشَرِ، لِتَكُونَ أَثَرًا مِينَيرَالِيًّا يَكْشِفُ عَنْ صَيْرُورَةِ الِانْضِبَاطِ أَدَاةً لِلْقَهْرِ وَالإِجْبَارِ. وَفِي كَنَفِ الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيِّ، غَدَتْ تِلْكَ الفَخَامَةُ الجُسْمَانِيَّةُ عَيْنَهَا أَمَارَةً عَلَى اغْتِرَابِ السُّلْطَانِ عَنِ الوَاقِعِ الِاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَسُوسُهُ. وَقَدْ بَلَغَ هَذَا التَّنَاقُضُ غَايَتَهُ عِنْدَ خِذْلَانِ نَمْرُودَ وَهَلَاكِهِ بِجَحَافِلِ البَعُوضِ، وَهُوَ حَادِثٌ يُقَرِّرُ سُنَّةَ الِانْعِكَاسِ بِوَصْفِهَا خَصِيصَةً رَئِيسَةً لِلْعَالَمِ الدِّيمُونِيِّ؛ حَيْثُ تَتَقَوَّضُ القُوَّةُ الَّتِي خِيلَ أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ عَلَى أَيْدِي أَكْثَرِ الخَلَائِقِ ضَعْفًا وَهَوَانًا. فَلَمْ يَكُنْ هَذَا السُّقُوطُ نَتِيجَةً لِفَضْلِ عَدُوٍّ خَارِجِيٍّ، بَلْ كَانَ ثَمَرَةً مَنْطِقِيَّةً لِلِاضْطِرَابَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي تَأَصَّلَتْ طَوِيلًا فِي كِيَانِ السُّلْطَانِ البَابِلِيِّ.

وَإِنَّ انْتِقَالَ نَمْرُودَ مِنْ مَقَامِ الحَاكِمِ إِلَى صَيْرُورَتِهِ فَارْمَاكُوس فِي أَثْنَاءِ الرِّوَايَةِ لَيَكْشِفُ عَنْ آلِيَّةِ التَّطْهِيرِ التَّدْمِيرِيِّ لِلْأَزْمَاتِ؛ إِذْ تَحَوَّلَتْ أَوْزَارُ المِحَنِ الَّتِي كَانَتْ تَنُوءُ بِهَا رَعِيَّةُ بَابِلَ لِتَجْتَمِعَ وَتَسْتَقِرَّ فِي ذَاتِ المَلِكِ نَفْسِهِ. وَلَمْ يَكُنْ هَلَاكُ نَمْرُودَ مُؤْذِنًا بِانْقِضَاءِ عَهْدِ الحُكْمِ

وَحْدَهُ، بَلْ قَامَ مَقَامَ لَحْظَةِ الكَشْفِ عَنِ الفَسَادِ الكَامِنِ الَّذِي دَثَّرَتْهُ سَالِفًا أَسْتَارُ الِاسْتِقْرَارِ الزَّائِفِ.

وَفِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ، تَحَوَّلَتْ بَابِلُ إِلَى صُورَةٍ مَتَاهَةٍ، وَهِيَ فِجَاجٌ ضَلَّتْ وِجْهَتَهَا الأَخْلَاقِيَّةَ وَالرُّوحِيَّةَ. فَلَئِنْ ظَلَّتْ مَعَالِمُ العِمْرَانِ قَائِمَةً فِي مَحْسُوسِ العِيَانِ، فَقَدْ عَرِيَتْ فِي مَخْبَرِهَا عَنِ الحَقِّ وَالعَدَالَةِ. وَهَذَا هُوَ التَّمَثُّلُ التَّامُّ لِلْعَالَمِ الدِّيمُوبِيِّ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ؛ حِينَمَا يَسْرِي الِاخْتِلَالُ البِنْيَوِيُّ فِي أَوصَالِ البِنَاءِ الجَمْعِيِّ كُلِّهِ، وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى شَخْصِ الزَّعِيمِ وَحْدَهُ. فَقَدْ كَانَ نَمْرُودُ فِي صِيَاغَةِ السَّرْدِ قُطْبًا رَمْزِيًّا تَلْتَقِي عِنْدَهُ الطَّغْوَى، وَالجَانِحَةُ التَّدْمِيرِيَّةُ، وَالِاضْطِرَابُ، لِتَلْتَئِمَ كُلُّهَا فِي كُلِّيَّةٍ دِيمُونِيَّةٍ مُتَمَاسِكَةٍ. وَجَاءَ سُقُوطُهُ لِيُقَرِّرَ أَنَّ هَدْمَ الحَضَارَاتِ لَا يَبْدَأُ مِنْ غَارَاتِ الخَارِجِ، بَلْ مِنْ عَفَنِ الدَّاخِلِ الَّذِي يَنْبَجِسُ حِينَمَا يَنْفَضُّ السُّلْطَانُ عَنْ جَمِيعِ الحُدُودِ الأَخْلَاقِيَّةِ لِلإِنْسَانِيَّةِ.

تَتَصِلُ دِرَاسَةُ جِيجُو وَجُورْج (٢٠٢١) المَوْسُومَةُ بِـ نَقْدُ الأَرْكِيتَايْب: دِرَاسَةٌ مُوجَزَةٌ فِي هَذَا التَّخَصُّصِ وَفِي الِارْتِبَاطِ الأَبَدِيِّ بِرُوَّادِهِ، بِعِنَايَةٍ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ تَتَبُّعِ تَطَوُّرِ النَّقْدِ الأَرْكِيتَايْبِيِّ، وَمَدَى صَلَاحِيَّةِ نَظَرِيَّةِ نُورْثْرُوب فْرَاي فِي فَهْمِ الأَنْمَاطِ الكَوْنِيَّةِ لِلأَدَبِ. وَقَدْ أَعْمَلَ البَاحِثَانِ فِي هَذَا النَّظَرِ مَنْهَجَ الدِّرَاسَةِ المَكْتَبِيَّةِ الوَصْفِيَّةِ، جَامِعَيْنِ بَيْنَ مَفْهُومِ اللَّا شُعُورِ الجَمْعِيِّ (Collective Unconscious) لِكَارْل جُونْغ، وَنَظَرِيَّةِ الأَرْكِيتَايْب لِنُورْثْرُوب فْرَاي. وَأَسْفَرَتْ نَتَائِجُ البَحْثِ عَنْ أَنَّ الأَنْمَاطَ الأَرْكِيتَايْبِيَّةَ تَحْمِلُ صِفَةَ العُمُومِ الكَوْنِيِّ، وَتَتَجَدَّدُ فِي الظُّهُورِ عَبْرَ مُصَنَّفَاتِ الأَدَبِ عَلَى تَبَايُنِ العُصُورِ.

وَمِنْ هُنَا، يَقَعُ الِاتِّفَاقُ بَيْنَ تِلْكَ الدِرَاسَةِ وَبَيْنَ البَحْثِ الحَالِيِّ فِي اعْتِمَادِ نَظَرِيَّةِ فْرَاي لِتَعْيِينِ النَّسَقِ الكَوْنِيِّ فِي السَّرْدِ، بَيْدَ أَنَّ التَّمَايُزَ بَيْنَهُمَا يَبْدُو فِي أَنَّ جِيجُو وَجُورْج قَدْ نَظَرَا فِي الأَرْكِيتَايْب عَلَى وَجْهِ العُمُومِ وَالإِطْلَاقِ، فِي حِينِ أَنَّ البَحْثَ الحَالِيَّ يَعْمِدُ إِلَى تَنْزِيلِهِ تَنْزِيلًا خَاصًّا عَلَى كِفَاحِ مَعْشَرِ بَابِلَ ضِدَّ نَمْرُودَ. وَقَدْ خَلَصَ كِلَا البَحْثَيْنِ إِلَى أَنَّ الأَرْكِيتَايْب

نَسَقٌ مُطَّرِدُ التَّكْرَارِ، وَهُوَ بَاقٍ عَلَى صَلَاحِيَّتِهِ لِبَيَانِ حَقِيقَةِ التَّنَازُعِ، وَالسُّلْطَانِ، وَالتَّحَوُّلِ الِاجْتِمَاعِيِّ فِي حَيَاةِ البَشَرِ.

إِنَّ التَّفَاوُتَ البِنْيَوِيَّ الَّذِي يُعْمِلُهُ الحَاكِمُ الطَّاغِيَةُ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ يُمَثِّلُ نَقِيضًا مَاحِقًا لِبَقَاءِ العِمْرَانِ القَائِمِ عَلَى الأَرْكِيتَايْب الأَبُوكَالِيبْتِيّ. وَيُشَيِّدُ السَّرْدُ عَنْ سُقُوطِ نَمْرُودَ أُطْرُوحَةَ الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيّ، حَيْثُ يَنْطَوِي النِّظَامُ المِنْيُّ عَلَى دَعَائِمِ الخَوْفِ وَالهَيْمَنَةِ المطْلَقَةِ عَلَى بَذْرَةِ فَنَائِهِ فِي صَمِيمِهِ. وَفِي نِطَاقِ مَفْهُومَيِ الأِيجُو–دِيسْتْرُوكْتِيف وَالفَارْمَاكُوس، اللَّذَيْنِ يُعَدَّانِ عُنْصُرَيْنِ جَوْهَرِيَّيْنِ فِي الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيّ لِنُورْثْرُوب فْرَاي، لَمْ تَعُدِ السُّلْطَةُ الَّتِي نَبَذَتْ شَرْعِيَّتَهَا الأَخْلَاقِيَّةَ تَضْطَلِعُ بِوَظِيفَةِ حِمَايَةِ الِاسْتِقْرَارِ، بَلْ صَارَتْ مَرْكَزًا جَاذِبًا يَسْحَقُ كِيَانَ المحِيطِ الِاجْتِمَاعِيِّ إِلَى لُجَّةِ الأَزَمَاتِ. وَلَمْ تَكُنِ القُدُرَاتُ المهَمَّشَةُ ضَحَايَا خَامِلَةً، بَلْ أَمْسَتْ طَاقَةً كَامِنَةً لِأَرْكِيتَايْب الِانْعِكَاسِ الَّذِي يُعَجِّلُ بِتَقَوُّضِ النِّظَامِ، وَهُوَ نَسَقٌ دَوْرِيٌّ يَلْقَى فِيهِ كُلُّ ضَرْبٍ مِنَ القَهْرِ نِهَايَتَهُ المحْتُومَةَ عِنْدَ نُقْطَةِ التَّفَكُّكِ فِي أَرْكِيتَايْب انْحِطَاطِ العِمْرَانِ.

وَتَتَجَلَّى جَسَامَةُ المكْشُوفِ عَنْهُ فِي هَذَا البَحْثِ فِي بَيَانِ وَظِيفَةِ الطُّغْيَانِ وَالفَارْمَاكُوس بِوَصْفِهِمَا أَدَاتَيْنِ اسْتِرَاتِيجِيَّتَيْنِ لِتَدَخُّلِ أَنْتيخْريستُوسَ؛ لِتَقْوِيضِ الأَرْكِيتَايْب المثَالِيِّ لِعَالَمِ البَشَرِ. فَلَمْ يَكُنِ الِاسْتِبْدَادُ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ عَجْزًا إِدَارِيًّا عَرَضِيًّا، بَلْ كَانَ مَسْلَكًا مُنْهَجًا يُعَجِّلُ بِانْتِقَالِ العِمْرَانِ مِنَ الأَرْكِيتَايْب الأَبُوكَالِيبْتِيِّ إِلَى الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيّ. فَيَعْمِدُ أَنْتيخْريستُوسَ إِلَى الِاخْتِرَاقِ عَبْرَ تَحْوِيلِ بُنْيَةِ السُّلْطَةِ لِتُحِيلَ حَيَاةَ الجَمَاعَةِ تَدْرِيجِيًّا إِلَى مَيْدَانٍ لِلْهَيْمَنَةِ الِاسْتِغْلَالِيَّةِ، مُنْحَرِفًا بِذَلِكَ عَنِ الأَرْكِيتَايْب لِلتَّرْتِيبِ الإِلَهِيِّ. وَيَغْدُو حُضُورُ الفَارْمَاكُوس، بِوَصْفِهِمُ الجَمَاعَةَ المضَحَّى بِهَا فِي سَبِيلِ اسْتِدَامَةِ الحُكْمِ، أَمَارَةً جَلِيَّةً عَلَى بُلُوغِ الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيّ ذُرْوَةَ اسْتِحْكَامِهِ؛ إِذْ هُوَ نَسَقٌ اجْتِمَاعِيٌّ يَحْفَظُ سَطْوَتَهُ بِاقْتِيَاتِهِ عَلَى أَضْعَفِ الأَطْرَافِ. وَيُعَدُّ سُقُوطُ شَخْصِ نَمْرُودَ، عَلَى هَذَا النَّحْوِ، تَمْثِيلًا شَامِلًا لِانْهِيَارِ نِظَامٍ جَارَ عَلَى الأَرْكِيتَايْب لِلْعَدْلِ بِوَصْفِهِ دِعَامَةَ الوُجُودِ.

وَفِي مَدًى أَوْسَعَ، تُؤَكِّدُ رِوَايَةُ أَنْتيخْريستُوسَ أَنَّ تَدَخُّلَ أَنْتيخْريستُوسَ يَسْرِي بِتَقْوِيضِ الشَّرْعِيَّةِ الأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي تَرْتَكِزُ عَلَيْهَا أَرْكَانُ حَيَاةِ الجَمَاعَةِ. فَإِذَا مَا أُحِلَّ القَهْرُ مَحَلَّ قَوَاعِدِ العَدْلِ، اتَّسَعَتْ رِحَابُ العَالَمِ الدِّيمُونِيِّ وَتَجَاوَزَتْ حُدُودَ الأَرْكِيتَايْب لِلتَّوَازُنِ المَنْشُودِ. وَفِي بُنْيَةِ الرِّوَايَةِ السَّرْدِيَّةِ، تَصِيرُ رُمُوزُ الطُّغْيَانِ وَالفَارْمَاكُوس مَنَارَاتٍ تَدُلُّ عَلَى كَيْفِيَّةِ إِذْلَالِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ عَمْدًا لِقَطْعِ صِلَةِ البَشَرِ بِمَشِيئَةِ الخَالِقِ. وَيَمْضِي هَذَا السَّرْدُ فِي اسْتِقْرَاءِ آفَاقِ الإِسْكَاتُولُوجْيَا الإِسْلَامِيَّةِ، حَيْثُ يَعُدُّ تَقَوُّضَ النُّظُمِ الفَاسِدَةِ جُزْءًا لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ سِلْسِلَةِ أَهْوَالِ آخِرِ الزَّمَانِ المَرْسُومَةِ عَبْرَ الأَرْكِيتَايْب الإِسْكَاتُولُوجِيِّ. وَعَلَى خَاتِمَةِ المَقَالِ، يُقَرِّرُ هَذَا البَحْثُ أَنَّ مَصِيرَ العِمْرَانِ رَهِينُ ثَبَاتِ الإِنْسَانِ عَلَى القَوَاعِدِ الأَخْلَاقِيَّةِ؛ لِئَلَّا يَرْتَكِسَ فِي أَرْكِيتَايْب الفَوْضَى المُطْلَقَةِ.

ج) الأَرْكِيتَايْب الأَنَالُوجِيُّ: التَّنَازُعُ بَيْنَ المِثَالِ وَالوُقُوعِ

إِذَا كَانَ الأَرْكِيتَايْب الأَبُوكَالِيبْتِيُّ يُمَثِّلُ العَالَمَ فِي أَسْمَى حَالَاتِ كَمَالِهِ، وَكَانَ الأَرْكِيتَايْب الدِّيمُونِيُّ يُمَثِّلُ تَهَاوِيَهُ التَّامَّ، فَإِنَّ الأَرْكِيتَايْب الأَنَالُوجِيَّ يَقُومُ بَيْنَ هَذَيْنِ القُطْبَيْنِ، كَمَكَانٍ يَعِيشُ فِيهِ الإِنْسَانُ حَقِيقَةً؛ فَلَا هُوَ بِالعَالَمِ الإِلَهِيِّ المَحْضِ، وَلَا هُوَ بِالخَرَابِ المُطْلَقِ، بَلْ هُوَ فِي حَرَكَةٍ دَائِبَةٍ بَيْنَ ذَيْنِكَ الطَّرَفَيْنِ. وَهَذَا مَا يُسَمِّيهِ فْرَاي الصُّورَة الْقِيَاسِيَّة، وَهِيَ بِنْيَةٌ أَرْكِيتَايْبِيَّةٌ تُمَثِّلُ عَالَمَ البَشَرِ كَمَا هُوَ فِي وَاقِعِهِ، بِمَا يَحْوِيهِ مِنْ قُصُورٍ، وَطُمُوحٍ، وَتَوَتُّرٍ قِيمِيٍّ (Frye, 1957, p. 151).

وَقَدْ قَسَّمَهُ فْرَاي إِلَى ثَلَاثِ طَبَقَاتٍ هَرَارْكِيَّةٍ: الأَنَالُوجِيَّ الرُّومَانْسِيَّ، حَيْثُ لَا يَزَالُ العَالَمُ يَبُثُّ نِظَامًا إِلَهِيًّا وَيَتَحَرَّكُ فِيهِ البَطَلُ بِحُرِّيَّةٍ تَامَّةٍ؛ وَالرمز العَالِي، حَيْثُ تَغْدُو الحُرِّيَّةُ مَحْدُودَةً بِقُيُودِ البِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّبِعَاتِ التَّارِيخِيَّةِ؛ وَالمرمز المُنْخَفِضَ، حَيْثُ لَا تَعُودُ الحَيَاةُ مُرْتَهَنَةً لِلمِثَالِيَّةِ المُجَرَّدَةِ، بَلْ لِلْفِعْلِ المُبَاشِرِ وَالاحداث الِاجْتِمَاعِيَّةِ العَيْنِيَّةِ (Frye, 1957, pp. 151–152). وَهَذِهِ الطَّبَقَاتُ الثَّلَاثُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ دَرَجَاتٍ فِي الأُسْلُوبِ السَّرْدِيِّ، بَلْ هِيَ

كُونْتِينُومٌ وَاحِدٌ يُصَوِّرُ كَيْفِيَّةَ انْتِقَالِ العِمْرَانِ مِنَ الرُّؤْيَةِ المِثَالِيَّةِ إِلَى الوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ المَشْحُونِ بِالتَّوَتُّرِ، وَهَذَا التَّبَاعُدُ هُوَ مَوْلِدُ التَّنَازُعِ وَمُحَرِّكُ دَوْرَةِ العِمْرَانِ. وَبِهَذَا النَّسَقِ، يَتَتَبَّعُ التَّحْلِيلُ التَّالِي كَيْفِيَّةَ تَمْثِيلِ رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لِلصِّرَاعِ بَيْنَ المِثَالِيَّةِ وَالوَاقِعِ.

تُمثِّل الصور الأنالوجية عالم الطبيعة التي تعكس قيم الخير والفضيلة لكنها ليست مثاليةً تمام الاكتمال، بل هي عالم الصراع والاختيار الذي يُحدِّد فيه الإنسان هويته الحضارية. وهذا المستوى هو الأكثر حضوراً في الفضاء الروائي لرواية "انتيخرستس". ففي دور الربيع تتشكّل الأنالوجيا الأخلاقية من خلال المواقف الفردية الأولى التي تنكشف فيها طبيعة الشخصيات: مَن يختار الوضوح والمقاومة، ومَن يُؤثر التردّد والانتظار، ومَن ينزلق نحو الإغراء بدواعٍ مفهومة. وهذا الثالوث الشخصياتي يُعكس في الروايةَ الواقعَ الأخلاقي للمجتمعات الإسلامية في مواجهة التحدي الوجودي.

(٥) خرج "إيشما" من البركة، وارتدى ملابسه البابلية القديمة، لكنه لم يتجه إلى متاعه، بل اتجه إلى ذلك المكان الذي تطير إليه الحمائم بهذا الحماس الغريب. وهناك وجد شيئًا اتسعت له عيناه العجوزتان في دهشة وانبهار؛ وجد طفلة جميلة، ابنة تسع سنوات، لم ترَ عيناه مثل جمالها. لكن ليس هذا ما أدهشه، بل أن الحمائم كانت تحيط بها وتطعمها وتسقيها من مناقيرها لبنًا. إنه الاحتفال العظيم في بابل.. وعندما تحتفل بابل فَزِدْ على جمالها ألفَ جمال. عندما تلتقي الجبالُ الخضراء والسهولُ والأنهارُ الصافيةُ بالرخامِ الأبيضِ والأزرقِ المميّزِ للقصور البابلية، والرسوماتِ الكبيرةِ التي تغطي الجدران.. عندما يلتقي كلُّ هذا بالأطفالِ الذين ينثرون أوراقَ الزعفران في الهواء، والخيولِ التي ترقص، والبشرِ الذين يحتفلون في أكثر لباسهم وصروحهم أناقةً في التاريخ. عندها تعرف أن هناك حدثًا مهمًّا يمرّ عليه ها هو المولود موضوع في الهودج، تحيط به الوالدات، أو "المايات" كما يطلقون عليهن هنا، وهن اللواتي سهرن على

رعاية الأم حتى تمت الولا وفجأة سكت الجميع، وتكلم الشيخ الكبير، أو "الموهيل" كما يلقّبونه في بابل. قال الشيخ: "اليوم أتشرف، وتتشرف البشرية، وتتشرف الأرض كلها بولادة الابنِ الذرّ الذي سيحمل اسم الملك العظيم كوش. الابن العظيم الذي قررت العائلة أن تسميه *زاهاك*. وهنا ضجّ الجمع بصيحات السعادة (ص: ١٦).

يُمَثِّلُ البَيَانُ الخَامِسُ مَشْهَدَ إِشْيَامَ وَهُوَ يَسْبَحُ فِي البِرْكَةِ، إِذْ بَصُرَ بِسِرْبٍ مِنَ الطُّيُورِ يَعْلُوهُ. وَفِي مَسَاقِ الحِكَايَةِ، اسْتَبَدَّتْ بِإِشْيَامَ حَيْرَةٌ دَفَعَتْهُ لِاقْتِفَاءِ أَثَرِ هَذَا السِّرْبِ، حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ وِجْهَتَهَا مَكَانُ طَعَامِهِ، فَقَادَهُ ذَلِكَ إِلَى مَطَارَدَتِهَا، حَتَّى أَلْفَى مَوْضِعَ نُزُولِ الطُّيُورِ، وَإِذَا بِصَبِيَّةٍ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِهَا تَعِيشُ فِي كَنَفِ ذَلِكَ السِّرْبِ، مُتَغَذِّيَةً عَلَى رِعَايَتِهِمْ. وَفِي مُقَابِلِ هَذَا المشْهَدِ، وَمَعَ اخْتِلَافِ الخَلْفِيَّةِ، وُلِدَ طِفْلٌ فِي بَيْتِ المِلكِ، هُوَ ضَحَّاكُ، الَّذِي احْتَفَى بِهِ أَبُوهُ المِلكُ كُوشُ احْتِفَاءً عَظِيمًا، وَشَمِلَهُ بِرِطْقِ طُقُوسِ التَّسْمِيَةِ. وَفِي مَتْنِ رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، غَدَا هَذَانِ الشَّخْصَانِ طَلِيعَةَ الحُكَّامِ الطُّغَاةِ خَلَفًا لِلْمَلِكِ كُوشَ؛ فَسَامِيرَامِيسُ بِمَا أُوتِيَتْ مِنْ فِتْنَةٍ وَجَمَالٍ سَتَغْدُو مَلِكَةً مُتَسَلِّطَةً تُدِيرُ الأُمُورَ مِنْ وَرَاءِ مَكْرٍ وَتَلَاعُبٍ، بَيْنَمَا يَصِيرُ ضَحَّاكُ مَلِكًا بِيَدٍ مِنْ حَدِيدٍ، جَبَّارًا، وَنَهِمًا لِلسُّلْطَةِ. وَكَانَ أَجْلَى مَا فِي مَوْلِدِ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ أَمْرُ ضَحَّاكَ، إِذْ غُرِسَتْ فِيهِ بَذْرَةُ الشَّرِّ مُنْذُ نَعُومَةِ أَظْفَارِهِ عَلَى يَدِ الكَاهِنِ الَّذِي سَمَّاهُ أَخْرِيمَانَ. فَقَدْ أَوْدَعَ ذَلِكَ الكَاهِنُ فِي كَتِفَيْهِ سِحْرَ الحَيَّاتِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ مِعْيَارًا لِدَلَالَةِ حَيَاتِهِ حَتَّى اسْتَحَالَ طَاغِيَةً.

يَعْمَلُ حُضُورُ سَامِيرَامِيسَ وَضَحَّاكُ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ بِوَصْفِهِ آلِيَّةً سَرْدِيَّةً تُفَصِّلُ الأَرْكِيتَايْب الأَنَالُوجِيَّ لِتَرْسِيخِ دَعَائِمِ عَالَمٍ مَمْلُوءٍ بِالوُعُودِ المِثَالِيَّةِ. فَمِنْ خِلَالِ صِيَاغَةِ سَامِيرَامِيسَ بِرَمْزِيَّةِ الحَمَامِ، وَإِقْحَامِ ضَحَّاكُ فِي جُمُودِ حَيَاةِ القَصْرِ السَّاكِنَةِ، يَعْمِدُ النَّصُّ عَمْدًا إِلَى رَفْعِ الشَّخْصِيَّتَيْنِ فَوْقَ آفَاقِ الِاحْتِمَالِ الَّتِي لَمْ تَدَنَّسْ بَعْدُ بِأَدْرَانِ الوَاقِعِ الميمِيتِيّ. وَهَذِهِ المرْحَلَةُ مِنْ إِضْفَاءِ المِثَالِيَّةِ تَغْدُو شَرْعِيَّةً رَمْزِيَّةً جَوْهَرِيَّةً لِبِنَاءِ الرِّوَايَةِ؛ إِذْ هِيَ فَضَاءٌ رَحْبٌ

لَمْ يَنْؤِ بَعْدُ تَحْتَ قُيُودِ النَّظْمِ الِاجْتِمَاعِيِّ، مِمَّا أَهَّلَهُ لِغَرْسِ بَذْرَةِ الشَّرْعِيَّةِ الجَمَالِيَّةِ الَّتِي أَمْسَتْ أَسَاسًا لِتَوَجُّهِ العِمْرَانِ الَّذِي أَرَادَ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى تَشْيِيدَهُ فِيمَا بَعْدُ.

وَتُعَدُّ النَّقْلَةُ مِنَ المرْحَلَةِ الرَّمْزِيَّةِ إِلَى مَرْحَلَةِ سُلْطَةِ المؤَسَّسَاتِ لَحْظَةً يَصْطَدِمُ فِيهَا مِثَالِيَّةُ النَّصِّ بِجَاذِبِيَّةِ الدَّرَامَا. فَمَا إِنْ تَخَلَّى ضَحَّاكُ وَنْمُرُودُ عَنْ سِمَاتِ وِلَادَتِهِمَا المِجَازِيَّةِ لِيَسْتَحِيلَا مَرْكَزًا لِلسَّيْطَرَةِ السِّيَاسِيَّةِ، حَتَّى وَقَعَ تَحَوُّلٌ جَوْهَرِيٌّ فِي الدَّلَالَةِ؛ إِذْ أُحِيلَتِ الطَّاقَةُ الرَّمْزِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَوَجَّهُ نَحْوَ الرَّجَاءِ إِلَى آلِيَّاتِ حُكْمٍ فِي مَتْنِ النَّصِّ. وَهَذَا التَّأْسِيسُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَصْوِيرِهِ فِي حَبْكَةِ الرِّوَايَةِ بِمَظْهَرِ السَّعْيِ نَحْوَ تَحْقِيقِ أَمَانِيِّ العِمْرَانِ، قَدْ غَدَا نُقْطَةَ تَصَدُّعٍ تَبَدَّتْ فِيهَا التَّنَاقُضَاتُ الكَامِنَةُ. فَكُلَّمَا تَرَاكَمَتِ السُّلْطَةُ تَرَكُّزًا فِي يَدِ الحَاكِمِ، اتَّسَعَتِ الهُوَّةُ بَيْنَ المِثَالِيَّةِ النَّصِّيَّةِ المَوْعُودَةِ وَالوَاقِعِ المعِيشِ لِلْجَمَاعَةِ؛ وَهِيَ فَجْوَةٌ تُقَرِّرُ أَنَّ سُلْطَةً تَعْرَى عَنِ التَّوَجُّهِ المتَعَالِي سَوْفَ تَنْتَهِي بَالِغَةً حَدَّ الِاضْطِرَابِ السَّرْدِيِّ.

يَقُودُ هَذَا التَّحَوُّلُ النَّصَّ بِصُورَةٍ عُضْوِيَّةٍ نَحْوَ كَشْفِ المآلَاتِ الوُجُودِيَّةِ لِلنِّظَامِ الَّذِي تَشَكَّلَ؛ إِذْ لَمْ تَعُدْ حَيَاةُ مَعْشَرِ بَابِلَ تُنْظَرُ بِعَيْنِ الحِكْمَةِ البَطَلِيَّةِ، بَلْ أَمْسَتْ تَجْرِبَةً إِنْسَانِيَّةً مَشُوبَةً بِالمصَالِحِ وَمُقَيَّدَةً بِالنَّقَائِصِ. وَهَذَا الِانْتِقَالُ مِنَ الرُّمُوزِ البَطَلِيَّةِ إِلَى رِحَابِ الوَاقِعِ المِيمِيتِيِّ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَبَدُّلٍ فِي أُسْلُوبِ القَصِّ، بَلْ هُوَ مِرْآةٌ لِتَرَاجُعِ أَيْدِيُولُوجِيٍّ فَقَدَتْ فِيهِ السُّلْطَةُ جَوْهَرَهَا الرَّمْزِيَّ، وَارْتَكَسَتْ فِي بَرَاجْمَاتِيَّةِ حَبْكَةٍ ضَيِّقَةٍ. وَتُبَيِّنُ هَذِهِ النَّقْلَةُ فِي زَاوِيَةِ الرُّؤْيَةِ بِوُضُوحٍ كَيْفَ أَنَّ السُّلْطَةَ القَائِمَةَ عَلَى الأَرْكِيتَايْب الأَنَالُوجِيِّ تَفْقِدُ تَدْرِيجِيًّا نَقَاءَهَا الجَمَالِيَّ، مِمَّا يُؤَجِّجُ الِانْحِرَافَ مِنَ فَضَاءِ الطُّمُوحِ البَطَلِيِّ إِلَى مَيْدَانِ صِرَاعٍ مَحْتُومٍ دَاخِلَ بِنْيَةِ الرِّوَايَةِ.

وَفِي هَذَا الإِيقَاعِ الدِّيَالِيكْتِيكِيِّ، يَكْشِفُ الأَرْكِيتَايْب الأَنَالُوجِيُّ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ عَنْ حَقِيقَةٍ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ أَصِيلَةٍ؛ وَهِيَ أَنَّ العِمْرَانَ فِي السَّرْدِ لَيْسَ جَوْهَرًا سَاكِنًا، بَلْ هُوَ صَيْرُورَةُ تَحَوُّلٍ تَمْثِيلِيٍّ لَا يَنْفَكُّ يُخْتَبَرُ بِتَوَتُّرِ التَّنَازُعِ بَيْنَ المِثَالِ وَالوَاقِعِ. وَإِنَّ سَامِيرَامِيسَ وَضَحَّاكُ، اللَّذَيْنِ قَامَا سَالِفًا رَمْزَيْنِ لِلرَّجَاءِ، قَدْ وَجَبَ عَلَيْهِمَا فِي خَاتِمَةِ المطَافِ أَنْ يَتَحَمَّلَا تَبِعَةَ الوَاقِعِ

الِاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي أَوْجَدَاهُ فِي الحَبْكَةِ. إِنَّ التَّحَوُّلَ مِنَ المَوْجِ الرُّومَانْسِيِّ إِلَى الميمِيتِيِّ هُوَ آلِيَّةٌ نَصِّيَّةٌ تُشَرِّحُ كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْمِثَالِ الرَّفِيعِ أَنْ يَنْحَطَّ إِلَى عِبْءٍ تَارِيخِيٍّ، حِينَ تَعْجِزُ مُؤَسَّسَةُ السُّلْطَةِ عَنْ صِيَانَةِ التِزَامِهَا الأَخْلَاقِيِّ أَمَامَ القَارِئِ.

وَبِالرَّبْطِ بَيْنَ عَالَمِ المِثَالِ وَالوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ فِي بِنْيَةِ سَرْدِهِ، يُجْبِرُ الأَرْكِيتَايْب الأَنَالُوجِيُّ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ القَارِئَ عَلَى إِدْرَاكِ أَنَّ النَّمَاءَ وَالسُّلْطَةَ فِي النَّصِّ لَا يَقُومَانِ قَطُّ فِي فَرَاغٍ. فَكِلَاهُمَا مَرْحَلَتَانِ مُتَرَابِطَتَانِ فِي صَيْرُورَةِ دِيَالِيكْتِيكٍ حَضَارِيٍّ كَبِيرٍ. وَلَمْ يَكُنْ عَجْزُ مُؤَسَّسَةِ السُّلْطَةِ عَنِ الحِفَاظِ عَلَى المِثَالِ الَّذِي أَنْجَبَهَا خَطَأً سَرْدِيًّا، بَلْ كَانَ نَتِيجَةً مَنْطِقِيَّةً لِرِحْلَةٍ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ فَقَدَتْ مَرْكَزَهَا الرُّوحِيَّ فِي النَّصِّ. وَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ البِنْيَةِ الأَرْكِيتَايْبِيَّةِ، يُقَدِّمُ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى حُجَّةً بَالِغَةَ الحِدَّةِ عَبْرَ الخَيَالِ، مُفَادُهَا أَنَّ كُلَّ سَعْيٍ لِبِنَاءِ نِظَامٍ بِلَا دَعَائِمَ قِيمِيَّةٍ إِلَهِيَّةٍ لَيْسَ إِلَّا وَهْمًا نَصِّيًّا سَيَنْتَهِي بِهِ المِطَافُ إِلَى هَدْمِ ذَاتِهِ تَحْتَ أَثْقَالِ طُمُوحٍ فَقَدَ تَوْجِيهَهُ.

تَتَصِلُ الدِّرَاسَةُ التَّمْهِيدِيَّةُ الأُولَى بِبَحْثٍ أَنْجَزَهُ (مُحَمَّد حُسَيْن عَلِيّ السُّيُوطِيّ وَسَلَام نَاصِر وَالِي، ٢٠٢٣)، حَيْثُ نَظَرَا فِي أَبْعَادِ الميتُولُوجِيَا فِي شَرْعَنَةِ البِنَاءِ وَتَارِيخِ المدِينَةِ بِوَصْفِهَا أَدَاةً سِيَاسِيَّةً دِينِيَّةً. وَتَتَرَكَّزُ إِشْكَالِيَّةُ ذَلِكَ البَحْثِ عَلَى كَيْفِيَّةِ تَوْظِيفِ الميتُولُوجِيَا لِإِسْبَاغِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى المَبَانِي المادِّيَّةِ، وَتَارِيخِ المدِينَةِ، وَتَشْيِيدِ صُورَةِ خُلُودِ سُلْطَانِ الدَّوْلَةِ. وَقَدْ أَعْمَلَ البَاحِثَانِ فِي هَذَا النَّظَرِ مَنْهَجَ التَّحْلِيلِ النَّصِّيِّ لِمُدَوَّنَاتِ رِحْلَاتِ الجَغْرَافِيِّينَ المسْلِمِينَ مِنَ القَرْنِ السَّادِسِ إِلَى الثَّامِنِ الهِجْرِيِّ، فَخَلَصَا إِلَى أَنَّ الميتُوسَ يُسْتَخْدَمُ غَالِبًا لِتَعْزِيزِ شَرْعِيَّةِ الحَاكِمِ عَبْرَ رُمُوزِ الفَخَامَةِ المادِّيَّةِ. وَتَظْهَرُ هُنَا صِلَةُ الِاتِّفَاقِ مَعَ مَعْطَيَاتِ بَحْثِنَا حَوْلَ نَمْرُودَ الَّذِي وَظَّفَ بَرْجَ بَابِلَ، وَالقُوَّةَ العَسْكَرِيَّةَ، وَالِاسْتِحْوَاذَ عَلَى القُوَى الطَّبِيعِيَّةِ، رُمُوزًا لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَتِهِ المطْلَقَةِ. بَيْدَ أَنَّ التَّمَايُزَ يَبْدُو فِي أَنَّ الدِّرَاسَةَ السَّابِقَةَ رَكَّزَتْ عَلَى بِنَاءِ الميتُوسِ فِي المصَادِرِ التَّارِيخِيَّةِ، فِي حِينِ يَتَحَرَّى بَحْثُنَا تَمَثُّلَ الأَرْكِيتَايْب لِلْحَاكِمِ الطَّاغِيَةِ فِي عَمَلٍ أَدَبِيٍّ.

وَعَلَى ذَلِكَ، خَلَصَ البَحْثَانِ إِلَى أَنَّ الفَخَامَةَ المادِّيَّةَ وَسَرْدِيَّةَ الميثُولُوجِيَا هُمَا سَبِيلَانِ مُعْتَادَانِ لِخَلْقِ شَرْعِيَّةِ السُّلْطَةِ وَتَعْظِيمِ صُورَةِ الحَاكِمِ بِوَصْفِهِ قُطْبًا ذَا سُلْطَةٍ مُطْلَقَةٍ.

وَتَتَمَثَّلُ الدِّرَاسَةُ التَّمْهِيدِيَّةُ الثَّانِيَةُ فِي بَحْثٍ (لُونِيسْيَا أَغُوسْتِين بْرَامِيسْتِي، ٢٠٢٤) الَّذِي حَلَّلَ أَنِمِي Koe no Katachi مُعْتَمِدًا عَلَى نَظَرِيَّةِ السِّيمِيُوطِيقَا لِرُولَان بَارْت. وَتَمَحْوَرَتْ إِشْكَالِيَّةُ الدِّرَاسَةِ حَوْلَ تَعْيِينِ العَنَاصِرِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْأَنِمِي وَمَعَانِي رَمْزِ X الظَّاهِرِ عَلَى شَخْصِيَّاتِهِ. وَقَدْ أَعْمَلَتِ البَاحِثَةُ مَنْهَجَ البَحْثِ الكَيْفِيِّ الوَصْفِيِّ بِاسْتِخْدَامِ مُقَارَبَةِ بَارْت السِّيمِيُوطِيقِيَّةِ، حَيْثُ بَيَّنَتْ أَنَّ رَمْزَ X يُمَثِّلُ بِدَلَالَتِهِ الضِّمْنِيَّةِ العُزْلَةَ النَّفْسِيَّةَ، وَالصَّدْمَةَ، وَالِاغْتِرَابَ الِاجْتِمَاعِيَّ الَّذِي يُكَابِدُهُ البَطَلُ. وَتَلْتَقِي هَذِهِ النَّتِيجَةُ مَعَ بَحْثِنَا عَنْ قِصَّةِ بَابِلَ فِي كَوْنِهِمَا يَتَّخِذَانِ الرَّمْزَ أَدَاةً لِتَخْطِيطِ أَحْوَالِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ. بَيْدَ أَنَّ الدِّرَاسَةَ التَّمْهِيدِيَّةَ رَكَّزَتْ عَلَى الرَّمْزِ النَّفْسِيِّ الفَرْدِيِّ، فِي حِينِ يَدْرُسُ بَحْثُنَا الرَّمْزَ الميثُولُوجِيَّ وَالِاجْتِمَاعِيَّ الَّذِي يُمَثِّلُ حَالَةَ العِمْرَانِ جَمْعِيًّا. وَلِذَا، خَلَصَ البَحْثَانِ إِلَى أَنَّ الرَّمْزَ فِي النَّصِّ الأَدَبِيِّ لَا يَكْتَفِي بِكَوْنِهِ عُنْصُرًا جَمَالِيًّا، بَلْ هُوَ مَادَّةٌ لِتَصْوِيرِ الحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ.

وَتُعَدُّ الدِّرَاسَةُ التَّمْهِيدِيَّةُ الثَّالِثَةُ المتَّصِلَةُ بِالدِّيَالِيكْتِيكِ الأُفُقِيِّ بَحْثَ (كَامِيلَّا زُوكُوفْسْكَا، ٢٠٢٠) الَّذِي نَظَرَ فِي الحِكَايَاتِ الخُرَافِيَّةِ وَالرُّومَانْسِ عَبْرَ نَظَرِيَّةِ نُورْثْرُوب فْرَاي وَبَارَادِيجْمَا الأَنْتْرُوبُولُوجِيَا الأَدَبِيَّةِ. وَتَرَكَّزَتْ إِشْكَالِيَّةُ البَحْثِ عَلَى الرَّابِطِ المفْهُومِيِّ وَالتَّشَابُهِ الأَرْكِيتَايْبِيِّ بَيْنَ هَذَيْنِ الجِنْسَيْنِ، مُعْتَمِدَةً عَلَى مَنْهَجِ البَحْثِ الكَيْفِيِّ النَّظَرِيِّ–المقَارَنِ. وَقَدْ أَبَانَتِ النَّتَائِجُ أَنَّ الحِكَايَاتِ وَالرُّومَانْسَ تُمَثِّلُ وِعَاءً لِلتَّفْكِيرِ الرَّغَائِبِي، أَيْ ظَفَرَ الفَرْدِ فِي تَجَاوُزِ العَقَبَاتِ لِخَلْقِ وَاقِعٍ جَدِيدٍ أَفْضَلَ. وَيَتَشَابَهُ هَذَا المضْمُونُ مَعَ قِصَّةِ ضَحَّاكُ وَسَامِيرَامِيسَ فِي سَعْيِهِمَا لِتَحْقِيقِ الطُّمُوحِ وَتَشْيِيدِ نِظَامٍ جَدِيدٍ فِي العِمْرَانِ البَابِلِيِّ. بَيْدَ أَنَّ الدِّرَاسَةَ السَّابِقَةَ تَرَكَّزَتْ عَلَى بِنْيَةِ الأَرْكِيتَايْب فِي الأَجْنَاسِ الأَدَبِيَّةِ، بَيْنَمَا يَرْبِطُ بَحْثُنَا بَيْنَ هَذَا النَّسَقِ وَدِينَامِيكِيَّةِ السُّلْطَةِ وَتَطَوُّرِ العِمْرَانِ. وَبِذَلِكَ، خَلَصَ البَحْثَانِ إِلَى أَنَّ السَّرْدَ يُؤَدِّي

وَظِيفَةَ سَبِيلٍ لِلْإِنْسَانِ لِتَحْقِيقِ الرَّجَاءِ، وَالطُّمُوحِ، وَتَبَدُّلِ الوَاقِعِ عَبْرَ أَنْمَاطٍ أَرْكِيتَايْبِيَّةٍ دَائِمَةِ التَّكْرَارِ.

لَا تَقُومُ هَيْمَنَةُ السُّلْطَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ عَلَى أَدَوَاتِ القَهْرِ المادِّيِّ وَحْدَهَا، بَلْ تَرْتَكِزُ عَلَى بَرَاعَةِ النِّظَامِ فِي تَرْسِيخِ سُلْطَتِهِ عَبْرَ الميتُولُوجِيَا وَالدِّينِيَّةِ الَّتِي تَشَرَّبَهَا الوِجْدَانُ. فَإِنَّ شَخْصِيَّةَ نَمْرُودَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ حَاكِمٍ سِيَاسِيٍّ، بَلْ هِيَ مَرْكَزُ ثِقْلٍ رَمْزِيٍّ يُمَثِّلُ المشِيئَةَ الإِلَهِيَّةَ فِي بُنْيَةِ الوَعْيِ الجَمْعِيِّ. وَهَذِهِ الشَّرْعِيَّةُ تَخْلُقُ هَيْمَنَةً سَرْدِيَّةً تَسُدُّ كُلَّ مَسْلَكٍ أَمَامَ أَيِّ مُعَارَضَةٍ مُحْتَمَلَةٍ؛ إِذْ أَنَّ الوَاقِعَ قَدْ شُيِّدَ عَلَى نَحْوٍ يَجْعَلُ مِنَ الخُضُوعِ ضَرْبًا مِنَ الطَّاعَةِ المتَعَالِيَةِ. غَيْرَ أَنَّ التَّصَدُّعَ البِنْيَوِيَّ يَنْبَجِسُ حِينَ يَحْضُرُ نَهْجُ إِبْرَاهِيمَ بِوَصْفِهِ أَرْكِيتَايْب لِلْتَّحَرُّرِ، مُقَدِّمًا نِظَامًا بَدِيلًا لِلدَّلَالَةِ. وَهَذَا التَّنَازُعُ لَيْسَ مُجَرَّدَ احْتِكَاكٍ بَيْنَ فَرْدَيْنِ، بَلْ هُوَ صِدَامٌ أُونْتُولُوجِيٌّ بَيْنَ رُؤْيَتَيْنِ لِلْعَالَمِ تَتَنَافَسَانِ عَلَى السِّيَادَةِ عَلَى عُقُولِ النَّاسِ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ.

وَتُظْهِرُ القُوَّةُ السَّرْدِيَّةُ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ بِذَكَاءٍ أَنَّ اسْتِقْرَارَ أَيِّ عِمْرَانٍ يَتَوَقَّفُ عَلَى قُدْرَةِ النِّظَامِ عَلَى صِيَانَةِ الِاعْتِقَادِ الجَمْعِيِّ الَّذِي يُسْنِدُ شَرْعِيَّتَهُ. وَبِمَا أَنَّ أَنْمَاطَ تَفْكِيرِ النَّاسِ لَا تَقُومُ فِي فَرَاغٍ، بَلْ تَرْتَبِطُ دَوْمًا بِنِظَامِ الِاعْتِقَادِ وَتَوَجُّهِ القِيمِ المحِيطَةِ، فَإِنَّ التَّحَوُّلَ التَّارِيخِيَّ فِي هَذَا السَّرْدِ هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ تَغَيُّرٌ فِي خَرِيطَةِ الوَعْيِ. وَكُلُّ سَعْيٍ لِلتَّجْدِيدِ يَحْمِلُهُ أَمْثَالُ إِبْرَاهِيمَ سَيُؤَدِّي حَتْمًا إِلَى الِاضْطِرَابِ، لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ نَقْضَ المعْرِفِيِّ المسْتَقِرِّ. وَلَيْسَتِ الدِّينَامِيكِيَّةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ النَّاشِئَةُ أَثَرًا جَانِبِيًّا، بَلْ هِيَ نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ لِصِدَامٍ بَيْنَ نِظَامٍ قَدِيمٍ يَعْبُدُ طَاغُوتَ السُّلْطَةِ، وَنِظَامٍ جَدِيدٍ يَرُدُّ السُّلْطَةَ إِلَى الحَقِّ المتَعَالِي.

وَفِي سِيَاقِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ، يَتَجَلَّى جِدَّةُ هَذَا الكَشْفِ فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي يُثَبِّتُ بِهَا النَّصُّ تَدَخُّلَ أَنْتيخْريستُوسَ بِوَصْفِهِ آلِيَّةَ سَيْطَرَةٍ عَلَى نِظَامِ الدَّلَالَةِ. إِنَّ هَيْمَنَةَ نَمْرُودَ فِي السَّرْدِ هِيَ تَجَسُّدٌ لِنَمَطِ تَفْكِيرٍ يَجْعَلُ الإِنْسَانَ مَرْكَزَ الكَوْنِ. وَلَا يَعْمَلُ أَنْتيخْريستُوسَ عَبْرَ هَدْمٍ مَادِّيٍّ مُبَاشِرٍ، بَلْ عَبْرَ تَخْرِيبِ الدَّعَائِمِ المعْرِفِيَّةِ الَّتِي تَرْتَكِزُ عَلَيْهَا حَيَاةُ الجَمَاعَةِ. وَتُصْبِحُ شَرْعِيَّةُ

السُّلْطَةِ هُنَا أَدَاةً رَئِيسَةً لِتَشْيِيدِ الوَاقِعِ، حَيْثُ يُذْعِنُ النَّاسُ طَوْعًا لِلنِّظَامِ لِأَنَّهُمْ فَقَدُوا القُدْرَةَ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ السُّلْطَةِ الحَقِّ وَبَيْنَ التَّشْوِيهِ الَّذِي تَخْلُقُهُ السُّلْطَةُ المُنْحَرِفَةُ.

وَبِذَلِكَ، فَإِنَّ الصِّرَاعَ المِنْيَّ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ يَجْعَلُ مِنْ سُلْطَةِ الوَعْيِ مَرْحَلَةً جَوْهَرِيَّةً قَبْلَ أَنْ تَمْتَدَّ السُّلْطَةُ إِلَى هَيَاكِلِ المجْتَمَعِ. إِنَّ المعْرَكَةَ بَيْنَ النِّظَامِ الَّذِي يَتَلَاعَبُ بِالوَعْيِ الجَمْعِيِّ وَالنِّظَامِ الَّذِي يُعِيدُ الإِنْسَانَ إِلَى السُّلْطَةِ المتَعَالِيَةِ هِيَ قَلْبُ التَّوَجُّهِ السَّرْدِيِّ لِأَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى. وَرَمْزُ شَرْعِيَّةِ نَمْرُودَ، فِي هَذَا البِنَاءِ، لَيْسَ مُجَرَّدَ أَثَرٍ تَارِيخِيٍّ، بَلْ هُوَ آلِيَّةٌ حَاسِمَةٌ مِنْ تَدَخُّلِ أَنْتيخْريستُوسَ الَّذِي يَعْمِدُ نِظَامِيًّا إِلَى حَرْفِ مَسَارِ العِمْرَانِ مِنَ النِّظَامِ الإِلَهِيِّ إِلَى الحَالَةِ الدِّيمُونِيَّةِ. وَهَذَا يُؤَكِّدُ أَنَّ آفَاقَ الإِسْكَاتُولُوجْيَا الإِسْلَامِيَّةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ خَلْفِيَّةٍ، بَلْ هِيَ مَصَبُّ الصِّرَاعِ المِلْحَمِيِّ الَّذِي يَتَنَافَسُ عَلَى وَعْيِ الإِنْسَانِ؛ مَيْدَانُ مَعْرَكَةٍ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ يُمَثِّلُ فِيهَا الفِكْرُ وَالإِدْرَاكُ الحِصْنَ الأَخِيرَ الَّذِي يُرَاهَنُ عَلَيْهِ فِي سِلْسِلَةِ أَحْدَاثِ آخِرِ الزَّمَانِ.

٢. المستوى الجزئي

في هذا الجزء الجزئي، إستخدم الباحث نظرية الأسطورة لنورثروب فراي لتفسير كيفية حدوث دورة الحضارة في مرحلة التاريخ الجزئي، حيث قسّم الباحث هذا الجزء إلى أربع مراحل لدورة الحضارة وهي: مرحلة الميلاد والنشوء، ومرحلة الازدهار، ومرحلة التراجع، ومرحلة الانهيار التام، مع انتظار بزوغ حضارة أخرى ككيان جديد؛ وفيما يلي توضيح لتحليل الباحث:

أ) الدور الأول: مرحلة الميلاد والنشوء

وفي رواية "انتخرستس" تجلّى هذا الدور في المراحل التي تنبثق فيها قوى الوعي والمقاومة من رحم الظلام، وتبدأ البنى الحضارية الجديدة في التشكُّل.

١. المِيتُوس الكُومِيدِيُّ: المِيلَادُ الجَدِيدُ لِلْحضارة

يُحَدِّد فراي الكوميديا بمعناها الأنماطي البنيوي العميق لا بمعناها الاصطلاحي السطحي المرتبط بالضحك؛ فالكوميديا عنده هي الأمثيل الذي يُصوِّر انتقال البطل أو الجماعة من وضع الاضطهاد والتهميش إلى وضع الاندماج الاجتماعي والانتصار. وتُعبِّر الكوميديا بنيوياً عن انتصار المجتمع الجديد على المجتمع القديم المتصلّب. وتُميِّز الكوميديا الفرايية بين شخصيتين محوريتين: الإيرون (Eiron)، وهي الشخصية الذكية التي تُقدَّم في صورة الضعف والتواضع لكنها تحمل في أعماقها بذرة الانتصار، والألازون (Alazon)، وهي الشخصية المتغطرسة التي تدّعي لنفسها مكانةً لا تستحقها وتُجسِّد مبدأ الزيف والانحراف. ويتمحور الصراع الكوميدي حول كشف الزيف الألازوني وتتويج الحكمة الإيرونية.

١) المَرْحَلَةُ الأُولَى: النَّشْأَةُ الغَامِضَةُ لِلْبَطَلِ

فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ، يَبْسُطُ الشَّخْصُ الرَّئِيسُ سُلْطَتَهُ عَلَى مَدَارِ السَّرْدِ، حَيْثُ تَتَمَحْوَرُ الأَحْدَاثُ حَوْلَ دَوْرِهِ الجَوْهَرِيِّ فِي اسْتِدَامَةِ الحِكَايَةِ. وَيُظْهِرُ المِسَاقُ القَصَصِيُّ فِي هَذَا الطَّوْرِ كَيْفَ يَمْتَلِكُ هَذَا الشَّخْصُ زِمَامَ النَّارَاتِيفِ بِأَسْرِهِ، مِمَّا يَجْعَلُ هَذِهِ المَرْحَلَةَ الأُولَى مِنَ المِيتُوس الكُومِيدِيِّ خَاضِعَةً لِهَيْمَنَتِهِ المُطْلَقَةِ، إِذْ يَحُوزُ فِيهَا عَلَى قُدْرَةٍ تَامَّةٍ وَمِثَالِيَّةٍ مُتَحَقِّقَةٍ عَلَى رُقْعَةِ العَالَمِ المِحْكِيِّ. وَمِنَ الجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ العَنَاصِرَ النَّظَرِيَّةَ الَّتِي سَيُعَرِّفُهَا البَاحِثُ لَاحِقًا بِدِقَّةٍ هِيَ: الكُومِيدِيَا الدِّيُونِيسِيَّةُ، وَالكُومِيدِيَا المَانِيرِيَّةُ، وَالبِيرِيبِيتِيَا، وَالأَنَاغْنُورِيسِيس.

(٦) وبعد مرور بضعة أيام على حادثة اللقاء الشيطاني تلك.. نصب "زاهاك" فخًّا لأبوه "كوش".. حفرة متوسطة العمق مثبت في قاعها أكثر من خمسين رمحًا متجاورًا.. حفرة مغطاة بأوراق الشجر.. كان هذا هو أول فخ يُنصب في التاريخ.. كان الفخ الذي قتل الملك "كوش" وحول جسده إلى مصفاة بشرية.. الفخ الذي

أوصل إلى العرش من بعده ملكًا كان هو الأكثر دموية وجنونًا ليس فقط بين ملوك بابل.. بل بين ملوك العالم كله.. ابنه "زاهاك".. "الملك النمرود." ص (١٩)

. يُصَوِّرُ البَيَانُ السَّادِسُ مُسْتَهَلَّ الميثُوس الكُومِيدِيِّ، وَلَا يَتَجَلَّى هَذَا فِي ظَفَرِ ضَحَّاكُ بِانْتِزَاعِ المُلْكِ مِنْ أَبِيهِ المِلِكِ كُوشَ فَحَسْبُ، بَلْ فِي حَالَةِ المجْتَمَعِ البَابِلِيِّ الَّذِي لَمْ يَنْقَدْ تَمَامًا لِتَنْصِيبِهِ مَلِكًا جَدِيدًا. فَمَا إِنْ نَفَّذَ ضَحَّاكُ أَمْرَ لُوزِيفَر فِي الإِطَاحَةِ بِأَبِيهِ، حَتَّى اسْتَحْصَلَ عَلَى شَرْعِيَّةِ السُّلْطَةِ، وَلُقِّبَ مِنْ ثَمَّ بِنَمْرُودَ. وَلَمْ يَكُنْ نَجَاحُهُ مَرْهُونًا بِقُوَّتِهِ العَسْكَرِيَّةِ وَالاقْتِصَادِيَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ بِمُؤَازَرَةِ السِّحْرِ وَجُيُوشِ الجِنِّ الخَاضِعَةِ لِسُلْطَانِ لُوزِيفَر. وَفِي بُعْدٍ آخَرَ مِنَ الرِّوَايَةِ، يَظْهَرُ أَنْتِيخْرِيستُوسُ مُتَمَثِّلًا فِي شَخْصِيَّةِ بَافُومِيتَ لِيُجَسِّدَ النَّمَطَ ذَاتَهُ؛ فَهُوَ فَرْدٌ حَازَ قُوَّةً رُوحِيَّةً وَسُوبِرْنَاتُورَالِيَّةً بَالِغَةً، حَتَّى رُؤِيَ فِيهِ المَرْجُوُّ الَّذِي يَمْلِكُ القُدْرَةَ عَلَى تَحْقِيقِ التَّطَلُّعَاتِ وَالظَّفَرِ بِثِقَةِ جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنَ الأَتْبَاعِ.

لَا تَنْحَصِرُ وَظِيفَةُ الكُومِيدِيَا فِي هَذِهِ البَيَانَاتِ عَلَى نَجَاحِ الفَرْدِ ذَاتِهِ، بَلْ تَتَجَلَّى فِي تَحَوُّلِ بِنْيَةِ السُّلْطَةِ الَّتِي غَيَّرَتْ مَسَارَ الحَيَاةِ الجَمْعِيَّةِ لِأَهْلِ بَابِلَ. وَلِذَا، فَقَدْ غَدَا حَدَثُ الإِطَاحَةِ بِالمِلِكِ كُوشَ مَحَطَّةَ انْقِطَاعٍ عَنِ النِّظَامِ القَدِيمِ الَّذِي كَانَ سَالِفًا قُطْبَ الِانْتِظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ. وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الحَدَثُ مُجَرَّدَ اسْتِبْدَالِ حَاكِمٍ بِآخَرَ، بَلْ كَانَ مَرْحَلَةَ تَمَزُّقٍ بِنْيَوِيٍّ وَخُرُوجٍ عَنِ المسَارِ الرَّاسِخِ فَسَحَتِ المجَالَ لِظُهُورِ هَيْكَلِ سُلْطَةٍ مُسْتَحْدَثٍ. وَبِهَذَا، تَكُونُ الوَظِيفَةُ القُصْوَى لِلطَّوْرِ الأَوَّلِ مِنَ الكُومِيدِيَا هِيَ تَقْوِيضُ شَرْعِيَّةِ النَّسَقِ السَّالِفِ كَيْ تَتَمَكَّنَ صَيْرُورَةُ التَّحَوُّلِ مِنَ التَّحَقُّقِ.

وَبَعْدَ انْهِدَامِ البِنْيَةِ القَدِيمَةِ، يَعْرِضُ السَّرْدُ كَيْفِيَّةَ تَشَكُّلِ شَرْعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ عَبْرَ سُلْطَةِ ضَحَّاكُ. فَفِي هَذِهِ المرْحَلَةِ، بَدَا النِّظَامُ الَّذِي شَيَّدَهُ ضَحَّاكُ مَرْكَزًا لِآمَالٍ جَدِيدَةٍ لِجَمَاعَةِ أَنْصَارِهِ. وَقَدْ أَوْهَمَ مَا تَحَقَّقَ مِنَ السُّلْطَةِ، وَالرُّقِيِّ، وَالِاسْتِقْرَارِ بِأَنَّ بَابِلَ قَدْ بَلَغَتْ نَمَطًا مِنَ الِانْتِظَامِ أَكْثَرَ مِثَالِيَّةً مِمَّا مَضَى. إِلَّا أَنَّهُ فِي بِنْيَةِ الكُومِيدِيَا عِنْدَ فْرَايِ، لَا تَرِدُ هَذِهِ الشَّرْعِيَّةُ قَطُّ بِوَصْفِهَا نِهَايَةَ مَطَافٍ، بَلْ تَبْدَأُ التَّنَاقُضَاتُ الدَّاخِلِيَّةُ فِي النُّمُوِّ حِينَ يُظَنُّ

بِالنِّظَامِ أَنَّهُ بَلَغَ مَبْلَغَ الكَمَالِ. وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، يَعْمَلُ نَجَاحُ ضَحَّاكُ مَرْحَلَةَ تَرْسِيخٍ لِلسُّلْطَةِ، وَفِي آنٍ وَاحِدٍ، يُهَيِّئُ القَوَاعِدَ لِمِيلَادِ الصِّرَاعِ التَّالِي.

تَتَفَجَّرُ هَذِهِ التَّنَاقُضَاتُ حِينَ تَنْفَصِمُ مَصَالِحُ الحَاكِمِ عَنِ احْتِيَاجَاتِ الرَّعِيَّةِ انْفِصَامًا مُتَزَايِدًا. وَعِنْدَ هَذَا المِفْصَلِ، يَتَجَهُ السَّرْدُ نَحْوَ مَرْحَلَةِ القَلْبِ البِنْيَوِيّ. فَإِنَّ كَاوِي لا يَحْضُرُ بِوَصْفِهِ شَخْصِيَّةً مُعَارِضَةً فَحَسْبُ، بَلْ يَتَبَدَّى أَدَاةً أَرْكِيتَايْبِيَّةً تُقَوِّضُ شَرْعِيَّةَ سُلْطَةِ ضَحَّاكُ. وَيُؤَذِّنُ حُضُورُهُ بِانْتِقَالِ مَرْكَزِ الثِّقْلِ الأَخْلَاقِيّ فِي السَّرْدِ مِنَ الحَاكِمِ إِلَى المجْتَمَعِ الَّذِي يَتَجَرَّعُ تَبِعَاتِ ذَلِكَ النِّظَامِ. وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ، لَا يَعُودُ الصِّرَاعُ القَائِمُ صِرَاعًا بَيْنَ أَفْرَادٍ، بَلْ يَغْدُو آلِيَّةً تَقْوِيمِيَّةً تَرُدُّ التَّوَازُنَ الِاجْتِمَاعِيَّ الَّذِي اعْتَرَاهُ الِانْحِرَافُ سَالِفًا.

وَتُعَدُّ سُقُوطُ نَمْرُودَ وَظَفَرُ حَرَكَةِ المقَاوَمَةِ مَحَطَّةَ التَّسْوِيَةِ لِنَمَطِ الكُومِيدِيَا فِي هَذِهِ البَيَانَاتِ. فَلَيْسَ الَّذِي يَظْفَرُ بِالنَّصْرِ فَرْدًا بِعَيْنِهِ، بَلْ هُوَ مِيلَادُ تَرْكِيبَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ بَعْدَ أَنْ فَقَدَتِ البِنْيَةُ القَدِيمَةُ شَرْعِيَّتَهَا. وَعَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ خَاتِمَةَ الكُومِيدِيَا لَا تُحَدَّدُ بِمَنْ آلَتْ إِلَيْهِ السُّلْطَةُ، بَلْ بِمَدَى نَجَاحِ المجْتَمَعِ فِي التَّخَلُّصِ مِنَ النِّظَامِ الَّذِي أَصَابَهُ العَطَلُ البِنْيَوِيُّ. وَتُبَيِّنُ هَذِهِ التَّحَوُّلَاتُ أَنَّ نَمَطَ الكُومِيدِيَا فِي قِصَّةِ ضَحَّاكُ يَعْمَلُ عَبْرَ ثَلَاثِ حَرَكَاتٍ بِنْيَوِيَّةٍ مُتَرَابِطَةٍ: هَدْمُ النِّظَامِ القَدِيمِ، وَتَرْسِيخُ نِظَامٍ جَدِيدٍ، ثُمَّ القَلْبُ الَّذِي يُفْضِي إِلَى إِعَادَةِ التَّنْظِيمِ الِاجْتِمَاعِيّ.

فِي إِطَارِ التَّحْلِيلِ السَّابِقِ، تَأْتِي دِرَاسَةُ جَمَال بِلْقَاسِم (٢٠١٤) المعْنُونَةُ بِـ الهُوِيَّة وَمُرَاجَعَة الميتُولُوجِيَا البَيْضَاء: سِيَاسَات التَّمْثِيل، حَيْثُ اعْتَمَدَ البَاحِثُ مَنْهَجَ الدِّرَاسَةِ المكْتَبِيَّةِ الكَيْفِيَّةِ بِمُقَارَبَةِ التَّحْلِيلِ الخِطَابِيّ لِمِيشِيل فُوكُو وَنَقْدِ الِاسْتِشْرَاقِ لِإِدْوَارْد سَعِيد، لِيَخْلُصَ إِلَى أَنَّ الهُوِيَّةَ لَيْسَتْ جَوْهَرًا سَاكِنًا، بَلْ هِيَ بِنَاءٌ خِطَابِيٌّ تَصُوغُهُ سِيَاسَاتُ التَّمْثِيلِ؛ إِذْ يُسْتَخْدَمُ السَّرْدُ أَدَاةً لِلسُّلْطَةِ بِغِيَةَ الهَيْمَنَةِ عَلَى الآخَرِ. وَتَظْهَرُ حَجِيَّةُ إِشْكَالِيَّتِهِ الَّتِي تُسَلِّطُ الضَّوْءَ عَلَى كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ اللُّغَةِ وَالميتُوسِ لِنِظَامِ الحَقِيقَةِ عِنْدَ رَبْطِهَا بِبَيَانَاتِ المرْحَلَةِ

الأُولَى لِضَحَّاكُ (نَمْرُودَ)؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ نَجَاحُهُ فِي الإِطَاحَةِ بِالمِلِكِ كُوشَ مُجَرَّدَ إِنْجَازٍ عَسْكَرِيٍّ، بَلْ تَفَوُّقًا فِي التَّمْثِيلِ لِذَاتِهِ فِي صُورَةِ الفَرْدِ المِمْتَثِلِ لِتَوْجِيهَاتِ لُوزِيفَر. وَفِي نَتَائِجِ تَحْلِيلِهِ، يُؤَكِّدُ بِلْقَاسِم أَنَّ الهُوِيَّةَ وَالسُّلْطَةَ هُمَا نِتَاجُ لُعْبَةِ اللُّغَةِ وَمُمَارَسَاتِ التَّمْثِيلِ، وَهَذَا مَا يَتَجَلَّى فِي حَالَةِ ضَحَّاكُ عَبْرَ الشَّرْعِيَّةِ المِاوَرَائِيَّةِ الَّتِي مَنَحَتْهَا جُيُوشُ الجِنِّ وَسِحْرُ لُوزِيفَر، وَكَذَلِكَ فِي تَمَاثُلِ شَخْصِيَّةِ بَافُومِيتَ فِي أُفُقٍ آخَرَ الَّتِي عُبِدَتْ كَمَصْدَرٍ لِقَضَاءِ الحَاجَاتِ. وَعَلَى هَذَا، سَوَاءٌ فِي قِرَاءَةِ بِلْقَاسِم لِخِطَابِ مَا بَعْدَ الِاسْتِعْمَارِ أَوْ فِي هَذِهِ البَيَانَاتِ البَابِلِيَّةِ، يَتَبَدَّى أَنَّ نِظَامَ الحَقِيقَةِ فِي نَظَرِ الرَّعِيَّةِ لَا يَنْشَأُ بِصُورَةٍ فِطْرِيَّةٍ، بَلْ عَبْرَ التَّلَاعُبِ بِالسَّرْدِ وَرُمُوزِ القُوَّةِ الَّتِي شُيِّدَتْ وَعْيًا لِغَرْسِ النُّفُوذِ. وَبِذَلِكَ، تَصِيرُ المِرْحَلَةُ الأُولَى لِضَحَّاكُ بُرْهَانًا تَجْرِيبِيًّا عَلَى كَيْفِيَّةِ قِيَامِ المِرْءِ بِبِنَاءِ هُوِيَّتِهِ كَحَاكِمٍ شَرْعِيٍّ بِاسْتِغْلَالِ تَبَعِيَّةِ المِجْتَمَعِ لِلْقُوَّةِ الرُّوحِيَّةِ بِوَصْفِهَا آلِيَّةَ ضَبْطٍ اجْتِمَاعِيٍّ بَالِغَةَ الفَعَّالِيَّةِ.

فِي سِيَاقِ سَرْدِ رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ، لَا يَرِدُ أَرْكِيتَايْب الكُومِيدِيَا مُجَرَّدَ مَسَاقٍ يَنْتَهِي بِسَعَادَةٍ شَخْصِيَّةٍ، بَلْ يَتَبَدَّى آلِيَّةً شِعْرِيَّةً تَقُومُ عَلَى تَفْكِيكِ نِظَامِ العِمْرَانِ وَإِعَادَةِ تَرْكِيبِهِ. فَإِنَّ حَدَثَ الإِطَاحَةِ بِالمِلِكِ كُوشَ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ يَعْمَلُ بِمَثَابَةِ نُقْطَةِ تَحَوُّلٍ تُحْدِثُ تَمَزُّقًا بِنْيَوِيًّا لِاسْتِمْرَارِيَّةِ التَّارِيخِ؛ إِذْ لَا يَعُودُ الأَمْرُ مُجَرَّدَ خَلَافَةٍ سِيَاسِيَّةٍ، بَلْ هُوَ أَرْكِيتَايْب تَمَزُّقٍ بِنْيَوِيٍّ يُذْهِبُ بِالشَّرْعِيَّةِ القَدِيمَةِ لِيُفْسِحَ مَجَالًا لِإِمْكَانِيَّاتٍ جَدِيدَةٍ. وَفِي هَذِهِ الدِّينَامِيكِيَّةِ، يَغْدُو الِانْهِدَامُ فِعْلًا إِبْدَاعِيًّا حَتْمِيًّا؛ حَالَةً يَجِبُ تَفْرِيغُهَا كَيْ يَسْتَطِيعَ السَّرْدُ تَشْيِيدَ هَيْكَلٍ لِلنِّظَامِ أَكْثَرَ نَضَارَةً فَوْقَ أَنْقَاضِ السُّلْطَةِ الَّتِي أَدْرَكَهَا البِلَى.

وَبَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ الفَرَاغُ، يَمْضِي أَرْكِيتَايْب الكُومِيدِيَا فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ نَحْوَ مَرْحَلَةِ التَّرْسِيخِ حِينَ تَبْرُزُ سُلْطَةُ ضَحَّاكُ مَرْكَزَ ثِقْلٍ يُقَدِّمُ الِاسْتِقْرَارَ. وَلَكِنَّ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى يُضَمِّنُ نَصَّهُ سُخْرِيَةً أَدَبِيَّةً؛ إِذْ لَا يُمَثِّلُ ذَلِكَ الِاسْتِقْرَارُ قِمَّةً مِثَالِيَّةً، بَلْ هُوَ فَخٌّ جَمَالِيٌّ. فَمِنْ مَنْطِقِ أَرْكِيتَايْب الكُومِيدِيَا، كُلَّمَا بَدَا النِّظَامُ عَلَى السَّطْحِ كَامِلًا، ازْدَادَ هَشَاشَةً

فِي بَاطِنِهِ. فَنَجَاحُ ضَحَّاكُ فِي إِقَامَةِ النِّظَامِ لَيْسَ إِلَّا مَرْحَلَةَ تَهْيِئَةٍ لِمِيلَادِ التَّنَاقُضَاتِ الَّتِي لَا مَحِيصَ عَنْهَا، حَيْثُ تُصْبِحُ المَرَارَةُ وَسِيطًا يُؤَدِّي إِلَى انْهِدَامِ ذَاتِهِ.

وَيَسْرِي هَذَا التَّوَتُّرُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا إِلَى جَمِيعِ مَفَاصِلِ السَّرْدِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ، حِينَ تَبْدَأُ احْتِيَاجَاتُ الحَاكِمِ بِالتَّقَاطُعِ مَعَ نَبَضَاتِ المجْتَمَعِ. وَعِنْدَ هَذَا المفْصَلِ، يَعْمَلُ أَرْكِيتَايْب الكُومِيدِيَا عَبْرَ آلِيَّةِ القَلْبِ العُضْوِيّ؛ فَلَا يَكُونُ حُضُورُ كَاوِي تَدَخُّلًا خَارِجِيًّا مُفَاجِئًا، بَلْ هُوَ تَجَلٍّ لِأَخْلَاقٍ قُذِفَ بِهَا خَارِجَ مَرْكَزِ السُّلْطَةِ لِتُزْهِرَ مُجَدَّدًا فِي القَاعِدَةِ الشَّعْبِيَّةِ. وَلَا يَعُودُ الصِّرَاعُ صِرَاعًا سَطْحِيًّا بَيْنَ أَفْرَادٍ، بَلْ يَغْدُو عَمَلِيَّةَ تَطْهِيرٍ بِنْيَوِيّ. وَمَا الاضْطِرَابُ النَّاشِئُ إِلَّا اسْتِجَابَةٌ فِطْرِيَّةٌ مِنْ عِمْرَانٍ يَقُومُ بِتَقْوِيمِ الِانْحِرَافَاتِ الَّتِي ارْتَكَبَتْهَا هَيْمَنَةُ الطُّغْيَانِ.

وَفِي النِّهَايَةِ، لَا تَتَمَحْوَرُ التَّسْوِيَةُ الَّتِي تُقَدِّمُهَا رِوَايَةُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ حَوْلَ مَنْ يَعْتَلِي العَرْشَ، بَلْ حَوْلَ النَّجَاحِ الجَمْعِيّ فِي فَكِّ اشْتِبَاكِ العَطَلِ الَّذِي يُحَاصِرُهُمْ. فَيُصْبِحُ سُقُوطُ نَمْرُودَ رَمْزًا لِأَرْكِيتَايْب إِعَادَةِ التَّنْظِيمِ الِاجْتِمَاعِيّ الَّذِي يُقَدِّمُ إِرَادَةَ المجْتَمَعِ عَلَى أَنَانِيَّةِ الحَاكِمِ. لَقَدْ نَجَحَ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى فِي حِيَاكَةِ الحَرَكَاتِ البِنْيَوِيَّةِ لِأَرْكِيتَايْب الكُومِيدِيَا، مِنَ التَّفَكُّكِ، إِلَى التَّرْسِيخِ، ثُمَّ القَلْبِ، فِي نَفَسٍ سَرْدِيٍّ مُتَّسِقٍ. وَيُفَكِّكُ نَمَطُ أَرْكِيتَايْب الكُومِيدِيَا هُنَا وَهْمَ السُّلْطَةِ الخَالِدَةِ، مُؤَكِّدًا أَنَّ العِمْرَانَ الحَيَّ هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الدَّوَامِ عَلَى قَلْعِ الطُّغْيَانِ عَبْرَ آلِيَّةِ النَّقْدِ الذَّاتِيّ الجَذْرِيّ.

٢) المَرْحَلَةُ الكِيكْزُوتِيَّةُ: مُفَارَقَةُ التَّنَاقُضِ بَيْنَ المِثَالِيَّةِ وَالوَاقِعِيَّةِ

تَلِي المرْحَلَةَ الكُومِيدِيَّةَ الأُولَى المرْحَلَةُ الكِيكْزُوتِيَّةُ، وَيُفَصِّلُ نُورْثْرُوب فْرَاي فِي كِتَابِهِ تَشْرِيحُ النَّقْدِ كَيْفِيَّةَ بِنَاءِ شَخْصِيَّةِ الأَلَازُون لِوَهْمٍ يَتَضَمَّنُ رِسَالَةً تَنْطَوِي عَلَى فَوْقِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ إِزَاءَ النِّظَامِ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ الإِيرُون. وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الطَّرْحِ، فَإِنَّ الدِّينَامِيكِيَّةَ النَّاجِمَةَ عَنْ ذَلِكَ تَتَجَلَّى فِي اصْطِدَامِ الدُّوجْمَا بِالوَاقِعِ، مَعَ انْكِشَافِ وَهْمِ تَفَوُّقِ نِظَامِ الأَلَازُون عَلَى الإِيرُون.

(٧) أثناء وجود "بوكاه ونتاس" في الأسر بدأت تتكوّن بداخلها بذرة إعجاب بحضارتنا، ثم أخذت تنمو شيئًا فشيئًا، فمنذ معرفتي بها وأنا ألمس فيها ميلاً إلى التحضّر ونفورًا من ما كانت تراه تخلفًا في قومها، وخلال فترة أسرها ازداد هذا الإعجاب، خاصة مع ما كانت تتلقاه من معاملة إنجليزية راقية، حتى إنها اقتنعت بالمسيحية واعتنقتها، وأُقيمت لها مراسم التعميد وتم تغيير اسمها إلى "ريبيكا"، وقد اخترنا لها هذا الاسم تيمّنًا بريبيكا المذكورة في التوراة، أم "يعقوب" وعيسون"، إذ انحدرت من كلٍ منهما أمة، فكانت ريبيكا أمًّا لأمتين، وكذلك كانت "بوكاهونتاس" تمثل التقاء أمتين، أمة الإنجليز وأمة الهنود الحمر (ص ١٤٩)

يَمْثُلُ البَيَانُ السَّادِسُ عُشْرًا حِكَايَةَ صَيْرُورَةِ تَحَوُّلِ بُوكَاهُونْتَاس خِلَالَ فَتْرَةِ أَسْرِهَا لَدَى الإِنْجِلِيزِ؛ فَهِيَ مِنْ خِلَالِ التَّفَاعُلِ المكَثَّفِ اسْتَحْسَنَتِ الحَضَارَةَ الإِنْجِلِيزِيَّةَ، وَأَمْسَتْ تَنْظُرُ إِلَى ثَقَافَةِ قَوْمِهَا بِعَيْنِ النَّقْصِ وَالتَّأَخُّرِ. وَهَذَا الإِعْجَابُ تَنَامَى بِفَضْلِ حُسْنِ المعَامَلَةِ الَّتِي لَقِيَتْهَا، حَتَّى اعْتَنَقَتِ المسِيحِيَّةَ وَخَضَعَتْ لِمَرَاسِمِ التَّعْمِيدِ. وَتَبَعًا لِذَلِكَ، اسْتُبْدِلَ اسْمُهَا بِرِيبِيكَا، اسْتِلْهَامًا مِنَ الشَّخْصِيَّةِ الوَارِدَةِ فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي تُعَدُّ أُمًّا لِأُمَّتَيْنِ. وَيُشَكِّلُ هَذَا التَّغْيِيرُ فِي الاسْمِ رَمْزًا لِالْتِقَاءِ الحَضَارَتَيْنِ وَانْدِمَاجِهِمَا، أَعْنِي الإِنْجِلِيزَ وَالهُنُودَ، حَيْثُ تَصِيرُ بُوكَاهُونْتَاس رَمْزًا جِسْرِيًّا ثَقَافِيًّا بَيْنَ كِلْتَا المجْمُوعَتَيْنِ.

سُلْطَةُ نَمْرُودَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ مُتَجَاوِزَةٌ لِلنِّطَاقِ السِّيَاسِيِّ، إِذْ حَوَّلَ هُوَ شَرْعِيَّتَهُ إِلَى أَرْكِيتَايْب عِبَادِيٍّ طَائِفِيٍّ. وَبِتَنْصِيبِ ذَاتِهِ تَمْثِيلًا لِلإِرَادَةِ الإِلَهِيَّةِ، لَمْ يَكْتَفِ نَمْرُودَ بِالحُكْمِ المادِّيِّ، بَلْ بَلَغَ نَفَاذُهُ أَعْمَاقَ وُعُورِ المجْتَمَعِ البَابِلِيِّ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الهَيْمَنَةَ وَاجَهَتْ تَمْزِيقًا بِنْيَوِيٍّ حِينَ حَضَرَ إِبْرَاهِيمُ بِوَصْفِهِ أَرْكِيتَايْب حَامِلَ نِظَامِ المعْنَى الجَدِيدِ، مُقَدِّمًا مُعَارَضَةً جَذْرِيَّةً. فَإِنَّ الصِّرَاعَ بَيْنَهُمَا لَيْسَ مُجَرَّدَ خُصُومَةٍ بَيْنَ شَخْصَيْنِ، بَلْ هُوَ اصْطِدَامٌ بَيْنَ نِظَامٍ

يَتَلَاعَبُ بِالْوَعْيِ الجَمْعِيِّ لِإِدَامَةِ الهَيْمَنَةِ، وَنِظَامٍ يَرُدُّ الأَوْطَارِيَّةَ إِلَى الحَقِيقَةِ المُتَعَالِيَةِ خَارِجَ مَدَى قُدْرَةِ البَشَرِ.

وَتَحَوُّلُ هُوِيَّةِ بُوكَاهُونْتَاس إِلَى رِيبِيكَا فِي النَّصِّ مِرْآةٌ جَلِيَّةٌ لِكَيْفِيَّةِ عَمَلِ أَرْكِيتَايْب التَّقْلِيدِ الدَّنِيءِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ. فَهَذَا التَّغْيِيرُ فِي الاسْمِ فِعْلٌ دَلَالِيٌّ يُعَرِّي الهُوِيَّةَ الأَصْلِيَّةَ وَيَسْتَبْدِلُهَا بِعَلَامَةٍ شَرْعِيَّةٍ فَوْقَ حَجَرِ النِّظَامِ الِاسْتِعْمَارِيِّ. وَهُنَا، لَا يَعُودُ السَّرْدُ مُنْصَبًّا عَلَى غَصْبِ الأَرْضِ، بَلْ عَلَى اسْتِعْمَارِ المَعْنَى فِي الذَّاتِ الفَرْدِيَّةِ. فَيَظْهَرُ شَخْصُ كِيكْزُوتِي فِي هَذَا السِّيَاقِ وُعِيًّا مُتَشَظِّيًا؛ هُوَ ذَاتٌ تَحْشُرُهَا مَوَاعِيدُ النِّظَامِ الِاسْتِعْمَارِيِّ بَيْنَ وَعْدٍ بِالِانْتِظَامِ وَوَاقِعٍ وُجُودِيٍّ فَارِغٍ. وَهَذَا التَّوَتُّرُ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ الهَيْمَنَةَ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ تَعْمَلُ بِأَقْصَى فَاعِلِيَّتِهَا لَا حِينَ تُكْرِهُ بِالسِّلَاحِ، بَلْ حِينَ تَنْجَحُ فِي جَعْلِ الذَّاتِ تَخْتَفِي بِخُضُوعِهَا الذَّاتِيِّ.

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، تَدُلُّ مَكَانَةُ أَلَازُون بِوَصْفِهِ تَمْثِيلًا لِأَوْطَارِيَّةِ النِّظَامِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ عَلَى رُسُوخِ الشَّرْعِيَّةِ حِينَ تَتَخَفَّى فِي زِيِّ مِعْيَارِ العَقْلَانِيَّةِ. فَلَا تَبْرُزُ الهَيْمَنَةُ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ بِصُورَةِ غَازٍ أَجْنَبِيٍّ، بَلْ بِوَصْفِهَا مُحَدِّدَ حَقِيقَةٍ تَلَقَّاهَا المُجْتَمَعُ المَحَلِّيُّ عَلَى أَنَّهَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ. وَإِنَّ التَّصَدُّعَاتِ الدَّاخِلِيَّةَ فِي البِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ لِأَهْلِ البِلَادِ، كَمَا صَوَّرَهَا النَّصُّ، صَارَتْ مَسَالِكَ تُمَهِّدُ لِنَفَاذِ هَذَا النِّظَامِ. فَإِنَّ انْهِدَامَ العِمْرَانِ، فِي نَظَرِ أَرْكِيتَايْب فْرَاي المُتَجَلِّي فِي البَيَانَاتِ، لَيْسَ طَارِئًا قَادِمًا مِنَ الخَارِجِ، بَلْ هُوَ نَتَاجُ تَآكُلٍ دَاخِلِيٍّ يُقَوِّضُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا أَسَاسَ أَخْلَاقِ المُجْتَمَعِ ذَاتِهِ.

تَتَمَثَّلُ المَرْحَلَةُ الكِيكْزُوتِيَّةُ فِي هَذِهِ التَّحْلِيلَاتِ نُقْطَةَ تَقَاطُعٍ مَعَ دِرَاسَةِ مُحَمَّد حُسَيْن عَلِي السُّيُوطِيّ وَسَلَام نَاصِر وَالِي (٢٠٢٣) المَعْنُونَةُ بِـ دَلَالَات الميثُولُوجِيَا السِّيَاسِيَّة فِي كِتَابَات الرَّحَّالَة المغَارِبَة وَالأَنْدَلُسِيّين المسْلِمِين؛ إِذْ تُشَكِّلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ مَرْجِعًا نَقْدِيًّا رَصِينًا لِمُقَارَنَةِ بِنَاءِ السَّرْدِ الِاسْتِعْمَارِيِّ فِي البَيَانِ الثَّامِنِ المَتَعَلِّقِ بِبُوكَاهُونْتَاس. وَقَدْ تَسَاءَلَ البَاحِثَانِ

فِي إِشْكَالِيَّتِهِمَا عَنْ كَيْفِيَّةِ تَوْظِيفِ الرَّحَّالَةِ المسْلِمِينَ فِي القُرُونِ مِنَ السَّادِسِ إِلَى الثَّامِنِ الهِجْرِيّ لِلسَّرْدِ الميثُولُوجِيّ بُغْيَةَ إِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ عَلَى سُلْطَتِهِمْ. وَمِنْ خِلَالِ المنْهَجِ الكَيْفِيّ الوَصْفِيّ الَّذِي بَحَثَ فِي المصَادِرِ الأَوَّلِيَّةِ لِكُتُبِ الرِّحْلَاتِ، أَثْبَتَ البَحْثُ أَنَّ الميثُولُوجِيَا كَثِيرًا مَا تُمْتَهَنُ لِخِدْمَةِ الهَيْمَنَةِ، كَمَا يَتَبَدَّى فِي أُسْطُورَةِ مَنَارَةِ إِسْكَنْدَرِيَّةَ أَوْ حِكَايَةِ دُعَاءِ الأَبَادِلَةِ. وَأَظْهَرَتْ نَتَائِجُ التَّحْلِيلِ أَنَّ هَذِهِ السَّرْدِيَّاتِ لَا تَمُتُّ لِلْحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ بِصِلَةٍ، بَلْ هِيَ أَدَوَاتٌ لِتَطْوِيعِ وُعِيِّ القَارِئِ لِاعْتِرَافِهِ بِسِيَادَةِ الحَاكِمِ المرْمَزِ لَهَا بِالشَّرْعِيَّةِ الإِلَهِيَّةِ. وَتُؤَكِّدُ النَّتِيجَةُ الخِتَامِيَّةُ أَنَّ الميثُولُوجِيَا السِّيَاسِيَّةَ آلِيَّةٌ نَافِذَةٌ فِي بِنَاءِ الحَقِيقَةِ لِغَايَةِ التَّسَلُّطِ الثَّقَافِيّ وَالسِّيَاسِيّ.

وَإِنَّ الارْتِبَاطَ بَيْنَ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ وَالبَيَانِ الثَّامِنِ ارْتِبَاطٌ وَثِيقٌ؛ فَتَحَوُّلُ هُوِيَّةِ بُوكَاهُونْتَاس إِلَى رِيبِيكَا عَبْرَ مَرَاسِمِ التَّعْمِيدِ يُقْرَأُ بِوَصْفِهِ تَطْبِيقًا لِنَمَطِ الميثُولُوجِيَا السِّيَاسِيَّةِ ذَاتِهِ الَّذِي رَصَدَهُ السُّيُوطِيُّ. فَإِذَا كَانَ الرَّحَّالَةُ المسْلِمُونَ قَدِ اسْتَخْدَمُوا الرُّمُوزَ الدِّينِيَّةَ لِادِّعَاءِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى أَرَاضٍ أَوْ مَجْمُوعَاتٍ، فَإِنَّ الِاسْتِعْمَارَ الإِنْجِلِيزِيَّ فِي البَيَانِ الثَّامِنِ قَدِ اتَّخَذَ مِنْ رَمْزِيَّةِ اسْمِ رِيبِيكَا، الشَّخْصِيَّةِ الكِتَابِيَّةِ أُمِّ الأُمَّتَيْنِ، سَرْدًا مِيثِيًّا لِتَبْرِيرِ اللِّقَاءِ القَسْرِيّ بَيْنَ الإِنْجِلِيزِ وَالهُنُودِ. وَبِتَنْصِيبِ بُوكَاهُونْتَاس أُمًّا لِلأُمَّتَيْنِ، مَارَسَ الإِنْجِلِيزُ نَسْقِيًّا تَفْكِيكًا لِهُوِيَّتِهَا الأَصْلِيَّةِ وَاسْتَحَالَتْ وَجْهًا لِدِعَايَةِ التَّحَدُّثِ المتَمَدِّنِ. وَعَلَى ذَلِكَ، سَوَاءٌ فِي مُدَوَّنَاتِ الرَّحَّالَةِ أَوْ فِي البَيَانِ الثَّامِنِ، لَا تَرِدُ الميثُولُوجِيَا حِكَايَاتٍ شَعْبِيَّةً بَسِيطَةً، بَلْ هِيَ اسْتِرَاتِيجِيَّةُ سُلْطَةٍ مُتَعَمَّدَةٌ لِإِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الِاخْتِرَاقِ عَبْرَ غَرْسِ الرُّمُوزِ الدِّينِيَّةِ المِيثِيَّةِ فِي أَعْمَاقِ المجْتَمَعَاتِ المغْلُوبَةِ.

يَسْتَنْتِجُ البَاحِثُ مِنْ خِلَالِ هَذَا التَّحْلِيلِ أَنَّ المرْحَلَةَ الكِيكْزُوتِيَّةَ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ لَا تَعْدُّ مُجَرَّدَ تَمْثِيلٍ لِإِخْفَاقِ المِثَالِيَّةِ أَوْ نَجَاحِهَا، بَلْ هِيَ فَضَاءٌ جَدَلِيٌّ يَلْتَقِي فِيهِ التَّوَتُّرُ بَيْنَ الرُّؤْيَةِ المتَعَالِيَةِ وَالوَاقِعِ المادِّيّ. وَفِي إِطَارِ أَرْكِيتَايْب فْرَاي، تَعْكِسُ هَذِهِ المرْحَلَةُ إِصْرَارَ الفَرْدِ

أَوْ الجَمَاعَةِ عَلَى التَّمَسُّكِ بِتَوَجُّهَاتِ القِيمِ فِي خِضَمِّ التَّيَّارِ المعَاكِسِ لِتَنْظِيمِ المجْتَمَعِ النَّفْعِيِّ. وَيَكْشِفُ أَرْكِيتَايْب الكِيكْزُوتِي عَنِ الحَقِيقَةِ القَائِلَةِ بِأَنَّ كُلَّ طَفْرَةٍ تَارِيخِيَّةٍ تَبْدَأُ مِنْ فِكْرَةٍ يَرَاهَا النِّظَامُ المهَيْمِنُ شَاذَّةً أَوْ هَامِشِيَّةً. وَلَكِنْ هُنَا تَقَعُ المِحْنَةُ الحَقِيقِيَّةُ: إِلَى أَيِّ مَدًى تَسْتَطِيعُ هَذِهِ المِثَالِيَّةُ الصُّمُودَ دُونَ أَنْ تَفْقِدَ مِرْسَاتَهَا فِي الوَاقِعِ المَوْضُوعِيِّ؛ إِذْ أَنَّ المِثَالِيَّةَ المنْتَزَعَةَ مِنْ جُذُورِ الوَاقِعِ تَفْقِدُ قُوَّةَ دَفْعِهَا، بَيْنَمَا يَفْقِدُ النَّفْعُ دُونَ رُؤْيَةٍ وَجْهَةَ مَسَارِهِ.

وَتُظْهِرُ هَذِهِ الدِّينَامِيكِيَّةُ أَنَّ كُلَّ عِمْرَانٍ يَظَلُّ فِي صَيْرُورَةِ تَفَاوُضٍ مُسْتَمِرٍّ بَيْنَ العَالَمِ المرْتَجَى وَالعَالَمِ المحْسُوسِ، وَهَذَا التَّضَادُّ هُوَ نَبْضُ التَّارِيخِ البَشَرِيِّ الأَعْرَقُ. وَتَغْدُو المرْحَلَةُ الكِيكْزُوتِيَّةُ مَيْدَانَ صِرَاعٍ تُخْتَبَرُ فِيهِ القِيَمُ؛ فَالتَّوَجُّهُ المِثَالِيُّ يَعْمَلُ بِوَصْفِهِ بُوصَلَةً، بَيْنَمَا تَعْمَلُ مَعْرِفَةُ الظُّرُوفِ المَوْضُوعِيَّةِ سَبِيلًا لِلتَّنَقُّلِ. وَعَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ جَوْهَرَ أَرْكِيتَايْب الكِيكْزُوتِي لَا يَكْمُنُ فِي النَّصْرِ أَوْ الهَزِيمَةِ المُلْحَمِيَّةِ، بَلْ فِي صَلَابَةِ الذَّاتِ عَلَى حِفْظِ نَزَاهَةِ تَوَجُّهِ القِيمِ تَحْتَ وَطْأَةِ ضُغُوطِ النِّظَامِ السَّاعِي دَوْمًا إِلَى تَقْنِينِ الوَاقِعِ الرَّاهِنِ.

وَتَكْشِفُ جِدَّةُ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ فِي هَذَا البَحْثِ أَنَّ المرْحَلَةَ الكِيكْزُوتِيَّةَ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ تَعْمَلُ أَدَاةً اسْتِرَاتِيجِيَّةً لِتَدَخُّلِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ. فَلَا يَظْهَرُ الصِّرَاعُ هُنَا اصْطِدَامًا بَيْنَ بَيَاضٍ وَسَوَادٍ أَوْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، بَلْ حَرْبًا بِالوَكَالَةِ لِتَحْدِيدِ مَعْنَى الغَايَاتِ الجَمْعِيَّةِ. فَأَنْتِيخْرِيستُوسَ لَا يَكْتَفِي بِالتَّخْرِيبِ المادِّيِّ، بَلْ يَعْمِدُ إِلَى تَشْوِيهِ التَّوَجُّهَاتِ المِثَالِيَّةِ لِلإِنْسَانِ؛ إِذْ يَنْحَرِفُ النِّضَالُ ذُو الجُذُورِ الرُّوحِيَّةِ الرَّاسِخَةِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا نَحْوَ طُمُوحَاتٍ تَبْدُو مِثَالِيَّةً فِي ظَاهِرِهَا، وَلَكِنَّهَا فِي جَوْهَرِهَا قَدْ فَقَدَتْ أُسُسَهَا المتَعَالِيَةَ. وَهَذَا التَّشْوِيهُ هُوَ أَجْلَى صُوَرِ الِاخْتِرَاقِ الجَوْهَرِيِّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَهْدِمُ بِنَاءَ العِمْرَانِ مِنَ الخَارِجِ، بَلْ يُبَدِّلُ مَضْمُونَ الغَايَاتِ الَّتِي تُقِيمُهُ.

وَتُؤَكِّدُ مَآلَاتُ هَذِهِ النَّتَائِجِ أَنَّ التَّهْدِيدَ لِلْعِمْرَانِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ تَهْدِيدٌ عَقَائِدِيٌّ وَرُوحِيٌّ. فَحِينَ تَفْقِدُ المِثَالِيَّةُ وُجْهَتَهَا الرَّبَّانِيَّةَ، فَإِنَّ ذَلِكَ العِمْرَانَ قَدْ أَخَذَ فِي الِانْهِدَامِ مِنْ

بَاطِنِهِ. وَتُصْبِحُ المَرْحَلَةُ الكِيكْزُوتِيَّةُ مَسْرَحًا يُرَاهَنُ فِيهِ عَلَى هَذِهِ الوُجْهَةِ؛ فَهِيَ لَا تَعُدُّ مُجَرَّدَ مَحَطَّةٍ أُولَى لِلنِّضَالِ الِاجْتِمَاعِيِّ، بَلْ نُقْطَةً حَرِجَةً يَتَحَدَّدُ فِيهَا مَصِيرُ مُسْتَقْبَلِ العِمْرَانِ. وَفِي بِنَاءِ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى السَّرْدِيِّ، هَذَا الصِّرَاعُ عَلَى المَعْنَى هُوَ جَوْهَرُ سِلْسِلَةِ الأَحْدَاثِ نَحْوَ أُفُقِ الإِسْخَاتُولُوجِيَا الإِسْلَامِيِّ. وَعَلَى هَذَا، فَإِنَّ مَسِيرَةَ تَارِيخِ العِمْرَانِ صَيْرُورَةُ اصْطِفَاءٍ مُسْتَمِرٍّ بَيْنَ الجُهْدِ لِحِفْظِ البُوصَلَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي خِضَمِّ إِغْوَاءِ الأَوْهَامِ الَّتِي يَنْشُرُهَا تَدَخُّلُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لِصَرْفِ الإِنْسَانِ عَنْ مَبَادِئِ التَّأْلِيهِ.

٣) مَرْحَلَةُ الكُومِيدِيَا المِعْيَارِيَّةُ: انْتِهَاءُ النِّظَامِ القَدِيمِ هُوَ بِدَايَةُ الحِكَايَةِ الحَقِيقِيَّةِ.

إِذَا كَانَتِ المَرْحَلَةُ الكِيكْزُوتِيَّةُ تُظْهِرُ اصْطِدَامَ الوَهْمِ بِالوَاقِعِ، فَإِنَّ مَرْحَلَةَ الكُومِيدِيَا المِعْيَارِيَّةِ هِيَ اللَّحْظَةُ الَّتِي يُثْمِرُ فِيهَا هَذَا الِاصْطِدَامُ قَرَارًا فَاصِلًا، حَيْثُ يَنْهَارُ النِّظَامُ القَدِيمُ، وَيَبْدَأُ النِّظَامُ الجَدِيدُ فِي مَلْءِ الفَرَاغِ الَّذِي تَرَكَهُ. وَفِي إِطَارِ فْرَاي، تَتَمَيَّزُ هَذِهِ المَرْحَلَةُ بِتَحَوُّلِ الهَيْمَنَةِ مِنَ الإِيرُون إِلَى الأَلَازُون؛ إِذْ يَصِيرُ الطَّرَفُ الَّذِي كَانَ ضَحِيَّةً لِلنِّظَامِ حَاكِمًا لِلنِّظَامِ الجَدِيدِ. وَلَكِنَّ هَذَا التَّبَدُّلَ لَا يَقَعُ عَفْوِيًّا، بَلْ هُوَ دَوْمًا مُتَوَسَّطٌ بِالدِّعَايَةِ، وَتَفْكِيكِ الشَّرْعِيَّةِ القَدِيمَةِ، وَبِنَاءِ سَرْدِيَّاتٍ جَدِيدَةٍ تَجْعَلُ هَذَا التَّغْيِيرَ يَبْدُو مَشْرُوعًا فِي أَعْيُنِ العَامَّةِ. وَأَبْرَزُ مَا فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ هُوَ سُخْرِيَتُهَا المِضْمَرَةُ؛ فَإِنَّ الإِيرُون المُنْتَصِرَ لَا يَمْحُو أَنْمَاطَ الهَيْمَنَةِ، بَلْ يُعِيدُ إِنْتَاجَهَا، حَتَّى يَتَحَوَّلَ هُوَ بِنَفْسِهِ إِلَى أَلَازُون جَدِيدٍ يَبْدَأُ دَوْرَةً أُخْرَى. وَبِهَذَا النَّسَقِ، يُقْرَأُ هَذَا التَّحْلِيلُ كَيْفِيَّةَ تَمْثِيلِ رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لِانْتِقَالِ السُّلْطَةِ بِوَصْفِهِ آلِيَّةً دَوْرِيَّةً لِلْعِمْرَانِ تَتَكَرَّرُ بِاسْتِمْرَارٍ.

(٨) تُصوِّر الشاشة تلك المراسلات التي كان يتلقاها ويرد عليها، وتُظهر كيف انتهى الأمر به إلى إسقاط الملكية البريطانية وإعلان الجمهورية، ليصبح هو الحاكم الفعلي للبلاد لقد نفّذ "كروميل" ما جاء في الرسالة، ودبّر هروب الملك ثم القبض عليه، وها هو الآن يُحاكم. (ص ٦٤)

يُمَثِّلُ البَيَانُ الثَّامِنُ سَيْرُورَةَ انْتِقَالِ السُّلْطَةِ لِأُولِيفَر كْرُومْوِيل فِي إِنْجِلْتَرَا خِلَالَ القَرْنِ السَّابِعَ عَشَرَ، إِذْ بَرَزَ ذَلِكَ بِوَصْفِهِ عَمَلِيَّةَ تَفْكِيكٍ بِنْيَوِيٍّ لِلأَوْطَارِيَّةِ، حَيْثُ أَزَاحَ هُوَ المَلِكَ تَشَارْلْز الأَوَّلَ عَبْرَ حِيَلٍ تَوَالُدِيَّةٍ تُضْفِي الشَّرْعِيَّةَ عَلَى إِعْدَامِ المَلِكِ بِتُهْمَةِ الخِيَانَةِ. وَتِلْكَ الخُطْوَةُ السِّيَاسِيَّةُ حَرَّكَتْهَا صَفَقَاتٌ مَالِيَّةٌ سِرِّيَّةٌ مَعَ قُوَى خَارِجِيَّةٍ، جَعَلَتْ مِنْ كْرُومْوِيل حَفِيزًا لِتَغْيِيرِ حِقْبَةِ الزَّمَانِ، وَفِي آنٍ وَاحِدٍ قِطْعَةً فِي السِّينَارْيُوهَاتِ الكُبْرَى لِكِيَانِ الظَّلَامِ المَعْرُوفِ بِمَاسْتِيم لِإِثَارَةِ الفَوْضَى نَحْوَ نِهَايَةِ الزَّمَانِ. وَفِي هَذِهِ الحِكَايَةِ، اسْتَثْمَرَ كْرُومْوِيل الدِّعَايَةَ وَسَرْدِيَّاتِ وَهْمِ التَّحَدُّثِ لِتَحْطِيمِ رُمُوزِ المَلَكِيَّةِ القَدِيمَةِ، وَهِيَ اسْتِرَاتِيجِيَّةٌ تَعْكِسُ نَمَطَ أَرْكِيتَايْب الِاسْتِعْمَارِ فِي إِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الهَيْمَنَةِ فَوْقَ البِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ القَائِمَةِ.

صراع السُّلْطَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لَا تَتَحَرَّكُ فَوْقَ سَطْحِ الأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ مَحْضًا، بَلْ تَعْمَلُ مِنْ خِلَالِ مِيكَانِيزْمَاتِ أَرْكِيتَايْب الكُومِيدِيَا الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ أَسَاسَاتِ شَرْعِيَّةِ النِّظَامِ. فَإِنَّ فِعْلَ كْرُومْوِيل، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، يَتَجَاوَزُ الطُّمُوحَ الثَّوْرِيَّ العَادِيَّ، إِذْ يَعْمَلُ بِوَصْفِهِ عَامِلًا لِلتَّمْزِيقِ البِنْيَوِيِّ الَّذِي يُظْهِرُ هَشَاشَةَ المَلَكِيَّةِ. وَتَحْضُرُ المَلَكِيَّةُ هُنَا بِوَصْفِهَا فِيجُور أَلَازُون، وَهُوَ مَوْقِعٌ بِنْيَوِيٌّ يُحَاوِلُ الحِفَاظَ عَلَى الأَوْطَارِيَّةِ عَبْرَ ادِّعَاءِ الفَوْقِيَّةِ الَّتِي فَقَدَتْ رَابِطَهَا الِاجْتِمَاعِيَّ. وَحِينَ تَنْفَصِلُ الشَّرْعِيَّةُ عَنْ القُدْرَةِ عَلَى حِفْظِ التَّوَازُنِ الِاجْتِمَاعِيِّ، وَتَقْتَصِرُ عَلَى بِنَاءَاتٍ رَمْزِيَّةٍ جَامِدَةٍ، فَإِنَّ الأَزْمَةَ حِينَئِذٍ لَا تَكُونُ أُصُولُهَا إِدَارِيَّةً، بَلْ هِيَ أَزْمَةٌ وُجُودِيَّةٌ فِي حَقِيقَةِ النِّظَامِ ذَاتِهِ.

وَمِنْ خِلَالِ إِطَارِ أَرْكِيتَايْب فْرَاي، تَبْرُزُ مَكَانَةُ كْرُومْوِيل بِوَصْفِهِ إِيرُون بِأَهَمِّيَّةٍ قُصْوَى؛ لِأَنَّهُ يَعْمَلُ أَدَاةً لِلتَّحَرُّرِ مِنْ وَهْمِ الهَيْمَنَةِ. وَدَوْرُهُ لَا يَنْحَصِرُ فِي اسْتِبْدَالِ العَرْشِ، بَلْ فِي تَفْكِيكِ أُسْطُورَةِ الفَوْقِيَّةِ الَّتِي عُدَّتْ مُطْلَقَةً. وَإِنَّ الفِعْلَ الرَّمْزِيَّ الَّذِي يُؤَكِّدُ التَّسَاوِيَ البِيُولُوجِيَّ بَيْنَ الحَاكِمِ وَالرَّعِيَّةِ يُعَدُّ ضَرْبَةً قَاضِيَةً تَهْدِمُ حِصْنَ تِلْكَ الفَوْقِيَّةِ. وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، تَمْضِي رِوَايَةُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ فِي تَحَوُّلٍ سَرْدِيٍّ دَقِيقٍ: مِنَ التَّلَقِّي الأَعْمَى لِلْوَاقِعِ الرَّاهِنِ نَحْوَ

الوَعْيِ الجَمْعِيّ بِأَنَّ كُلَّ بِنَاءِ سُلْطَةٍ هُوَ أَمْرٌ قَابِلٌ لِلْمُسَاءَلَةِ وَالنِّقَاشِ وَالِاسْتِبْدَالِ. وَتُبَيِّنُ حَرَكَةُ الكُومِيدِيَا فِي الرِّوَايَةِ، سَوَاءٌ عَبْرَ سُقُوطِ نَمْرُودَ أَوْ التَّحَوُّلَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ النَّاتِجَةِ عَنِ الِاسْتِعْمَارِ، نَمَطًا أَرْكِيتَايْبِيًّا مُتَّسِقًا. فَهَذِهِ السَّرْدِيَّةُ لَا تُكَرِّرُ الأَحْدَاثَ، بَلْ تُكَرِّرُ هَيْكَلَ الِانْتِقَالِ حَيْثُ يَبْلُغُ النِّظَامُ المَمَكَّنُ نِهَايَتَهُ الحَتْمِيَّةَ. وَتَصِيرُ أَزْمَةُ الشَّرْعِيَّةِ مَدْخَلًا لِفِيجُور الإِيرُون لِتَفْكِيكِ ادِّعَاءِ الأَوْطَارِيَّةِ القَدِيمَةِ، مِمَّا يَفْتَحُ مَجَالًا لِإِعَادَةِ التَّنْظِيمِ الِاجْتِمَاعِيّ. وَفِي نَمَطِ الميمِيتيك الدَّنِيءِ، هَذِهِ الصَّيْرُورَةُ ثَمَرَةٌ لِتَفَاوُضِ المَصَالِحِ وَتَصَادُمِهَا وَالدِّينَامِيكِيَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ المُلْمُوسَةِ، حَيْثُ لَا يَتَغَيَّرُ العِمْرَانُ بِالمُعْجِزَاتِ، بَلْ لِأَنَّ النِّظَامَ القَائِمَ فَقَدَ قُدْرَتَهُ عَلَى الِاسْتِجَابَةِ لِمُتَطَلَّبَاتِ زَمَانِهِ.

وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ، فَإِنَّ نَمَطَ كُومِيدِيَا فْرَاي فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لَيْسَ بِنَاءً سَاكِنًا، بَلْ هُوَ دَوْرَةٌ حَيَوِيَّةٌ تُحَرِّكُ العِمْرَانَ. وَالصِّرَاعُ بَيْنَ الأَلَازُون الَّذِي يُحَافِظُ عَلَى التَّمَكُّنِ وَالإِيرُون الَّذِي يَجْلِبُ الوَعْيَ التَّصْحِيحِيَّ هُوَ مُحَرِّكُ التَّارِيخِ فِي النَّصّ. وَالأَحْدَاثُ التَّارِيخِيَّةُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ، كَحَرَكَةِ كْرُومْوِيل، تَعْمَلُ بِوَصْفِهَا أَرْكِيتَايْب يُسَجِّلُ كَيْفِيَّةَ تَنَقُّلِ مَرْكَزِ الشَّرْعِيَّةِ؛ مِنَ النِّظَامِ الَّذِي أَصَابَهُ الخَلَلُ نَحْوَ نِظَامٍ جَدِيدٍ يَحْمِلُ أَوْطَارِيَّةً أَكْثَرَ نَضَارَةً. وَإِنَّ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى، مِنْ خِلَالِ هَذَا البِنَاءِ السَّرْدِيّ، يَنْقُدُ بِحِدَّةٍ أَنَّ السُّلْطَةَ المتَأَسِّسَةَ عَلَى الوَهْمِ لَا تَكُونُ خَالِدَةً. وَتُؤَكِّدُ رِيسُولُوشْيُون الكُومِيدِيَا فِي الرِّوَايَةِ أَنَّ المُفْلِحَ لَيْسَ الفَرْدَ، بَلْ نَجَاحُ المجْتَمَعِ فِي إِعَادَةِ التَّنْظِيمِ البِنْيَوِيّ. وَهَذَا النَّمَطُ يُبَرْهِنُ أَنَّ العِمْرَانَ فِي الرِّوَايَةِ كَائِنٌ حَيٌّ، يَقُومُ بِمُتَابَعَةِ التَّطْهِيرِ لِلنِّظَامِ البَالِي كَيْ تَنْمُوَ تَنْظِيمَاتٌ جَدِيدَةٌ أَكْثَرُ مَوْضُوعِيَّةً. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ سَرْدِيَّةَ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَسْجِيلٍ لِلْوَقَائِعِ، بَلْ هِيَ تَحْلِيلٌ أَدَبِيٌّ لِمِيكَانِيزْمَاتِ تَصْحِيحِ العِمْرَانِ لِذَاتِهِ عَبْرَ تَحَوُّلِ مَرْكَزِ الشَّرْعِيَّةِ الحَتْمِيّ.

يَبْحَثُ البَاحِثُ عَابِدِين فِي دِرَاسَتِهِ المَعْنُونَهُ بِأَثَرِ الميثُولُوجِيَا الدِّمَشْقِيَّة فِي نَشْأَة المدِينَة وَنُمُوِّهَا، كَيْفِيَّةَ دَوْرِ مِيثُولُوجِيَا الأَمَاكِنِ المقَدَّسَةِ فِي تَشْكِيلِ مَدِينَةِ دِمَشْقَ وَتَطَوُّرِهَا. وَتَتَمَحْوَرُ

إِشْكَالِيَّتُهُ حَوْلَ أَثَرِ الميثُولُوجِيَا فِي نُمُوِّ المدِينَةِ، وَالانْحِيَازِ التَّارِيخِيِّ الَّذِي يُعَظِّمُ شَأْنَ الغَازِي عَلَى حِسَابِ السُّكَّانِ الأَصْلِيِّينَ. وَقَدِ اعْتَمَدَ البَاحِثُ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ المَنْهَجَ الاِسْتِقْرَائِيَّ التَّحْلِيلِيَّ مَعَ مُقَارَبَةٍ نَقْدِيَّةٍ عَبْرَ مُقَارَنَةِ المصَادِرِ التَّارِيخِيَّةِ وَالأَثَرِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ. وَأَظْهَرَتْ نَتَائِجُ الدِّرَاسَةِ أَنَّ الميثُولُوجِيَا تَعْمَلُ أَدَاةَ شَرْعِيَّةٍ تَحْرُسُ قَدَاسَةَ وَأَوْطَارِيَّةَ وَاسْتِمْرَارِيَّةَ العِمْرَانِ. وَخَلَصَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى أَنَّ الميثُولُوجِيَا رُكْنٌ رَكِينٌ فِي حِفْظِ وُجُودِ مَرْكَزِ العِمْرَانِ، وَأَسَاسٌ لِشَرْعِيَّةِ السُّلْطَةِ عَبْرَ الأَجْيَالِ.

وَتَتَجَلَّى المطَابَقَةُ مَعَ البَيَانِ التَّاسِعِ فِي وَظِيفَةِ السَّرْدِ بِوَصْفِهِ آلِيَّةً لِشَرْعِيَّةِ السُّلْطَةِ. فَإِذَا كَانَتْ دِرَاسَةُ عَابِدِين تُبَيِّنُ أَنَّ مِيثُولُوجِيَا المكَانِ المقَدَّسِ تُسْتَخْدَمُ لِتَعْزِيزِ هَيْمَنَةِ الحُكَّامِ عَلَى دِمَشْقَ، فَإِنَّ البَيَانَ التَّاسِعَ يُظْهِرُ كَيْفَ بَنَى أُولِيفَر كْرُومْوِيل سَرْدِيَّةَ التَّحَدُّثِ وَالدِّعَايَةِ لِإِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى إِطَاحَتِهِ بِالمِلِكِ تَشَارْلْز الأَوَّلِ وَتَأْسِيسِ نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ جَدِيدٍ. وَيَكْمُنُ الاِخْتِلَافُ فِي نَوْعِ السَّرْدِ المسْتَخْدَمِ؛ إِذْ تُسَلِّطُ دِرَاسَةُ عَابِدِين الضَّوْءَ عَلَى الميثُولُوجِيَا الدِّينِيَّةِ مَصْدَرًا لِلشَّرْعِيَّةِ فِي العُصُورِ القَدِيمَةِ، بَيْنَمَا يُبَيِّنُ البَيَانُ التَّاسِعُ اسْتِخْدَامَ الدِّعَايَةِ العَقَائِدِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ. وَعَلَى هَذَا، تَخْلُصُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ إِلَى أَنَّ السُّلْطَةَ تَحْتَاجُ دَوْمًا إِلَى سَرْدٍ قَادِرٍ عَلَى نَيْلِ ثِقَةِ المجْتَمَعِ، سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ عَبْرَ الميثُولُوجِيَا القُدْسِيَّةِ أَمِ الدِّعَايَةِ السِّيَاسِيَّةِ، لِتَثْبِيتِ الأَوْطَارِيَّةِ الجَدِيدَةِ وَتَعْزِيزِهَا.

تُؤَكِّدُ مَسِيرَةُ التَّارِيخِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ أَنَّ العِمْرَانَ لَيْسَ كِيَانًا سَاكِنًا، بَلْ هُوَ كَائِنٌ حَيٌّ يُطَالِبُ بِالتَّكَيُّفِ دَوْمًا. فَإِنَّ تَحَوُّلَ السُّلْطَةِ فِي هَذَا السَّرْدِ لَيْسَ حَدَثًا عَرَضِيًّا، بَلْ هُوَ ضَرُورَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ حِينَ يَعْجِزُ النِّظَامُ القَدِيمُ عَنِ الاِسْتِجَابَةِ لِدِينَامِيكِيَّةِ الزَّمَانِ، فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ إِفْسَاحُ المجَالِ لِتَكْوِينٍ جَدِيدٍ أَكْثَرَ مَوْضُوعِيَّةً. وَلَكِنْ، ضِمْنَ أُفُقِ أَرْكِيتَايْب الكُومِيدِيَا المِعْيَارِيَّةِ لِنُورْثْرُوب فْرَاي، لَا يُعَدُّ الاِنْتِصَارُ عَلَى الاِسْتِبْدَادِ خَطَّ نِهَايَةٍ، بَلْ هُوَ فَتْحٌ لِفَضَاءَاتٍ مِنْ إِمْكَانِيَّاتٍ مِثَالِيَّةٍ جَدِيدَةٍ. فَإِنَّ النِّضَالَ ضِدَّ الهَيْمَنَةِ لَيْسَ إِلَّا مَرْحَلَةً أَوَّلِيَّةً، إِذْ تَبْدَأُ

التَّحَدِّيَاتُ الحَقِيقِيَّةُ حِينَ يَتَحَقَّقُ النَّصْرُ، وَيَتَوَجَّبُ عَلَى المجْتَمَعِ إِثْبَاتُ قُدْرَتِهِ عَلَى بِنَاءِ نِظَامٍ يَرْتَكِزُ حَقًّا عَلَى قِيَمِهِ المِثَالِيَّةِ.

وَفِي سِيَاقِ النَّقْدِ الأَدَبِيّ، تَتَجَلَّى جِدَّةُ هَذِهِ النَّتَائِجِ فِي قِرَاءَةِ مَرْحَلَةِ النَّصْرِ بِوَصْفِهَا أَكْثَرَ نِقَاطِ الهَيْكَلِ السَّرْدِيّ لِرِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ ضَعْفًا. فَلَا يُنْظَرُ إِلَى النَّصْرِ عَلَى أَنَّهُ خَاتِمَةُ الصِّرَاعِ، بَلْ هُوَ عَتَبَةٌ لِامْتِحَانٍ أَكْثَرَ خَفَاءً. فَإِنَّ أَنْتِيخْرِيستُوسَ، فِي تَمْثِيلِهِ السَّرْدِيّ، لَا يَتَجَلَّى عَبْرَ الضَّغْطِ المادِّيّ البَاطِشِ كَمَا فِي المَرَاحِلِ الأُولَى، بَلْ عَبْرَ تَخْرِيبِ التَّوَجُّهَاتِ القِيمِيَّةِ. وَإِنَّ أَعْظَمَ خَطَرٍ يُحْدِقُ بِالنِّظَامِ المَوْلُودِ حَدِيثًا لَيْسَ العَدُوَّ الخَارِجِيَّ، بَلِ انْحِطَاطَ الأَخْلَاقِ دَاخِلَ النِّظَامِ ذَاتِهِ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الانْحِرَافِ أَشَدُّ خُطُورَةً لِأَنَّهُ يَتَخَفَّى خَلْفَ الحُرِّيَّةِ المكْتَسَبَةِ.

وَيُبَيِّنُ هَذَا الِاسْتِقْصَاءُ أَنَّ النَّجَاحَ فِي إِسْقَاطِ السُّلْطَةِ الظَّالِمَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لَيْسَ ضَمَانًا لِقِيَامِ عِمْرَانٍ طَاهِرٍ. بَلْ إِنَّ النَّصْرَ يُذَكِّي صِرَاعًا عَقَائِدِيًّا أَعْوَصَ: هَلْ تَكُونُ الحُرِّيَّةُ المكْتَسَبَةُ سَبِيلًا لِتَعَبُّدِ المبَادِئِ المتَعَالِيَةِ، أَمْ تَكُونُ مَجَالًا لِنَشْأَةِ صُوَرٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الِاسْتِبْدَادِ الخَفِيّ؟ وَتَتَحَوَّلُ الكُومِيدِيَا المِعْيَارِيَّةُ، فِي هَذِهِ الرُّؤْيَةِ، إِلَى مِرْآةٍ نَقْدِيَّةٍ تُطَالِبُ القَارِئَ بِالإِقْرَارِ بِأَنَّ كُلَّ مُنْعَطَفٍ تَارِيخِيّ هُوَ مِيقَاتٌ يَتَحَتَّمُ فِيهِ عَلَى العِمْرَانِ نَقْدُ ذَاتِهِ فِي تَوَجُّهِ القِيمِ.

وَفِي الخِتَامِ، تَكْشِفُ سَرْدِيَّةُ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى أَنَّهُ فِي أُفُقِ الإِسْخَاتُولُوجِيَا الإِسْلَامِيّ، لَا يَقَعُ الصِّرَاعُ الجَوْهَرِيُّ فِي التَّنَازُعِ عَلَى العَرْشِ، بَلْ فِي الصُّمُودِ عَلَى حِفْظِ البُوصَلَةِ الرُّوحِيَّةِ. وَإِنَّ تَدَخُّلَ أَنْتِيخْرِيستُوسَ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ قُوَّةٌ تَعْمَلُ بِإِصْرَارٍ عَلَى صَرْفِ وُجْهَةِ المِثَالِيَّةِ الجَمْعِيَّةِ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ الكُومِيدِيَا المِعْيَارِيَّةَ هُنَا لَا تُمَثِّلُ نَجَاحَ التَّحَوُّلِ الِاجْتِمَاعِيّ فَحَسْبُ، بَلْ تَعْمَلُ تَنْبِيهًا بِأَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ إِلَّا بِدَايَةَ مَسْؤُولِيَّةٍ لِحِرَاسَةِ تَوَجُّهِ القِيمِ. فَالْعِمْرَانُ البَاقِي لَيْسَ هُوَ مَنِ انْتَصَرَ فِي الثَّوْرَةِ، بَلْ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى حِفْظِ قَدَاسَةِ رُؤْيَتِهِ

الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ اخْتِرَاقِ مَصَالِحِ البَشَرِ السَّاعِينَ إِلَى طَمْسِ الحُدُودِ بَيْنَ إِرَادَةِ الخَالِقِ وَطُمُوحَاتِ الدُّنْيَا.

٤) مَرْحَلَةُ العَالَمِ الأَخْضَرِ: العَالَمُ الَّذِي يَنْحَسِرُ نَحْوَ الظَّلَامِ

إِنَّ الشَّرْعِيَّةَ المَوْلُودَةَ مِنَ القَهْرِ لَا تَكُونُ قَطُّ رَاسِخَةً؛ إِذْ هِيَ لَا تَفْعَلُ سِوَى تَرْحِيلِ الصِّرَاعِ لَا مَحْوِهِ. وَهَذِهِ القَضِيَّةُ هِيَ الأَسَاسُ لِمَرْحَلَةِ العَالَمِ الأَخْضَرِ ضِمْنَ إِطَارِ فْرَاي، وَهِيَ مَرْحَلَةٌ يَبْدَأُ فِيهَا النِّظَامُ الجَدِيدُ الَّذِي نَجَحَ فِي تَرْسِيخِ سُلْطَتِهِ- بِمُوَاجَهَةِ ضُغُوطٍ دَاخِلِيَّةٍ تَتَمَثَّلُ فِي قِيَمٍ بَالِيَةٍ لَمْ تَنْطَفِئْ بَعْدُ، وَهُوِيَّةٍ جَمْعِيَّةٍ تَأْبَى الِانْدِمَاجَ، وَمُقَاوَمَةٍ تَنْبُتُ فِي الشُّقُوقِ الَّتِي تَرَكَهَا ذَلِكَ النِّظَامُ الجَدِيدُ خَلْفَهُ.

لَا يُمَثِّلُ العَالَمُ الأَخْضَرُ بَعْثًا، بَلْ هُوَ تَمْثِيلٌ لِلقَلَقِ، وَهِيَ اللَّحْظَةُ الَّتِي يَقِفُ فِيهَا العِمْرَانُ عَلَى مُفْتَرَقِ طُرُقٍ بَيْنَ أَعْرَافٍ بَالِيَةٍ قَدْ تَهَاوَتْ وَأَعْرَافٍ جَدِيدَةٍ لَمْ يَتَّسِقْ بُنْيَانُهَا بَعْدُ. وَفِي هَذَا الفَرَاغِ يَجِدُ الصِّرَاعُ مَسَاحَتَهُ. وَبِهَذَا النَّسَقِ، يَتَتَبَّعُ هَذَا التَّحْلِيلُ كَيْفِيَّةَ تَمْثِيلِ رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لِمَرْحَلَةِ العَالَمِ الأَخْضَرِ بِوَصْفِهَا المَرْحَلَةَ الأَكْثَرَ هَشَاشَةً فِي العِمْرَانِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّهَا الأَيْسَرُ انْقِيَادًا نَحْوَ نِهَايَةٍ مُدَمِّرَةٍ أُخْرَى.

(٩) مذكرة "جون سميث": مذكرتي العزيزة.. أربعة شهور مضت علينا ونحن في هذا المكان نبني معسكرنا ونجهز عدتنا ونصد هجمات عنيفة كان يشنها علينا الهنود الحمر بين الفينة والأخرى، حقًا إنهم متوحشون، ليسوا فقط متوحشين بل يُقال إنهم آكلو لحوم بشر، لقد حاولنا التودد إليهم أكثر من مرة، وكل ما وصلنا إليه هو تجارة أجريناها مع بعضهم ممن أتونا في سلام، نعطيهم قطعًا نحاسية ويعطوننا طعامًا، لكن مخزوننا من الطعام الذي جئنا به من إنجلترا قد نفد تمامًا، وكذلك نفدت منا كل القطع النحاسية التي أحضرناها، وهؤلاء الهنود لا يعطون شيئًا بالمجان أبدًا، لذا قررت

أن أصطحب أقوى رجالي ونتوغل أكثر في هذه الأرض، لعلنا نحصل على شيء يصلح للأكل ص ١٤٣.

يُصَوِّرُ البَيَانُ التَّاسِعُ بِدَايَاتِ الِاسْتِعْمَارِ الإِنْجِلِيزِيِّ فِي أَمْرِيكَا تَحْتَ قِيَادَةِ جُون سْمِيث، إِذْ وَاجَهَ ذَلِكَ الِاسْتِعْمَارُ صِعَابًا جَمَّةً، وَلَاسِيَّمَا تَهْدِيدَاتِ قَبَائِلِ الهُنُودِ وَأَزَمَاتِ الإِمْدَادَاتِ. وَلِأَجْلِ حِفْظِ اسْتِمْرَارِيَّةِ المسْتَوْطَنَةِ، سَلَكَ الإِنْجِلِيزُ مَسْلَكَ الدِّبْلُومَاسِيَّةِ عَبْرَ المقَايَضَةِ مَعَ السُّكَّانِ الأَصْلِيِّينَ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ المسَاعِيَ مَا اسْتَطَاعَتْ كَفَايَةَ مُعَالَجَةِ القَضَايَا القَائِمَةِ بِتَامِّهَا. وَحِينَ ضَاقَتْ سُبُلُ تَأْمِينِ الضَّرُورَاتِ، وَتَزَعْزَعَتْ أَرْكَانُ اسْتِقْرَارِ المسْتَوْطَنَةِ، عَزَمَ جُون سْمِيث عَلَى تَسْيِيرِ حَمَلَاتٍ إِلَى أَقَالِيمَ نَائِيَةٍ طَلَبًا لِلْمَوَارِدِ. وَيُبَيِّنُ هَذَا الحَدَثُ تَحَوُّلًا مِنْ حَالٍ كَانَ مُنْضَبِطًا وَمُسَيْطَرًا عَلَيْهِ نَحْوَ حَالٍ غَاشِيَتِهِ الرِّيبَةُ، إِذْ عَجَزَ النِّظَامُ القَدِيمُ عَنْ كَفَالَةِ بَقَاءِ الحَيَاةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ.

فِي سَرْدِيَّةِ رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، لَا تَعُدُّ الأَقَالِيمُ الجَدِيدَةُ الَّتِي ارْتَادَهَا جُون سْمِيث مُجَرَّدَ مَوْقِعٍ جُغْرَافِيٍّ، بَلْ هِيَ أَرْكِيتَايْب العَالَمِ الأَخْضَرِ، وَهُوَ فَضَاءٌ بِنْيَوِيٌّ يَعْمَلُ مَيْدَانًا لِتَحَوُّلٍ جَذْرِيٍّ بَيْنَ أَنْسَاقِ العِمْرَانِ. وَفِي مِجْهَرِ نَقْدِ نُورْثْرُوب فْرَاي، لَا يُعَدُّ العَالَمُ الأَخْضَرُ مَنْفًى لِلْهَرَبِ، بَلْ هُوَ سَاحَةٌ عَتَبِيَّةٌ يُضْطَرُّ فِيهَا النِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ الرَّاسِخُ لِلتَّوَقُّفِ بُرْهَةً لِأَجْلِ الِاخْتِبَارِ وَالتَّفْكِيكِ وَمِنْ ثَمَّ إِعَادَةِ البِنَاءِ. وَتَغْدُو بِلَادُ قَبَائِلِ الهُنُودِ فِي هَذَا السَّرْدِ حَفِيزًا سَرْدِيًّا يَكْشِفُ عُورَةَ مَحْدُودِيَّةِ النِّظَامِ الِاسْتِعْمَارِيِّ الإِنْجِلِيزِيِّ؛ إِذْ هِيَ مِرْآةٌ تَعْكِسُ هَشَاشَةَ نَمُوذَجِ العِمْرَانِ الَّذِي جَلَبَهُ جُون سْمِيث، وَفِي آنٍ وَاحِدٍ تَصِيرُ فَضَاءً تُصَادِمُ فِيهِ المفَاهِيمُ الكَوْنِيَّةُ عَنِ النِّظَامِ نِهَايَةَ مَطَافِهَا.

وَتَتَجَذَّرُ تِلْكَ المحْدُودِيَّةُ فِي خَلَلٍ إِبِيسْتِيمُولُوجِيٍّ مَوْلُودٍ مِنَ اصْطِدَامِ عَالَمَيْنِ غَيْرِ مُتَكَافِئَيْنِ. فَالذَّاتُ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ لِجُون سْمِيث غَدَتْ رَهِينَةً لِمِيثُوس وَشِيفْرَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَصَلَّبَتْ فِي عَالَمِهِ الأَصْلِيِّ. وَإِنَّ عَجْزَهُ عَنْ فَهْمِ حَقِيقَةِ المجْتَمَعِ الهِنْدِيِّ لَيْسَ إِخْفَاقًا

لِشَخْصِيَّتِهِ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ تَجَلٍّ لِعَجْزِ النِّظَامِ عَنْ تَرْجَمَةِ حَقَائِقَ تَقَعُ خَارِجَ نِطَاقِ التَّقْنِينِ الِاسْتِعْمَارِيِّ. وَهُنَا يَعْمَلُ العَالَمُ الأَخْضَرُ أَدَاةً لِلتَّفْكِيكِ بَلِيغَةَ الأَثَرِ؛ إِذْ يُثْبِتُ أَنَّ اسْتِقْرَارَ عِمْرَانِ الِاسْتِعْمَارِ لَيْسَ إِلَّا بِنَاءً سِيَاقِيًّا وَاهِيًا، يَتَهَاوَى بِمُجَرَّدِ خُرُوجِهِ عَنْ حُدُودِ مَجَالِ تَأْثِيرِهِ.

وَمَعَ مُسْتَهَلِّ الرِّحْلَةِ، تَرَدَّدَ السَّرْدُ فِي إِسَارِ تَبْصِيرَاتٍ رُومَانْسِيَّةٍ طُوبَاوِيَّةٍ، حَيْثُ نَاهَضَ جُون سْمِيث لِفَرْضِ النِّظَامِ الإِنْجِلِيزِيِّ المِثَالِيِّ لِيُغْرَسَ فِي تُرْبَةٍ جَدِيدَةٍ. وَلَكِنْ، وَفْقًا لِمَنْطِقِ أَرْكِيتَايْب فْرَاي، تَبْقَى هَذِهِ الطُّوبَاوِيَّةُ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ مُشْكِلَةً فِي جَوْهَرِهَا؛ لِأَنَّهَا وَلِيدَةُ فَرْضِيَّاتٍ هَيْمَنِيَّةٍ تَأْبَى التَّفَاوُضَ مَعَ الوَاقِعِ المَحَلِّيِّ. وَيَبْلُغُ هَذَا التَّوَتُّرُ ذِرْوَةَ تَحَوُّلِهِ حِينَ يَدْخُلُ السَّرْدُ فِي مَرْحَلَةِ التَّعْلِيقِ البِنْيَوِيِّ؛ وَهِيَ حَالَةٌ يَكُونُ فِيهَا التَّعَايُشُ بَيْنَ مَمْلَكَةِ بوهاتان وَالمِسْتَوْطَنَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ فِي تَوَازُنٍ مُضْطَرِبٍ. وَتِلْكَ المَرْحَلَةُ هِيَ فَضَاءُ تَرَقُّبٍ لِمَا قَبْلَ وُقُوعِ حَلٍّ سَرْدِيٍّ أَشَدَّ قَسْوَةً، لَا سِيَّمَا حِينَ أَدَّى التَّلَاعُبُ بِوَفَاةِ جُون سْمِيث إِلَى تَقْوِيضِ مَسَاعِي التَّفَاوُضِ وَتَحْوِيلِ مَسَارِ التَّارِيخِ مِنَ الحِوَارِ إِلَى الهَيْمَنَةِ.

وَيُؤَشِّرُ هَذَا التَّحَوُّلُ عَلَى تَفَعُّلِ العَالَمِ الأَخْضَرِ بِوَصْفِهِ فَضَاءً لِتَحَوُّلٍ أَرْكِيتَايْبِيٍّ يُحَدِّدُ وِجْهَةَ التَّارِيخِ. فَإِنَّ تَهَاوِيَ البِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ لِبوهاتان لَيْسَ مَحْضَ انْكِسَارٍ عَسْكَرِيٍّ، بَلْ هُوَ تَهَاوِي نِظَامٍ رَمْزِيٍّ نَصَرَ تِلْكَ البِنْيَةَ لِقُرُونٍ خَالِيَةٍ. وَيَغْدُو النَّصْرُ الِاسْتِعْمَارِيُّ المَصُوغُ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ حَلًّا كُومِيدِيًّا سَاخِرًا؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ نِتَاجَ تَأْلِيفٍ مُتَنَاغِمٍ بَيْنَ ثَقَافَتَيْنِ، بَلْ نِتَاجَ إِحْلَالٍ كُلِّيٍّ لِنِظَامِ قِيمٍ مَحَلَّ آخَرَ. وَفِي هَذِهِ الصَّيْرُورَةِ، يَعْمَلُ العَالَمُ الأَخْضَرُ مُصَفًّى يُسَهِّلُ نَزْعَ الشَّرْعِيَّةِ عَنِ النِّظَامِ القَدِيمِ، وَإِضْفَاءَهَا عَلَى النِّظَامِ الجَدِيدِ عَبْرَ عَمَلِيَّةٍ عَتَبِيَّةٍ حَتْمِيَّةٍ.

تَبْحَثُ دِرَاسَةُ جِينْغ إِيرِيك سِيبِينْيُو (٢٠٢٣) حَوْلَ مِيتُوبُوئِيتِيكَا أُودْرِي لُورْد، إِشْكَالِيَّةَ تَوَظِيفِ الميثُولُوجِيَا الأَفْرِيقِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ بِوَصْفِهَا أَدَاةً لِلْمُقَاوَمَةِ ضِدَّ العُنْصُرِيَّةِ وَالبَطْرِيَرْكِيَّةِ وَهَيْمَنَةِ الثَّقَافَةِ الغَرْبِيَّةِ. وَقَدْ اعْتَمَدَ البَاحِثُ المَنْهَجَ الكَيْفِيَّ عَبْرَ مُقَارَبَةِ الميثُوس وَالأَرْكِيتَايْب

عِنْدَ كَارْل يُونْغ وَنُورْثْرُوب فْرَاي وَمِيرْتْشَا إِيلِيَاد، حَيْثُ تَوَصَّلَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى أَنَّ الِاسْتِعْمَارَ وَالهَيْمَنَةَ الغَرْبِيَّةَ قَدْ أَفْسَدَا اسْتِقْرَارَ الثَّقَافَةِ المحَلِّيَّةِ، مِمَّا دَفَعَ لُورْد إِلَى إِعَادَةِ بِنَاءِ الهُوِيَّةِ السَّوْدَاءِ عَبْرَ رُمُوزٍ مِيثُولُوجِيَّةٍ أَفْرِيقِيَّةٍ غَرْبِيَّةٍ. وَخَلَصَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى أَنَّ الميثُوبُوئِيتِيكَا تَعْمَلُ فَضَاءً رُوحِيًّا بَدِيلًا لِحِرَاسَةِ الهُوِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ المهَدَّدَةِ مِنَ الهَيْمَنَةِ الخَارِجِيَّةِ.

وَلِهَذِهِ النَّتَائِجِ مُطَابَقَةٌ مَعَ البَيَانِ العَاشِرِ الَّذِي يُظْهِرُ تَهَاوِيَ النِّظَامِ إِثْرَ الِاصْطِدَامِ بِقُوًى خَارِجِيَّةٍ. فَإِذَا كَانَتْ دِرَاسَةُ سِيبِينْيُو تُسَلِّطُ الضَّوْءَ عَلَى انْحِطَاطِ الثَّقَافَةِ المحَلِّيَّةِ جَرَّاءَ الِاسْتِعْمَارِ الغَرْبِيِّ، فَإِنَّ البَيَانَ العَاشِرَ يُبَيِّنُ عَجْزَ النِّظَامِ الِاسْتِعْمَارِيِّ الإِنْجِلِيزِيِّ حِينَ وَاجَهَ الوَاقِعَ الجَدِيدَ فِي أَمْرِيكَا. وَتَشْتَرِكُ الدِّرَاسَتَانِ فِي تَصْوِيرِ تَفَكُّكِ البِنْيَةِ الَّتِي عُدَّتْ مُسْتَقِرَّةً سَابِقًا، نَتِيجَةً لِطُمُوحِ الهَيْمَنَةِ وَعَجْزِ التَّكَيُّفِ. وَيَكْمُنُ الِاخْتِلَافُ فِي كَوْنِ دِرَاسَةِ سِيبِينْيُو تَتَمَحْوَرُ حَوْلَ أَثَرِ الِاسْتِعْمَارِ عَلَى هُوِيَّةِ المجْتَمَعَاتِ المسْتَعْمَرَةِ، بَيْنَمَا يَنْظُرُ البَيَانُ العَاشِرُ إِلَى انْهِيَارِ النِّظَامِ الِاسْتِعْمَارِيِّ مِنْ زَاوِيَةِ رُؤْيَةِ المسْتَعْمِرِ. وَعَلَيْهِ، تَخْلُصُ الدِّرَاسَتَانِ إِلَى أَنَّ حَيِّزَ الحَيَاةِ المنْتَظِمَ قَدْ يَنْقَلِبُ إِلَى حَالٍ غَيْرِ مَضْبُوطٍ حِينَ يَمُورُ بِصِرَاعَاتِ السُّلْطَةِ وَضُغُوطِ البِيئَةِ الَّتِي يَعْجِزُ النِّظَامُ القَائِمُ عَنِ اسْتِيعَابِهَا.

تَتَجَاوَزُ صَيْرُورَةُ العِمْرَانِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ نِقَاطَ نَظِيرِهِ، مُعْبُرَةً نَحْوَ مَحَطَّةِ القَاعِ الَّتِي سَمَّاهَا نُورْثْرُوب فْرَاي العَالَمَ الأَخْضَرَ. وَلَيْسَ ذَلِكَ العَالَمُ مَحْضَ فَاصِلٍ فَرَاغِيٍّ، بَلْ هُوَ حَيِّزٌ لِلتَّخَلُّقِ حَيْثُ تُصَاغُ مَوْجُهَاتُ القِيَمِ الجَدِيدَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَحِيلَ نِظَامًا سَائِدًا. وَفِي دِينَامِيكِيَّةِ التَّارِيخِ الَّتِي رَسَمَهَا أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى، يَعْمَلُ العَالَمُ الأَخْضَرُ مِجَنًّا لِلتَّأَمُّلِ لِلْمُجْتَمَعَاتِ القَابِعَةِ عَلَى مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ؛ وَهُوَ فَضَاءٌ عَتَبِيٌّ حَيْثُ يَفْقِدُ النِّظَامُ القَدِيمُ طَاقَتَهُ الرَّابِطَةَ، بَيْنَمَا يَبْقَى المسْتَقْبَلُ مُعَلَّقًا فِي إِمْكَانِيَّاتٍ لَمْ تُخْتَبَرْ بَعْدُ. وَلَكِنْ، بَدَلًا مِنْ كَوْنِهِ فَضَاءً لِلطُّهْرِ، يَتَحَوَّلُ العَالَمُ الأَخْضَرُ فِي هَذَا السَّرْدِ إِلَى مَعْرَكَةٍ بَالِغَةِ الِاسْتِرَاتِيجِيَّةِ، حَيْثُ تُبْذَرُ بِذُورُ عِمْرَانِ المسْتَقْبَلِ وَتُخْتَصَمُ. فَإِنَّ نَجَاحَ تَحَوُّلِ العِمْرَانِ لَا يُقَاسُ بِحَجْمِ الِاضْطِرَابِ

النَّاشِئِ عِنْدَ تَهَاوِي النِّظَامِ القَدِيمِ، بَلْ بِنَزَاهَةِ الرُّؤْيَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا النِّظَامُ الجَدِيدُ. وَهُنَا يَمْكُنُ مَوْضِعُ الهَشَاشَةِ السَّرْدِيَّةِ الأَشَدِّ خَطَرًا، إِذْ إِنَّ خَلَاءَ هَذَا العَالَمِ الأَخْضَرِ مِنْ بُوصَلَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ فِي مَجَالَاتِهِ الفِكْرِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ، يَعْنِي أَنَّ التَّحَوُّلَ النَّاشِئَ لَيْسَ تَجْدِيدًا، بَلْ هُوَ تَجَسُّدٌ لِطُغْيَانٍ جَدِيدٍ فِي هَيْئَةٍ أَكْثَرَ حَذَاقَةً. فَحِينَ تَنْزَلِقُ مَوْجُهَاتُ القِيَمِ فِي هَذَا الفَضَاءِ نَحْوَ بَرَاجْمَاتِيَّةِ المَصَالِحِ، فَإِنَّ عَمَلِيَّةَ تَبَادُلِ السُّلْطَةِ مَا هِيَ إِلَّا تَكْرَارٌ لِدَوْرَةِ الخَرَابِ الَّتِي تُوَرَّثُ مِنْ جِيلٍ لِآخَرَ.

إِنَّ جِدَّةَ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ تَكْشِفُ أَنَّ العَالَمَ الأَخْضَرِ هُوَ مَدْخَلٌ حَيَوِيٌّ لِتَدَخُّلَاتِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ. وَلَا يَعْمَلُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ بِطَرِيقَةٍ فَجَّةٍ لِتَحْطِيمِ البِنْيَةِ القَائِمَةِ، بَلْ عَبْرَ تَسَرُّبٍ لَطِيفٍ فِي صَمِيمِ عَمَلِيَّةِ تَشْكِيلِ الوَعْيِ الجَمْعِيِّ. فَهُوَ لَا يُحْرِقُ المؤَسَّسَاتِ، بَلْ يَخْتَطِفُ الرُّؤْيَةَ. وَبِاسْتِحْوَاذِهِ عَلَى الفَضَاءَاتِ الَّتِي تُعَرَّفُ فِيهَا الهُوِيَّةُ وَالمَعْرِفَةُ وَطُمُوحَاتُ المسْتَقْبَلِ، يَنْجَحُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ فِي دَسِّ أَجِنْدَاتٍ تَبْدُو فِي أَصْلِهَا مُمَوَّهَةً بِصُورَةِ التَّقَدُّمِ أَوِ التَّجْدِيدِ، لَكِنَّهَا فِي جَوْهَرِهَا تَنْحَتُ بِبُطْءٍ الأَسَاسَ المتَعَالِيَ لِذَلِكَ العِمْرَانِ. وَبِذَلِكَ، فَإِنَّ الصِّرَاعَ الإِسْخَاتُولُوجِيَّ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لَا يَنْتَظِرُ الخَرَابَ المادِّيَّ لِكَيْ يَبْدَأَ؛ بَلْ إِنَّهُ يَقَعُ حَقًّا قَبْلَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، فِي قَلْبِ العَالَمِ الأَخْضَرِ، حَيْثُ لَا تَزَالُ وِجْهَةُ العِمْرَانِ سَائِلَةً وَقَابِلَةً لِلتَّشْكِيلِ. إِنَّ هَذَا الصِّرَاعَ هُوَ حَرْبٌ لِأَجْلِ الظَّفَرِ بِتَعْرِيفِ المسْتَقْبَلِ، وَكُلُّ سَعْيٍ لِغَصْبِ فَضَاءَاتِ تَحَوُّلِ العِمْرَانِ هُوَ سَعْيٌ لِتَحْدِيدِ قَالَبِ الحَيَاةِ وَقِيَمِهَا وَتَوَجُّهَاتِهَا فِي القَادِمِ مِنَ الزَّمَانِ.

وَخُلَاصَةُ القَوْلِ، إِنَّ العَالَمَ الأَخْضَرِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ هُوَ أُتُوفَةٌ رَمْزِيَّةٌ لِمَعْرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ بَالِغَةِ القَدَرِيَّةِ. وَإِنَّ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى، عَبْرَ هَذَا البِنَاءِ السَّرْدِيِّ، يَتَحَدَّى القَارِئَ لِيُدْرِكَ أَنَّ الصِّرَاعَ الإِسْخَاتُولُوجِيَّ لَيْسَ نِهَايَةً مَحْتُومَةً، بَلْ هُوَ صِرَاعٌ مُتَصِلٌ يَبْدَأُ مِنَ التَّنَازُعِ عَلَى مَعْنَى التَّغْيِيرِ ذَاتِهِ. فَالْعِمْرَانُ البَاقِي لَيْسَ هُوَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الخَرَابِ المادِّيِّ، بَلْ

مَنْ يَقْدِرُ عَلَى حِرَاسَةِ تَوْجِيهِ القِيَمِ دَاخِلَ العَالَمِ الأَخْضَرِ، ضَامِنًا أَلَّا تُبَاعِدَ كُلُّ خُطْوَةٍ نَحْوَ المُسْتَقْبَلِ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالمَبَادِئِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَصِيرُ الشَّرْعِيَّةَ الأَخْلَاقِيَّةَ لِحَيَاتِهِ.

٥) مَرْحَلَةُ الرُّومَانْسِيَّةِ العُلْيَا

تُمَثِّلُ هَذِهِ المَرْحَلَةُ امْتِدَادًا لِمَا سَبَقَهَا مِنَ التَّحَوُّلَاتِ الَّتِي تُفْضِي إِلَى انْهِيَارِ الِاسْتِقْرَارِ، حَيْثُ يَنْتَقِلُ سِيَاقُ الحِكَايَةِ مِنْ حَالَةِ النِّظَامِ المَأْلُوفِ لِيَتَرَدَّى فِي لُجَّةِ الصِّرَاعِ. وَيَنْجُمُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ يَصِيرَ عَالَمُ السَّرْدِ غَابَةً بِلَا رَادِعٍ مِنَ الأَعْرَافِ. وَعَلَى خِلَافِ مَرْحَلَةِ الرُّومَانْسِيَّةِ العُلْيَا، يُبَيِّنُ نُورْثْرُوب فْرَاي فِي كِتَابِهِ أَنَّ هَذِهِ المَرْحَلَةَ هِيَ طَوْرُ صُعُودِ البَطَلِ نَحْوَ عَالَمٍ أَكْثَرَ انْتِظَامًا، وَلَكِنْ بِسِمَاتٍ جَدِيدَةٍ تَتَمَايَزُ كُلِّيَّةً عَمَّا سَبَقَهَا مِنَ الهَيْئَاتِ.

(١٠) مذكرة "جون سميث": تطوّر إعجابها بحضارتنا إلى نفور من حضارة قومها، حتى إننا أثناء أسرها سمحنا لها بلقاء وفد من قومها وكان والدها بينهم، فلما رأته صرخت في وجهه وقالت إنها تكرهه، بعدما بدا لها أنها أقل قيمة لديه من بعض السيوف القديمة ورؤوس الفؤوس، في إشارة إلى الفدية التي طلبناها، والتي تضمنت أسلحة من قومها، ثم تقدّم لخطبتها أحد كبار تجار إنجلترا، "جون رولف"، فوافقت بسعادة كبيرة، وكان هذا الزواج إعلانًا للسلام بين الطرفين بعد حرب طويلة، حتى أصبحت بحق رمزًا لالتقاء أمتين، وسافرت "بوكاهونتاس" مع "رولف" إلى إنجلترا، حيث قُدمت إلى المجتمع الإنجليزي باعتبارها رسول سلام بين شعبين كبيرين.(ص ١٥٠)

يَسْرُدُ البَيَانُ العَاشِرُ قِصَّةَ بُوكَاهُونْتَاس، أَمِيرَةِ قَبَائِلِ بوهاتان، الَّتِي صَارَتْ بِزَوَاجِهَا مِنْ جُون رُولْف رَمْزًا لِانْتِهَاءِ الصِّرَاعِ المُسْتَطِيرِ بَيْنَ الِاسْتِعْمَارِ الإِنْجِلِيزِيِّ وَالسُّكَّانِ الأَصْلِيِّينَ لِأَمْرِيكَا. وَبَعْدَ حُرُوبٍ دَامَتْ سِنِينَ وَأَفْضَتْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّحَايَا وَالخَسَائِرِ، بَلَغَ الطَّرَفَانِ فِي النِّهَايَةِ سِلْمًا مَهَّدَ الطَّرِيقَ لِإِرْسَاءِ عَلَاقَاتٍ أَكْثَرَ اسْتِقْرَارًا. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا

الزَّوَاجُ مُجَرَّدَ تَمْثِيلٍ لِتَصَالُحٍ سِيَاسِيٍّ، بَلْ بَاتَ دَلِيلًا عَلَى قَبُولِ الثَّقَافَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ فِي الأَرَاضِي الأَمْرِيكِيَّةِ.

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، تُمَيِّزُ هَذِهِ الوَاقِعَةُ مَرْحَلَةَ إِعَادَةِ البِنَاءِ بَعْدَ الصِّرَاعِ، حَيْثُ بَدَأَ النِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ فِي التَّعَافِي، وَعَادَتِ الحَيَاةُ إِلَى مَجْرَاهَا الطَّبِيعِيِّ. وَلِذَلِكَ، تُصَوِّرُ هَذِهِ القِصَّةُ بُلُوغَ حَالَةٍ مِنَ التَّنَاغُمِ الَّتِي تُعَدُّ ذِرْوَةَ مَرْحَلَةِ الكُومِيدِيَا، أَيْ عَالَمًا اسْتَعَادَ نِظَامَهُ، وَسَادَهُ السِّلْمُ، وَعَمَّهُ الرَّجَاءُ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ إِرْهَاصَاتِ صِرَاعَاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ.

إِنَّ عَلَاقَاتِ السُّلْطَةِ المتَجَلِّيَةَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ تَسْمُو عَلَى كَوْنِهَا مُجَرَّدَ صِرَاعٍ تَارِيخِيٍّ؛ إِذْ تَتَحَرَّكُ فِي فَضَاءٍ أَرْكِيتَايْب الرُّومَانْسِيَّةِ العُلْيَا، وَهِيَ نَمَطٌ سَرْدِيٌّ لَا تُقَاسُ فِيهِ الهَيْمَنَةُ بِالمِعْيَارِ الأَخْلَاقِيِّ، بَلْ بِالتَّفَوُّقِ الوَظِيفِيِّ القَادِرِ عَلَى تَقْوِيضِ الوَاقِعِ الِاجْتِمَاعِيِّ جَذْرِيًّا. وَفِي هَذَا الإِطَارِ، لَا يُقِيمُ الِاسْتِعْمَارُ الإِنْجِلِيزِيُّ ذَاتَهُ فَاعِلًا سِيَاسِيًّا عَادِيًّا، بَلْ كِيَانًا بُطُولِيًّا جَمْعِيًّا يَحْتَلُّ مَرَاتِبَ أُنْطُولُوجِيَّةً أَرْفَعَ. وَإِنَّ قُدْرَتَهُمْ عَلَى فَرْضِ مِيثُوس وَنِظَامٍ رَمْزِيٍّ جَدِيدٍ لَيْسَتْ ثَمَرَةَ تَفَوُّقٍ تِقْنِيٍّ فحَسْبُ، بَلْ هِيَ تَجَلٍّ لِقُدْرَةٍ عَلَى إِعَادَةِ بِنَاءِ عَالَمِ السَّرْدِ وِفْقَ مَشِيئَةِ نِظَامِهِمْ. وَفِي هَذِهِ النُّقْطَةِ، لَا يَغْدُو مُجْتَمَعُ بوهاتان طَرَفًا مَهْزُومًا فَحْطًا، بَلْ يَصِيرُ ذَاتًا تُعَانِي تَحَلُّلًا بِنْيَوِيًّا، وَعَالَمًا قَدِيمًا فَقَدَ طَاقَةَ تَمَاسُكِهِ حِينَ اصْطَدَمَ بِمَرْكَزِ شَرْعِيَّةٍ أَكْثَرَ اتِّسَاعًا.

وَيَغْدُو الزَّوَاجُ بَيْنَ بُوكَاهُونْتَاس وَجُون رُولْف نُقْطَةَ التَّمَفْصُلِ الأَبْلَغَ فِي تَشْرِيحِ آلِيَّةِ عَمَلِ مَفْهُومِ الرُّومَانْسِيَّةِ العُلْيَا هَذَا. فَلَيْسَ ذَلِكَ الحَدَثُ لَحْظَةً رُومَانْسِيَّةً فَرْدِيَّةً، بَلْ هُوَ أَدَاةٌ سَرْدِيَّةٌ تُقِيمُ تَبَعِيَّةً نِظَامِيَّةً. فَبِدُخُولِ بُوكَاهُونْتَاس فِي البِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ، لَمْ تَنْتَقِلْ هِيَ مِنْ مَوْقِعٍ إِلَى آخَرَ، بَلْ عَانَتْ إِعَادَةَ تَمَوْضُعٍ هُوِيَّاتِيٍّ سَلَبَ السُّلْطَةَ الرَّمْزِيَّةَ عَنْ أُصُولِهَا. وَيَعْمَلُ هَذَا الزَّوَاجُ آلِيَّةً تَدْمُجُ بَقَايَا شَرْعِيَّةِ العَالَمِ القَدِيمِ فِي جَسَدِ النِّظَامِ الجَدِيدِ،

لِيَضْمَنَ أَنَّ النَّصْرَ الِاسْتِعْمَارِيَّ كُلِّيٌّ؛ يَشْمَلُ الحَيِّزَ المادِّيَّ وَالسُّلْطَةَ السِّيَاسِيَّةَ، حَتَّى الحَيِّزَ البَاطِنِيَّ الأَكْثَرَ حَمِيمِيَّةً، أَلَا وَهُوَ الهُوِيَّةُ.

وَتُؤَكِّدُ حُضُورِيَّةُ مَفْهُومِ الرُّومَانْسِيَّةِ العُلْيَا فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ أَنَّ الهَيْمَنَةَ الأَرْسَخَ هِيَ الَّتِي تَقْدِرُ عَلَى مَحْوِ شَرْعِيَّاتٍ بَدِيلَةٍ خَارِجَ حُدُودِهَا. وَقَدْ شَيَّدَ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى هَذَا السَّرْدَ مُبَيِّنًا أَنَّ نَجَاحَ أَيِّ نِظَامٍ لَا يَتَحَدَّدُ بِالخَرَابِ التَّامِّ لِخَصْمِهِ، بَلْ بِقُدْرَتِهِ عَلَى الِامْتِصَاصِ وَالِاسْتِيعَابِ وَإِعَادَةِ تَعْرِيفِ وَاقِعِ المَقْهُورِ. وَإِنَّ تَحَوُّلَ بُوكَاهُونْتَاس إِلَى رِيبِيكَا هُوَ التَّجَسُّدُ الأَجْلَى لِهَذِهِ الصَّيْرُورَةِ مِنَ الِاسْتِعْبَادِ، وَهُوَ تَحَوُّلٌ فِي مَرْكَزِ الثِّقَالِ الرَّمْزِيِّ غَيَّرَ وِجْهَةَ تَارِيخِ العِمْرَانِ. وَيَعْمَلُ مَفْهُومُ الرُّومَانْسِيَّةِ العُلْيَا هُنَا مِبْضَعًا لِكَشْفِ كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ السُّلْطَةِ لِذَاتِهَا بِوَصْفِهَا قَدَرًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ. وَبِجَعْلِ القُوَّةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ بَطَلًا فِي هَذَا النَّمَطِ، يَعْرِي النَّصُّ كَمْ هِيَ فَعَّالَةٌ السَّرْدِيَّةُ فِي إِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الهَيْمَنَةِ. فَلَمْ يَعُدِ النَّصْرُ مَسْأَلَةَ قُوَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ فَائِقَةٍ، بَلْ مَسْأَلَةَ نَجَاحٍ فِي تَخْطِيطِ عَالَمٍ سَرْدِيٍّ يَصِيرُ فِيهِ نِظَامُ الغَالِبِ هُوَ المَصْدَرَ الوَحِيدَ لِلسُّلْطَةِ المُعْتَبَرَةِ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ مَا نُعَايِنُهُ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ هُوَ بَيَانٌ حَيٌّ لِكَيْفِيَّةِ إِعَادَةِ كِتَابَةِ التَّارِيخِ عَلَى يَدِ مَنْ يَحُوزُ زِمَامَ الرَّمْزِ، وَكَيْفَ يَصِيرُ النِّظَامُ المَهْزُومُ فِي النِّهَايَةِ مُضْطَرًّا لِقَبُولِ نِظَامِ الغَالِبِ بِوَصْفِهِ الوَاقِعَ الوَحِيدَ المُنْفَرِدَ.

تَبْحَثُ الدِّرَاسَةُ السَّابِقَةُ لِـ مُحَمَّد حُسَيْن عَلِي السُّيُوطِيّ وَسَلَام نَاصِر وَالِي (٢٠٢٣)، المَعْنُونَةُ بِـ دَلَالَاتُ الميثُولُوجِيَا السِّيَاسِيَّةِ، إِشْكَالِيَّةَ تَوَظِيفِ الميثُوس فِي إِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى السُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَبِنَاءِ السَّرْدِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ عَلَى يَدِ الرَّحَّالَةِ، وَأَثَرِ الِانْحِيَازِ الأَيْدِيُولُوجِيِّ فِي تَشْكِيلِ الذَّاكِرَةِ الجَمْعِيَّةِ. وَقَدِ اعْتَمَدَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ المَنْهَجَ الكَيْفِيَّ عَبْرَ التَّحْلِيلِ الوَصْفِيِّ التَّارِيخِيِّ وَنَقْدِ نُصُوصِ أَدَبِ الرِّحْلَاتِ، حَيْثُ تَوَصَّلَتْ إِلَى أَنَّ الميثُوس وَالأَسَاطِيرَ يُسْتَخْدَمَانِ عَمْدًا لِمَنْحِ شَرْعِيَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ لِلْحُكَّامِ الجُدُدِ. وَخَلَصَتْ إِلَى أَنَّ السَّرْدِيَّةَ

المِيثُولُوجِيَّةَ تَعْمَلُ أَدَاةً لِلدِّعَايَةِ السِّيَاسِيَّةِ لِتَعْزِيزِ رِيَاحِيم مَا بَعْدَ الأَزَمَاتِ، وَلِبِنَاءِ صُورَةٍ لِخُلُودِ السُّلْطَةِ.

وَتَتَجَلَّى المطَابَقَةُ بَيْنَ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ وَبَيَانِ بُوكَاهُونْتَاس فِي اسْتِخْدَامِ السَّرْدِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ لِأَجْلِ بِنَاءِ الشَّرْعِيَّةِ فِي أَعْقَابِ الصِّرَاعَاتِ. فَإِذَا كَانَتْ دِرَاسَةُ السُّيُوطِيّ وَوَالِي تُظْهِرُ أَنَّ المِيتُوس يُوَظَّفُ لِتَأْكِيدِ السُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ الجَدِيدَةِ، فَإِنَّ قِصَّةَ زَوَاجِ بُوكَاهُونْتَاس وَجُون رُولْف تُمَثِّلُ رَمْزَ سِلْمٍ اسْتُخْدِمَ لِتَثْبِيتِ الهَيْمَنَةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ بَعْدَ حُرُوبٍ مُتَطَاوِلَةٍ. وَتُظْهِرُ كِلْتَا الدِّرَاسَتَيْنِ كَيْفَ يُسْتَحَالُ الصِّرَاعُ سَرْدِيَّةَ تَغَالُفٍ قَصْدًا لِخَلْقِ حَالَةٍ مِنَ القَبُولِ لِلنِّظَامِ الجَدِيدِ. وَيَكْمُنُ الِاخْتِلَافُ فِي كَوْنِ دِرَاسَةِ السُّيُوطِيّ وَوَالِي تَتَمَحْوَرُ حَوْلَ المِيتُوس الدِّينِيّ مَصْدَرًا لِشَرْعِيَّةِ السُّلْطَةِ، بَيْنَمَا يَعْرِضُ بَيَانُ بُوكَاهُونْتَاس رَمْزَ الِانْدِمَاجِ الثَّقَافِيّ وَالتَّصَالُحِ الِاجْتِمَاعِيّ فَضَاءً لِلشَّرْعِيَّةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ. وَعَلَيْهِ، تَخْلُصُ كِلْتَا الدِّرَاسَتَيْنِ إِلَى أَنَّ السَّرْدِيَّةَ المِيثُولُوجِيَّةَ وَالرَّمْزِيَّةَ تَحُوزَانِ وَظِيفَةً اسْتِرَاتِيجِيَّةً فِي تَحْوِيلِ ذَاكِرَةِ الصِّرَاعِ إِلَى صُورَةٍ مِنَ الِاسْتِقْرَارِ وَالنِّظَامِ الَّتِي تَعُودُ نَفْعًا عَلَى الطَّرَفِ المهَيْمِنِ.

خُلَاصَةُ قَوْلِ البَاحِثِ أَنَّ اسْتِقْرَارَ العِمْرَانِ، فِي رُؤْيَةٍ عَمِيقَةٍ لِرِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ، هُوَ مُفَارَقَةٌ يَدْفَعُ المرْءُ ثَمَنَهَا بَاهِظًا. فَالنِّظَامُ المنصُوبُ عَلَى سَاقٍ لَيْسَ مَحْضَ تَرَاكُمٍ لِلْقُوَّةِ، بَلْ هُوَ سِيمْفُونِيَّةُ انْتِظَامٍ يَشُدُّ أَرْكَانَهَا وُجُودُ رَمْزٍ حَامِلٍ لِلْقِيمَةِ. وَفِي إِطَارِ مَفْهُومِ الرُّومَانْسِيَّةِ العُلْيَا، يُقِيمُ هَذَا الرَّمْزُ ذَاتَهُ مَرْكَزَ ثِقَالٍ رُوحِيٍّ يَمُدُّ جِسْرًا بَيْنَ مَحْدُودِيَّةِ الإِنْسَانِ وَالمثُلِ المتَعَالِيَةِ الأَكْثَرِ جَلَالًا. وَلَكِنْ، خَلْفَ مَهَابَةِ هَذِهِ المرْحَلَةِ تَكْمُنُ هَشَاشَةٌ قَاتِلَةٌ: أَلَا وَهِيَ الِاعْتِمَادُ المفْرِطُ عَلَى شَخْصِ الفَرْدِ بِوَصْفِهِ مَنُوطًا بِالشَّرْعِيَّةِ. فَحِينَ يَنْحِي ذَلِكَ الرَّمْزُ عَنْ مَسْرَحِ التَّارِيخِ، لَا يُخَلِّفُ فَرَاغًا إِدَارِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ فَجْوَةً فِي التَّوَجُّهِ تُخْبِرُ المجْتَمَعَ عَلَى مُوَاجَهَةِ أَعْتَى الِامْتِحَانَاتِ الوُجُودِيَّةِ.

إِنَّ جِدَّةَ النَّقْدِ الأَدَبِيّ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ تَكْشِفُ أَنَّ أَزْمَةَ مَا بَعْدَ رَحِيلِ القَامَاتِ الكُبْرَى هِيَ المَيْدَانُ الَّذِي تَجِدُ فِيهِ تَدَخُّلَاتُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ زَخْمَهَا. فَلَيْسَ الخَطَرُ الأَدْمَرُ عَلَى العِمْرَانِ هُوَ الهُجُومُ المَنْصَبُّ حِينَ يَكُونُ القَائِدُ قَائِمًا بِأَمْرِهِ، بَلِ التَّسَرُّبُ الَّذِي يَنْفُذُ حِينَ يَغْشَى المجْتَمَعَ ضَيَاعُ البُوصَلَةِ بَعْدَ وَفَاةِ المرْشِدِ. وَفِي هَذِهِ النُّقْطَةِ، يَعْلَقُ المجْتَمَعُ دَوْمًا فِي حَالَةِ تَعَبُّدٍ لِرُمُوزِ أَمْجَادِ المَاضِي، بَيْنَمَا تَتَآكَلُ بِبُطْءٍ المَبَادِئُ الجَوْهَرِيَّةُ الَّتِي أَحْيَاهَا ذَلِكَ الرَّمْزُ. هَذَا هُوَ مَوْضِعُ الخَلَلِ الَّذِي يُسْتَغَلُّ بِدَهَاءٍ: حِينَ تَكُونُ بِنْيَةُ المؤَسَّسَاتِ وَالِاسْتِئْسَاسِ سَلِيمَةً، لَكِنَّ رُوحَ القِيمِ وَأَسَاسَهَا الَّذِي يَحْمِلُ هَذِهِ البِنْيَةَ قَدْ أَصَابَهُ التَّفَسُّخُ الأَيْدِيُولُوجِيُّ.

إِنَّ الصِّرَاعَ الإِسْخَاتُولُوجِيَّ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ هُوَ حَرْبٌ حَقِيقِيَّةٌ لِأَجْلِ المِيرَاثِ القِيمِيّ. وَحِينَ يَنْبَهِرُ المجْتَمَعُ بِظِلِّ أَمْجَادِ الأَبْطَالِ أَكْثَرَ مِنَ التِّيَقُّنِ لِلمَبَادِئِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي كَافَحُوا لِأَجْلِهَا، فَقَدْ فَتَحَ ذَلِكَ العِمْرَانُ بَابَهُ لِنِظَامٍ قِيمِيّ جَدِيدٍ يَعِدُ بِاليُسْرِ وَيُضِلُّ المسَارَ. وَلَا يَظْهَرُ تَدَخُّلُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ صُورَةَ كِيَانٍ غَرِيبٍ يَدُكُّ أَبْوَابَ المدِينَةِ، بَلْ صُورَةَ طَرْحِ تَجْدِيدٍ يَبْدُو عَقْلَانِيًّا وَمُغْرِيًا لِمَنْ تَمَلَّكَهُ الشُّعُورُ بِفِقْدَانِ الوِجْهَةِ. إِنَّهُ يَلِجُ مِنْ خَلَلِ عَجْزٍ جَمْعِيّ عَنْ حِرَاسَةِ المَبَادِئِ المتَعَالِيَةِ فِي غَيْبَةِ الرَّمْزِ المادِّيّ.

وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ مَفْهُومَ الرُّومَانْسِيَّةِ العُلْيَا فِي سَرْدِيَّةِ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى لَيْسَ مَحْضَ ذِرْوَةِ أَمْجَادِ التَّارِيخِ، بَلْ هُوَ نُقْطَةُ تَحَوُّلٍ حَاسِمَةٍ تُحَدِّدُ مَنَاعَةَ العِمْرَانِ الرُّوحِيَّةَ. فَلَا يُعَدُّ فِقْدَانُ الرَّمْزِ الكَبِيرِ نِهَايَةَ فَصْلٍ تَارِيخِيّ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ مَفْتَحٌ لِسَاحَةِ أَزْمَةٍ رُوحِيَّةٍ تُطَالِبُ بِالمسْؤُولِيَّةِ الجَمْعِيَّةِ. وَلَا يَتَوَقَّفُ نَجَاحُ العِمْرَانِ فِي صَدِّ تَدَخُّلَاتِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ فِي هَذِهِ المرْحَلَةِ عَلَى قُوَّةِ تَمَسُّكِهِ بِرُمُوزِ المَاضِي، بَلْ عَلَى مَدَى قُدْرَةِ المجْتَمَعِ عَلَى تَمَثُّلِ قِيَمِ الحَقّ ذَاتِيًّا، دُونَ الِارْتِكَازِ عَلَى شَرْعِيَّةِ الرَّمْزِ المادِّيّ. وَهَذَا هُوَ الِاخْتِبَارُ الأَخِيرُ لِصَلَابَةِ العِمْرَانِ: هَلْ يَقْدِرُ أَنْ يَصِيرَ حَارِسًا لِلْمَبَادِئِ الرَّبَّانِيَّةِ حِينَ يَرْتَحِلُ حَامِلُهَا، أَمْ يَرْتَدُّ مُسْتَسْلِمًا لِأَوْهَامٍ بُثَّتْ لِصَرْفِ وِجْهَةِ مُسْتَقْبَلِهِ نَحْوَ نِظَامٍ قَائِمٍ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى الطُّمُوحَاتِ البَشَرِيَّةِ.

٦) مَرْحَلَةُ التَّفَكُّكِ.

تُبَيِّنُ المرْحَلَةُ الأَخِيرَةُ مِنْ مِيتُوس الكُومِيدِيَا تَحَوُّلَ مَحْوَرِ السَّرْدِ مِنْ صِبْغَتِهِ الجَمْعِيَّةِ لِيَنْحَصِرَ فِي شَخْصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ. وَعَلَى أَنَّ نُورْثْرُوب فْرَاي يُوَضِّحُ أَنَّ هَذَا التَّفَكُّكَ يُخَالِفُ فِي مَاهِيَّتِهِ الِانْهِيَارَ. فَإِنَّ اصْطِلَاحَ الِانْهِيَارِ عِنْدَ فْرَاي يَأْخُذُ مَسَارًا عَمُودِيًّا مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلَ، وَيُفْضِي ضَرُورَةً إِلَى التَّلَفِ الكُلِّيِّ. بَيْدَ أَنَّ التَّفَكُّكَ لَا يَعْنِي انْهِدَامَ النِّظَامِ كُلِّيَّةً، بَلْ يَعْنِي انْشِطَارَهُ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ، مِمَّا يُؤَدِّي بِالتَّبَعِيَّةِ إِلَى وَهَنِ النِّظَامِ الأَسَاسِيِّ لِلقِيَمِ الجَمْعِيَّةِ فِي السَّرْدِيَّةِ. وَيُمْكِنُ اسْتِقْرَاءُ هَذِهِ المرْحَلَةِ مِنْ خِلَالِ الِاقْتِبَاسِ التَّالِي.

(١١) مذكرة "بوكاهونتاس": لم يُعجب الكويكروز هذا التصرف أبدًا، لذلك قرروا أن نأخذ هذا الرجل الذي كنا نظنه إلهًا ونستضيفه في "ويرو–كوموكو"، ليُحدّثه أبي ويتفاوض معه في أمور كثيرة، وفي أحد الأيام خرج عمي "أوبي– شانكا"، أصغر إخوة أبي، وكان شابًا قوي البنية، فباغتهم عند النهر، فهرب رفاق الرجل الوسيم وتركوه وحده أسيرًا في يد "أوبي– شانكا" ورجاله، وكان الكويكروز يقولون إن هذا الرجل ليس إلهًا، بل إنسان عادي، وأن عصا الرعد التي يحملها ليست إلا سلاحًا صنعه البشر بمهارة، وقد طاف "أوبي شانكا" به على جميع القبائل وهو مقيد خلفه، ليُثبت للجميع أنه ليس إلهًا، والدليل أنهم تمكنوا من أسره وتقييده، بل إنهم في طريقهم ليأخذوه إلى الملك "وان سيناكا" ليراه بنفسه، ومع ذلك لم يمسه أحد من رجال بوهاتان بسوء، لا أثناء أسره ولا خلال جولته بين القرى، هكذا كانت أخلاق بوهاتان العظيمة. (ص: ١٦٦)

يُصَوِّرُ البَيَانُ الحَادِي عَشَرَ انْصِدَاعَ مَنْظُومَةِ اتِّحَادِ بوهاتان الدَّاخِلِيَّةِ جَرَّاءَ تَشَتُّتِ المَوَاقِفِ تُجَاهَ الِاسْتِعْمَارِ الإِنْجِلِيزِيِّ؛ إِذْ آثَرَ طَرَفٌ مِنَ الزُّعَمَاءِ نَهْجَ السِّلْمِ وَالمهَادَنَةِ، بَيْنَمَا رَأَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى أَنَّ الإِنْجِلِيزَ خَطَرٌ دَاهِمٌ يَجِبُ مُنَاهَضَتُهُ. وَقَدْ أَدَّى هَذَا التَّبَايُنُ فِي المصَالِحِ

إِلَى وَهَنِ عُرَى التَّضَامُنِ بَيْنَ القُرَى، لَا سِيَّمَا حِينَ بَدَأَتْ بَعْضُ الأَقَالِيمِ تُغَلِّبُ سَلَامَتَهَا وَمَكَاسِبَهَا الخَاصَّةَ. وَبَلَغَتْ هَذِهِ الأَزْمَةُ ذِرْوَتَهَا عَبْرَ الخِيَانَةِ الَّتِي أَفْضَتْ إِلَى أَسْرِ بُوكَاهُونْتَاس، فَضْلًا عَنْ إِخْفَاقِ مَسَاعِي تَوْحِيدِ القُوَى تَحْتَ رَايَةِ وَان سِينَاكَاه. وَقَدْ زَادَ زَوَاجُ بُوكَاهُونْتَاس مِنْ جُون رُولْف مِنَ التَّصَدُّعِ حِدَّةً، لِأَنَّهُ قُرِئَ بِمَآلَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ لَدَى كُلِّ مَجْمُوعَةٍ، حَتَّى فَارَقَ اتِّحَادُ بوهاتان إِجْمَاعَهُ وَقُوَّتَهُ الجَمْعِيَّةَ، وَعَجَزَ عَنْ دَفْعِ هَيْمَنَةِ الِاسْتِعْمَارِ الإِنْجِلِيزِيِّ عَنْ نَفْسِهِ.

فِي سَرْدِيَّةِ رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ، لَمْ يَكُنْ انْهِدَامُ اتِّحَادِ بوهاتان حَادِثًا مَوْلُودًا مِنَ التَّفَجُّرِ الخَارِجِيِّ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ مَآلٌ لِتَفَسُّخٍ دَاخِلِيٍّ نَخَرَ أَسَاسَاتِ ذَلِكَ المجْتَمَعِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ التَّدَخُّلُ الِاسْتِعْمَارِيُّ ذِرْوَتَهُ بِمَرَاحِلَ. وَبِالِاسْتِنَادِ إِلَى بِنْيَةِ التَّفَكُّك فِي مِيتُوس الكُومِيدِيَا عِنْدَ نُورْثْرُوب فْرَاي، يَتَجَذَّرُ إِخْفَاقُ هَذَا النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ فِي فَقْدِ مَبَادِئِ التَّمَاسُكِ الَّتِي تَجْمَعُ شَتَاتَ الجَسَدِ الجَمْعِيِّ. فَحِينَ يَعْدَمُ المجْتَمَعُ مَرْكَزَ شَرْعِيَّةٍ قَادِرًا عَلَى اسْتِيعَابِ تَبَايُنِ التَّوَجُّهَاتِ، كَالشِّقَاقِ الأَيْدِيُولُوجِيِّ بَيْنَ تَيَّارِ حُسْنِ الضِّيَافَةِ لِـ كوبيكروز وَتَيَّارِ المقَاوَمَةِ العَسْكَرِيَّةِ لِـ أُوبِي–شَانْكَاه، فَلَا يَكُونُ الحَادِثُ مُجَرَّدَ جِدَالٍ سِيَاسِيٍّ، بَلْ هُوَ انْحِلَالٌ لِلمِيكَانِيزْمَات الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي حَفِظَتِ التَّنَاغُمَ دَهْرًا. لَقَدْ فَقَدَ ذَلِكَ النِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ وَظِيفَتَهُ الِانْدِمَاجِيَّةَ حِينَ رُفِعَتِ السَّرْدِيَّاتُ الجُزْئِيَّةُ إِلَى مَصَافِّ الحَقَائِقِ السِّيَادِيَّةِ، مِمَّا مَزَّقَ نَسِيجَ المعْنَى الَّذِي طَالَما كَانَ مُرْتَكَنًا لِلْإِجْمَاعِ.

وَتَعُدُّ وَاقِعَةُ أَسْرِ بُوكَاهُونْتَاس، فِي أُفُقِ أَرْكِيتَايْب فْرَاي، لَيْسَتْ حَادِثَةً مَعْزُولَةً، بَلْ هِيَ عَرَضٌ بِنْيَوِيٌّ لِتَفَتُّتٍ بَلَغَ نِقَاطَ نَظِيرِهِ. إِنَّ تَوَرُّطَ قَرْيَةِ بَاتَامِيكس فِي هَذَا الأَسْرِ لَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ العَقْلَانِيَّةَ الجَمْعِيَّةَ قَدْ غُلِبَتْ عَلَى أَمْرِهَا بِفِعْلِ المصَالِحِ البَرَاجْمَاتِيَّةِ المنْفَصِلَةِ عَنْ نِظَامِ القِيَمِ المشْتَرَكِ. وَهُنَا، لَا يَعْمَلُ الِاسْتِعْمَارُ الإِنْجِلِيزِيُّ قُوَّةً غَرِيبَةً تَغْزُو مِنَ الخَارِجِ، بَلْ كِيَانًا يَنْفُذُ عَبْرَ مَسَامِّ التَّصَدُّعِ الدَّاخِلِيِّ لِمُجْتَمَعِ بوهاتان نَفْسِهِ. فَإِنَّ نَجَاحَ الِاسْتِعْمَارِ هُوَ فِي جَوْهَرِهِ مِرْآةٌ لِتَشَتُّتِ الذَّاتِ الَّذِي عَانَاهُ ذَلِكَ المجْتَمَعُ؛ إِذْ فَقَدُوا القُدْرَةَ عَلَى تَعَرُّفِ ذَوَاتِهِمْ كَيَانًا مُتَّحِدًا، فَانْهَارَتِ التَّحْصِينَاتُ الرَّمْزِيَّةُ قَبْلَ أَنْ تُسْحَقَ التَّحْصِينَاتُ المادِّيَّةُ حَقًّا.

وَتَبْلُغُ أَزْمَةُ التَّمْثِيلِ ذِرْوَتَهَا حِينَ يَعْجَزُ رَمْزٌ مِثْلُ وَان سِينَاكَاه عَنْ قِيَادَةِ اسْتِجَابَةٍ جَمْعِيَّةٍ مُتَّسِقَةٍ. وَتُؤَكِّدُ انْشِطَارَاتُ المجْتَمَعِ نَحْوَ تَوْجُّهَاتٍ مُتَصَادِمَةٍ، مَا بَيْنَ الخُضُوعِ وَالتَّفَاوُضِ وَالمقَاوَمَةِ، أَنَّ مِيتُوس التَّوْحِيدِ الَّذِي كَانَ بُوصَلَةً سَرْدِيَّةً قَدْ تَضَاءَلَ كُلِّيَّةً. وَيَنْبَغِي أَنْ يُقْرَأَ زَوَاجُ بُوكَاهُونْتَاس مِنْ جُون رُولْف، مِنْ هَذَا المنْظُورِ، تَحَوُّلًا رَمْزِيًّا قَاتِلًا، وَضَرْبَةً قَاصِمَةً لِشَرْعِيَّةِ العَالَمِ القَدِيمِ. لَمْ يَكُنْ هَذَا الحَدَثُ تَبَدُّلًا لِلْوَضْعِ الشَّخْصِيِّ، بَلْ انْتِقَالًا لِمَرْكَزِ ثِقَالِ المعْنَى مِنَ النِّظَامِ العَالَمِيِّ لِبوهاتان نَحْوَ النِّظَامِ الإِنْجِلِيزِيِّ. وَيَغْدُو عَجْزُ المجْتَمَعِ عَنِ التَّوَافُقِ عَلَى تَأْوِيلٍ مُوَحَّدٍ لِهَذَا الزَّوَاج أَهْوَ خِيَانَةٌ أَمْ حَتْمِيَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ بُرْهَانًا قَاطِعًا عَلَى فِقْدَانِ بَقَايَا أَيِّ إِطَارِ مَعْنًى مُنْفَرِدٍ.

وَصَمْتُ وَان سِينَاكَاه فِي نِهَايَةِ السَّرْدِ هُوَ صَدًى أَخِيرٌ لِنِظَامٍ قَدْ فَقَدَ رَمَقَهُ. إِنَّ ذَلِكَ الصَّمْتَ يُمَثِّلُ بَلَاغَةً بِأَنَّ النِّظَامَ الرَّمْزِيَّ قَدْ بَلَغَ حَدَّهُ النِّهَائِيَّ؛ فَأَصْبَحَ الفِعْلُ بِلَا مَعْنًى لِأَنَّ العَالَمَ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الفِعْلُ قَدِ انْحَلَّ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ مَا عَرَضَهُ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ هُوَ صُورَةٌ لِانْهِيَارِ عِمْرَانٍ قَادَتْهُ التَّصَدُّعَاتُ الدَّاخِلِيَّةُ. وَيَصِيرُ انْهِدَامُ اتِّحَادِ بوهاتان عِبْرَةً أَرْكِيتَايْبِيَّةً بِأَنَّ العِمْرَانَ لَا يَنْهَارُ بِضَغْطِ العَدُوِّ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُ، مَا دَامَ قَادِرًا عَلَى حِرَاسَةِ وَحْدَتِهِ السَّرْدِيَّةِ وَنَزَاهَتِهِ الرَّمْزِيَّةِ. بَلْ عَلَى العَكْسِ، حِينَ يَنْزِعُ النِّظَامُ عَنْ نَفْسِهِ القُدْرَةَ عَلَى نَسْجِ سَرْدِيَّتِهِ الجَمْعِيَّةِ، فَمَا هُوَ إِلَّا مُنْتَظِرٌ لِلْخَرَابِ، مُمَهِّدًا السَّبِيلَ لِتَشْكِيلَاتِ سُلْطَةٍ جَدِيدَةٍ أَكْثَرَ بَأْسًا لِتَحُلَّ مَحَلَّهُ.

إِنَّ انْهِدَامَ اتِّحَادِ بوهاتان الدَّاخِلِيَّ، نَتِيجَةَ تَشَتُّتِ الفَصَائِلِ وَفَقْدِ التَّضَامُنِ الجَمْعِيِّ فِي مُوَاجَهَةِ الِاسْتِعْمَارِ الإِنْجِلِيزِيِّ، يُمْكِنُ مُقَابَلَتُهُ بَحْثِيًّا بِمَا أَوْرَدَهُ عَابِدِين (٢٠١٦) فِي دِرَاسَتِهِ التَّمْهِيدِيَّةِ حَوْلَ تَارِيخِ دِمَشْقَ، حَيْثُ تَبْحَثُ كِلْتَا الدِّرَاسَتَيْنِ فِي كَيْفِيَّةِ مُوَاجَهَةِ قُدْسِيَّةِ السُّلْطَةِ أَوْ شَرْعِيَّتِهَا لِتَحَدِّيَاتٍ وُجُودِيَّةٍ. وَإِذَا كَانَ عَابِدِين فِي إِشْكَالِيَّةِ بَحْثِهِ يَنْقُدُ مَيْلَ التَّارِيخِيَّةِ إِلَى إِهْمَالِ دَوْرِ المِيثُولُوجِيَا المحَلِّيَّةِ خِدْمَةً لِسَرْدِيَّاتِ الفَاتِحِينَ، فَإِنَّ حَالَةَ بوهاتان تُظْهِرُ أَنَّ عَجْزَ وَان سِينَاكَاه عَنْ تَحْشِيدِ الاتِّحَادِ وَالَّذِي فَاقَمَتْهُ خِيَانَةُ قَرْيَةِ بَاتَامِيكس يُشَابِهُ

ضَيَاعَ السُّلْطَةِ المَرْكَزِيَّةِ إِثْرَ تَغَيُّرِ البَارَادِيِيم، حَيْثُ آثَرَتِ القُرَى حِسَابَاتِ البَقَاءِ الفَرْدِيِّ عَلَى حِرَاسَةِ السِّيَادَةِ الجَمْعِيَّةِ.

وَمِنْ خِلَالِ مَنْهَجِيَّةِ الِاسْتِقْرَاءِ التَّحْلِيلِيِّ وَنَقْدِ المَصَادِرِ الَّتِي تُؤَكِّدُ عَلَى أَهَمِيَّةِ دَيْمُومَةِ المَوَاقِعِ المُقَدَّسَةِ، خَلَصَ بَحْثُ عَابِدِين إِلَى أَنَّ المَدِينَةَ تَقْدِرُ عَلَى الصُّمُودِ لِأَنَّ مُجْتَمَعَهَا يَظَلُّ رَهِينًا لِهَالَةٍ أَوْ مِيتُوس القَدَاسَةِ المَكَانِيَّةِ الَّتِي تَسْمُو عَلَى تَبَدُّلِ الحُكَّامِ؛ وَهَذَا يَتَنَاقَضُ تَمَامًا مَعَ حَالَةِ بوهاتان، حَيْثُ صَارَ زَوَاجُ بُوكَاهُونْتَاس وَجُون رُولْف نُقْطَةَ تَحَوُّلٍ قَطَعَتِ الإِجْمَاعَ الثَّقَافِيَّ وَنَحَتْ بِشَرْعِيَّةِ قِيَادَةٍ وَان سِينَاكَاه نَحْوَ الزَّوَالِ النِّهَائِيِّ. وَبِذَلِكَ، تَصِيرُ دِرَاسَةُ عَابِدِين مُقَارِبًا حَيَوِيًّا يُبَيِّنُ أَنَّهُ حِينَ يَفْقِدُ الكِيَانُ، سَوَاءٌ أَكَانَ مَدِينَةً أَمِ اتِّحَادًا، سَرْدِيَّتَهُ الجَمْعِيَّةَ أَوْ مِيتُوس التَّوْحِيدِ القَادِرَ عَلَى مُوَازَنَةِ البَرَاجْمَاتِيَّةِ مَعَ القِيَمِ الجَوْهَرِيَّةِ، فَإِنَّ مَنَاعَتَهُ النِّظَامِيَّةَ تَتَهَاوَى، مُحَوِّلَةً البِنْيَةَ الَّتِي كَانَتْ مُتَّحِدَةً إِلَى قِشْرَةٍ إِدَارِيَّةٍ خَاوِيَةٍ مِنْ أَيِّ قُوَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ نَاجِزَةٍ.

خُلَاصَةُ قَوْلِ البَاحِثِ أَنَّ انْهِدَامَ العِمْرَانِ، فِي سَرْدِيَّةِ رِوَايَةِ أَنْتيخْرِيستُوسَ، لَيْسَ حَادِثًا خَطِيًّا يَنْتَهِي بِالخَرَابِ المَادِّيِّ، بَلْ هُوَ صَيْرُورَةٌ مُتَطَاوِلَةٌ تَبْدَأُ مِنْ تآكُلِ فُضُولِ الوَعْيِ الجَمْعِيِّ. فَحِينَ يَعْدَمُ المجْتَمَعُ القُدْرَةَ عَلَى الِاعْتِقَادِ فِي اسْتِمْرَارِيَّةِ القِيَمِ الَّتِي كَانَتْ عِمَادَ هُوِيَّتِهِ، عِنْدَئِذٍ يَنْبَثِقُ طَوْرُ التَّفَكُّكِ حَقًّا. وَفِي أُفُقِ نُورْثْرُوب فْرَاي، تُعَدُّ هَذِهِ المَرْحَلَةُ نِقْطَةَ نَظِيرٍ بَالِغَةَ الهَشَاشَةِ، حَيْثُ تَفْقِدُ كُلُّ المؤَسَّسَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الشَّامِخَةِ طَاقَتَهَا الرَّابِطَةَ. إِنَّ هَذَا الخَرَابَ لَيْسَ مَحْضَ فَقْدٍ لِلْبِنْيَةِ الرَّسْمِيَّةِ، بَلْ هُوَ خُبُوُّ القُدْرَةِ الجَمْعِيَّةِ عَلَى رِعَايَةِ المَعْنَى الَّذِي طَالَما جَمَعَهُمْ مُجْتَمَعًا تَارِيخِيًّا.

وَتُؤَكِّدُ هَذِهِ المقَارَبَةُ أَنَّ مَنَاعَةَ العِمْرَانِ لَا تَكْمُنُ فِي بَأْسِ القُوَّةِ العَسْكَرِيَّةِ أَوْ تَرَاكُمِ المَادَّةِ، بَلْ فِي مَدَى قُدْرَةِ المجْتَمَعِ عَلَى حِرَاسَةِ الرَّابِطِ بَيْنَ الذَّاكِرَةِ التَّارِيخِيَّةِ، وَالهُوِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ، وَمَبَادِئِ القِيَمِ الَّتِي تَحْمِلُ حَيَاتَهُمْ. وَحِينَ يَتَعَرَّضُ مَنْطِقُ التَّقْلِيدِ لِلتَّشْكِيكِ وَيُطْرَحُ جَانِبًا خِدْمَةً لِبَرَاجْمَاتِيَّةِ العَصْرِ، فَإِنَّ أَسَاسَاتِ العِمْرَانِ الدَّاخِلِيَّةَ تُصَابُ بِالوَهَنِ. وَفِي هَذِهِ الحَالِ، يَصِيرُ المجْتَمَعُ مُسْتَبَاحًا لِكُلِّ صُنُوفِ التَّأْثِيرِ الخَارِجِيِّ الَّتِي تَعِدُ بِحُلُولٍ عَاجِلَةٍ، وَهِيَ فِي

جَوْهَرِهَا تَعَجِّلُ مِنْ عَمَلِيَّةِ إِفْرَاغِ المَعْنَى. وَيَجْعَلُ فَقْدُ هَذِهِ القُدْرَةِ التَّمَاسُكِيَّةِ المجْتَمَعَ كِيَانًا مُقْتَلَعَ الأُصُولِ، لَا بُوصَلَةَ لَهُ تُمَيِّزُ بَيْنَ القِيمَةِ السَّرْمَدِيَّةِ وَالوَهْمِ الزَّائِلِ.

إِنَّ جِدَّةَ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ تَكْشِفُ أَنَّ تَدَخُّلَاتِ أَنْتيخْريستُوسَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ تَعْمَلُ نِظَامِيًّا عَبْرَ تَفَكُّكِ المَعْنَى. فَالخَطَرُ الجَوْهَرِيُّ لَيْسَ انْهِدَامَ الدَّوْلَةِ أَوْ تَهَاوِيَ الاِقْتِصَادِ، بَلِ انْقِطَاعَ الصِّلَةِ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَمَصَادِرِ القِيَمِ المشَكِّلَةِ لِإِنْسَانِيَّتِهِ. وَبِتَأْثِيرِهِ عَلَى نَظْرَةِ المجْتَمَعِ لِمَا هُوَ مُقَدَّسٌ، يَخْلُقُ أَنْتيخْريستُوسَ حَالَةً يَبدأُ فِيهَا المجْتَمَعُ بِالتَّخَلِّي عَنْ قِيَمِهِ الأَسَاسِيَّةِ طَوْعًا. وَإِنَّ الاِنْهِيَارَ المؤَسَّسِيَّ الَّذِي نَعَايِنُهُ فِي السَّرْدِ مَا هُوَ إِلَّا مَآلٌ مَادِّيٌّ لِإِفْلَاسٍ بَاطِنِيٍّ قَدْ تَجَلَّى سَلَفًا عَلَى مَسْتَوَى الوَعْيِ الجَمْعِيِّ.

وَبِذَلِكَ، فَإِنَّ الصِّرَاعَ الإِسْخَاتُولُوجِيَّ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ يُمَثِّلُ حَرْبًا لِأَجْلِ الظَّفَرِ بِأَسَاسَاتِ المعْنَى. وَلَا يُفْهَمُ تَدَخُّلُ أَنْتيخْريستُوسَ كِيَانًا خَارِجِيًّا يَهْدِمُ النِّظَامَ، بَلْ قُوَّةً تُتْلِفُ الإِدْرَاكَ لِيَظُنَّ المجْتَمَعُ أَنَّهُ فِي طَرِيقِ التَّقَدُّمِ، بَيْنَمَا هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ يَنْبِذُ المبَادِئَ الرَّبَّانِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ لَهُ الشَّرْعِيَّةَ الأَخْلَاقِيَّةَ. وَفِي أُفُقِ الإِسْخَاتُولُوجِيَا الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَنْبِضُ بِهَا هَذِهِ السَّرْدِيَّةُ، تُمَثِّلُ مَرْحَلَةُ التَّفَكُّكِ المسْرَحَ الرَّئِيسَ حَيْثُ يُرَاهَنُ عَلَى مَصِيرٍ مُسْتَقْبَلِ العِمْرَانِ. إِنَّ حَالَةَ الأَزْمَةِ المرْتَسَمَةَ لَيْسَتْ نِهَايَةَ التَّارِيخِ، بَلْ هِيَ شَرْطٌ مُسْبَقٌ لِابْتِلَاءِ الإِنْسَانِ، لِكَيْ يَنْظُرَ هَلْ بَقِيَتْ لَدَيْهِ صَلَابَةٌ لِحِرَاسَةِ التَّوَجُّهِ الرَّبَّانِيِّ فِي لُجَّةِ إِغْوَاءِ النِّظَامِ الجَدِيدِ المتَبَاعِدِ عَنْ أَصْلِ المبَادِئِ الرَّبَّانِيَّةِ.

سِمَاتٌ هَيْكَلِيَّةٌ

١) أَلَازُون

الأَلَازُون هُوَ الشَّخْصِيَّةُ الَّتِي تَدَّعِي أَكْثَرَ مِمَّا تَحُوزُهُ، بَلْ هِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنِ البَصِيرَةِ بِفِعْلِ هَوَسِهَا أَوْ كِبْرِيَائِهَا، وَبِعَيْنِ هَذَا الاِنْكِشَافِ تَمْضِي كَيْ تَصِيرَ ضَحِيَّةً فِي لُعْبَةِ الكُومِيدِيَا، وَمَوْضِعًا لِلسُّخْرِيَةِ فِي السَّاتَايْر، وَمَصْدَرًا لِتَلَفِهَا الذَّاتِيِّ فِي التَّرَاجِيدِيَا. إِنَّ شَخْصِيَّةَ الأَلَازُون

لَيْسَتْ مَحْضَ شَخْصِيَّةٍ شِرِّيرَةٍ، بَلْ هِيَ تَجَلٍّ لِإِحْدَى ضَعَافَاتِ الإِنْسَانِ، أَلَا وَهِيَ عَجْزُهُ عَنْ رُؤْيَةِ ذَاتِهِ عَلَى حَقِيقَتِهَا. وَيَحُوزُ مَفْهُومُ الأَلَازُون هَذَا رَابِطًا دَلَالِيًّا مَعَ النَّتَائِجِ الَّتِي ظَفِرَ بِهَا البَاحِثُ. وَسَيُبَيِّنُ البَاحِثُ ذَلِكَ جَلِيًّا بَعْدَ قِرَاءَةِ المَعْطَيَاتِ. وَفِيمَا يَلِي مَرَاحِلُ عَرْضِ البَيَانِ وَقِرَاءَتِهِ.

(١٢) اتفقت مع الملك... على أن نكون موالين له وأن نوقف المناوشات بيننا، وقال إنه سيرسل لنا الطعام بشكل منتظم، وكان عليّ أن أسايره وأوافقه، فهو لا يعلم نية الإنجليز الحقيقية بعد، فنحن نخطط للسيطرة على بلاده كاملة سواء رضي أم لم يرض (ص ١٤٩).

يَسْرُدُ البَيَانُ الثَّانِي عَشَرَ حَادِثَةَ اسْتِعْدَادِ مَلِكِ قَبَائِلِ بوهاتان لِإِقَامَةِ حَدِّ القَتْلِ عَلَى جُون سِمِيث، لَكِنَّ بُوكَاهُونْتَاس فِي رَيْعَانِ صِبَاهَا حَالَتْ دُونَ ذَلِكَ مُسْتَمِيتَةً فِي طَلَبِ العَفْوِ عَنْهُ. فَلَانَ قَلْبُ المَلِكِ حِينَئِذٍ، وَمَنَحَ جُون سِمِيث فُرْصَةً ثَانِيَةً، مَشْرُوطَةً بِالمُصَادَقَةِ عَلَى مُعَاهَدَةِ سِلْمٍ وَقَسَمِ مُسْتَعْمَرَةِ الإِنْجِلِيزِ بِالوَلَاءِ لِلْمَلِكِ. وَفِي النِّهَايَةِ، تَظَاهَرَ جُون سِمِيث بِالمُوَافَقَةِ عَلَى تِلْكَ المُعَاهَدَةِ، بَاعِثًا ذَلِكَ عَلَى التَّسْوِيفِ لِحِينِ وُصُولِ المَدَدِ مِنَ الإِنْجِلِيزِ إِلَى أَرَاضِي بوهاتان.

إِنَّ السُّلْطَةَ الِاسْتِعْمَارِيَّةَ المُصَوَّرَةَ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لَا تَقُومُ عَلَى تَطَابُقٍ بَيْنَ ادِّعَاءِ السَّطْوَةِ وَالطَّاقَةِ المَادِّيَّةِ الفِعْلِيَّةِ. فَإِذَا أُعْمِلَ النَّظَرُ بِنْيَوِيًّا، فَإِنَّ تِلْكَ السُّلْطَةَ لَيْسَتْ إِلَّا صِنَاعَةَ صُورَةٍ شُيِّدَتْ عَمْدًا لِتُجَاوِزَ الوَاقِعَ المَوْضُوعِيَّ فِي المَيْدَانِ. وَمَعَ أَنَّ الشَّخْصِيَّةَ الرَّئِيسِيَّةَ تَظْهَرُ بِمَظْهَرِ الرَّاشِدِ الِاسْتِرَاتِيجِيِّ القَدِيرِ فِي الدِّبْلُومَاسِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ خَلْفَ هَذَا الأَدَاءِ يَتَوَارَى اعْتِمَادٌ بِنْيَوِيٌّ عَمِيقٌ عَلَى المُجْتَمَعِ المَحَلِّيِّ. وَلَا تَمْتَلِكُ هَذِهِ الخُطَّةُ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ العَظِيمَةُ قُوَّةَ دَفْعٍ دُونَ تَوْفِيرِ المَطَالِبِ الأَسَاسِيَّةِ، وَالمَعْرِفَةِ الجُغْرَافِيَّةِ، وَالدَّعْمِ المَيْدَانِيِّ مِنَ السُّكَّانِ الأَصْلِيِّينَ. وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ رُسُوخَ السُّلْطَةِ البَادِيَ عَلَى السَّطْحِ لَيْسَ إِلَّا وَاجِهَةً تَحْجُبُ الهُوَّةَ بَيْنَ سَرْدِيَّةِ الهَيْمَنَةِ وَوَاقِعِ الأَسَاسِ المَادِّيِّ الدَّاعِمِ لَهَا.

وَفِي إِطَارِ نُورْثْرُوب فْرَاي، تَتَوَازَى مَكَانَةُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ مَعَ أَرْكِيتَايْب الأَلَازُون، أَيْ ذَلِكَ الشَّخْصِ الَّذِي يُشَيِّدُ تَفَوُّقَهُ بِادِّعَاءَاتٍ تَفُوقُ بِكَثِيرٍ قُدْرَتَهُ الوَاقِعِيَّةَ. فَلَمْ تَعُدِ السُّلْطَةُ هُنَا مُصَدَّقَةً بِالنَّجَاحَاتِ التَّجْرِيبِيَّةِ، بَلْ بِالنَّجَاحِ فِي إِنْتَاجِ الخِطَابِ. وَقَدْ أُقِيمَتِ المَعْرِفَةُ وَالعَقْلَانِيَّةُ صِفَاتٍ حُصْرِيَّةً تَعْمَلُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ طَرَفَيِ الغَالِبِ وَالمَغْلُوبِ. غَيْرَ أَنَّ هَذَا التَّمْيِيزَ لَيْسَ بُرْهَانًا عَلَى تَفَوُّقٍ مَوْضُوعِيٍّ، بَلْ هُوَ اسْتِرَاتِيجِيَّةٌ دِفَاعِيَّةٌ لِتَسْتُرَ الهَشَاشَةَ البِنْيَوِيَّةَ. وَتَعْمَلُ السُّلْطَةُ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ عَبْرَ تَأْجِيلِ الإِثْبَاتِ؛ إِذْ تَعِدُ دَوْمًا بِأُفُقٍ مِنَ النَّجَاحِ فِي المُسْتَقْبَلِ حَتَّى لَا يُقْرَأَ الِاعْتِمَادُ الحَالِيُّ ضَعْفًا، بَلْ جُزْءًا مِنْ خُطَّةٍ كُبْرَى لَمْ تَنْكَشِفْ تَمَامًا بَعْدُ.

وَإِنَّ طُمُوحَ التَّوَسُّعِ الَّذِي يُذْكِيهِ هَذَا الشَّخْصُ هُوَ تَجَسُّدٌ حَقِيقِيٌّ لِوَهْمِ السَّيْطَرَةِ. وَمَعَ أَنَّ البِنْيَةَ الِاسْتِعْمَارِيَّةَ لَا تَزَالُ فِي طَوْرِ عَدَمِ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ النِّظَامِيَّةِ الجَلِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الطُّمُوحَ يُطْرَحُ بِوَصْفِهِ إِرَادَةً لَا مَحِيدَ عَنْهَا. وَتُخْلِقُ الفَجْوَةُ بَيْنَ ادِّعَاءِ الهَيْمَنَةِ الشَّامِلَةِ وَوَاقِعِ المَادَّةِ المَحْدُودِ حَالَةً يَشْعُرُ فِيهَا ذَاتُ السُّلْطَةِ بِالقُدْرَةِ عَلَى إِخْضَاعِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ بِقُوَّةِ الإِرَادَةِ المَحْضَةِ. وَتَحْمِلُ هَذِهِ الحَالَةُ مَخَاطِرَ جَسِيمَةً عَلَى اسْتِقْرَارِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا اتَّسَعَتْ تِلْكَ الفَجْوَةُ، ازْدَادَتْ هَشَاشَةُ الأَسَاسِ الدَّاعِمِ لِلسُّلْطَةِ. وَهَذَا التَّنَاقُضُ لَيْسَ مَحْضَ عَرَضٍ جَانِبِيٍّ، بَلْ هُوَ قَلْبُ نِظَامِ الهَيْمَنَةِ ذَاتِهِ، الَّذِي يَسْعَى دَوْمًا لِحَجْبِ الِاعْتِمَادِ بِإِسْقَاطَاتٍ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ فَخْمَةٍ.

وَلَا يَعْكِسُ تَشْكِيلُ السُّلْطَةِ هَذَا هَيْمَنَةً نَاضِجَةً، بَلْ هُوَ تَوَتُّرٌ دَاخِلِيٌّ يُحَاوِلُ تَهْدِئَتَهُ دَوْمًا. فَمَا السُّلْطَةُ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ هُنَا إِلَّا كِيَانٌ شُيِّدَ عَلَى تَوَازُنٍ هَشٍّ بَيْنَ مَا يُدَّعَى وَمَا يُحَازُ فِعْلًا. وَيَتَنَامَى نِظَامُ الهَيْمَنَةِ ذَلِكَ صِيغَةً سَرْدِيَّةً مُقْنِعَةً، لَكِنَّهُ مَادِّيًّا لَمْ يَبْلُغْ مَرْتَبَةَ الِاسْتِقْلَالِ. وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ، تَظَلُّ تِلْكَ السُّلْطَةُ مَرْهُونَةً بِاحْتِمَالِيَّةِ أَزْمَةٍ مُتَأَصِّلَةٍ، لِأَنَّ كُلَّ بِنَاءِ سُلْطَتِهِمْ مَوْقُوفٌ عَلَى قَبُولِ الخَصْمِ لِوُعُودٍ لَمْ تُحَقَّقْ. وَفِي المَآلِ، فَإِنَّ مَا يَبْدُو قُوَّةً مُطْلَقَةً فِي عَيْنِ

القَارِئ هُوَ فِي الحَقِيقَةِ مَسْعًى نِظَامِيٌّ لِتَعْلِيقِ الوَاقِعِ سَبِيلًا لِلْحِفَاظِ عَلَى سَرْدِيَّةِ التَّفَوُّقِ غَيْرِ المُكْتَمِلَةِ الأَصَالَةِ.

تَتَمَثَّلُ المُرْتَكَنَاتُ الِاسْتِدْلَالِيَّةُ لِدِرَاسَةِ جَمَال بَلْقَاسِم (٢٠١٤)، المَعْنُونَةِ بِـ الهُوِيَّةُ وَمُرَاجَعَةُ المِيثُولُوجِيَا البَيْضَاءِ: سِيَاسَاتُ التَّمْثِيلِ، فِي رَبْطِ السِّيَاقِ بِمَا أَوْرَدَهُ البَاحِثُ حَوْلَ بَيَانِ جُون سِمِيث وَبُوكَاهُونْتَاس. إِذْ تَنْصَبُّ إِشْكَالِيَّةُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ عَلَى كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ الهُوِيَّةِ عَبْرَ اللُّغَةِ، وَكَيْفِيَّةِ اشْتِغَالِ سِيَاسَاتِ التَّمْثِيلِ فِي رَوَابِطِ الِاسْتِعْمَارِ لِأَجْلِ صِيَانَةِ الهَيْمَنَةِ. وَقَدِ اعْتَمَدَ البَاحِثُ المَنْهَجَ الوَصْفِيَّ التَّحْلِيلِيَّ بِأُصُولٍ بَعْدَ بِنْيَوِيَّةٍ وَتَحْلِيلٍ نَفْسِيٍّ لِفَحْصِ كَيْفِيَّةِ تَمْثِيلِ الطَّرَفِ المَهَيْمِنِ لِلْآخَرِ. وَأَظْهَرَتِ النَّتَائِجُ أَنَّ الهُوِيَّةَ وَحَقَائِقَ التَّارِيخِ لَيْسَتْ سِوَى بِنَاءَاتٍ خِطَابِيَّةٍ تُشَكِّلُهَا مَصَالِحُ السُّلْطَةِ، لَا تَمْثِيلاتٍ مَوْضُوعِيَّةٍ لِلْوَاقِعِ. وَخَلَصَتْ إِلَى أَنَّ السَّرْدِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةَ وَالهُوِيَّاتِ تُنْتَجُ عَبْرَ مِيكَانِيزْمَات تَمْثِيلٍ تَمِيلُ لِصَالِحِ الفِئَاتِ المَهَيْمِنَةِ.

وَتَتَجَلَّى المُطَابَقَةُ بَيْنَ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ وَبَيَانِ جُون سِمِيث فِي تَوَظِيفِ السَّرْدِ أَدَاةً لِإِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى السُّلْطَةِ. فَإِذَا كَانَ بَلْقَاسِم يُبَيِّنُ أَنَّ التَّمْثِيلَ الِاسْتِعْمَارِيَّ قَامَ لِحِمَايَةِ الهَيْمَنَةِ الغَرْبِيَّةِ، فَإِنَّ بَيَانَ جُون سِمِيث يُظْهِرُ كَيْفَ أَمْكَنَ قِرَاءَةُ مُعَاهَدَةِ السِّلْمِ وَقِصَّةِ إِنْقَاذِ بُوكَاهُونْتَاس بِنَاءً سَرْدِيًّا يَنْصُرُ مَصَالِحَ الِاسْتِعْمَارِ الإِنْجِلِيزِيِّ. وَكِلْتَا الدِّرَاسَتَيْنِ تَعْرِضَانِ كَيْفَ تُصَاغُ حَقِيقَةُ التَّارِيخِ مِن قِبَلِ مَنْ يَحُوزُ سُلْطَةَ سَرْدِهَا. وَيَكْمُنُ الِاخْتِلَافُ فِي كَوْنِ دِرَاسَةِ بَلْقَاسِم تَتَمَحْوَرُ حَوْلَ التَّحْلِيلِ النَّظَرِيِّ لِسِيَاسَاتِ التَّمْثِيلِ وَبِنَاءِ الهُوِيَّةِ فِي الخِطَابِ الِاسْتِعْمَارِيِّ، بَيْنَمَا يَنْظُرُ بَيَانُ هَذَا البَحْثِ فِي التَّجَلِّيَاتِ المُلْمُوسَةِ لِهَذِهِ المُمَارَسَاتِ فِي العَلَاقَةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ بَيْنَ الإِنْجِلِيزِ وَقَبَائِلِ بوهاتان. وَعَلَيْهِ، تَخْلُصُ دِرَاسَةُ بَلْقَاسِم وَبَيَانُ جُون سِمِيث مَعًا إِلَى أَنَّ السَّرْدِيَّةَ التَّارِيخِيَّةَ لَا تَكُونُ قَطُّ بِمَعْزِلٍ عَنِ الِانْحِيَازِ، بَلْ تَصِيرُ دَوْمًا أَدَاةً لِلسُّلْطَةِ لِإِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الهَيْمَنَةِ وَتَشْكِيلِ إِدْرَاكِ المُجْتَمَعِ لِلْوَاقِعِ.

خُلَاصَةُ القَوْلِ أَنَّ شَخْصِيَّةَ الأَلَازُون فِي الإِطَارِ النَّظَرِيِّ لِنُورْثْرُوب فْرَاي تَتَجَاوَزُ صُورَةَ الفَرْدِ المَأْخُوذِ بِكِبْرِيَائِهِ؛ بَلْ هِيَ تَجَلٍّ لِعَجْزِ الإِنْسَانِ عَنِ التَّصَالُحِ مَعَ مَحْدُودِيَّةِ ذَاتِهِ. وَفِي رِوَايَةِ

أَنْتيخْريستُوسَ، يَتَجَسَّدُ الأَلَازُون مَأْسَاةً وُجُودِيَّةً، حَيْثُ تَمْثُلُ عُظْمَةُ الذَّاتِ المطْرُوحَةُ فِي الفَضَاءِ العَامّ مُحَاوَلَةً لِلْفِرَارِ مِنْ هَشَاشَةِ البَاطِنِ. وَيَنْبُعُ التَّوَتُّرُ الَّذِي تُعَانِيهِ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةُ مِنَ الِانْصِيَاعِ لِضَرُورَةِ صِيَانَةِ صُورَةِ التَّفَوُّقِ، وَهِيَ الصُّورَةُ الَّتِي تُبَعِّدُهَا عَنْ إِدْرَاكِ الوَاقِعِ مَوْضُوعِيًّا. وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ، يَغْدُو الأَلَازُون أَسِيرَ حَلَقَةٍ مُفْرَغَةٍ مِنْ حَاجَةِ التَّأْكِيدِ عَلَى الذَّاتِ، فَيَفْقِدُ بُوصَلَةَ الأَخْلَاقِ لِأَنَّ الحَقِيقَةَ لَمْ تَعُدْ تُقَاسُ بِمَعَايِيرَ مُتَعَالِيَةٍ، بَلْ بِمَدَى مُوَاءَمَةِ الوَاقِعِ لِمُتَطَلَّبَاتِ أَنَانِيَّتِهِ.

إِنَّ مَيْلَ الإِنْسَانِ إِلَى نَصْبِ ذَاتِهِ مَرْكَزَ سُلْطَةٍ قُصْوَى لَيْسَ مَحْضَ ضَعْفٍ فِي الشَّخْصِيَّةِ، بَلْ هُوَ مَوْضِعٌ اسْتِرَاتِيجِيٌّ لِتَدَخُّلَاتِ أَنْتيخْريستُوسَ. وَتَكْشِفُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ تَسَرُّبَ أَنْتيخْريستُوسَ لَا يَتَحَرَّكُ دَوْمًا عَبْرَ القُوَى المادِّيَّةِ أَوِ السِّيَاسِيَّةِ، بَلْ يَنْفُذُ مِنْ خِلَالِ تَحَوُّلَاتِ البَارَادِيمِ فِي مُسْتَوَى الوَعْيِ الفَرْدِيّ. وَبِتَعْزِيزِ الطُّمُوحِ الإِنْسَانِيّ المَرْكَزِيّ، يَنْجَحُ أَنْتيخْريستُوسَ فِي تَآكُلِ إِحْسَاسِ الإِنْسَانِ بِالافْتِقَارِ إِلَى اللهِ وَبِالمسْؤُولِيَّةِ الأَخْلَاقِيَّةِ المَنْوطَةِ بِهِ. وَيَصِيرُ الأَلَازُون، فِي هَذَا السِّيَاقِ، رَمْزًا لِلْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ المتِيحَةِ لِانْحِطَاطِ العِمْرَانِ؛ إِذْ حِينَ يَعْتَقِدُ الفَرْدُ أَنَّهُ مَصْدَرُ الحَقِّ الأَسْمَى، فَإِنَّ أَسَاسَاتِ الرُّوحِ فِي النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيّ تُصَابُ بِانْصِدَاعٍ قَاتِلٍ.

وَتَتَفَاقَمُ آثَارُ هَذَا المَيْلِ لِتَبْلُغَ المسْتَوَى الِاجْتِمَاعِيَّ، حَيْثُ يَمِيلُ المجْتَمَعُ المفْقُودُ لِلتَّوَجُّهِ المتَعَالِي إِلَى تَعَبُّدِ الصُّورَةِ دُونَ المادِّيَّةِ. وَحِينَ يَمُوتُ القُدْرَةُ عَلَى قَبُولِ النَّقْدِ وَالإِقْرَارِ بِالحَقِّ خَارِجَ نِطَاقِ الذَّاتِ، يَصِيرُ النِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ المتَشَكِّلُ بَالِغَ الهَشَاشَةِ أَمَامَ التَّلَاعُبِ. إِنَّ خَرَابَ العِمْرَانِ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ لَا يَبْدَأُ بِصِرَاعَاتٍ مُعْلَنَةٍ، بَلْ بِانْحِرَافِ بُوصَلَةِ القِيَمِ فِي بَاطِنِ كُلِّ فَرْدٍ. وَحِينَ يُؤْثِرُ الإِنْسَانُ إِعْلَاءَ طُمُوحِهِ الخَاصِّ عَلَى الخُضُوعِ لِمَبَادِئِ الأُلُوهِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَفْتَحُ طَوْعًا فَضَاءً لِتَوَغُّلِ نُفُوذِ أَنْتيخْريستُوسَ فِي نَسِيجِ المجْتَمَعِ.

وَعَلَيْهِ، لَا يَكُونُ الأَلَازُون أَرْكِيتَايْبًا لِلفَشَلِ الفَرْدِيّ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ إِرْهَاصٌ لِانْهِدَامٍ رُوحِيٍّ أَوْسَعَ نِطَاقًا. وَفِي أُفُقِ الإِسْخَاتُولُوجِيَا الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي رَسَمَهَا المؤَلِّفُ، يُعَدُّ مَيْلُ الإِنْسَانِ

لِتَمْثِيلِ نَفْسِهِ مَطْلَقًا هُوَ البَابُ الأَعْظَمُ نَحْوَ نِظَامٍ يَبْتَعِدُ نَأْيًا عَنِ القِيَمِ الرَّبَّانِيَّةِ. فَلَيْسَ الخَطَرُ الأَكْبَرُ عَلَى بَقَاءِ العِمْرَانِ هُوَ كِيَانًا خَارِجِيًّا يَهْدِمُ المؤَسَّسَاتِ، بَلْ هُوَ زَوَالُ صِدْقِ الإِنْسَانِ فِي الإِقْرَارِ بِمَحْدُودِيَّتِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ. إِنَّ الإِخْفَاقَ فِي وَضْعِ الحَقِّ خَارِجَ نِطَاقِ الذَّاتِ هُوَ شَرْطٌ مُسْبَقٌ لِنُشُوءِ الأَزَمَةِ الإِسْخَاتُولُوجِيَّةِ، وَهِيَ حَالَةٌ لَا يَنْهَارُ فِيهَا العِمْرَانُ بِفِعْلِ عَدُوٍّ خَارِجِيٍّ، بَلْ لِأَنَّهُ قَدْ فَقَدَ القُدْرَةَ عَلَى حِرَاسَةِ سِيَادَةِ القِيَمِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي دَاخِلِهِ.

٢) الأَيْيرُون

فِي مِيتُوس الكُومِيدِيَا، يَتَجَلَّى الأَيْيرُون فِي أَرْبَعَةِ أَنْمَاطٍ: بَطَلٌ مُحَيَّدٌ قَصْدًا، لَا يَكُونُ ظَفَرُهُ نَتِيجَةَ مَهَارَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، بَلْ بِفَضْلِ بِنْيَةِ السَّرْدِ المُحَازَةِ لَهُ؛ وَبَطَلٌ يَرْسُمُ خُطُوطَ الحَلِّ عَبْرَ التَّنَكُّرِ أَوْ قَلْبِ الأَدْوَارِ؛ وَمُعَاوِنٌ دَاهِيَةٌ يَتَطَوَّرُ مِنْ شَكْلِ العَبْدِ الرُّومَانِيِّ إِلَى صُورَةِ المحَقِّقِ الهَاوِي العَصْرِيِّ، يَنْطَلِقُ مِنْ شَغَفِهِ بِاللَّعِبِ، وَيَمْتَلِكُ القُدْرَةَ عَلَى تَحْرِيكِ كَافَّةِ الأَحْدَاثِ بِمُحَرِّكٍ ضَئِيلٍ؛ وَرَمْزُ سُلْطَةٍ يَعْتَزِلُ عَمْدًا فِي مَفْتَحِ الحِكَايَةِ ثُمَّ يَعُودُ فَاصِلًا فِي خِتَامِهَا (فْرَاي، ١٩٥٧). وَبِهَذَا الإِطَارِ النَّظَرِيِّ، يَتَتَبَّعُ التَّحْلِيلُ التَّالِي كَيْفِيَّةَ حُضُورِ الأَيْيرُون فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، لَا بِوَصْفِهِ شَخْصِيَّةً مَحْضَةً، بَلْ قُوَّةً بِنْيَوِيَّةً تُوَجِّهُ خُفْيَةً مَسَارَاتِ دَوْرَةِ العِمْرَانِ.

(١٣) بوكاهونتاس.. هذا هو اسمها، فتاة شابة في الثامنة عشرة، سمراء فاتنة، هي ابنة الملك الغاضب، تدخلت لتحميني من قسوة قومها، وقد ذهل الجميع من فعلتها، وتجمّد الملك في مكانه وتحول غضبه إلى دهشة (ص ١٤٥)

يَسْرُدُ البَيَانُ الثَّالِثَ عَشَرَ ذِكْرَيَاتِ بُوكَاهُونْتَاس عَنِ اللِّقَاءِ الأَوَّلِ بَيْنَ قَبَائِلِ بوهاتان وَرَكْبِ الإِنْجِلِيزِ بِقِيَادَةِ جُون سِمِيث. فِي مَفْتَحِ الأَمْرِ، أَبْدَتْ بُوكَاهُونْتَاس وَأَهْلُ بوهاتان إِعْجَابًا بِـ جُون سِمِيث، لِمَا رَأَوْهُ مِنْ أَسْلِحَتِهِ وَعُدَّتِهِ الَّتِي أَصْبَغَتْ عَلَيْهِ هَيْبَةً

اسْتِثْنَائِيَّةً، حَتَّى تَوَهَّمُوهُ شَبِيهًا بِالآلِهَةِ. إِلَّا أَنَّ العَلَاقَةَ تَدَهْوَرَتْ حِينَ بَدَأَ سِمِيث وَرِجَالُهُ يَتَهَدَّدُونَ زُعَمَاءَ القُرَى لِانْتِزَاعِ المؤُونَةِ. وَجَرَّاءَ ذَلِكَ، أَسَرَ أُوبِيكَانْكَانُوه جُون سِمِيث وَمَثَلَ بِهِ أَمَامَ المِلِكِ وَاهُونسِينَاكُوه لِيُقِيمَ عَلَيْهِ الحُجَّةَ بِأَنَّهُ لَا يَعْدُو كَوْنَهُ بَشَرًا سَوِيًّا. وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي أَمَرَ فِيهَا المِلِكُ بِإِقَامَةِ حَدِّ القَتْلِ عَلَى سِمِيث، انْبَرَتْ بُوكَاهُونْتَاس بَغْتَةً لِتَذُودَ عَنْهُ. وَأَذْهَلَ صَنِيعُهَا الحَاضِرِينَ جَمْعًا، مِمَّا دَعَا وَاهُونسِينَاكُوه لِإِلْغَاءِ الحُكْمِ، فَصَارَتْ تِلْكَ الوَقْعَةُ نُقْطَةَ تَحَوُّلٍ حَاسِمَةٍ فِي العَلَاقَةِ بَيْنَ جُون سِمِيث وَقَبَائِلِ بوهاتان.

إِنَّ المَوْقِعَ الهَامِشِيَّ الَّذِي تَشْغَلُهُ الشَّخْصِيَّةُ فِي هَذِهِ السَّرْدِيَّةِ يَصِيرُ فِي الحَقِيقَةِ قُوَّةً كُبْرَى قَادِرَةً عَلَى مُقَاطَعَةِ تَيَّارِ الهَيْمَنَةِ الجَارِي. فَبَدَلًا مِنَ العَمَلِ انْطِلَاقًا مِنَ مَرْكَزِ السُّلْطَةِ المقَيَّدِ بِالبُرُوتُوكُولَاتِ الرَّسْمِيَّةِ، تَعْمَلُ هَذِهِ الذَّاتُ مِنْ فَضَاءَاتِ التَّخُومِ الَّتِي تَفْلِتُ بِنْيَوِيًّا مِنْ رَقَابَةِ مَنْطِقِ السُّلْطَةِ. وَإِنَّ قُوَّةَ الِاضْطِرَابِ النَّاشِئَةَ لَا تَنْبَعُ مِنْ قُدْرَةٍ قَسْرِيَّةٍ، بَلْ مِنْ جَسَارَةِ الخُرُوجِ عَنْ أَنْمَاطِ حِسَابَاتِ الصِّرَاعِ الَّتِي ارْتَأَى النِّظَامُ أَنَّهَا قَدْ بَتَّتْ فِي أَمْرِهَا. وَبِرَفْضِ الِانْصِيَاعِ لِحَتْمِيَّةِ العُنْفِ، يُؤَدِّي فِعْلُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ تِلْقَائِيًّا إِلَى تَمْزِيقِ اتِّسَاقِ السِّينَارْيُوهَاتِ الَّتِي دَبَّرَتْهَا الأَطْرَافُ المتَنَازِعَةُ، مِمَّا يُفْسِحُ مَجَالًا رَحْبًا لِاحْتِمَالَاتٍ جَدِيدَةٍ.

وَفِي قِرَاءَةِ أَرْكِيتَايْب فْرَاي، يَتَطَابَقُ هَذَا الدَّوْرُ مَعَ شَخْصِيَّةِ الأَيْرُون الَّتِي تُزَحْزِحُ مُرْتَكَنَاتِ افْتِرَاضِ الطَّرَفِ الخَصْمِ دُونَ حَاجَةٍ لِاسْتِيلَاءِ عَرْشِهِ. وَيَكُونُ الِاضْطِرَابُ المقَدَّمُ مِيكَانِيزْمًا عَامِلًا عَلَى مُسْتَوَى المعْنَى؛ إِذْ يَقْطَعُ حَلَقَةَ الأَفْعَالِ الَّتِي كَانَتْ تُعَدُّ سَابِقًا المخْرَجَ الوَحِيدَ. وَحِينَ يَعْلَقُ كِيَانَانِ عَظِيمَانِ فِي أُفُقِ تَوَقُّعَاتٍ مُغْلَقَةٍ، يَخْلُقُ حُضُورُ المقَاطَعَةِ خَارِجَ تِلْكَ المنْظُومَةِ نَشَازًا يُعَطِّلُ قَابِلِيَّةَ النِّظَامِ لِلتَّنَبُّؤِ. وَيُصْبِحُ اسْتِقْرَارُ الصِّرَاعِ الَّذِي بَدَا مُطْلَقًا هَشًّا بَغْتَةً؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَنِدُ إِلَّا عَلَى افْتِرَاضَاتٍ لَمْ تُخْتَبَرْ صِحَّتُهَا قَطُّ فِي فَضَاءِ تَفَاوُضٍ أَكْثَرَ إِنْسَانِيَّةً.

إِنَّ الِارْتِيَابَ النَّاشِئَ عَنْ هَذِهِ الصَّدْعِ لَيْسَ ضَرْبًا مِنَ الفَوْضَى دُونَ وِجْهَةٍ، بَلْ هُوَ نُقْطَةُ حَيْدٍ تُقَوِّمُ اتِّجَاهَ تَطَوُّرِ العَلَاقَاتِ نِظَامِيًّا. فَالنِّظَامُ الَّذِي ظَنَّ سَابِقًا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى

امْتِصَاصِ كُلِّ فِعْلٍ جَمْعِيٍّ فِي مَنْطِقِ التَّضَادِّ، يَجِدُ نَفْسَهُ مُضْطَرًّا لِمُوَاجَهَةِ وَاقِعٍ لَا يُمْكِنُ تَصْنِيفُهُ ضِمْنَ الأُطُرِ القَدِيمَةِ. وَلَمْ يُولَدِ التَّحَوُّلُ الاِجْتِمَاعِيُّ هُنَا عَنْ صِرَاعٍ عَلَى السُّلْطَةِ مُوَاجَهٍ، بَلْ عَنْ بَرَاعَةٍ فِي إِثَارَةِ انْزِيَاحٍ بِنْيَوِيٍّ يَجْعَلُ الهَيْمَنَةَ لَا تَبْدُو قَدَرًا لَا مَفَرَّ مِنْهُ. وَفَقَدَتِ السُّلْطَةُ الَّتِي اعْتَبَرَتْ ذَاتَهَا مُطْلَقَةً، بَغْتَةً، طَاقَتَهَا الشُّمُولِيَّةَ لِفَقْدِهَا السَّيْطَرَةَ عَلَى مِيكَانِيزْمَاتِ تَأْوِيلِ الحَوَادِثِ.

وَمَا يَنْجَلِي فِي البَيَانِ المَذْكُورِ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بِنْيَةَ السُّلْطَةِ لَيْسَتْ نِظَامًا مُنْغَلِقًا مَنِيعًا عَلَى الاِسْتِثْنَاءِ. وَإِنَّ كُلَّ مُؤَسَّسَةٍ، مَهْمَا بَلَغَتْ مِنَ الهَيْمَنَةِ، تَظَلُّ تَحْفَظُ شُقُوقًا تُتِيحُ حُدُوثَ فِعْلٍ غَيْرِ مُنْتَظَرٍ مُحَرِّضٍ لِلتَّغْيِيرِ. وَلَمْ تَحْضُرْ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ حَامِلَ سُلْطَةٍ جَدِيدَةٍ، بَلْ عَامِلًا مُحَفِّزًا يُكْرِهُ النِّظَامَ عَلَى إِعَادَةِ تَنْظِيمِ رَوَابِطِهِ. وَبِتَفْعِيلِ الفَضَاءِ الخَاوِي فِي طَيَّاتِ البِنْيَةِ المُتَصَلِّبَةِ، تُثْبِتُ هَذِهِ السَّرْدِيَّةُ أَنَّ التَّغْيِيرَ الحَقِيقِيَّ غَالِبًا مَا يَبْدَأُ مِنْ اضْطِرَابٍ ضَئِيلٍ عَلَى أَطْرَافِ النِّظَامِ، يُقَوِّضُ الهَيْمَنَةَ مِنَ الدَّاخِلِ دُونَ حَاجَةٍ لِتَدْمِيرِهَا مَادِّيًّا.

يَسْتَكْشِفُ هَذَا البَحْثُ، بِالاِسْتِنَادِ إِلَى دِرَاسَةِ جَمَال بَلْقَاسِم (٢٠١٤) المَعْنُونَةِ بِالهُوِيَّةُ وَمُرَاجَعَةُ الميثُولُوجِيَا البَيْضَاءِ، كَيْفَ أَنَّ الهُوِيَّةَ وَحَقَائِقَ التَّارِيخِ لَيْسَتْ ثَوَابِتَ، بَلْ هِيَ بِنَاءَاتٌ خِطَابِيَّةٌ تُشَكِّلُهَا أَلَاعِيبُ اللُّغَةِ وَسِيَاسَاتُ التَّمْثِيلِ. وَفِي سِيَاقِ قِصَّةِ بُوكَاهُونْتَاس، مُثِّلَ جُون سِمِيث بَدْءًا عَبْرَ الميثُولُوجِيَا البَيْضَاءِ بِوَصْفِهِ كِيَانًا أُلُوهِيًّا لِمَا حَازَهُ مِنْ قُوَّةِ السِّلَاحِ. غَيْرَ أَنَّهُ حِينَ تَجَلَّى وَاقِعُ تَهْدِيدِ المِطَاعِمِ، أَقَامَ عَمُّ بُوكَاهُونْتَاس تَفْكِيكًا لِذَلِكَ الميثُوس لِيُبْرِهِنَ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةَ لَا تَعْدُو كَوْنَهَا بَشَرًا عَادِيًّا، مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ الحَقِيقَةَ هِيَ حَاصِلُ تَوْظِيفِ اللُّغَةِ لِغَايَاتٍ مَحْدُودَةٍ.

مَنْهَجِيًّا، يُطَبِّقُ هَذَا البَحْثُ مُقَارَبَةً كَيْفِيَّةً وَتَحْلِيلًا نَفْسِيًّا لِتَفْكِيكِ فِعْلِ بُوكَاهُونْتَاس، لَا بِوَصْفِهِ حَادِثَةً عَرَضِيَّةً، بَلْ فِعْلًا رَمْزِيًّا يُنَاهِضُ سَرْدِيَّةَ العُنْفِ عَبْرَ التَّعَاطُفِ. وَتُبَيِّنُ نَتَائِجُ التَّحْلِيلِ أَنَّ بُوكَاهُونْتَاس قَدْ ظَهَرَتْ عِنْدَ نُقْطَةِ إِقَامَةِ الحَدِّ الحَرِجَةِ ذَاتًا فِي مَوْقِعِ الاِنْشِطَارِ جَرَّاءَ تَصَادُمِ ثَقَافَتَيْنِ، حَيْثُ خَلَقَ فِعْلُهَا فِي حِمَايَةِ سِمِيث دِينَامِيكِيَّةً جَدِيدَةً حَوَّلَتْ سُخْطَ

المِلِكِ إِلَى شُعُورٍ بِالدَّهْشَةِ. وَخَلَصَ البَحْثُ فِي الخِتَامِ إِلَى أَنَّ السَّرْدِيَّةَ التَّارِيخِيَّةَ أَدَاةٌ تُسْتَخْدَمُ لِتَأْكِيدِ مَوْقِعِ الذَّاتِ، حَيْثُ يُثْبِتُ فِعْلُ بُوكَاهُونْتَاس أَنَّ الحَقِيقَةَ فِي أَيِّ حِكَايَةٍ هِيَ دَوْمًا مُعَرَّضَةٌ لِلتَّفْكِيكِ وَتَحْوِيلِ مَسَارِهَا بِحَسَبِ مَنْ يُمْسِكُ بِزِمَامِ تِلْكَ السَّرْدِيَّةِ.

تَتَجَاوَزُ شَخْصِيَّةُ الأَيْيرُون فِي الإِطَارِ النَّظَرِيِّ لِنُورْثْرُوب فْرَاي مَحْضَ كَوْنِهَا نَقِيضًا لِشَخْصِيَّةِ الأَلَازُون الظَّامِئَةِ لِلتَّأْكِيدِ، بَلْ هِيَ تَجَسُّدٌ لِقُوَّةٍ تَسْتَنِدُ رَاسِخَةً إِلَى صَفَاءِ البَصِيرَةِ. وَلَا تَنْبَعُ قُوَّةُ هَذَا الشَّخْصِ مِنْ تَرَاكُمِ رُمُوزِ السُّلْطَةِ أَوْ الهَيْمَنَةِ عَلَى الغَيْرِ، بَلْ مِنْ عُمْقِ الفَهْمِ فِي قِرَاءَةِ الوَاقِعِ كَمَا هُوَ. فَحِينَ يَضِجُّ العَالَمُ بِأَفْرَادٍ يَنْشَغِلُونَ بِتَجْمِيلِ صُورَةِ الذَّاتِ، يَحْضُرُ الأَيْيرُون مُوَازِنًا يَعْلُو بِالمَاهِيَّةِ فَوْقَ الأَدَاءِ. وَيَعْمَلُ بِسَكِينَةٍ دُونَ تَرَقُّبٍ لِمَنْصَةٍ أَوْ إِشَادَةٍ خَارِجِيَّةٍ؛ لِأَنَّ مَرْتَكَزَ فِعْلِهِ هُوَ الدِّقَّةُ فِي الِاسْتِجَابَةِ لِطَلَبَاتِ الزَّمَانِ عَبْرَ تَأَمُّلٍ نَاضِجٍ مُقَدَّرٍ.

وَفِي مَسَارَاتِ تَارِيخِ العِمْرَانِ، يُشِيرُ حُضُورُ ذِي القُوَّةِ التَّأَمُّلِيَّةِ هَذِهِ إِلَى مَرْتَبَةِ النُّضْجِ الجَمْعِيِّ لِمُجْتَمَعٍ مَا. فَالعِمْرَانُ السَّوِيُّ لَا يُدِيرُهُ مَنْ يَعْلُو صَوْتُهُ فِي الفَضَاءِ العَامِّ فَحَسْبُ، بَلْ يَقُومُ عَلَى أَفْرَادٍ يَقْدِرُونَ عَلَى نَقْدِ الذَّاتِ تُجَاهَ مَسَارِ تَطَوُّرِ زَمَانِهِمْ. وَيُبَيِّنُ وُجُودُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ أَنَّ ثَبَاتَ النِّظَامِ غَالِبًا مَا يَحْرُسُهُ قُوَّةٌ تَعْمَلُ مِنْ خَلْفِ السِّتَارِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ بَرَاعَةَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الطُّمُوحِ الفَرْدِيِّ الزَّائِفِ وَالحِكْمَةِ الرَّاسِخَةِ فِي المَصَالِحِ الأَوْسَعِ. وَهَذِهِ القُدْرَةُ عَلَى كَفِّ النَّفْسِ عَنْ إِغْوَاءِ الكِبْرِيَاءِ هِيَ حِصْنُ الأَخْلَاقِ لِكُلِّ عِمْرَانٍ فِي مُوَاجَهَةِ التَّشَظِّي الدَّاخِلِيِّ المُهَدِّدِ لِوَحْدَتِهِ.

وَيَجِدُ هَذَا التَّحْلِيلُ أَنَّ الوَظِيفَةَ الكُبْرَى لِلْأَيْيرُون هِيَ التِّرْيَاقُ لِسُمُومِ الإِدْرَاكِ الَّتِي يَنْشُرُهَا تَدَخُّلُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ. فَفِي خِضَمِّ سَرْدِيَّةِ الرِّوَايَةِ المَشْحُونَةِ بِتَلَاعُبِ المَعْنَى، وَتَشْوِيهِ القِيَمِ، وَالتَّقْدِيسِ المُفْرِطِ لِأَوْهَامِ العَظَمَةِ، تَغْدُو هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ نُورًا يُعِيدُ لِلْقَارِئِ قُدْرَتَهُ عَلَى الفَصْلِ بَيْنَ الوَاقِعِ وَالصَّنْعَةِ. إِنَّ أَعْظَمَ خَطَرٍ عَلَى الإِنْسَانِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَيْسَ هَيْمَنَةَ القُوَّةِ المَادِّيَّةِ، بَلْ هُوَ فَقْدُ طَاقَةِ النَّظَرِ لِتَبَيُّنِ الحَقِّ عَلَى أُصُولِهِ. وَيَقُومُ الأَيْيرُون شَاهِدًا عَلَى أَنَّهُ مَا دَامَ

صَفَاءُ الفِكْرِ قَادِرًا عَلَى الصُّمُودِ، فَإِنَّ مَسَاعِيَ لَيِّ عُنُقِ التَّارِيخِ عَبْرَ خِدَاعِ الرَّمْزِ سَتُوَاجِهُ دَوْمًا عَقَبَاتٍ جَلِيَّةً.

إِنَّ الصِّرَاعَ الإِسْخَاتُولُوجِيَّ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ هُوَ فِي جَوْهَرِهِ حَرْبٌ لِأَجْلِ الظَّفَرِ بِصَفَاءِ العَقْلِ. وَلَمْ يَسْتَهْدِفْ تَدَخُّلُ أَنْتيخْريستُوسَ بِنْيَةَ السُّلْطَةِ الرَّسْمِيَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ سَعَى لِتَعْطِيلِ قُدْرَةِ الإِنْسَانِ عَلَى تَعَرُّفِ مَبَادِئِ الحَقِّ الَّتِي تَسْمُو عَلَى مَصَالِحِ الذَّاتِ. وَفِي أُفُقِ الإِسْخَاتُولُوجِيَا الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَنْبِضُ بِهَا السَّرْدِيَّةُ، يُمَثِّلُ الأَيْيرُون وُعِيًا يَقْدِرُ عَلَى النَّجَاةِ مِنَ الفِتْنَةِ الكُبْرَى الَّتِي تَطْمِسُ الحُدُودَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ. وَلَا تَكْمُنُ قُوَّةُ هَذَا الشَّخْصِ فِي بَأْسِهِ أَوْ سُلْطَتِهِ، بَلْ فِي تَوَاضُعِهِ لِلْخُضُوعِ لِلْحَقِّ الَّذِي لَا يَتَمَرْكَزُ حَوْلَ أَنَانِيَّةِ الإِنْسَانِ. وَيُقَدِّمُ أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى صَلَابَةَ بَاطِنٍ تَتَجَاوَزُ مَكَائِدَ التَّارِيخِ، ضَامِنًا بَقَاءَ التَّوَجُّهِ الرَّبَّانِيِّ بُوصَلَةً عُظْمَى لِلْإِنْسَانِ، مَعَ أَنَّ العَالَمَ يَرْتَهِنُ لِقَبْضَةِ تَحَوُّلَاتٍ مُضِلِّةٍ.

٣) البُوفُون

يُعَدُّ البُوفُون أو مَا يُدْعَى فِي اللُّغَةِ اليُونَانِيَّةِ البُومُولُوكُوي النَّمَطَ الثَّالِثَ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ فِي نِظَامِ الكُومِيدِيَا عِنْدَ فْرَاي، وَهُوَ يَأْتِي بَعْدَ الأَلَازُون وَالأَيْيرُون. وَخِلَافًا لِكِلْتَا الشَّخْصِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَنْخَرِطَانِ مُبَاشَرَةً فِي صِرَاعِ الأَحْدَاثِ الكُومِيدِيَّةِ، لَا تَتَمَثَّلُ الوَظِيفَةُ الرَّئِيسِيَّةُ لِلْبُوفُون فِي تَحْرِيكِ حُبْكَةِ القِصَّةِ، بَلْ فِي خَلْقِ أَجْوَاءِ الِاحْتِفَالِ وَالبَهْجَةِ وَتَعْزِيزِهَا. وَيَحْضُرُ هَذَا النَّمَطُ فِي صُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ كَالمهَرِّجِ، أَوِ البَهْلَوَانِ، أَوِ الطَّبَّاخِ الثَّرْثَارِ، أَوْ رَبِّ المَنْزِلِ المرِحِ، أَوْ المغَنِّي، أَوْ الخَادِمِ المضْحِكِ، أَوْ ذَلِكَ الطُّفَيْلِيِّ الَّذِي يَنْحَصِرُ عَمَلُهُ فِي الأَكْلِ وَالتَّشَدُّقِ أَمَامَ الجُمْهُورِ بِنَهَمِهِ (فْرَاي، ١٩٥٧). وَيَتَتَبَّعُ نُورْثْرُوب فْرَاي جُذُورَ هَذَا النَّمَطِ إِلَى طُقُوسِ الوَلَائِمِ المشْتَرَكَةِ فِي التُّرَاثِ اليُونَانِيِّ القَدِيمِ، وَهِيَ الأَصْلُ اللُّغَوِيُّ لِكَلِمَةِ كُومِيدِيَا ذَاتِهَا. وَأَمَّا أَكْثَرُ مَا يَلْفِتُ النَّظَرَ فِي هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ هُوَ بَيَانُ نُورْثْرُوب فْرَاي بِأَنَّ البُوفُون لَيْسَ مُجَرَّدَ تَكْمِلَةٍ ثَانَوِيَّةٍ فِي تَطَوُّرِ السَّرْدِ، بَلْ إِنَّهُ –كَمَا فِي شَخْصِيَّاتِ فَالْسْتَاف

وَسِير تُوبِي بِيلْتش عِنْدَ شِكْسْبِير يَلْعَبُ دَوْرَ مَا يُشْبِهُ رَئِيسَ المَرَاسِمِ أَوْ مَرْكَزَ الثِّقَلِ فِي الأَجْوَاءِ الكُومِيدِيَّةِ، وَهُوَ الشَّخْصُ الَّذِي يَغْدُو عَالَمُ الكُومِيدِيَا دُونَ حُضُورِهِ شَدِيدَ الجِدِّيَّةِ وَالتَّوَتُّرِ بِمَا يَحُولُ دُونَ بُلُوغِ الحَلِّ. وَمَعَ ذَلِكَ، يُدَوِّنُ فْرَاي مُفَارَقَةً بَالِغَةَ التَّأْثِيرِ: إِنَّ نَبْذَ البُوفُون كَمَا فَعَلَ الأَمِير هَال بِرَفْضِ فَالْسْتَاف فِي خِتَامِ مَسْرَحِيَّةِ هِنْرِي الرَّابِعِ– قَدْ يَغْدُو أَحَدَ أَكْثَرِ المَوَاقِفِ إِيْلَامًا فِي تَارِيخِ التُّرَاثِ الأَدَبِيِّ؛ إِذْ حِينَ يُطْرَدُ ذَلِكَ المسَلِّي، لَا يَفْقِدُ العَالَمُ ضَحِكَهُ فَحَسْبُ، بَلْ يَفْقِدُ دِفْءَ الإِنْسَانِيَّةِ ذَاتَهُ (فْرَاي، ١٩٥٧).

(١٤) وان سيناكا هو أبي، أحب الناس إلى قلبي، وأنا ماتواكا الصغيرة، ابنة العشرة أعوام، وأحب الناس إلى قلب أبي... وأبي هو زعيم مملكة بوهاتان كلها، ولست ابنته الوحيدة، فأبي له ما يقرب من ثلاثين ابنة نتيجة زواجه بما يقرب من ثلاثين زوجة(ص ١٤٤)

يُبَيِّنُ البَيَانُ الرَّابِعَ عَشَرَ مَا أَوْرَدَتْهُ بُوكَاهُونْتَاس عَنْ وَالِدِهَا زَعِيمِ قَبَائِلِ بوهاتان المَدْعُوِّ وَاهُونسِينَاكُوه، كَمَا تَذْكُرُ بُوكَاهُونْتَاس أَنَّهَا الِابْنَةُ الوَحِيدَةُ فِي أَسْرَتِهَا. وَيُظْهِرُ هَذَا البَيَانُ حُسْنَ ضِيَافَتِهَا لِـ جُون سِمِيث، بِوَصْفِهِ قَائِدَ المسْتَعْمَرَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ القَادِمَةِ إِلَى القَارَّةِ الأَمْرِيكِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ آنَئِذٍ تَخْضَعُ لِسِيَادَةِ قَبَائِلِ بوهاتان.

إِنَّ تَمْثِيلَ مَاتُوكَا الصَّغِيرَةِ فِي التَّشْكِيلِ الأَوَّلِيِّ لِهَذِهِ السَّرْدِيَّةِ لَيْسَ مَحْضَ شَذَرَاتٍ مِنْ حَيَاةٍ مَنْزِلِيَّةٍ، بَلْ هُوَ أَسَاسٌ بِنْيَوِيٌّ يَضَعُ النِّظَامَ الِاجْتِمَاعِيَّ فِي طَوْرٍ مِنَ الِانْتِظَامِ المتَّسِقِ. وَيَعْكِسُ الرَّابِطُ العَاطِفِيُّ بَيْنَ الِابْنَةِ وَأَبِيهَا تَكَامُلَ نِظَامِ الأُسْرَةِ الَّذِي لَا يَزَالُ يَعْمَلُ دِعَامَةً كُبْرَى لِتَمَاسُكِ الجَمَاعَةِ. وَفِي هَذِهِ المرْحَلَةِ، لَمْ يَمَسَّ المِيْدَانُ السَّرْدِيَّ بَعْدُ أَيُّ اسْتِقْطَابٍ صِرَاعِيٍّ؛ إِذْ تَسِيرُ كُلُّ عُنْصُرِيَّةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَفْقَ إِيقَاعِ حَيَاةٍ يَوْمِيَّةٍ عُضْوِيٍّ، مُتَحَرِّرَةٍ مِنَ التَّنَاحُرِ الأَيْدِيُولُوجِيِّ المفْسِدِ. وَبِالِاسْتِنَادِ إِلَى بِنْيَةِ الكُومِيدِيَا عِنْدَ نُورْثْرُوب فْرَاي، يَضْطَلِعُ حُضُورُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ بِوَظِيفَةِ البُوفُون أَيْ ذَلِكَ العُنْصُرِ الحَارِسِ لِطَهَارَةِ العَالَمِ السَّرْدِيِّ وَأُلْفَتِهِ قَبْلَ

أَنْ يَتَشَظَّى تَحْتَ ضَغْطِ التَّضَادِّ. وَلَيْسَ دَوْرُهُ هَذَا لِتَحْفِيزِ الفِعْلِ، بَلْ لِيَكُونَ إِرْهَاصًا عَلَى أَنَّ النِّظَامَ القَائِمَ لَا يَزَالُ وَحْدَةً مُتَكَامِلَةً لَمْ تُفَتِّتْهَا مَصَالِحُ السُّلْطَةِ.

وَيُبَيِّنُ السُّلْطَانُ المُنْبَثِقُ مِنْ رَابِطِ الأُبُوَّةِ وَالبُنُوَّةِ سِمَةَ قِيَادَةٍ تَقُومُ عَلَى الثِّقَةِ، لَا عَلَى مِيكَانِيزْمَاتِ الهَيْمَنَةِ المُتَصَلِّبَةِ. وَفِي مِشْكَاةِ فْرَاي، تُعَدُّ رُسُوخِيَّةُ هَذَا الوَضْعِ شَرْطًا لَازِمًا لِكُلِّ دَوْرَةٍ سَرْدِيَّةٍ، لِأَنَّ الِاسْتِقْرَارَ الأَوَّلِيَّ يَعْمَلُ نُقْطَةَ مَرْجِعٍ لِكُلِّ انْحِرَافٍ سَيَطْرَأُ لَاحِقًا. فَكُلَّمَا بَلَغَ الِانْسِجَامُ المُشَيَّدُ فِي البِدَايَةِ مَبْلَغًا مِنَ الصَّلَابَةِ، ازْدَادَ تَبَايُنُ أَثَرِ الِاضْطِرَابِ الَّذِي سَيُزَلْزِلُ ذَلِكَ النِّظَامَ فِي المُسْتَقْبَلِ. وَيَحْمِلُ هَذَا الِانْسِجَامُ فِي طَيَّاتِهِ ضَرُورَةً بِنْيَوِيَّةً؛ إِذْ يَصِيرُ مِرْآةً تَعْكِسُ كَثَافَةَ التَّحَوُّلِ حِينَ يَلِجُ النِّظَامُ السَّرْدِيُّ مَرْحَلَةَ التَّوَتُّرِ. وَدُونَ قَاعِدَةِ ارْتِكَازٍ رَاسِخَةٍ، لَا تَمْتَلِكُ التَّحَوُّلَاتُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ المُرْتَسَمَةُ قُوَّةَ تَأْثِيرٍ نَقْدِيٍّ كَافِيَةً لِتُقْرَأَ تَحَوُّلًا بِنْيَوِيًّا.

وَإِنَّ الِانْدِمَاجَ الِاجْتِمَاعِيَّ المَعْرُوضَ عَبْرَ هَذِهِ البَيَانَاتِ يُؤَكِّدُ وَضْعَ الفَضَاءِ السَّرْدِيِّ عَامِلًا كَعَالَمٍ لَمْ يُفَرِّقْهُ الصِّرَاعُ بَعْدُ. فَحُضُورُ مَاتُوكَا الصَّغِيرَةِ يُرَسِّخُ مَوْقِعَ السَّرْدِ فِي نُقْطَةِ النَّظِيرِ مِنْ بِنْيَةِ الكُومِيدِيَا، وَهِيَ الحَالَةُ الَّتِي تَمْنَحُ القَارِئَ مَجَالًا لِإِدْرَاكِ النِّظَامِ كِيَانًا مُسْتَقِرًّا قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْلِيَ عَلَى زِمَامِ الأَمْرِ مِيكَانِيزْمَاتُ الِاضْطِرَابِ. وَبِذَلِكَ، لَا يَكُونُ الِاسْتِقْرَارُ غَايَةَ السَّرْدِ القُصْوَى، بَلْ تَشْكِيلًا أَوَّلِيًّا أُعِدَّ عَمْدًا لِمُوَاجَهَةِ وَطْأَةِ التَّغْيِيرِ الأَعْظَمِ. وَيُعَزِّزُ الوَظِيفَةُ الأَرْكِيتَايْبِيَّةُ الظَّاهِرَةُ هُنَا اسْتِعْدَادَ السَّرْدِ لِبِنَاءِ تَقَابُلٍ بَيْنَ سَكِينَةِ البِدَايَةِ وَفَوْضَى الآتِي، مِمَّا يُتِيحُ فَهْمَ كُلِّ صَيْرُورَةِ تَحَوُّلٍ يُعَانِيهَا العِمْرَانُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ بِوَصْفِهِ انْزِيَاحًا بِنْيَوِيًّا عَمِيقًا، بَدَلًا مِنْ كَوْنِهِ تَتَابُعًا لِأَحْدَاثٍ عَرَضِيَّةٍ أَوْ طَارِئَةٍ.

يُمْكِنُ رَبْطُ الدِّرَاسَةِ الَّتِي أَنْجَزَهَا (مُحَمَّد حُسَيْن عَلِي السُّيُوطِيّ وَسَلَام نَاصِر وَالِي، ٢٠٢٣) حَوْلَ إِرْهَاصَاتِ الميثُولُوجِيَا السِّيَاسِيَّةِ فِي مَدَوَّنَاتِ رَحَلَاتِ المَغَارِبَةِ وَالأَنْدَلُسِيِّينَ، بِحِكَايَةِ بُوكَاهُونْتَاس وَوَاهُونسِينَاكُوه، بَصِيرَةً مُقَارِنَةً لِكَيْفِيَّةِ تَشَكُّلِ السَّرْدِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ عَبْرَ عَدَسَةِ مِيثُوس السَّطْوَةِ. وَفِي سِيَاقِ إِشْكَالِيَّةِ البَحْثِ، كَمَا اسْتَكْشَفَتْ دِرَاسَةُ (السُّيُوطِيّ وَوَالِي، ٢٠٢٣) تَوْظِيفَ الرُّمُوزِ الميثُولُوجِيَّةِ لِإِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَى شَخْصِيَّةِ الحَاكِمِ،

فَإِنَّ سَرْدِيَّةَ بُوكَاهُونْتَاس عَنْ وَالِدِهَا وَاهُونسِينَاكُوه تُقْرَأُ مَسْعًى لِبِنَاءِ مِيثُوس قِيَادَةٍ لِقَبَائِلِ بوهاتان يَتَّسِمُ بِالهَيْبَةِ وَالانْفِتَاحِ فِي آنٍ. وَبِاعْتِمَادِ مَنْهَجِ التَّحْلِيلِ المَوْضُوعِيِّ لِأَدَبِ الرِّحْلَةِ وَالتَّارِيخِ، نَسْتَطِيعُ تَشْرِيحَ كَيْفَ صَارَتْ حَفَاوَةُ بُوكَاهُونْتَاس بِـ جُون سِميث أَدَاةً لِلدِّبْلُومَاسِيَّةِ المِيثِيَّةِ الَّتِي تُشَرْعِنُ مَكَانَةَ قَبَائِلِ بوهاتان سِيَادَةً أَصِيلَةً عَلَى القَارَّةِ الأَمْرِيكِيَّةِ.

وَتُظْهِرُ النَّتَائِجُ تَوَازِيًا بَيْنَ مِيثُولُوجِيَا الشَّرْعِيَّةِ الإِلَهِيَّةِ فِي حِكَايَاتِ الرَّحَّالَةِ المسْلِمِينَ الَّذِينَ عَظَّمُوا مَقَامَ السَّلَاطِينِ، وَبَيْنَ بِنَاءِ مِيثُوس حَفَاوَةِ الحَاكِمِ الَّذِي سَخَّرَتْهُ قَبَائِلُ بوهاتان لِتَدْبِيرِ وُجُودِ المسْتَعْمَرَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ، حَيْثُ نَصَّبَتْ بُوكَاهُونْتَاس ذَاتَهَا وَسِيطًا مُقَدَّسًا. وَخُلَاصَةُ القَوْلِ، إِنَّ دِرَاسَةَ (السُّيُوطِيّ وَوَالِي، ٢٠٢٣) الَّتِي تَرْكُنُ إِلَى أَنَّ المِيثُولُوجِيَا السِّيَاسِيَّةَ تُسْتَخْدَمُ لِصِيَانَةِ كِيَانِ السُّلْطَةِ، تَمْنَحُ إِطَارًا نَظَرِيًّا لِإِدْرَاكِ أَنَّ فِعْلَ بُوكَاهُونْتَاس لَمْ يَكُنْ سُلُوكًا فَطْرِيًّا، بَلْ هُوَ تَجَلٍّ لِاسْتِرَاتِيجِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ مِيثُولُوجِيَّةٍ لِحِرَاسَةِ سِيَادَةِ قَبَائِلِ بوهاتان فِي خِضَمِّ التَّهْدِيدَاتِ الخَارِجِيَّةِ الَّتِي أخذت تُقَوِّضُ نِظَامَهُمُ المحَلِّيَّ بِتُؤَدَةٍ.

وَخُلَاصَةُ القَوْلِ الَّتِي يَسْتَخْلِصُهَا البَاحِثُ هِيَ أَنَّ دَوْرَ شَخْصِيَّةِ البُوفُون فِي إِطَارِ نُورْثْرُوب فْرَاي يَتَجَاوَزُ كَوْنَهُ عُنْصُرًا كُومِيدِيًّا يَبْعَثُ عَلَى تَلْطِيفِ الأَجْوَاءِ السَّرْدِيَّةِ؛ بَلْ هُوَ مِرْسَاةٌ ثَقَافِيَّةٌ تَحْرُسُ التَّوَازُنَ العَاطِفِيَّ لِلْمُجْتَمَعِ فِي خِضَمِّ ضَغْطِ التَّارِيخِ. وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةَ لَا تَنْهَضُ بِمَهَامَّ بُطُولِيَّةٍ وَلَا تَكُونُ مِحْوَرًا لِتَحْرِيكِ الصِّرَاعِ الرَّئِيسِيِّ، إِلَّا أَنَّهَا تَحْمِلُ مَسْؤُولِيَّةً وُجُودِيَّةً فِي حِرَاسَةِ رَوَابِطِ الإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي غَالِبًا مَا تَتَآكَلُ تَحْتَ وَطْأَةِ الطُّمُوحِ السِّيَاسِيِّ وَتَنَاحُرِ السُّلْطَةِ. وَعَبْرَ مَرُونَةِ التَّفَاعُلِ وَالقُدْرَةِ عَلَى إِذَابَةِ التَّوَتُّرِ، يَفْتَحُ هَذَا الشَّخْصُ مَجَالًا لِلْمُجْتَمَعِ كَيْ يَتَحَرَّرَ هُنَيْهَةً مِنْ أَثْقَالِ التَّنَافُسِ. وَفِي دِينَامِيكِيَّةِ العِمْرَانِ، يَعْمَلُ البُوفُون مِيكَانِيزْمًا فِطْرِيًّا يُمَكِّنُ الجَمَاعَةَ مِنْ صِيَانَةِ رُسُوخِهَا وَاسْتِقْرَارِ بَاطِنِهَا، فِي وَقْتٍ تُطَالِبُ فِيهِ الهَيَاكِلُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ بِطَاعَةٍ صَارِمَةٍ مُثْقِلَةٍ.

وَغَالِبًا مَا يَعْلَقُ العِمْرَانُ فِي شِبَاكِ التَّرَاتُبِيَّةِ القَاسِيَةِ، حَيْثُ يَصِيرُ مَنْطِقُ الكَفَايَةِ وَالسَّطْوَةِ هُوَ اللِّسَانَ الوَحِيدَ المعْتَرَفَ بِهِ. وَعِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ، يَصِيرُ حُضُورُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ حَتْمِيًّا

لِتَذْكِيرِ النَّاسِ بِأَهَمِّيَّةِ الرَّوَابِطِ القَائِمَةِ عَلَى الدِّفْءِ الِاجْتِمَاعِيِّ الَّتِي تَعْلُو فَوْقَ حِسَابَاتِ الرِّبْحِ وَالخُسْرَانِ. وَيُثْبِتُ وُجُودُهُ أَنَّ مَنَعَةَ المجْتَمَعِ لَا تَسْتَنِدُ فَقَطْ إِلَى القُوَّةِ العَسْكَرِيَّةِ أَوِ الهَيْمَنَةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ، بَلْ إِلَى القُدْرَةِ عَلَى حِرَاسَةِ رُوحِ الِانْتِمَاءِ بَيْنَ الأَفْرَادِ. فَإِذَا ضَاعَتْ هَذِهِ الرَّوَابِطُ كَالفُكَاهَةِ وَالقُرْبِ العَاطِفِيِّ، فَقَدَ المجْتَمَعُ هُوِيَّتَهُ الجَمْعِيَّةَ وَانْحَدَرَ فِي تِيهِ الِاغْتِرَابِ المؤْلِمِ. وَبِدُونِ رَوَابِطَ اجْتِمَاعِيَّةٍ أَصِيلَةٍ، يَفْقِدُ العِمْرَانُ حَيَوِيَّتَهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ سِوَى هَيْكَلٍ مُؤَسَّسِيٍّ هَشٍّ.

وَيَكْشِفُ هَذَا البَحْثُ أَنَّ اسْتِرَاتِيجِيَّةَ تَدَخُّلِ أَنْتيخْريستُوسَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ تَعْمَلُ عَبْرَ نَظْمِ إِضْعَافِ النَّسِيجِ الِاجْتِمَاعِيِّ. فَالخَطَرُ المِاثِلُ لَا يَتَجَسَّدُ دَوْمًا فِي مُوَاجَهَةٍ مُعْلَنَةٍ، بَلْ فِي تَسَلُّلٍ خَفِيٍّ يَنْخَرُ تَدْرِيجِيًّا الثِّقَةَ وَالتَّضَامُنَ بَيْنَ أَعْضَاءِ المجْتَمَعِ. وَحِينَ تَتَصَدَّعُ أُسُسُ العَلَاقَاتِ الجَمْعِيَّةِ، يَغْدُو التَّشَظِّي الِاجْتِمَاعِيُّ حَتْمِيَّةً لَا مَفَرَّ مِنْهَا، مِمَّا يَجْعَلُ المجْتَمَعَ أَسْهَلَ انْقِيَادًا لِسَرْدِيَّاتٍ غَرِيبَةٍ تُدَمِّرُ ذَاتِيَّتَهُ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، يَصِيرُ دَوْرُ البُوفُون عُنْصُرَ دِفَاعٍ بَالِغَ الحَيَوِيَّةِ؛ إِذْ يَحْرُسُ الفَضَاءَ الِاجْتِمَاعِيَّ لِيَظَلَّ مَوْطِنًا حَيْثُ تَنْبُضُ قِيَمُ التَّشَارُكِ فِي خِضَمِّ تَيَّارَاتِ الِاسْتِقْطَابِ القَسْرِيِّ.

وَتُظْهِرُ السَّرْدِيَّةُ الَّتِي أَقَامَهَا أَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى بِذَكَاءٍ أَنَّ الصِّرَاعَ الإِسْخَاتُولُوجِيَّ لَيْسَ حَرْبًا تَقْتَصِرُ عَلَى مَيَادِينِ السِّيَاسَةِ، بَلْ هِيَ حَرْبٌ لِأَجْلِ حِرَاسَةِ شَرَايِينِ الإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تَغْذُو نَبْضَ العِمْرَانِ. فَحِينَ يَعْجَزُ المجْتَمَعُ عَنِ التَّوَاصُلِ بِصِدْقٍ، فَإِنَّهُ يُسَلِّمُ ذَاتَهُ طَوْعًا لِأَزَمَةِ الهُوِيَّةِ الَّتِي تُذْكِي الِانْفِصَالَ الدَّائِمَ. وَلِذَلِكَ، يُمَثِّلُ البُوفُون رَمْزَ الإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تَحْفَظُ الِاتِّحَادَ فِي أَزْمِنَةِ المِحَنِ. إِنَّ مَنَعَةَ العِمْرَانِ تَقُومُ فِي الحَقِيقَةِ عَلَى قُدْرَةِ كُلِّ فَرْدٍ عَلَى اسْتِشْعَارِ الرَّابِطِ مَعَ الآخَرِينَ، لِيَضْمَنَ أَنَّهُ مَهْمَا كَانَ العَالَمُ فِي قَبْضَةِ تَحَوُّلَاتٍ مُضِلِّةٍ، فَإِنَّ التَّوَجُّهَ نَحْوَ قِيَمِ التَّشَارُكِ يَظَلُّ الحِصْنَ الأَخِيرَ دُونَ الِانْهِدَامِ الرُّوحِيِّ الكُلِّيِّ.

٤) الأَغْرُويكُوس

أَمَّا نَقِيضُ البُوفُون فَهُوَ شَخْصِيَّةُ الأَغْرُويكُوس؛ وَهِيَ شَخْصِيَّةٌ تَنْهَضُ لِرَفْضِ مَرَاسِمِ الِاحْتِفَالِ، وَتُعَدُّ عُنْصُرًا مُفْسِدًا لِلْأَجْوَاءِ، تَعْمَلُ عَلَى وَأْدِ مَظَاهِرِ البَهْجَةِ. وَيُمَثِّلُ الأَغْرُويكُوس النَّمَطَ الرَّابِعَ فِي نِظَامِ الكُومِيدِيَا عِنْدَ فْرَاي، وَهُوَ لَفْظٌ يُونَانِيٌّ يَعْنِي حَرْفِيًّا الفَظَّ أَوْ الخَشِنَ. وَتَتَجَلَّى وَظِيفَةُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ فِي كَوْنِهَا القُطْبَ المعَارِضَ لِلْبُوفُون؛ فَإِذَا كَانَ البُوفُون مُكَلَّفًا بِصِنَاعَةِ أَجْوَاءِ المِأْدُبَةِ وَالفَرَحِ، فَإِنَّ الأَغْرُويكُوس هُوَ نَقِيضُ ذَلِكَ تَمَامًا؛ إِذْ يَصِيرُ هُوَ رَافِضَ الِاحْتِفَالِ، وَذَلِكَ الكِيَانَ الَّذِي يَنْبُذُ المِسَرَّةَ الجَمَاعِيَّةَ أَوْ يَقُوضُهَا؛ تَعَالِيًا، أَوْ بُخْلًا، أَوْ كَآبَةً، أَوْ تَصَلُّبًا فِي الخُلُقِ.

(١٥) أخبرنا "الكويكروز" أن هناك قومًا بيضًا قد أتوا بسفنهم ضيوفًا على سواحل مملكتنا، ونصحونا أن نتودد إليهم ونُحسن ضيافتهم ونُريهم كيف يكون كرم أهل بوهاتان، والكويكروز كما تعلم هم رجال الدين في بوهاتان وأهل المشورة .(ص ١٤٤)

يَقُصُّ البَيَانُ الخَامِسَ عَشَرَ بَدْءَ وُصُولِ المِسْتَعْمِرَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ إِلَى أَرَاضِي قَبَائِلِ بوهاتان. وَقَدْ أَوْلَى فَرِيقٌ مِنْ قَبَائِلِ بوهاتان، يُعْرَفُ بِكْوِيكُوز (Kwiikuz)، تِلْكَ القَافِلَةَ حُفَاوَةَ الِاسْتِقْبَالِ كَمَا يُسْتَقْبَلُ الضُّيُوفُ، إِذْ بَدَرَتْ مِنْهُمْ حُسْنُ ضِيَافَةٍ بَالِغَةٍ. وَيُعَدُّ فَرِيقُ كْوِيكُوز فِي نَسِيجِ قَبَائِلِ بوهاتان مَعْرُوفًا بِتَدَيُّنِهِ، وَهُوَ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى اتِّخَاذِ ذَلِكَ المَوْقِفِ الخَيِّرِ تُجَاهَ الإِنْجِلِيزِ.

يَعْكِسُ التَّشْكِيلُ الِاجْتِمَاعِيُّ المِصُوغُ فِي البَيَانِ انْصِدَاعًا عَمِيقًا حِينَ يَعْلَقُ نِظَامٌ قِيَمِيٌّ فِي رُكُودِ ذَاتِهِ، فَاقِدًا قُدْرَةَ التَّكَيُّفِ فِي خِضَمِّ تَغَيُّرِ تَيَّارَاتِ الزَّمَانِ. إِذْ نَصَّبَتْ جَمَاعَةُ كْوِيكُوز مَبَادِئَ الحَفَاوَةِ وَالانْفِتَاحِ لَا أَدَاةً لِلتَّفَاعُلِ الِاجْتِمَاعِيِّ المرِنِ، بَلْ عَقِيدَةً مُطْلَقَةً تَسْتَوْجِبُ إِذْعَانًا أَعْمَى دُونَ اعْتِبَارٍ لِتَحَوُّلَاتِ الخَارِطَةِ السِّيَاسِيَّةِ. وَفِي مِشْكَاةِ أَرْكِيتَايْب نُورْثْرُوب فْرَاي، يَتَنَاغَمُ هَذَا السُّلُوكُ مَعَ وَظِيفَةِ الأَغْرُويكُوس؛ وَهِيَ الشَّخْصِيَّةُ الَّتِي تَتَمَسَّكُ بِتَعَلُّقٍ هَوَسِيٍّ بِالنِّظَامِ القَدِيمِ إِلَى حَدِّ إِغْلَاقِ الأُفُقِ أَمَامَ أَيِّ تَأْوِيلٍ جَدِيدٍ.

وَإِنَّ الانْهِدَامَ مَا بَدَأَ بِجَوْهَرِ قِيمَةِ الحَفَاوَةِ، بَلْ بِنَتِيجَةِ تَعْيِينِ القِيمَةِ جَاعِلًا مِنْهَا أُفُقًا وَحِيدًا، فَفَقَدَ المجْتَمَعُ القُدْرَةَ عَلَى مُعَايَنَةِ الوَاقِعِ خَارِجَ أَطْرِ أَعْرَافِهِمُ التَّقْلِيدِيَّةِ.

وَيَقَعُ التَّصَادُمُ حِينَ يَتَمَاسُّ ذَلِكَ المِبْدَأُ مَعَ العَقْلَانِيَّةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ الَّتِي تُقَدِّمُ تَرَاكُمَ السُّلْطَةِ وَاسْتِرَاتِيجِيَّاتِ التَّوَسُّعِ الغَرِيبَةِ عَنْ أَخْلَاقِ حُسْنِ الضِّيَافَةِ لَدَى المجْتَمَعِ المحَلِّيِّ. وَيُولِدُ هَذَا التَّبَايُنُ فِي التَّوَجُّهِ انْزِيَاحًا يُفْسِدُ النِّظَامَ؛ فَنِظَامُ كْوِيكُوز لَا يَزَالُ يَعْمَلُ ضِمْنَ إِيقَاعٍ مِعْيَارِيٍّ بَالٍ، بَيْنَمَا تَحَوَّلَ المِيْدَانُ الِاجْتِمَاعِيُّ إِلَى حَلَبَةِ تَنَافُسٍ مَشْحُونَةٍ بِالحِسَابَاتِ البَارِدَةِ. وَإِنَّ إِطْلَاقِيَّةَ القِيمَةِ فِي سِيَاقٍ تَغَيَّرَ جِذْرِيًّا هِيَ الَّتِي فَتَحَتِ الثَّغْرَةَ لِبُرُوزِ شَخْصِيَّةِ الأَلَازُون فَاسْتَغَلَّتِ القُوَى الِاسْتِعْمَارِيَّةُ إِخْفَاقَ كْوِيكُوز فِي قِرَاءَةِ الوَاقِعِ، مُحَوِّلَةً ادِّعَاءَاتِ التَّفَوُّقِ الِاسْتِرَاتِيجِيِّ لَدَيْهِمْ إِلَى أَدَاةٍ هَيْمَنَةٍ نَاجِعَةٍ. وَلَمْ يُولَدْ تَمَيُّزُ الغَازِينَ مِنْ مَحْضِ القُوَّةِ المادِّيَّةِ، بَلْ مِنْ بَرَاعَةِ اسْتِغْلَالِ الصَّدْعِ الرَّوَابِطِيِّ النَّاشِئِ عَنْ جُمُودِ نِظَامِ قِيَمِ السُّكَّانِ الأَصْلِيِّينَ.

وَيُوَفِّرُ هَذَا التَّوَتُّرُ ضِمْنِيًّا مَجَالًا لِوَظِيفَةِ الأَيْبِرُون لِلْقِيَامِ بِتَدَخُّلٍ تَقْوِيمِيٍّ يَقْلِبُ الِافْتِرَاضَاتِ الهَيْمَنِيَّةَ المتَصَلِّبَةَ. وَقَدْ تَحَوَّلَ المِيْدَانُ الِاجْتِمَاعِيُّ –الَّذِي كَانَ سَاكِنًا– إِلَى حَلَبَةٍ دِينَامِيكِيَّةٍ، مَحَلٍّ لِصِرَاعٍ بَيْنَ اليَقِينِ المِعْيَارِيِّ، وَطُمُوحِ التَّفَوُّقِ، وَمَسَاعِي خَرْقِ كِلَيْهِمَا بِأَفْعَالٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعَةٍ. وَتُؤَكِّدُ تِلْكَ التَّحَوُّلَاتُ –مِنَ الِاسْتِقْرَارِ المِعْيَارِيِّ إِلَى الأَزَمَةِ النِّظَامِيَّةِ– أَنَّ التَّقْلِيدِيَّةَ الثَّقَافِيَّةَ الَّتِي فَقَدَتْ مَوْضُوعِيَّتَهَا السِّيَاقِيَّةَ سَتَحِيدُ إِلَى ضَعْفٍ قَاتِلٍ. فَالنِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ لَمْ يَعُدْ مَرْكُوزًا عَلَى القُدْرَةِ عَلَى مُجَارَاةِ دِينَامِيكِيَّةِ الزَّمَانِ، بَلْ عَلَى مُجَرَّدِ تَكْرَارِ طُقُوسٍ مِعْيَارِيَّةٍ فَارِغَةٍ مِنَ الحَيَوِيَّةِ.

وَفِي إِطَارِ دَوْرَةِ الكُومِيدِيَا عِنْدَ فْرَاي، تَغْدُو هَذِهِ الحَالَةُ شَرْطًا لِحُدُوثِ إِعَادَةِ تَنْظِيمٍ أَوْسَعَ لِلْعَلَاقَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ. وَيُبَيِّنُ عَجْزُ كْوِيكُوز عَنْ إِدَارَةِ التَّغْيِيرِ أَنَّ انْهِيَارَ النِّظَامِ قَلَّمَا يَقَعُ بِمُفَاجَأَةِ ضَرْبَةٍ مُوَاجَهَةٍ، بَلْ عَبْرَ صَيْرُورَةِ تَفَكُّكٍ دَاخِلِيٍّ بَطِيءٍ وَلَكِنَّهُ حَتْمِيٌّ. فَحِينَ يَعْجَزُ نِظَامٌ مَا عَنْ تَجْدِيدِ مِيكَانِيزْمَاتِ تَأْوِيلِهِ لِلْوَاقِعِ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ ذَاتِيًّا مُشْرَعَ الأَبْوَابِ لِوُجُودِ

قُوَى خَارِجِيَّةٍ أَكْثَرَ تَكَيُّفًا. وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ هَذَا الِانْهِيَارَ هُوَ نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ لِعَجْزٍ جَمْعِيٍّ عَنِ المرَاجَعَةِ لِأُسُسِ النَّظَرِ المِعْيَارِيِّ فِي مَجْرَى التَّارِيخِ الجَارِي، مِمَّا يَجْعَلُهَا دَرْسًا بَالِغَ الأَهَمِّيَّةِ حَوْلَ ضَرُورَةِ الِانْعِكَاسِيَّةِ فِي حِرَاسَةِ بَقَاءِ العِمْرَانِ.

يَسْتَكْشِفُ هَذَا البَحْثُ، بِالِاسْتِنَادِ إِلَى دِرَاسَةِ (مُحَمَّد حُسَيْن عَلِي السُّيُوطِيّ وَسَلَام نَاصِر وَالِي، ٢٠٢٣) حَوْلَ إِرْهَاصَاتِ الميثُولُوجِيَا السِّيَاسِيَّةِ فِي مَدَوَّنَاتِ رَحَلَاتِ المغَارِبَةِ وَالأَنْدَلُسِيِّينَ، وَتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي حِكَايَةِ بُوكَاهُونْتَاس وَوَاهُونسِينَاكُوه، بَصِيرَةً مُقَارِنَةً لِكَيْفِيَّةِ تَشَكُّلِ السَّرْدِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ عَبْرَ عَدَسَةِ مِيثُوس السَّطْوَةِ. وَفِي سِيَاقِ إِشْكَالِيَّةِ البَحْثِ، كَمَا اسْتَكْشَفَتْ تِلْكَ الدِّرَاسَةُ تَوْظِيفَ الرُّمُوزِ الميثُولُوجِيَّةِ لِإِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَى شَخْصِيَّةِ الحَاكِمِ، فَإِنَّ سَرْدِيَّةَ بُوكَاهُونْتَاس عَنْ وَالِدِهَا وَاهُونسِينَاكُوه تُقْرَأُ مَسْعًى لِبِنَاءِ مِيثُوس قِيَادَةٍ لِقَبَائِلِ بوهاتان يَتَّسِمُ بِالهَيْبَةِ وَالانْفِتَاحِ فِي آنٍ. وَبِاعْتِمَادِ مَنْهَجِ التَّحْلِيلِ المَوْضُوعِيِّ لِأَدَبِ الرِّحْلَةِ وَالتَّارِيخِ، نَسْتَطِيعُ تَشْرِيحَ كَيْفَ صَارَتْ حَفَاوَةُ بُوكَاهُونْتَاس بِـ جُون سِمِيث أَدَاةً لِلدِّبْلُومَاسِيَّةِ الميثِيَّةِ الَّتِي تُشَرْعِنُ مَكَانَةَ قَبَائِلِ بوهاتان سِيَادَةً أَصِيلَةً عَلَى القَارَّةِ الأَمْرِيكِيَّةِ.

وَتُظْهِرُ النَّتَائِجُ تَوَازِيًا بَيْنَ مِيثُولُوجِيَا الشَّرْعِيَّةِ الإِلَهِيَّةِ فِي حِكَايَاتِ الرَّحَّالَةِ المسْلِمِينَ الَّذِينَ عَظَّمُوا مَقَامَ السَّلَاطِينِ، وَبَيْنَ بِنَاءِ مِيثُوس حَفَاوَةِ الحَاكِمِ الَّذِي سَخَّرَتْهُ قَبَائِلُ بوهاتان لِتَدْبِيرِ وُجُودِ المسْتَعْمَرَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ، حَيْثُ نَصَّبَتْ بُوكَاهُونْتَاس ذَاتَهَا وَسِيطًا مُقَدَّسًا. وَخُلَاصَةُ القَوْلِ، إِنَّ تِلْكَ الدِّرَاسَةَ الَّتِي تَرْكُنُ إِلَى أَنَّ الميثُولُوجِيَا السِّيَاسِيَّةَ تُسْتَخْدَمُ لِصِيَانَةِ كِيَانِ السُّلْطَةِ، تَمْنَحُ إِطَارًا نَظَرِيًّا لِإِدْرَاكِ أَنَّ فِعْلَ بُوكَاهُونْتَاس لَمْ يَكُنْ سُلُوكًا فَطْرِيًّا، بَلْ هُوَ تَجَلٍّ لِاسْتِرَاتِيجِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ مِيثُولُوجِيَّةٍ لِحِرَاسَةِ سِيَادَةِ قَبَائِلِ بوهاتان فِي خِضَمِّ التَّهْدِيدَاتِ الخَارِجِيَّةِ الَّتِي أخذت تُقَوِّضُ نِظَامَهُمُ المحَلِّيَّ بِتُؤَدَةٍ.

إِنَّ دِينَامِيكِيَّةَ نِظَامِ السُّلْطَةِ فِي كُلِّ عِمْرَانٍ تَسْتَوْجِبُ دَوْمًا وُجُودَ فَضَاءٍ لِنَقْدِ الذَّاتِ، لِأَنَّ بَقَاءَ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ لَا يَنْفَكُّ عَنْ قَابِلِيَّةِ التَّشَظِّي الدَّاخِلِيِّ النَّاشِئِ عَنْ لَظَى

الطُّمُوحِ أَوْ تَغَيُّرِ المِصَالِحِ. وَتَتَحَوَّلُ شَخْصِيَّةُ الأَغْرُويكُوس فِي بِنَاءِ أَرْكِيتَايْب نُورْثْرُوب فْرَاي إِلَى رَمْزٍ لِلْيَقَظَةِ الجَمْعِيَّةِ، تُذَكِّرُ بِأَنَّ خَلْفَ رُسُوخِ البِنْيَةِ القَائِمَةِ، تَقْبَعُ دَوْمًا شُقُوقٌ قَدْ تَصِيرُ سَاعَةً مَا بَابًا لِلانْهِيَارِ. إِنَّ النِّظَامَ السَّوِيَّ يَحْتَاجُ إِلَى تَوَازُنٍ جَدَلِيّ بَيْنَ الِاحْتِفَاءِ بِمَكَاسِبِ التَّقَدُّمِ وَجَسَارَةِ التَّعْرِيَةِ لِضَعْفِ النَّفْسِ. وَمِنْ دُونِ مِيكَانِيزْمِ الِانْعِكَاسِ هَذَا، يَفْقِدُ العِمْرَانُ وِجْهَتَهُ وَيَعْلَقُ فِي وَهْمِ الِاسْتِقْرَارِ الَّذِي يَحْجُبُ جُذُورَ الِانْحِلَالِ مِنَ الدَّاخِلِ.

وَغَالِبًا مَا يُنْظَرُ إِلَى الصَّوْتِ المُنْبَثِقِ مِنْ مَوْقِعِ الأَغْرُويكُوس بِوَصْفِهِ ضَرْبًا مِنَ الِاضْطِرَابِ، لَا سِيَّمَا حِينَ يَكُونُ النِّظَامُ فِي ذُرْوَةِ مَجْدِهِ. وَمَعَ أَنَّهُ فِي تِلْكَ المَرْحَلَةِ بِالذَّاتِ يَغْدُو النَّقْدُ أَدَاةً أَشَدَّ حَيَوِيَّةً لِكَفِّ جِمَاحِ الكِبْرِيَاءِ الجَمْعِيِّ وَالغَفْلَةِ عَنْ قِرَاءَةِ التَّهْدِيدَاتِ النَّامِيَةِ فِي الخَفَاءِ. فَالعِمْرَانُ الَّذِي يَنْبِذُ الأَصْوَاتَ النَّقْدِيَّةَ مَنْهَجِيًّا، إِنَّمَا يَمْحُو نِظَامَ مِلَاحَتِهِ الأَخْلَاقِيَّ، مِمَّا يُتِيحُ لِضُرُوبِ الِانْحِرَافِ أَنْ تَتَفَاقَمَ دُونَ رَقِيبٍ رَشِيدٍ. وَبِرَفْضِ النَّقْدِ، يَمُوتُ النِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ قَابِلِيَّةَ التَّجَدُّدِ، وَيَسِيرُ بِبُطْءٍ نَحْوَ التَّجَمُّدِ وَالهَشَاشَةِ، عَاجِزًا عَنْ تَبَيُّنِ عَلَامَاتِ العَطَبِ الَّتِي تُهَدِّدُ كِيَانَهُ.

وَتَكْشِفُ نَتَائِجُ هَذَا البَحْثِ أَنَّ نَمَطَ تَدَخُّلِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ لَا يَتَجَلَّى مَحْضَ هَيْمَنَةٍ مَادِّيَّةٍ، بَلْ يَمْضِي قُدُمًا نَحْوَ تَعْطِيلٍ نِظَامِيٍّ لِقُدْرَةِ المُجْتَمَعِ عَلَى التَّقْوِيمِ الذَّاتِيّ. وَقَدْ نَجَحَ هَذَا التَّسَلُّلُ فِي تَهْمِيشِ الأَصْوَاتِ الَّتِي تُسَائِلُ مَسَارَ العِمْرَانِ أَوْ تُقَوِّمُ الِانْحِرَافَ، فَغَدَا الوَلَاءُ الأَعْمَى مِعْيَارًا أَسْمَى مِنَ النَّزَاهَةِ الفِكْرِيَّةِ. وَحِينَ يُنْظَرُ إِلَى النَّقْدِ تَهْدِيدًا لِلِاسْتِقْرَارِ، فَقَدْ سَلَّمَ المُجْتَمَعُ طَوْعًا قُوَّتَهُ النَّقْدِيَّةَ لِسَرْدِيَّاتٍ مُضِلِّةٍ. وَتُحَوِّلُ هَذِهِ الحَالَةُ عَقْلِيَّةَ المُجْتَمَعِ إِلَى العَجْزِ عَنِ الفَصْلِ بَيْنَ الِاسْتِقْرَارِ الأَصِيلِ وَالثَّبَاتِ الزَّائِفِ القَائِمِ عَلَى إِنْكَارِ المُعْضِلَاتِ الكُبْرَى.

وَتَتَجَلَّى بَرَاعَةُ تَدَخُّلِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ فِي هَذِهِ السَّرْدِيَّةِ فِي تَحَطُّمِ مِيكَانِيزْمَاتِ التَّقْوِيمِ الَّتِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الحِصْنَ الأَخِيرَ ضِدَّ تَجَبُّرِ السُّلْطَةِ. وَفِي أُفُقِ الإِسْخَاتُولُوجِيَا الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَكْتَنِفُ الرِّوَايَةَ، لَا تَقَعُ الفِتْنَةُ الكُبْرَى بَغْتَةً دُونَ تَهْيِئَةٍ لِلظُّرُوفِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ

الَّتِي تَسْمَحُ بِحُدُوثِهَا. إِذْ تَبْدَأُ الصَّيْرُورَةُ بِنُقْصَانِ حِدَّةِ البَصِيرَةِ الجَمْعِيَّةِ فِي تَعَرُّفِ الِانْحِرَافِ السَّارِي بَيْنَ النَّاسِ. وَيَحْضُرُ الأَغْرُويكُوس مُمَثِّلًا لِلْوَعْيِ النَّقْدِيِّ الحَارِسِ لِصِحَّةِ الأَخْلَاقِ، مُثْبِتًا أَنَّ مَنَعَةَ العِمْرَانِ لَا تَكْتَفِي بِالقُوَّةِ المؤَسَّسِيَّةِ. فَالدِّفَاعُ الأَكْثَرُ جَوْهَرِيَّةً فِي مُوَاجَهَةِ تَيَّارِ التَّحَوُّلِ المضِلِّ هُوَ قُدْرَةُ المجْتَمَعِ عَلَى صِيَانَةِ تُرَاثِ الِانْعِكَاسِ الذَّاتِيِّ، ضَامِنًا بَقَاءَ تَوَجُّهِهِمْ رَاسِخًا فِي القِيَمِ المتَعَالِيَةِ الَّتِي تَصِيرُ أَسَاسَ وُجُودِهِمْ.

ب) الدور الثاني: مرحلة النهوض والازدهار

يُمثِّل دور الصيف في الدورة الحضارية ذروة الاكتمال والقوة والنصر. وفي رواية "انتخرستس" يتجلّى هذا الدور في المراحل التي تبلغ فيها قوى المقاومة الحضارية أوج قدرتها، وتُجسِّد نموذج البطل الملحمي في أتمّ صورة. غير أن الرواية تُقدِّم لهذا الدور معالجةً استثنائية تنحرف عن النمط الفرايي المعياري كما سيتبيَّن في التحليل.

٣. الأسطورة الرومانسية: مجد الحضارة وتوسعها

الرومانسية في منظور فراي هي الأمثيل الذي يُصوِّر الصراع بين البطل وأعدائه في فضاء البطولة الاستثنائية، حيث يتجاوز البطل حدوده الإنسانية المعتادة ليُحقِّق إنجازات خارقة. وتقوم الرومانسية على ثلاثة مراحل جوهرية: مرحلة المغامرة الأولى (Agon) وهي الصراع المباشر، ومرحلة موت البطل الظاهري وانبعاثه(Pathos) ، ومرحلة الانتصار النهائي (Anagnorisis) وهي لحظة التعرّف والمصالحة. وتتّسم الرومانسية الفراية بأن بطلها يُصوَّر في مرتبة أعلى من سائر البشر: فهو لا يُعاني من القيود الاعتيادية، ويُواجَه بأعداء يفوقونه في القوة الظاهرة لكنه ينتصر عليهم بسبب تفوّقه الداخلي الجوهري.

١) الصراع (Agon)

يُرِي نُورْثْرُوب فْرَاي فِي نَظَرِيَّتِهِ أَنَّ البَطَلَ فِي مُسْتَهَلِّ رِحْلَتِهِ كَثِيرًا مَا يُقَاسِي عَطَبًا أَوْ بَتْرًا لِجُزْءٍ مِمَّا يُشَكِّلُ رَمْزَ كَمَالِهِ وَوِحْدَتِهِ، كَأَهْدَافِهِ أَوْ قِيَمِهِ أَوْ مَبَادِئِهِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ جَزَاءَ هَذَا التَّضْحِيَةِ كَثِيرًا مَا يُسْفِرُ عَنْ مَآلٍ يَتَجَسَّدُ فِي الزَّوَاجِ (فْرَاي، ١٩٥٧). وَمَفَادُ ذَلِكَ أَنَّ البَطَلَ فِي خِضَمِّ كُلِّ عَقَبَةٍ تَسْتَوْجِبُ التَّضْحِيَةَ يَهْتَدِي إِلَى امْرَأَةٍ يَرْمِزُ لَهَا نُورْثْرُوب فْرَاي بِأَنَّهَا الحُبُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ النَّجَاةَ وَالِاسْتِنْقَاذَ.

(١٦)كان السلطان "عبد الحميد" واضعًا قانونًا صارمًا يتعلق بسفر اليهود إلى فلسطين.. فقد فرض على كل يهودي أن يحمل جوازًا أحمر يمنعه تمامًا من دخول فلسطين.. ويمنعه من شراء أي أرضٍ فيها.....لقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ورووها بدمائهم الغالية.. فلتحتفظوا بملايينكم.. إذا مُزّقت دولتي يمكنك عندها أن تأخذ فلسطين بلا مقابل.. لكني لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة.. ولئن استمررتم في حماقتكم هذه لأطردن منها كل يهودي، ولأنفينكم إلى حيث تنهش (ص ١١٧).

يُرِي نُورْثْرُوب فْرَاي فِي نَظَرِيَّتِهِ أَنَّ البَطَلَ فِي مُسْتَهَلِّ رِحْلَتِهِ كَثِيرًا مَا يُقَاسِي عَطَبًا أَوْ بَتْرًا لِجُزْءٍ مِمَّا يُشَكِّلُ رَمْزَ كَمَالِهِ وَوِحْدَتِهِ، كَأَهْدَافِهِ أَوْ قِيَمِهِ أَوْ مَبَادِئِهِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ جَزَاءَ هَذِهِ التَّضْحِيَةِ كَثِيرًا مَا يُسْفِرُ عَنْ مَآلٍ يَتَجَسَّدُ فِي الزَّوَاجِ (فْرَاي، ١٩٥٧). وَمَفَادُ ذَلِكَ أَنَّ البَطَلَ فِي خِضَمِّ كُلِّ عَقَبَةٍ تَسْتَوْجِبُ التَّضْحِيَةَ يَهْتَدِي إِلَى امْرَأَةٍ يَرْمِزُ لَهَا نُورْثْرُوب فْرَاي بِأَنَّهَا الحُبُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ النَّجَاةَ وَالِاسْتِنْقَاذَ.

وَيُبَيِّنُ البَيَانُ السَّادِسَ عَشَرَ قَوْلَ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي حِينَ مَنَعَ اليَهُودَ مِنْ دُخُولِ أَرَاضِي فِلَسْطِينَ، وَمِنْ شِرَاءِ شِبْرٍ مِنْ تُرَابِهَا. وَقَدْ تَأَسَّسَ مَبْدَأُ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي عَلَى أَنَّ كُلَّ شِبْرٍ مِنْ أَرَاضِي خِلَافَتِهِ إِنَّمَا هُوَ حَصِيلَةُ تَضْحِيَاتِ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَكُلُّهُ أَمَانَةٌ فِي عُنُقِهِ مِنْ رَعِيَّتِهِ. فَمَا كَانَ لِيُفَرِّطَ بِشِبْرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَرَاضِي الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ لِأَيِّ كَانَ،

وَفِي مُقَدِّمَتِهِمُ اليَهُودُ الَّذِينَ نَظَرَ إِلَيْهِمْ بِوَصْفِهِمْ عَامِلًا يَتَهَدَّدُ كِيَانَ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ بِالزَّوَالِ. وَمِنْ هُنَا، أَكَّدَ أَنَّ أَرَاضِيَ الدَّوْلَةِ قَدْ تُبَاحُ لِلْغَيْرِ بَعْدَ أَنْ يَنْخَلِعَ هُوَ مِنْ مَقَامِ السَّلْطَنَةِ.

وَمِنْ هَذِهِ القِصَّةِ، يَرْتَئِي البَاحِثُ أَنَّ رِحْلَةَ الشَّخْصِيَّةِ المِحْوَرِيَّةِ هُنَا تُمَثِّلُ طَوْرًا أَوَّلِيًّا فِي تَشَكُّلِ البَطَلِ. إِذْ تَجَلَّتْ شَخْصِيَّةُ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي بَطَلًا مِحْوَرِيًّا تَمْتَحِنُ المِضَايِقُ الخَارِجِيَّةُ مَبَادِئَهُ وَتِلْكَ المِضَايِقُ هِيَ مَسَاعِي الإِطَاحَةِ بِحُكْمِهِ، كَمَا تَمَثَّلَتْ فِي شَخْصِيَّةِ زَعِيمِ الصُّهْيُونِيَّةِ تِيُودُور هِرْتِزل. وَإِنَّ المَرْحَلَةَ الأُولَى مِنْ هَذَا الميثُوس الرُّومَانْسِيِّ هِيَ حَقًّا الأَغُون، حَيْثُ يَلِجُ البَطَلُ مَيْدَانَ المُغَامَرَةِ الَّتِي سَتُحْدِثُ بِمُرُورِ الوَقْتِ دِينَامِيكِيَّاتٍ جَدِيدَةً فِي مَسَارِ حَيَاتِهِ.

تُجَلِّي هَذِهِ السَّرْدِيَّةُ نِظَامَ السَّبَبِيَّةِ عَبْرَ مِيكَانِيزْمِ البَحْثِ الرُّومَانْسِيِّ، حَيْثُ يَتَطَلَّبُ بُلُوغُ الغَايَةِ مُفَاوَضَةً مُكَنَّفَةً لِلْعَقَبَاتِ تَتَنَاسَبُ قِيمَتُهَا مَعَ قِيمَةِ المَوْضُوعِ المَنْشُودِ. وَفِي إِطَارِ فِكْرِ نُورْثْرُوب فْرَاي، لَا تَتَحَرَّكُ هَذِهِ البِنْيَةُ وَفْقَ خَطٍّ غَائِيٍّ مُسْتَقِيمٍ، بَلْ بِصِفَتِهَا تَشْكِيلًا جَدَلِيًّا بَيْنَ ذَاتٍ بَاحِثَةٍ، وَمَوْضُوعِ تَطَلُّعٍ، وَبِنْيَةٍ حَاجِزَةٍ تُنَظِّمُ الوُصُولَ. وَلَا يَتَأَلَّفُ مَسَارُ القِصَّةِ مِنْ فِقْرَاتٍ حَدَثِيَّةٍ مُنْعَزِلَةٍ، بَلْ مِنْ تَرَابُطٍ بَيْنَ العَنَاصِرِ يُحَدِّدُ مَسَارَ تَطَوُّرِ الصِّرَاعِ بِانْتِظَامٍ.

وَيَضْطَلِعُ السُّلْطَانُ عَبْدُ الحَمِيدِ الثَّانِي وَتِيُودُور هِرْتِزل بِوَظِيفَةٍ أَرْكِيتَايْبِيَّةٍ تُمَثِّلُ تَوْجُهَاتٍ مُتَبَايِنَةً نَحْوَ مَرْكَزٍ جَاذِبِيَّةٍ وَاحِدٍ. وَلَا حَاجَةَ لِتَبْسِيطِ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ إِلَى ثَنَائِيَّةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ، إِذْ فِي مَنْطِقِ الرُّومَانْسِيِّ، تَعْمَلُ الوَظَائِفُ الأَرْكِيتَايْبِيَّةُ. فَيُمَوْضِعُ السُّلْطَانُ ذَاتَهُ حَارِسًا لِلِاسْتِقْرَارِ الرَّمْزِيِّ وَالتُّرَابِيِّ لِلْخِلَافَةِ العُثْمَانِيَّةِ، بَيْنَمَا يُوَظِّفُ هِرْتِزل طَاقَةً تَارِيخِيَّةً لِاخْتِرَاقِ تَشْكِيلِ فُسْحَةٍ سِيَاسِيَّةٍ جَدِيدَةٍ. وَتَتَّسِمُ عَلَاقَتُهُمَا بِالتَّنَاظُرِ مَعَ التَّضَادِّ، حَيْثُ يَسْتَلْزِمُ نَجَاحُ أَحَدِهِمَا نَفْيَ مَوْقِعِ الآخَرِ.

يُجَسِّدُ عَبْدُ الحَمِيدِ الثَّانِي وَظِيفَةَ شَخْصِيَّةِ الحَارِسِ الَّتِي تَحْتَكِرُ الوُصُولَ إِلَى فِلَسْطِينَ بِوَصْفِهَا مَرْكَزًا رَمْزِيًّا وَسِيَاسِيًّا. فِي حِينِ يَبْرُزُ هِرْتِزل بِوَصْفِهِ ذَاتًا بَاحِثَةً تَسْعَى لِاخْتِرَاقِ تِلْكَ الحِمَايَةِ اعْتِمَادًا عَلَى اسْتِرَاتِيجِيَّةِ الدِّبْلُومَاسِيَّةِ وَالتَّعْبِئَةِ الأَيْدِيُولُوجِيَّةِ. وَيَخْلُقُ التَّصَادُمُ بَيْنَهُمَا نَمَطًا بِنْيَوِيًّا خَاصًّا بِالرُّومَانْسِيِّ، حَيْثُ يَسْتَحِيلُ نَيْلُ المَوْضُوعِ دُونَ مُوَاجَهَةِ السُّلْطَةِ المُسَيْطِرَةِ عَلَيْهِ. وَلَا تُعَدُّ العَقَبَاتُ الطَّارِئَةُ اضْطِرَابًا عَرَضِيًّا، بَلْ عُنْصُرًا جَوْهَرِيًّا يَصُوغُ مَعْنَى رِحْلَةِ البَحْثِ.

وَيَعْمَلُ رَفْضُ السُّلْطَانِ لِمُقْتَرَحَاتِ الصُّهْيُونِيَّةِ مِيكَانِيزْمًا سَرْدِيًّا يُؤَكِّدُ وُجُودَ بِنْيَةِ الحَارِسِ فِي نِظَامِ الصِّرَاعِ. وَلَا يَدُلُّ إِخْفَاقُ هِرْتِزل فِي الظَّفَرِ بِشَرْعِيَّةِ السُّلْطَةِ العُثْمَانِيَّةِ عَلَى نِهَايَةِ الحَرَكَةِ، بَلْ عَلَى تَحَوُّلٍ بِنْيَوِيٍّ يَضْطَرُّ لِإِعَادَةِ تَمَوْضُعِ الِاسْتِرَاتِيجِيَّةِ مِنَ التَّفَاوُضِ المُبَاشِرِ إِلَى بِنَاءِ شَبَكَةِ تَأْثِيرٍ أَوْسَعَ. وَتَتَحَوَّلُ تِلْكَ العَقَبَةُ إِلَى مُحَفِّزٍ يُعَمِّقُ تَعْقِيدَ وَكُثَافَةَ مَشْرُوعِ البَحْثِ. فَكُلَّمَا تَصَاعَدَتِ المُقَاوَمَةُ الَّتِي تُبْدِيهَا بِنْيَةُ الحَارِسِ، عَظُمَتْ طَاقَةُ الرَّمْزِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُهَا الذَّاتُ لِصِيَانَةِ دَيْمُومَةِ المِسْعَى.

وَهَذَا الصِّرَاعُ فِي جَوْهَرِهِ تَعْبِيرٌ عَنْ بِنْيَةِ الرُّومَانْسِيِّ الَّتِي تَجْمَعُ البَاحِثَ وَالحَارِسَ فِي مَيْدَانٍ سَرْدِيٍّ مُتَمَاسِكٍ. وَيُصْبِحُ المَوْضُوعُ المُتَنَازَعُ عَلَيْهِ مَرْكَزَ جَاذِبِيَّةٍ يُنَظِّمُ العَلَاقَاتِ التَّنَاحُرِيَّةَ، بَيْنَمَا يُحَدِّدُ الفَاعِلُونَ قُطْبَيْ تَوْجِيهِ مَسَارِ التَّارِيخِ. وَلَا يَبْدُو التَّارِيخُ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَاكُمًا لِأَحْدَاثٍ عَرَضِيَّةٍ، بَلْ تَشْكِيلًا أَرْكِيتَايْبِيًّا يُوَزِّعُ الأَدْوَارَ بِدِقَّةٍ بَالِغَةٍ. إِنَّ كُلَّ مُفَاوَضَةٍ وَمُوَاجَهَةٍ جُزْءٌ مِنْ مِيكَانِيزْمٍ سَرْدِيٍّ يُشَيِّدُ كُثَافَةَ الصِّرَاعِ، وَيَضْمَنُ أَنْ تَظَلَّ رِحْلَةُ الذَّاتِ البَاحِثَةِ نَحْوَ مَوْضُوعِ التَّطَلُّعِ مُخْتَبَرَةً دَوْمًا عَبْرَ بِنْيَةِ العَقَبَاتِ الحَتْمِيَّةِ.

تَتَجَلَّى رَابِطَةٌ عَمِيقَةٌ بَيْنَ دِرَاسَةِ كَامِيلَا جُوكُوفْسْكَا المَوْسُومَةِ بِالحِكَايَاتِ الخُرَافِيَّةِ وَالرُّومَانْس فِي مَنْظُورِ أَنْثْرُوبُولُوجِيَا الأَدَبِ، وَبَيْنَ تَحْلِيلِ شَخْصِيَّةِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي. إِذْ تَنْصَبُّ إِشْكَالِيَّةُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ عَلَى بَحْثِ التَّشَابُهِ البِنْيَوِيِّ بَيْنَ السَّرْدِيَّاتِ الخُرَافِيَّةِ

وَالرُّومَانْسِيَّةِ، وَكَيْفِيَّةِ تَمْثِيلِ كِلَا الجِنْسَيْنِ لِلتَّفْكِيرِ التَّمَنِّيّ (Wishful thinking) لَدَى الإِنْسَانِ تُجَاهَ الوَاقِعِ. وَتَعْتَمِدُ الدِّرَاسَةُ مَنْهَجًا كَيْفِيًّا فِي بَارَادِيمِ الأَنْثْرُوبُولُوجِيَا الأَدَبِيَّةِ، جَامِعَةً بَيْنَ نَظَرِيَّةِ الأَرْكِيتَايْب لِنُورْثْرُوب فْرَاي وَوَظِيفَةِ الأَدَبِ عِنْدَ فُولْفْغَانْغ إِيزَر. وَتُظْهِرُ النَّتَائِجُ أَنَّ البَطَلَ فِي الحِكَايَاتِ وَالرُّومَانْس يَتَحَرَّكُ عَامَّةً فِي نَمَطِ الكُومِيدِيَا، حَيْثُ يُوَاجِهُ ضُرُوبًا مِنَ المعَارَضَةِ لِبِنَاءِ نِظَامٍ جَدِيدٍ يَتَوَافَقُ مَعَ القِيَمِ وَالغَايَاتِ الَّتِي يُنَاضِلُ مِنْ أَجْلِهَا. وَخُلَاصَةُ القَوْلِ، إِنَّ الحِكَايَاتِ وَالرُّومَانْس تَعْمَلُ أَدَوَاتٍ رَمْزِيَّةً تُمَكِّنُ الإِنْسَانَ مِنْ تَجَاوُزِ قُصُورِ الوَاقِعِ وَتَأْكِيدِ فَعَالِيَّتِهِ (Agency) فِي تَشْكِيلِ عَالَمٍ مِثَالِيّ.

وَيَكْمُنُ وَجْهُ الشَّبَهِ مَعَ بَيَانِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي فِي مَوْضِعِ الشَّخْصِيَّةِ الرَّئِيسَةِ الَّتِي تُصَارِعُ قُوَى المعَارَضَةِ ذَبًّا عَنْ نِظَامٍ تُضْفِي عَلَيْهِ الشَّرْعِيَّةَ. وَإِذَا كَانَتْ جُوكُوفْسْكَا تَضَعُ البَطَلَ عُنْصُرًا مُشَكِّلًا لِلْعَالَمِ المِثَالِيّ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ عَبْدَ الحَمِيدِ الثَّانِي يَبْرُزُ شَخْصِيَّةً تُحَافِظُ عَلَى نَزَاهَةِ الخِلَافَةِ العُثْمَانِيَّةِ ضِدَّ الضُّغُوطِ الخَارِجِيَّةِ، لَا سِيَّمَا مَطَالِبِ ثِيُودُور هِرْتزِل. وَبَيْنَمَا تَدْرُسُ دِرَاسَةُ جُوكُوفْسْكَا الأَنْمَاطَ الأَرْكِيتَايْبِيَّةَ فِي الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ، فَإِنَّ هَذَا البَحْثَ يُطَبِّقُ تِلْكَ الأَنْمَاطَ عَلَى السَّرْدِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ كِلَيْهِمَا يَنْتَهِي إِلَى نَتِيجَةٍ مُتَّسِقَةٍ، حَيْثُ يَنَالُ البَطَلُ شَرْعِيَّتَهُ البَطَلِيَّةَ عَبْرَ كِفَاحِهِ لِحِرَاسَةِ القِيَمِ وَالمَبَادِئِ وَالنِّظَامِ الَّذِي يَعْتَقِدُ بِهِ، مِمَّا يَجْعَلُ رِحْلَةَ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي قِرَاءَةً تَمْثِيلِيَّةً لِأَرْكِيتَايْب البَطَلِ فِي مِيثُوس الكُومِيدِيَا الرُّومَانْسِيّ كَمَا صَاغَهُ نُورْثْرُوب فْرَاي.

تَتَخَلَّصُ الخُلَاصَةُ الَّتِي رَامَهَا البَاحِثُ مِنَ التَّحْلِيلِ السَّابِقِ إِلَى أَنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ نِضَالِيَّةٍ تَسْتَوْجِبُ التَّضْحِيَةَ، حَيْثُ لِكُلِّ ارْتِقَاءٍ ثَمَنٌ مُسْتَحَقٌّ. وَإِنَّ التَّقَلُّبَ بَيْنَ عَثَرَاتِ الإِخْفَاقِ وَمَسَاعِي النُّهُوضِ جُزْءٌ لَا يَنْفَكُّ عَنْ مَسِيرَةِ البَطَلِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ. وَتَنَاغُمًا مَعَ مَرَاحِلِ الأَرْكِيتَايْب الَّتِي رُسِمَتْ خُطُوطُهَا، فَإِنَّ كُلَّ ابْتِكَارٍ وَتَجْدِيدٍ يُوَلِّدُ لَا مَحَالَةَ تَحَدِّيَاتٍ وَمُقَاوَمَاتٍ تَسْتَنْفِرُ قُدْرَاتِ التَّكَيُّفِ لَدَى كُلِّ فَرْدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ صَيْرُورَةَ التَّحَوُّلِ

تَحْمِلُ دَوْمًا تَبِعَاتِ إِزَاحَةِ العَنَاصِرِ القَدِيمَةِ الَّتِي أَمْسَتْ فَاقِدَةً لِجَدْوَاهَا، مَعَ تَشْكِيلِ بِنْيَةٍ جَدِيدَةٍ أَكْثَرَ قُدْرَةً عَلَى الِاسْتِجَابَةِ لِاسْتِحْقَاقَاتِ الزَّمَانِ. إِنَّ الِارْتِقَاءَ فِي هَذَا المَنْظُورِ لَيْسَ عَمَلِيَّةً مَجَّانِيَّةً، بَلْ هُوَ نَتَاجُ سِلْسِلَةٍ مِنَ الصِّرَاعَاتِ وَالتَّكَيُّفَاتِ الَّتِي تَجْتَازُهَا الجَمَاعَةُ فِي دُرُوبِ تَارِيخِهَا.

وَالعَقَبَاتُ لَيْسَتِ انْحِرَافًا عَنْ مَسَارِ التَّغْيِيرِ، بَلْ هِيَ عُنْصُرٌ جَوْهَرِيٌّ يَكْتَنِفُ حَرَكَةَ العِمْرَانِ. فَكُلُّ مَسْعًى لِتَقْوِيمِ النِّظَامِ القَدِيمِ سَيَصْطَدِمُ بِالمَصَالِحِ الَّتِي تَرُومُ اسْتِبْقَاءَ الوَضْعِ الرَّاهِنِ، بَيْنَمَا النِّظَامُ الجَدِيدُ النَّاشِئُ سَيَجْلِبُ تَحَدِّيَاتٍ لَمْ تَكُنْ فِي الحُسْبَانِ قَطُّ. إِنَّ تَارِيخَ العِمْرَانِ لَا يَمْضِي فِي مَسَارٍ خَطِّيٍّ سَلِسٍ، بَلْ يَتَحَرَّكُ عَبْرَ مُفَاوَضَةٍ لَا تَفْتُرُ بَيْنَ شَوْقِ التَّجْدِيدِ وَتَيَّارَاتِ المُقَاوَمَةِ. وَلَا يَتَوَقَّفُ نَجَاحُ التَّحَوُّلِ عَلَى حِدَّةِ الرُّؤْيَةِ المجَاهَدِ لِأَجْلِهَا فحَسْبُ، بَلْ عَلَى مَدَى الصُّمُودِ فِي تَحَمُّلِ التَّبِعَاتِ النَّاشِئَةِ أَثْنَاءَ دِينَامِيكِيَّاتِ التَّغْيِيرِ.

وَتُكْشِفُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ نَمَطَ تَدَخُّلِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ فِي الرِّوَايَةِ لَا يَتَجَسَّدُ دَوْمًا قُوَّةً تُهَشِّمُ المقَاوَمَةَ بِوَحْشِيَّةٍ. بَلْ عَلَى النَّقِيضِ، تَعْمَلُ تِلْكَ التَّهْدِيدَاتُ غَالِبًا عَبْرَ احْتِطَافِ التَّوَتُّرِ وَالتَّضْحِيَاتِ النَّاشِئَةِ فِي خِضَمِّ عَمَلِيَّةِ التَّحَوُّلِ. فَلَا يَحْضُرُ أَنْتِيخْرِيستُوسَ مَحْضَ رَمْزٍ لِقُوَّةٍ تَذُودُ عَنِ النِّظَامِ القَدِيمِ، بَلْ كِيَانًا يُوَجِّهُ طَاقَةَ التَّغْيِيرِ نَحْوَ غَايَاتٍ تَنْحَرِفُ عَنْ مَعَايِيرِ الحَقِّ الأَوَّلِيَّةِ. فَبِاسْتِغْلَالِ ثُغَرَاتِ الصِّرَاعِ، يَنْجَحُ فِي تَشْوِيهِ أَهْدَافِ النِّضَالِ لِتُصْبِحَ نَقِيضًا لِلْقِيَمِ المقَدَّسَةِ الَّتِي كَانَتْ مُحَرِّكَ المجْتَمَعِ فِي البِدَايَةِ.

وَإِنَّ الخَطَرَ الأَكْثَرَ جَلَاءً فِي صَيْرُورَةِ التَّغْيِيرِ لَيْسَ العَجْزَ عَنْ بُلُوغِ الغَايَةِ، بَلِ الِانْحِرَافَ فِي ذَاتِ تِلْكَ الغَايَةِ. فَإِفْرَاطُ الِارْتِكَازِ عَلَى النَّصْرِ وَالسُّلْطَةِ يَسْلُبُ المجْتَمَعَ تَوْجِيهَهُ الأَخْلَاقِيَّ الَّذِي أَسَّسَ نِضَالَهُ. وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالَةِ، يُمْكِنُ اسْتِغْلَالُ التَّضْحِيَاتِ الَّتِي كَانَتْ مَقْصُودَةً لِبِنَاءِ عَالَمٍ أَرْحَبَ، لِتَكُونَ مَطِيَّةً لِصُنْعِ ضُرُوبٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الِاضْطِهَادِ. إِنَّ تَحَوُّلَ

العِمْرَانِ يَحْمِلُ دَوْمًا مُخَاطَرَةَ أَنْ يَتَحَوَّلَ النِّضَالُ ضِدَّ الفَسَادِ إِلَى إِعَادَةِ إِنْتَاجِ الفَسَادِ فِي حُلَّةٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا، إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِبَصِيرَةِ نُورٍ وَوَعْيٍ أَخْلَاقِيٍّ رَاسِخٍ.

وَتَتَّجِهُ تَدَخُّلَاتُ أَنْتيخْريستُوسَ فِي هَذِهِ السَّرْدِيَّةِ عَبْرَ التَّلَاعُبِ بِإِيقَاعِ التَّغْيِيرِ ذَاتِهِ. وَفِي أُفُقِ الإِسْخَاتُولُوجِيَا الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَكْتَنِفُ الرِّوَايَةَ، لَا يَحْدُثُ بُرُوزُ القُوَّةِ المُنْحَرِفَةِ فَقَطْ حِينَ يَتَدَاعَى العِمْرَانُ، بَلْ تَعْمَلُ بِنَشَاطٍ حِينَ يَكُونُ المجْتَمَعُ فِي ذُرْوَةِ جِدِّهِ لِإِجْرَاءِ التَّجْدِيدِ. وَلَا يُقَاسُ نَجَاحُ النِّضَالِ بِقُدْرَتِهِ عَلَى اسْتِبْدَالِ النِّظَامِ القَدِيمِ، بَلْ بِثَبَاتِهِ فِي حِرَاسَةِ تَوْجِيهِ القِيمَةِ خِلَالَ مَرْحَلَةِ الِانْتِقَالِ. فَالتَّحَدِّي الأَعْظَمُ لِدَيْمُومَةِ العِمْرَانِ لَيْسَ كَيْفِيَّةَ نَيْلِ الِارْتِقَاءِ، بَلْ ضَمَانُ أَنْ تَظَلَّ خُطُوَاتُ هَذَا الِارْتِقَاءِ وَفِيَّةً لِلسَّيْرِ نَحْوَ المقَاصِدِ الَّتِي تَتَنَاغَمُ مَعَ قِيَمِ الحَقِّ الَّتِي تُمَثِّلُ أَسَاسَ وُجُودِهَا.

٢) البَاتُوس

تُبَيِّنُ هَذِهِ المرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ الصِّرَاعَ بَيْنَ شَخْصِيَّتَيْنِ مُتَنَاحِرَتَيْنِ، بِحَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الغَلَبَةُ لِأَحَدِهِمَا عَلَى حِسَابِ سُقُوطِ الآخَرِ. فَمَرْحَلَةُ المَوْتِ هَذِهِ تُمَثِّلُ طَوْرًا ابْتِدَائِيًّا يُقَاسِي فِيهِ البَطَلُ هَزِيمَةً مَحْضَةً. ثُمَّ تَعْقُبُهَا مَرْحَلَةُ الخَوَاءِ، وَهِيَ زَمَنٌ لَا يَأْتِي فِيهِ البَطَلُ بِحَرَكَةٍ مُوَاجِهَةٍ، بَلْ يَعْكُفُ عَلَى تَأْسِيسِ قَوَاعِدَ لِلِاسْتِجْمَاعِ وَالنُّهُوضِ مُجَدَّدًا. وَأَمَّا الفَصْلُ الأَخِيرُ فَهُوَ بَعْثٌ جَدِيدٌ، إِذْ يَنْبَثِقُ البَطَلُ فِي مِرْقَبِ العَالَمِ السَّرْدِيِّ قُوَّةً حَدِيثَةً مُسْتَعِدَّةً لِمُنَازَلَةِ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الأَبْطَالِ.

(١٧) وها هو التاريخ ينظر معنا ومع ماستيم إلى مشهد فرقة من فرق الجيش قد انطلقت من سالونيكا لتخلع السلطان عبد الحميد بالقوة الجبرية.. ووصلت القوات إلى اسطنبول.. ودخل إلى السلطان لتسليمه قرار العزل الرسمي أربعة رجال، أحدهم كان يهوديًا، والثلاثة الآخرون ليس فيهم عربي أو عثماني واحد ص ١١٨.

يُفَصِّلُ البَيَانُ السَّابِعَ عَشَرَ المآلَ الأَخِيرَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي، حِينَ أُرْغِمَ عَلَى التَّنَازُلِ عَنْ عَرْشِهِ. إِنَّ خَلْعَهُ وَنَفْيَهُ إِلَى سَالُونِيكَ يُمَثِّلَانِ مَرْحَلَةَ البَاتُوس وَفْقَ تَعْرِيفِ نُورْثْرُوب فْرَايِ حَيْثُ تَتَجَسَّدُ فِي هَذِهِ المِحَطَّةِ هَزِيمَةُ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي فِي الذَّوْدِ عَنْ وَحْدَةِ أَرَاضِيهِ ضِدَّ القُوَى الخَارِجِيَّةِ، بِمَا فِي ذَلِكَ إِخْفَاقُهُ فِي تَحْقِيقِ غَايَتِهِ الكُبْرَى بِمَنْعِ اليَهُودِ مِنَ الوُلُوجِ إِلَى أَرَاضِي فِلَسْطِينَ.

فِي إِطَارِ البَاتُوس عِنْدَ نُورْثْرُوب فْرَايِ، لَا يَعْمَلُ بَلَاءُ الشَّخْصِيَّةِ نُقْطَةَ نِهَايَةٍ، بَلْ يَغْدُو مِيكَانِيزْمًا لِلتَّحَوُّلِ البِنْيَوِيِّ الَّذِي يَرْبِطُ تَشَظِّيَ النِّظَامِ القَدِيمِ بِإِمْكَانَاتِ إِعَادَةِ تَنْظِيمِ النِّظَامِ اللَّاحِقِ. هَذَا التَّحْلِيلُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَسَارِ الأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ، بَلْ يَعْمَدُ إِلَى آلِيَّةِ العَمَلِ السَّرْدِيِّ الَّتِي تَجْعَلُ مِنَ السُّقُوطِ وَسِيطًا لِلانْتِقَالِ مِنْ تَشْكِيلَةٍ عَالَمِيَّةٍ إِلَى أُخْرَى. وَبِذَلِكَ، يَعْمَلُ البَاتُوس مَنْطِقًا لِتَحَوُّلِ الوَضْعِ الأُنْطُولُوجِيِّ فِي النِّظَامِ الأَرْكِيتَايْبِيِّ، حَيْثُ يَصِيرُ انْهِيَارُ الشَّخْصِيَّةِ المهَيْمِنَةِ مُؤَشِّرًا رَئِيسًا لِتَهَدُّمِ النِّظَامِ الَّذِي تُمَثِّلُهُ. إِنَّ سُقُوطَ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي فِي هَذَا المِعْطَى هُوَ أَبْلَغُ بَيَانٍ لِتِلْكَ العَمَلِيَّةِ. وَمَا هُوَ عَلَى مَحَكِّ الِاخْتِبَارِ لَيْسَ مَصِيرَ الحَاكِمِ الفَرْدِيِّ، بَلْ نَزَاهَةَ الخِلَافَةِ بِوَصْفِهَا وَحْدَةً تَارِيخِيَّةً. فَحِينَ بَلَغَتِ الضُّغُوطُ المالِيَّةُ، وَالتَّشَظِّي السِّيَاسِيُّ، وَتَرَجِّي السَّيْطَرَةِ التُّرَابِيَّةِ حَدَّ التَّشَبُّعِ، حَدَثَ تَفَكُّكٌ عَمِيقٌ فِي هَيْكَلِ الشَّرْعِيَّةِ. وَتُعْلِنُ هَذِهِ اللَّحْظَةُ عَنْ عَجْزِ الجَسَدِ السَّرْدِيِّ عَنِ الحِفَاظِ عَلَى تَمَاسُكِهِ الدَّاخِلِيِّ، لِيُصْبِحَ بَلَاءُ الشَّخْصِيَّةِ المرْكَزِيَّةِ تَعْبِيرًا ظَاهِرِيًّا عَنِ انْهِيَارٍ نِظَامِيٍّ أَشَدَّ جَسَامَةً.

وَمِنَ المِمْكِنِ رَصْدُ عَمَلِيَّةٍ مُشَابِهَةٍ، وَإِنِ اخْتَلَفَ المِسْتَوَى، عَبْرَ الإِخْفَاقِ الأَوَّلِيِّ لِمَشْرُوعِ ثِيُودُور هِرْتْزِل السِّيَاسِيِّ. إِنَّ رَفْضَ مَقْتَرَحَاتِهِ السِّيَاسِيَّةِ لَمْ يَكُنْ خَاتِمَةً لِلسَّرْدِيَّةِ، بَلْ نُقْطَةَ انْحِرَافٍ وَجَّهَتْ طَاقَةَ البَحْثِ نَحْوَ مَسَارٍ آخَرَ. فَالإِخْفَاقُ لَمْ يَمْحُ حِدَّةَ الحَرَكَةِ، بَلْ غَيَّرَ صِيغَةَ تَعْبِيرِهَا لِتَكُونَ أَكْثَرَ مُلَاءَمَةً لِاسْتِحْقَاقَاتِ الوَاقِعِ. وَالطَّاقَةُ التَّارِيخِيَّةُ الَّتِي تَعَثَّرَتْ فِي مَوْضِعٍ مَّا، خَضَعَتْ لِإِعَادَةِ تَوَزُّعٍ فِي اسْتِرَاتِيجِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، جَاعِلَةً مِنَ العَقَبَةِ مِيكَانِيزْمًا لِلتَّحَوُّلِ لَا لِلنَّفْيِ النِّهَائِيِّ. وَتُظْهِرُ العَلَاقَةُ بَيْنَ الشَّخْصِيَّتَيْنِ أَنَّ البَاتُوس لَا يُشَغِّلُ ثَنَائِيَّةَ

الفَوْزِ وَالخَسَارَةِ فَحَسْبُ، بَلْ دَوْرَةً بِنْيَوِيَّةً يَكْمُنُ فِي طَيَّاتِ الهَيْمَنَةِ دَوْمًا قَابِلِيَّةُ انْحِلَالِهَا. إِنَّ اسْتِمْرَارِيَّةَ سُلْطَةِ السُّلْطَانِ وَإِخْفَاقَ هِرْتِزل الأَوَّلِيَّ يَقُومَانِ مَقَامَ عُقْدَتَيْنِ فِي نِظَامِ تَحَوُّلٍ مُتَنَاغِمٍ؛ إِحْدَاهُمَا تُمَثِّلُ نُقْطَةَ التَّشَبُّعِ فِي النِّظَامِ القَدِيمِ، وَالأُخْرَى تُمَثِّلُ تَجَمُّعَ الضُّغُوطِ نَحْوَ تَشْكِيلِ نِظَامٍ بَدِيلٍ. فَالْبَلَاءُ هُنَا لَيْسَ سِمَةً أَخْلَاقِيَّةً، بَلْ هُوَ مُؤَشِّرٌ عَلَى عَجْزِ نِظَامٍ مَا عَنِ الحِفَاظِ عَلَى بِنْيَتِهِ فِي خِضَمِّ الظُّرُوفِ التَّارِيخِيَّةِ المتَغَيِّرَةِ.

وَبِنَائِيًّا، يَعْمَلُ البَاتُوس عَبْرَ ثَلَاثِ وَظَائِفَ تَحَوُّلِيَّةٍ مُتَرَابِطَةٍ: تَضْعِيفُ النِّظَامِ المهَيْمِنِ، وَإِعَادَةُ تَوَزُّعِ الطَّاقَةِ التَّارِيخِيَّةِ، وَفَتْحُ المجَالِ لِتَشْكِيلَةٍ جَدِيدَةٍ. فَفِي مَرْحَلَةِ التَّضْعِيفِ، يَفْقِدُ النِّظَامُ قُدْرَتَهُ التَّنْظِيمِيَّةَ؛ وَعِنْدَمَا تَحْدُثُ إِعَادَةُ التَّوَزُّعِ، تَنْتَشِرُ الطَّاقَةُ الَّتِي كَانَتْ مُتَمَرْكِزَةً نَحْوَ أَفْعَالٍ أَكْثَرَ تَنَوُّعًا؛ وَفِي مَرْحَلَةِ الفَتْحِ، يُصْبِحُ الفَضَاءُ التَّارِيخِيُّ مُتَاحًا لِإِعَادَةِ تَنْظِيمِ الشَّرْعِيَّةِ. وَتَعْمَلُ هَذِهِ الوَظَائِفُ الثَّلَاثُ بَانِيَةً فِي آنٍ وَاحِدٍ فِي مَيْدَانِ التَّحَوُّلِ ذَاتِهِ. وَفِي سِيَاقِ الِانْتِقَالِ مِنَ الخِلَافَةِ العُثْمَانِيَّةِ إِلَى تَكْوِينٍ سِيَاسِيٍّ جَدِيدٍ، كَانَ سُقُوطُ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي حَدًّا بِنْيَوِيًّا دَاخِلِيًّا لِلنِّظَامِ القَدِيمِ، فِي حِينِ لَمْ يَكُنْ بُرُوزُ الكِيَانِ السِّيَاسِيِّ الجَدِيدِ انْقِطَاعًا مُطْلَقًا، بَلْ إِعَادَةَ صِيَاغَةٍ مَادِّيَّةٍ وَرَمْزِيَّةٍ لِبَقَايَا النِّظَامِ السَّابِقِ. يَعْمَلُ البَاتُوس مَنْطِقًا لِلدَّيْمُومَةِ فِي خِضَمِّ التَّفَكُّكِ: فَالَّذِي يَنْهَارُ هُوَ شَكْلُ الهَيْمَنَةِ، لَا الأَسَاسُ الِاجْتِمَاعِيُّ المنَادِي لَهُ. وَيَحْدُثُ التَّحَوُّلُ لَا عَبْرَ الفَرَاغِ، بَلْ عَبْرَ تَرْتِيبٍ جَدِيدٍ لِعَنَاصِرَ فَاقِدَةٍ لِمَرْكَزِ تَنْظِيمِهَا.

وَتُظْهِرُ كَافَّةُ سِلْسِلَةِ عَمَلِيَّاتِ البَاتُوس هَذِهِ أَنَّ البَلَاءَ وَالسُّقُوطَ لَيْسَا حَدَثَيْنِ مُنْعَزِلَيْنِ، بَلْ هُمَا وَظِيفَتَانِ بِنْيَوِيَّتَانِ تُنَظِّمَانِ الِانْتِقَالَ بَيْنَ النُّظُمِ. إِنَّ المصِيرَ الَّذِي لَقِيَهُ السُّلْطَانُ وَالإِخْفَاقُ الأَوَّلِيُّ لِلزَّعِيمِ الصُّهْيُونِيِّ يُمَثِّلَانِ وَجْهَيْنِ لِآلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ: انْحِلَالُ مَرْكَزِ الشَّرْعِيَّةِ القَدِيمِ وَتَفْعِيلُ مَيْدَانٍ تَارِيخِيٍّ جَدِيدٍ. وَإِنَّ البَاتُوس لَيْسَ مَحْضَ تَمْثِيلٍ عَاطِفِيٍّ، بَلْ هُوَ مَبْدَأُ عَمَلٍ سَرْدِيٍّ يَضْمَنُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ انْهِيَارٍ شَرْطًا لِإِمْكَانِيَّةِ مِيلَادِ شَكْلِ النِّظَامِ التَّالِي.

فِي ضَوْءِ التَّحْلِيلِ السَّابِقِ، يَسْتَبِينُ لِلْبَاحِثِ وَجْهُ شَبَهٍ مَعَ مَا خَلَصَ إِلَيْهِ مُحَمَّد آصِف خَان (٢٠٢٢) فِي دِرَاسَتِهِ، حَيْثُ يُبَيِّنُ أَنَّ البَطَلَ يُنَاهِضُ قُيُودَ طَبَقَتِهِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ طَمَعًا

فِي البَقَاءِ وَالِارْتِقَاءِ فِي المدِينَةِ الكُبْرى. إِذْ تُرْسَمُ صُورَةُ البَطَلِ فِي مُسْتَهَلِّ الحِكَايَةِ طِفْلًا قَرْوِيًّا فَقِيرًا مَغْلُولًا. وَمِنْ هُنَا، يَبْرُزُ الظَّفَرُ لِذَاتِ البَطَلِ حِينَ يَسْتَحِيلُ بَعْدَ ذَلِكَ ثَرِيًّا. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ عَدُوَّ البَطَلِ الحَقِيقِيَّ هُوَ العُمْرُ وَالزَّمَنُ؛ إِذْ يَرْتَسِمُ الزَّمَانُ فِي مَبْدَأِ القِصَّةِ قُوَّةً مُهَدِّدَةً لِحَيَاةِ البَطَلِ بِالفَنَاءِ، حَائِلَةً دُونَ خُرُوجِهِ مِنْ وَحْلِ الفَقْرِ. وَفِي المآلِ، يَنْجَحُ البَطَلُ فِي إِخْضَاعِ تِلْكَ المحْدُودِيَّةِ. وَلَكِنْ، نَظَرًا لِاسْتِنَادِ دِرَاسَةِ مُحَمَّد آصِف إِلَى نَقْدِ نُورْثْرُوب فْرَاي، فَإِنَّ المرْحَلَةَ التَّالِيَةَ لِلطَّرْحِ (Thesis) هِيَ الطَّرْحُ المقَابِلُ (Antithesis)، حَيْثُ تَنْبَثِقُ المِحنَةُ حِينَ يَغْدِرُ بِالبَطَلِ شَرِيكُهُ التِّجَارِيُّ، وَهُوَ زَوْجُ أُخْتِهِ السَّابِقُ. فَيَكُونُ التَّرْكِيبُ (Synthesis) الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ البَطَلُ هُوَ طَوْرُ الإِيرُونِيَّا (Irony)، حَيْثُ يَتَجَرَّعُ البَطَلُ خَسَارَةً فَادِحَةً، وَيُفَارِقُ الحَيَاةَ فَقِيرًا كَمَا بَدَأَ.

تَتَخَلَّصُ الخُلَاصَةُ الَّتِي أَرْسَاهَا البَاحِثُ مِنْ هَذَا التَّحْلِيلِ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَسَارٍ مِنَ مَسَارَاتِ الحَيَاةِ يَنْطَوِي عَلَى إِمْكَانِيَّةٍ تَمْنَحُ البَطَلَ فُرْصَةَ ارْتِيَادِ ذُرَى المجْدِ، مَعَ مَا يَسْتَتْبِعُهُ ذَلِكَ مِنْ تَحَمُّلِ أَعْبَاءِ الِاخْتِيَارِ. فَإِنَّ الصِّرَاعَ عُنْصُرٌ لَا يَنْفَكُّ عَنْ حَرَكَةِ التَّارِيخِ؛ إِذْ يُطَالَبُ البَطَلُ بِمُجَابَهَةِ قُوَى تَرُومُ التَّصَدِّيَ لِغَايَاتِهِ الكُبْرى. وَلَا يَنْبَغِي نَظْرُ النَّصْرِ وَالهَزِيمَةِ بِوَصْفِهِمَا حَالَتَيْنِ مُسْتَقِرَّتَيْنِ، فَمَنْ يَنْجَحُ مِنَ الأَبْطَالِ فِي تَذْلِيلِ العَقَبَاتِ فِي مَرْحَلَةٍ مَّا، قَدْ يَقَعُ فِي شَرَكِ الإِخْفَاقِ فِي مَرْحَلَةٍ لَاحِقَةٍ. وَعَلَى النَّقِيضِ، فَإِنَّ مَنِ اسْتَكَنَّ لِلتَّعَثُّرِ يَمْتَلِكُ فُرْصَةً لِلنُّهُوضِ فِي سِيَاقٍ جَدِيدٍ. إِنَّ دِينَامِيكِيَّاتِ العِمْرَانِ تَمْضِي قُدُمًا عَبْرَ صَيْرُورَةٍ جَدَلِيَّةٍ، حَيْثُ يُوَلِّدُ كُلُّ إِنْجَازٍ تَحَدِّيَاتٍ مُسْتَحْدَثَةٍ، وَيَفْتَحُ ثُغْرَةً لِمِيلَادِ نِظَامٍ جَدِيدٍ.

وَلَيْسَ نِظَامُ العِمْرَانِ بِنْيَةً وَاهِنَةً، بَلْ هُوَ كِيَانٌ يَتَحَرَّكُ دَوْمًا عَبْرَ تَضَارُبٍ وَتَكَيُّفٍ مُسْتَمِرَّيْنِ. وَإِنَّ التَّرْكِيبَ المحَقَّقَ لَا يَبْلُغُ قَطُّ خَاتِمَةَ التَّارِيخِ، إِذْ يَسْتَحِيلُ كُلُّ مَوْضِعٍ لِقَاءٍ فِي المآلِ طَرْحًا جَدِيدًا يَخْضَعُ لِاخْتِبَارِ ضُرُوبٍ مِنَ الطَّرْحِ المقَابِلِ. فَإِنَّ دَيْمُومَةَ العِمْرَانِ تَتَحَدَّدُ بِالقُدْرَةِ الجَمْعِيَّةِ عَلَى الِاسْتِجَابَةِ لِلتَّغْيِيرِ، وَتَقْوِيمِ مَوَاطِنِ الخَلَلِ، وَتَشْكِيلِ بِنْيَةِ تَرْكِيبٍ أَكْثَرَ

مُلَاءَمَةً لِاسْتِحْقَاقَاتِ الزَّمَانِ. وَمَعْنَى هَذِهِ المَرْحَلَةِ لَيْسَ النَّصْرَ النِّهَائِيَّ عَلَى الخَصْمِ، بَلْ هُوَ تَحَلٍّ بِجَسَارَةِ الِاسْتِمْرَارِ فِي التَّكَيُّفِ وَمُوَاصَلَةِ عَمَلِيَّةِ التَّحَوُّلِ التَّارِيخِيِّ الَّتِي لَا تَعْرِفُ الفُتُورَ.

وَتَكْشِفُ نَتَائِجُ هَذَا البَحْثِ أَنَّ نَمَطَ تَدَخُّلِ المسِيحِ الدَّجَّالِ لَا يَهْدِفُ إِلَى تَعْطِيلِ جَدَلِيَّةِ التَّارِيخِ، بَلْ إِلَى اخْتِطَافِ كُلِّ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِ ذَلِكَ المسَارِ. فَإِنَّ تَدَاوُلَ السُّلْطَةِ، وَالظَّفَرَ فِي الصِّرَاعِ، وَتَحَوُّلَ البِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ لَا تَجْلِبُ تِلْقَائِيًّا عِمْرَانًا أَفْضَلَ. وَإِنَّ كُلَّ تَرْكِيبٍ نَاشِئٍ يَحْتَضِنُ دَوْمًا قَابِلِيَّةً لِأَنْ يَصِيرَ فَضَاءً جَدِيدًا لِبُرُوزِ أَشْكَالِ انْحِرَافٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا. فِي البِنْيَةِ السَّرْدِيَّةِ لِلرِّوَايَةِ، لَا يَرْتَهِنُ تَأْثِيرُ الدَّجَّالِ بِجَمَاعَةٍ أَوْ شَخْصِيَّةٍ وَحِيدَةٍ، بَلْ يَعْمَلُ عَبْرَ ثُغَرَاتِ الضَّعْفِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ تَطَوُّرِ التَّارِيخِ البَشَرِيِّ.

وَلَا يَقَعُ الخَطَرُ الأَعْظَمُ الَّذِي تُمَثِّلُهُ هَذِهِ القُوَّةُ فِي دَمَارِ عِمْرَانٍ مَّا، بَلْ فِي قُدْرَتِهَا عَلَى اسْتِثْمَارِ نَجَاحَاتِ العِمْرَانِ ذَاتِهَا لِتَوْلِيدِ أَشْكَالٍ جَدِيدَةٍ مِنَ التَّشْوِيهِ. فَالنَّجَاحُ فِي تَذْلِيلِ الأَزَمَاتِ يُنِيمُ المجْتَمَعَ غَالِبًا فِي أَحْضَانِ شُعُورٍ مُفْرِطٍ بِالأَمْنِ، أَوِ الِاسْتِعْلَاءِ، أَوِ الطُّمُوحِ الَّذِي يَفْتَحُ بَابًا لِأَزَمَاتٍ قَادِمَةٍ. فَكُلُّ تَرْكِيبٍ تَارِيخِيٍّ لَا يَحْمِلُ بِذُورَ الِارْتِقَاءِ فحَسْبُ، بَلْ يَخْبَأُ إِمْكَانِيَّةَ تَنَامِي الِانْحِرَافِ لِيَكُونَ بَوَّابَةً رَئِيسَةً لِتَدَخُّلِ هَذِهِ القُوَّةِ المنْحَرِفَةِ.

وَفِي أُفُقِ الإِسْخَاتُولُوجِيَا الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَكْتَنِفُ الرِّوَايَةَ، لَا يَحْدُثُ المسِيرُ نَحْوَ المرْحَلَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ التَّارِيخِ عَبْرَ حَدَثٍ وَحِيدٍ، بَلْ بِتَرَاكُمِ جَدَلِيَّةِ العِمْرَانِ الَّتِي تَتَكَرَّرُ دَوْمًا. فَيَحْضُرُ الدَّجَّالُ قُوَّةً تَسْتَثْمِرُ هَذَا التَّكَرُّرَ لِتَوْجِيهِ مَسَارِ التَّارِيخِ نَحْوَ ذُرْوَةِ فِتْنَةِ آخِرِ الزَّمَانِ. وَإِنَّ الرِّسَالَةَ الجَوْهَرِيَّةَ الَّتِي تُسْتَنْبَطُ هِيَ أَنَّ جَوْدَةَ العِمْرَانِ لَا تُقَاسُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى الِانْتِصَارِ فِي حَلَبَاتِ المنَافَسَةِ أَوِ الِاسْتِيلَاءِ عَلَى السُّلْطَةِ، بَلْ بِثَبَاتِهِ عَلَى حِرَاسَةِ التَّوْجِيهِ الأَخْلَاقِيِّ وَالرُّوحِيِّ لِئَلَّا يَنْجَرَّ إِلَى مُنْزَلَقَاتِ الِانْحِرَافِ الَّتِي تَتَكَاثَرُ فِي كُلِّ دَوْرَةٍ مِنَ الدُّهُورِ.

٣) الأَنَاغْنُورِيسِيس

تُشَكِّلُ هَذِهِ المرْحَلَةُ مَرْحَلَةُ الأَنَاغْنُورِيسِيس نُقْطَةَ التَّحَوُّلِ الَّتِي تَنْتَقِلُ فِيهَا الحِكَايَةُ إِلَى زَمَنِ التَّبَلْوُرِ لِكُلِّ شَتَاتِ الاحداث السَّرْدِيَّةِ السَّابِقَةِ. فَفِيهَا يَبْلُغُ مَنْ كَانَ مُضْطَهَدًا ذُرْوَةَ ظَفَرِهِ، وَيَنْجَلِي الغُمُوضُ عَمَّا كَانَ مَسْتُورًا، حَيْثُ تَصِيرُ الحَقَائِقُ فِي طَيَّاتِ القِصَّةِ بَيِّنَةً وَاضِحَةً، وَتُصْبِحُ عُنْصُرًا فَاعِلًا وَمُؤَثِّرًا فِي مَسَارِ السَّرْدِ.

(١٨) وخرج "هرتزل" من القصر العثماني وطار "ماستيم" فوقه لا يفارقه. منذ سنوات من هذه الواقعة كان "هرتزل" يلقي خطبته المريبة في مجتمع حكماء صهيون.. وكانت خطته أن تدور الأفعى "سيربنت" حول أوروبا فتسقط كل الملكيات فيها ثم تهبط أخيرًا في أرض العرب لتسقط الدولة العثمانية (ص ١١٧.)

يُصَوِّرُ البَيَانُ الثَّامِنَ عَشَرَ شَخْصِيَّةَ تِيُودُور هِرْتِزل فِي مَوْقِعِ الشَّخْصِيَّةِ المِحْوَرِيَّةِ الَّتِي تَنْتَظِمُ ضِمْنَ شَبَكَةِ تَآمُرٍ عَالَمِيَّةٍ تَسْعَى لِتَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ الصُّهْيُونِيَّةِ وَتَهْيِئَةِ النِّظَامِ العَالَمِيِّ الجَدِيدِ. وَيَبْرُزُ هِرْتِزل فِي السَّرْدِيَّةِ الرِّوَائِيَّةِ حَاصِلًا عَلَى دَعْمٍ مَالِيٍّ وَسِيَاسِيٍّ مِنْ نُخَبٍ دَوْلِيَّةٍ، بِقَصْدِ تَهْدِيمِ المؤَسَّسَاتِ الَّتِي تُعِيقُ هَذِهِ الأَجِنْدَةَ، وَفِي صَدَارَتِهَا الخِلَافَةُ العُثْمَانِيَّةُ. وَتَتَمَثَّلُ الِاسْتِرَاتِيجِيَّاتُ المنْتَهَجَةُ فِي السَّيْطَرَةِ عَلَى الِاقْتِصَادِ عَبْرَ الدُّيُونِ وَنِظَامِ الصَّيَارِفَةِ، وَتَوْجِيهِ الرَّأْيِ العَامِّ بِوَسَائِطِ الإِعْلَامِ، وَبَثِّ أَيْدِيُولُوجِيَّاتِ اللِّيبرَالِيَّةِ وَالعَلْمَانِيَّةِ الَّتِي تُنْظَرُ بِوَصْفِهَا عَوَامِلَ نَحْرٍ لِقِيَمِ الدِّينِ وَالأُسْرَةِ. وَعَلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، تَكْشِفُ الرِّوَايَةُ عَنْ وُجُودِ جَمَاعَاتٍ سِرِّيَّةٍ كَالْمَاسُونِيَّةِ، بِوَصْفِهَا أَدَوَاتٍ لِلتَّسَرُّبِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي يَعْمَلُ عَلَى تَعْجِيلِ وُتِيرَةِ التَّحَوُّلَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ فِي أَرْجَاءٍ مَّا. إِنَّ هَذِهِ الحُزْمَةَ مِنَ الهَيْمَنَةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالدِّعَايَةِ، وَتَهْدِيمِ السُّلْطَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، لَا تُرْسَمُ غَايَةً نِهَائِيَّةً، بَلْ هِيَ طَوْرٌ إِعْدَادِيٌّ لِتَخَلُّقِ النِّظَامِ العَالَمِيِّ الجَدِيدِ. وَفِي بِنَاءِ هَذِهِ القِصَّةِ، تَصِيرُ هَذِهِ الأَجِنْدَةُ بِرُمَّتِهَا مُوَجَّهَةً فِي المآلِ لِاسْتِقْبَالِ ظُهُورِ المسِيحِ الدَّجَّالِ، بِوَصْفِهِ الشَّخْصِيَّةَ القِمِّيَّةَ الَّتِي سَتَقُودُ النِّظَامَ العَالَمِيَّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ.

تَضْطَلِعُ الأَنَاغْنُورِيسِيس ضِمْنَ الإِطَارِ النَّظَرِيِّ لِنُورْثْرُوب فْرَاي بِوَظِيفَةِ مِيكَانِيزْمِ إِعَادَةِ بِنَاءِ التَّرَابُطِ السَّرْدِيِّ، وَهِيَ عَمَلِيَّةُ تَحَوُّلٍ حِينَ تَجِدُ العَلَاقَاتُ الَّتِي كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي صُوَرٍ

مُتَشَظِّيَةٍ قَابِلِيَّةَ القِرَاءَةِ بِوَصْفِهَا بِنْيَةَ مَعْنًى مُتَكَامِلَةً. وَلَيْسَ المرَادُ هُنَا مُجَرَّدَ انبِثَاقِ مَعْلُومَاتٍ مُسْتَحْدَثَةٍ، بَلْ هُوَ إِعَادَةُ تَنْظِيمٍ مَعْرِفِيّ يُحَوِّلُ حَالَةَ المعْرِفَةِ مِنْ حُزْمَةِ بَيَانَاتٍ جُزْئِيَّةٍ إِلَى نِظَامٍ مُتَرَاصٍّ. وَعَلَيْهِ، تَعْمَلُ الأَنَاغْنُورِيسِيس نُقْطَةَ تَلَاقٍ بِنْيَوِيّ تَضُمُّ العَنَاصِرَ السَّرْدِيَّةَ المتَعَدِّدَةَ فِي نَمَطٍ كُلِّيّ قَابِلٍ لِلمَسْحِ الشَّامِلِ.

وَفِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، لَا تَتَجَلَّى هَذِهِ الآلِيَّةُ دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي صُورَةِ كَشْفٍ مُفَاجِئٍ، بَلْ هِيَ صَيْرُورَةٌ مُتَدَرِّجَةٌ تَتَأَسَّسُ عَبْرَ تَرَاكُمِ المعْلُومَاتِ وَإِعَادَةِ تَوْزِيعِهَا بِدِقَّةٍ. فَمِنْ مَبْدَأِ الحِكَايَةِ، تُعْرَضُ الأَحْدَاثُ التَّارِيخِيَّةُ مِنْ مَسِيرَةِ هِرْتزِل، وَدَوْرِ رُوثْشِيلْد، وَشَبَكَةِ المَاسُونِيَّةِ، إِلَى سُقُوطِ الخِلَافَةِ العُثْمَانِيَّةِ بِوَصْفِهَا وَحَدَاتٍ مُنْفَصِلَةً تَبْدُو مُسْتَقِلَّةً بِلَا رَوَابِطَ بَيِّنَةٍ. وَتَعْمِدُ البِنْيَةُ السَّرْدِيَّةُ إِلَى إِزَاحَةِ مَوْدُوسِ القِرَاءَةِ تَصَاعُدِيًّا مِنَ التَّشَظِّي نَحْوَ التَّكَامُلِ، وَذَلِكَ بِوَضْعِ كُلِّ عُنْصُرٍ فِي مَجَالٍ عَلَائِقِيّ مُتَدَاخِلٍ. وَتَأْتِي وَظِيفَةُ الأَنَاغْنُورِيسِيس هُنَا عَمَلِيَّةَ وَصْلٍ تُجْرِي إِعَادَةَ هَيْكَلَةٍ لِمَوْضُوعِ المعْرِفَةِ، حَيْثُ يُعَادُ تَمَوْضُعُ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُفْهَمُ فَرْدًا مُسْتَقِلًّا، لِتَغْدُوَ نُقْطَةَ لِقَاءٍ فِي شَبَكَةِ سُلْطَةٍ أَكْثَرَ اتِّسَاعًا. فَتَفْقِدُ الهُوِيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ مَعْنَاهَا أَمَامَ الوَظِيفَةِ النِّظَامِيَّةِ الَّتِي تُحَدِّدُ مَوْقِعَ كُلِّ فَاعِلٍ فِي مَسَارِ التَّارِيخِ.

وَتَمْتَدُّ هَذِهِ العَمَلِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى تَشْرِيحِ آلِيَّاتِ عَمَلِ النِّظَامِ الَّذِي يَرْبِطُ كَافَّةَ الفَاعِلِينَ. وَتُؤَكِّدُ السَّرْدِيَّةُ بِصَرَاحَةٍ أَنَّ التَّحَوُّلَ التَّارِيخِيَّ لَا يَتَحَقَّقُ بِوَاسِطَةِ حَدَثٍ وَحِيدٍ صَرِيحٍ، بَلْ عَبْرَ تَرَاكُمِ عَمَلِيَّاتٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ كَالتَّسَرُّبِ، وَالتَّنْظِيمِ الِاقْتِصَادِيّ، وَتَدْبِيرِ الرَّأْيِ العَامّ. وَفِي مُصْطَلَحَاتِ فْرَاي، يَرْجِعُ هَذَا المجَالُ إِلَى المَوْدُوسِ الشَّيْطَانِيّ (Demonic Modus)، وَهُوَ فَضَاءٌ لَا تَبْدُو فِيهِ العَلَاقَاتُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ شَفَّافَةً لِتَغَطِّيهَا بِنْيَةِ تَأْثِيرٍ تَعْمَلُ فِي الخَفَاءِ. وَلَا تَكْتَفِي الأَنَاغْنُورِيسِيس فِي هَذِهِ المرْحَلَةِ بِكَشْفِ هُوِيَّةِ الفَاعِلِ، بَلْ تُشَرِّحُ المنْطِقَ التَّشْغِيلِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ التَّرَابُطَ بَيْنَ الفَاعِلِينَ مُمْكِنًا. وَفِي مَآلِهَا، تُخْتَزَلُ كُلُّ الشَّظَايَا المبَعْثَرَةِ إِلَى مَبْدَأِ تَحْرِيكٍ وَاحِدٍ شَامِلٍ، مِمَّا يُحَوِّلُ التَّارِيخَ مِنْ سِلْسِلَةِ عَرَضِيَّاتٍ إِلَى تَكْوِينٍ غَائِيّ يَحْمِلُ وُجْهَةً دَاخِلِيَّةً قَطْعِيَّةً.

وَتُظْهِرُ هَذِهِ البِنْيَةُ أَنَّ الرِّحْلَةَ السَّرْدِيَّةَ تَعْمَلُ جِهَازًا مَعْرِفِيًّا يُنَظِّمُ تَوْزِيعَ المَعْرِفَةِ تَدْرِيجِيًّا فِي إِطَارِ بَحْثِ الرُّومَانْسِيَّةِ. فَكُلُّ حَلْقَةٍ لَا تَحْمِلُ مَعْنًى نِهَائِيًّا لِذَاتِهَا، بَلْ تَسْتَمِدُّ دَلَالَتَهَا مِنْ مَوْقِعِهَا فِي كُلِّيَّةِ بِنْيَةِ الرِّحْلَةِ المَقْطُوعَةِ. وَتَبْرُزُ الأَنَاغْنُورِيسِيس نَتِيجَةً خِتَامِيَّةً لِهَذِهِ العَمَلِيَّةِ، مُشِيرَةً إِلَى النُّقْطَةِ الَّتِي يَصِيرُ فِيهَا كُلُّ عُنْصُرٍ قَابِلًا لِلمَسْحِ فِي نِظَامِ تَرَابُطٍ مُتَّسِقٍ. وَتَتَجَاوَزُ وَظِيفَةُ الأَنَاغْنُورِيسِيس فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ مُجَرَّدَ التَّعَرُّفِ عَلَى الحَقَائِقِ، لِتَمْتَدَّ إِلَى إِعَادَةِ هَيْكَلَةٍ كُلِّيَّةٍ لِطَرِيقَةِ رُؤْيَةِ العَالَمِ السَّرْدِيِّ. فَيُعَادُ تَكْوِينُ الحَدَثِ التَّارِيخِيِّ مِنْ حَالَةِ الكَوْنِ حَدَثًا مُسْتَقِلًّا إِلَى جُزْءٍ لَا يَتَجَزَّأُ مِنَ نِظَامِ مَعْنًى مُتَبَادِلِ التَّأْثِيرِ. وَفِي هَذِهِ النُّقْطَةِ، تَعْمَلُ الأَنَاغْنُورِيسِيس مَبْدَأَ تَرْكِيبٍ أَرْكِيتَايْبِيٍّ يُحَوِّلُ تَرَاكُمَ المَعْرِفَةِ إِلَى بِنْيَةٍ، مَعَ تَشْكِيلِ رُؤْيَةٍ جَدِيدَةٍ تُوَجِّهُ تَأْوِيلَ القَارِئِ لِكَافَّةِ عَالَمِ الرِّوَايَةِ الَّذِي بَنَاهُ الكَاتِبُ.

تَنْبَثِقُ العَلَاقَةُ المَنْطِقِيَّةُ بَيْنَ دِرَاسَةِ أَنْجَانِي وَآخَرِينَ (٢٠٢٥) وَبَيْنَ بَيَانَاتِ بَحْثِكَ حَوْلَ مُؤَامَرَةِ ثِيُودُور هِرْتِزل، مِنْ خِلَالِ تَشْكِيلِ طَبَقَاتِ المَعْنَى وَالمِيثُوسِ الأَيْدِيُولُوجِيِّ الكَامِنِ خَلْفَ سَرْدِيَّةِ النَّصِّ. فَإِذَا كَانَتْ دِرَاسَةُ أَنْجَانِي وَآخَرِينَ المَوْسُومَةُ بِـ "بِنَاءُ المَعْنَى العَاطِفِيِّ وَالثَّقَافِيِّ فِي رِوَايَةِ لَمْبَايُون سِينْجَا: تَحْلِيلٌ سِيمِيُوطِيقِيٌّ لِرُولَان بَارْت" تَتَنَاوَلُ فِي إِشْكَالِيَّتِهَا أَنْمَاطَ التَّمْثِيلِ الرَّمْزِيِّ وَكَيْفِيَّةَ تَشَكُّلِ المَعَانِي المُضْمَرَةِ مِنْ خِلَالِ العَلَاقَاتِ بَيْنَ الرُّمُوزِ، فَإِنَّ بَيَانَاتِ بَحْثِكَ تُحَقِّقُ هَذَا المَفْهُومَ عَمَلِيًّا عَبْرَ رَمْزِيَّةِ شَخْصِيَّةِ هِرْتِزل وَأُسْرَةِ رُوثْشِيلْد، بِوَصْفِهِمَا تَمْثِيلًا لِأَذْرُعِ المؤَامَرَةِ العَالَمِيَّةِ.

وَبِاعْتِمَادِ مَنْهَجِ البَحْثِ المُرْتَكِزِ عَلَى التَّحْلِيلِ السِّيمِيُوطِيقِيِّ لِرُولَان بَارْت (الدَّلَالَةُ وَالتَّضْمِينُ) وَكَوُدِ المِيثُوسِ، نَجَحَ بَحْثُكَ فِي تَفْكِيكِ نَسِيجِ الرِّوَايَةِ؛ لِيُبْرِزَ أَنَّ سَرْدِيَّةَ سُقُوطِ الخِلَافَةِ العُثْمَانِيَّةِ، وَحَبَائِلَ الدُّيُونِ، وَالتَّسَرُّبَ المَاسُونِيَّ، وَالتَّلَاعُبَ بِالإِعْلَامِ، لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَسَلْسُلٍ لِأَحْدَاثٍ تَارِيخِيَّةٍ ظَاهِرِيَّةٍ، بَلْ هِيَ عَلَامَاتٌ تَضْمِينِيَّةٌ لِاسْتِرَاتِيجِيَّةٍ مُنَظَّمَةٍ تَهْدِفُ إِلَى النَّخْرِ الأَخْلَاقِيِّ وَالهَيْمَنَةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ.

وَفِي أَرْفَعِ مَرَاتِبِ التَّحْلِيلِ، تَلْتَقِي هَاتَانِ الدِّرَاسَتَانِ عِنْدَ خُلَاصَةٍ مُتَّسِقَةٍ حَوْلَ وَظِيفَةِ النَّصِّ بِوَصْفِهِ جِهَازًا أَيْدِيُولُوجِيًّا؛ فَكَمَا بَنَتْ رِوَايَةُ لَمْبَايُون سِينْجَا مِيثُوسًا ثَقَافِيًّا عَنْ دَوْرَةِ الحَيَاةِ مِنْ خِلَالِ رَمْزِ الغَسَقِ، فَإِنَّ الرِّوَايَةَ فِي بَيَانَاتِكَ تُشَيِّدُ بِبَرَاعَةٍ مِيثُوسَ آخِرِ الزَّمَانِ، حَيْثُ تُرْسَمُ كُلُّ هَذِهِ التَّدَخُّلَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالنِّظَامِ العَالَمِيِّ الجَدِيدِ فِي هَيْئَةِ تَرْتِيبَاتٍ هَيْكَلِيَّةٍ مُهَيَّأَةٍ لِاسْتِقْبَالِ ظُهُورِ المسِيحِ الدَّجَّالِ.

تَتَجَلَّى الخُلَاصَةُ الَّتِي أَرْسَاهَا البَاحِثُ فِي أَنَّ كُلَّ عِمْرَانٍ آيِلٍ لِلسُّقُوطِ يَنْطَوِي فِي جَوْهَرِهِ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ النَّجَاةِ، مَا دَامَتْ قُدْرَةُ اسْتِشْعَارِ مَصَادِرِ الخَطَرِ مَصُونَةً. وَإِنَّ الانْهِيَارَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ كَثِيرًا مَا يَقَعُ لَا لِعَدَمِ مَعْرِفَةٍ بِأَصْلِ البَلِيَّةِ، بَلْ لِكَوْنِ الوَعْيِ بِجُذُورِ المعْضِلَةِ لَا يَنْبَثِقُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَبْلُغَ الخَطْبُ مَبْلَغًا يَصْعُبُ مَعَهُ الِاسْتِدْرَاكُ. فَالرُّومُ وَالعُثْمَانِيُّونَ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ كَانُوا يُدْرِكُونَ تَهَالُكَ المؤَسَّسَاتِ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الإِدْرَاكَ لَمْ يَعْقُبْهُ تَحَوُّلٌ جَذْرِيٌّ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى كَفِّ عَمَلِيَّاتِ التَّآكُلِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَعِنْدَمَا تَتَجَلَّى الحَقِيقَةُ بِصُورَتِهَا الكُلِّيَّةِ، يَكُونُ حَيِّزُ التَّصْحِيحِ التَّارِيخِيِّ قَدْ تَضَاءَلَ مَدَاهُ.

وَفِي إِطَارِ نُورْثْرُوب فْرَاي، تَتَمَثَّلُ هَذِهِ الحَالَةُ عَبْرَ الأَنَاغْنُورِيسِيس، وَهِيَ لَحْظَةُ التَّعَرُّفِ الَّتِي يَنْكَشِفُ فِيهَا مَسَارُ السَّبَبِيَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَحْجُوبًا. وَلَيْسَ الأَزَمَاتُ الَّتِي يُقَاسِيهَا المجْتَمَعُ انْفِجَارًا مُفَاجِئًا لِلأَحْدَاثِ، بَلْ هِيَ تَرَاكُمٌ لِصَيْرُورَةٍ مَدِيدَةٍ ضَارِبَةٍ فِي عُمْقِ البِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ. وَلَا تَعْمَلُ الأَنَاغْنُورِيسِيس هُنَا مَوْقِفَ اسْتِنَارَةٍ عَقْلِيَّةٍ فَحَسْبُ، بَلْ تَغْدُو عَلَامَةً عَلَى الفَوَاتِ؛ حَيْثُ تَبْدُو الحَقِيقَةُ وَاضِحَةً فِي وَقْتٍ تَكُونُ فِيهِ القُدْرَةُ عَلَى تَغْيِيرِ مَجْرَى الأُمُورِ قَدْ نَالَهَا التَّآكُلُ.

إِنَّ دَيْمُومَةَ أَيِّ عِمْرَانٍ تَرْهَنُ بِكَفَاءَةِ التَّعَرُّفِ عَلَى الخَطَرِ فِي مَهْدِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَفَاقَمَ فَيُفْضِيَ إِلَى دَمَارٍ نِظَامِيٍّ. كَمَا أَنَّ بَقَاءَ الكِيَانِ يَتَوَقَّفُ عَلَى آلِيَّاتٍ أَخْلَاقِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ تَضْمَنُ الحِفَاظَ عَلَى الوَعْيِ الِانْعِكَاسِيِّ وَجَسَارَةِ النَّقْدِ الذَّاتِيِّ المَوْضُوعِيِّ فِي وَجْهِ تَحَدِّيَاتِ الزَّمَانِ. وَتَعْمَلُ تَدَخُّلَاتُ المسِيحِ الدَّجَّالِ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ عَبْرَ تَمْوِيهٍ تَارِيخِيٍّ يَجْعَلُ التَّلَفَ بَادِيًا فِي

صُورَةٍ خَفِيَّةٍ غَيْرِ مُؤْذِيَةٍ. فَالتَّأْثِيرُ لَا يَقُومُ عَلَى هَدْمٍ ظَاهِرٍ، بَلْ يَمْضِي قُدُمًا عَبْرَ تَطْبِيعِ انْحِرَافَاتٍ صَغِيرَةٍ تَنْخَرُ أَسَاسَاتِ الِاسْتِقْرَارِ مِنْ الدَّاخِلِ.

وَتُمَثِّلُ لَحْظَةُ الأَنَاغْنُورِيسِيس فِي هَذَا السَّرْدِ وَعْيًا جَمْعِيًّا بِنَمَطِ التَّدَخُّلِ الَّذِي تَسَرَّبَ فِي نِظَامِ الكِيَانِ. فَالشَّظَايَا الَّتِي كَانَتْ تَبْدُو مُتَنَافِرَةً تَنْتَظِمُ فِي مَآلِهَا لِتُشَكِّلَ نَمَطًا كُلِّيًّا، مُنَبِّهَةً المجْتَمَعَ إِلَى أَنَّ الخَطَرَ الأَعْظَمَ لَيْسَ فِي قُوَى خَارِجِيَّةٍ، بَلْ فِي التَّآكُلِ الذَّاتِيِّ الَّذِي عَجَزَ عَنْ رَصْدِهِ بِدِقَّةٍ. وَفِي أُفُقِ الإِسْخَاتُولُوجِيَا الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَكْتَنِفُ الرِّوَايَةَ، لَا تَكُونُ فِتْنَةُ آخِرِ الزَّمَانِ دَوْمًا مُوَاجَهَةً مَحْسُوسَةً، بَلْ هِيَ تَرَاكُمٌ يُشَوِّهُ بِبُطْءٍ طَرِيقَةَ إِدْرَاكِ النَّاسِ لِلْقِيَمِ وَالهُوِيَّةِ وَالحَقِّ.

وَلَا سَبِيلَ لِحِفَاظِ العِمْرَانِ عَلَى مَسَارِهِ إِلَّا بِقُدْرَةِ التَّعَرُّفِ عَلَى الِانْحِرَافِ مُبَكِّرًا قَبْلَ أَنْ يَسْتَعْصِيَ الفَسَادُ عَلَى الِاحْتِوَاءِ. فَإِنَّ التَّهْدِيدَ الأَكْثَرَ جَوْهَرِيَّةً لِأَيِّ نِظَامٍ لَا يَكْمُنُ فِي فَقْدِ القُوَّةِ المؤَسَّسِيَّةِ، بَلْ فِي خُمُولِ الوَعْيِ عَنْ قِرَاءَةِ التَّحَوُّلَاتِ الجَارِيَةِ فِي ذَاتِهِ. إِنَّ الظَّفَرَ فِي مُنَافَسَاتِ المسْتَقْبَلِ يَعْتَمِدُ عَلَى حِدَّةِ الِانْعِكَاسِ الذَّاتِيِّ، لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الِاسْتِقْرَارِ الأَصِيلِ، وَالخَرَابِ المَلَفَّقِ بِأَرْدِيَةِ السَّرْدِيَّاتِ العَظِيمَةِ الزَّائِفَةِ.

٤) نُقْطَةُ الإِبِيفَانِيَا

فِي كِتَابِهِ تَشْرِيحُ النَّقْدِ، يَعْمِدُ نُورْثْرُوب فْرَاي (١٩٥٧) إِلَى تَوْصِيفِ الإِبِيفَانِيَا لَا بِوَصْفِهَا ذُرْوَةً سَرْدِيَّةً فَحَسْبُ، بَلْ بِوَصْفِهَا لَحْظَةً أَرْكِيتَايْبِيَّةً حَاسِمَةً، حَيْثُ تَذُوبُ الحُدُودُ الأُنْطُولُوجِيَّةُ بَيْنَ مَا هُوَ دُنْيَوِيٌّ وَمَا هُوَ مُقَدَّسٌ، وِفْقَ جَدَلِيَّةٍ ثُنَائِيَّةٍ تَتَّسِمُ بِالشُّمُولِيَّةِ. وَيُصَنِّفُ فْرَاي هَذِهِ الظَّاهِرَةَ فِي قُطْبَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ: الإِبِيفَانِيَا الأَبُوكَالِيبْتِيَّةُ الَّتِي تُمَثِّلُ التَّكَامُلَ الكَوْنِيَّ عَبْرَ رُمُوزِ العُلُوِّ، كَقِمَمِ الجِبَالِ أَوِ المَنَارَاتِ، بِوَصْفِهَا تَجَلِّيَاتٍ لِلْحَقِيقَةِ المِثَالِيَّةِ؛ وَالإِبِيفَانِيَا الشَّيْطَانِيَّةُ الَّتِي تُقَدِّمُ انْحِلَالًا وُجُودِيًّا عَبْرَ صُوَرٍ قَاتِمَةٍ كَالسُّجُونِ أَوِ المَدَائِنِ الخَرِبَةِ، بِوَصْفِهَا تَجَلِّيَاتٍ

لِلظُّلْمَةِ المطْلَقَةِ. وَتَأْسِيسًا عَلَى هَذَا المفْهُومِ، سَيَعْمَدُ البَاحِثُ إِلَى اسْتِقْرَاءِ بَيَانَاتِ البَحْثِ وَتَحْلِيلِهَا وِفْقَ هَذَا المِعْيَارِ النَّظَرِيِّ.

(١٩) وكان يبدو أن هناك مترجمًا بجواره يحدثه بحديثٍ ما قبل أن يُعدم.. طار "ماستيم" ليستمع.. كان المترجم يقول لـ "ساباتاي": لقد فقدت عقلك يا "ساباتاي".. ويبدو أن حماقتك ستودي بك إلى الجحيم. نظر له "ساباتاي" وقال له: لا جدوى لهذا الحديث الآن يا هذا. قال المترجم بلهجة من يقول أمرًا خطيرًا: اسمعني جيدًا.. أنا يهودي مثلك.. ومؤمن بك وبدعوتك.. وإني أود أن أسوق لك اليوم فكرة تُنجيك من الإعدام وتكسبك عند السلطان هيبة.. بل وتكون لك هبة وعطية من السلطان (ص ٩١)

يُعَالِجُ البَيَانُ التَّاسِعَ عَشَرَ قِصَّةَ شَبْتَاي زِيفِي، وَيُصَوِّرُهُ شَخْصِيَّةً مِحْوَرِيَّةً تُدِيرُ خَمْسَةَ أَدْوَارٍ اسْتِرَاتِيجِيَّةٍ لِتَقْوِيضِ النِّظَامِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ مِنْ دَاخِلِهِ: إِذْ أَرْسَى دُكْتُرِينَ الْخَلَاصِ بِالْخَطِيئَةِ الَّتِي تُشَرِّعُ مُخَالَفَةَ أَحْكَامِ الدِّينِ بِوَصْفِهَا وَسِيلَةً لِتَزْكِيَةِ الرُّوحِ، كَمَا أَسَّسَ حَرَكَةَ الدُّونْمَةِ الَّتِي تَسَرَّبَتْ إِلَى مَرَاتِبَ اسْتِرَاتِيجِيَّةٍ فِي تُرْكِيَا بِالتَّظَاهُرِ بِاعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ. وَفِي مَسَارٍ آخَرَ، يَلْعَبُ زِيفِي دَوْرَ عَمِيلِ الِاخْتِرَاقِ الَّذِي يُشَيِّدُ شَبَكَةَ اسْتِخْبَارَاتٍ خَفِيَّةٍ لِقُوَى سِيَاسِيَّةٍ كَالْمَاسُونِيَّةِ لِخَلْعِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ رَمْزًا لِتَوْحِيدِ مُمَارَسَاتِ سِحْرِ الْقَبَالَا مَعَ الْمُؤَامَرَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ. وَفِي الْمَآلِ، يُوضَعُ زِيفِي فِي مَوْقِعِ الْبَيْدَقِ الرَّئِيسِيِّ ضِمْنَ الْخُطَّةِ الْكُبْرَى لِلْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، الْمُنِيطِ بِهِ ضَعْفُ الْبِنْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، بُغْيَةَ تَمْهِيدِ السَّبِيلِ لِتَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ الصُّهْيُونِيَّةِ فِي فِلَسْطِينَ.

فِي إِطَارِ نُورْثْرُوب فْرَاي النَّظَرِيِّ، تَضْطَلِعُ نُقْطَةُ الْإِبِيفَانِيَا بِوَظِيفَةِ مِيكَانِيزْمِ إِعَادَةِ هَيْكَلَةِ الْمَعْنَى، الَّتِي تُحَوِّلُ حَالَةَ الشَّخْصِيَّةِ مِنْ كَوْنِهَا كِيَانًا تَارِيخِيًّا فَرْدِيًّا إِلَى وَظِيفَةٍ أَرْكِيتَايْبِيَّةٍ فِي النِّظَامِ السَّرْدِيِّ. فَلَا يَنْصَبُّ تَرْكِيزُ التَّحْلِيلِ عَلَى التَّرْجَمَةِ الْبِيُوغْرَافِيَّةِ لِشَبْتَاي زِيفِي، بَلْ عَلَى كَيْفِيَّةِ إِعْمَالِ السَّرْدِ لِتَحْوِيلِ مَوْقِعِ الشَّخْصِيَّةِ وَوَظِيفَتِهَا، بُغْيَةَ تَحْصِيلِ فَهْمٍ

كُلِّيٍّ لِعَلَاقَاتِ الْقُوَّةِ وَدَيْمُومَةِ الْأَفْكَارِ. وَفِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى، تَلْعَبُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ دَوْرَ مَرْكَزِ تَكْثِيفٍ أَيْدِيُولُوجِيٍّ، يُمَدِّدُ نُفُوذَهُ عَبْرَ صِيَاغَةِ الْمَسِيَانِيَّةِ وَتَوْطِيدِ كِيَانِ الْجَمَاعَةِ الْمُتَّبِعَةِ. غَيْرَ أَنَّهُ فِي مَنْطِقِ فْرَاي، يُنْتِجُ هَذَا التَّمَدُّدُ حَتْمًا تَوَتُّرًا بِنْيَوِيًّا؛ إِذْ تُثِيرُ قُوَّةُ انْتِشَارِ الْفِكْرَةِ مُقَاوَمَةً مِنَ النِّظَامِ السَّائِدِ الَّذِي يَسْتَشْعِرُ تَهْدِيدًا لِشَرْعِيَّتِهِ. فَلَيْسَ نَجَاحُ الشَّخْصِيَّةِ إِذَنْ بُلُوغًا غَائِيًّا، بَلْ هُوَ نُقْطَةُ بَدْءٍ تَرَاكُمِ الضُّغُوطِ الَّتِي تَنْقُلُ الْوُجُودَ مِنَ الْمَرْحَلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ إِلَى مَرْحَلَةِ الْأَزَمَةِ.

وَيَبْلُغُ التَّوَتُّرُ ذُرْوَةَ الِانْتِهَاءِ عِنْدَ حُدُوثِ تَحَوُّلٍ فِي الْهُوِيَّةِ يَبْدُو فِي ظَاهِرِهِ تَسْوِيَةً مَعَ الضُّغُوطِ الْخَارِجِيَّةِ. وَلَيْسَ هَذَا الْحَدَثُ اضْطِرَابًا نَفْسِيًّا شَخْصِيًّا، بَلْ هُوَ إِزَاحَةٌ لِلْوَظِيفَةِ السَّرْدِيَّةِ مِنَ الشَّخْصِيَّةِ الْمَرْكَزِيَّةِ إِلَى حَالَةٍ لِيمِينِيَّةٍ حَاسِمَةٍ. هَذَا الْفِعْلُ يَقْطَعُ الرِّبَاطَ الْمُبَاشِرَ بَيْنَ الْهُوِيَّةِ الْفِيزِيقِيَّةِ وَالتَّوَاتُرِ الْأَيْدِيُولُوجِيِّ، فَيَنْفَتِحُ الرَّحْبُ لِلْأَفْكَارِ كَيْ تَبْقَى دُونَ احْتِيَاجٍ لِحُضُورِ حَامِلِهَا الْفَرْدِيِّ. وَتَعْمَلُ نُقْطَةُ الْإِبِيفَانِيَا هُنَا فَصْلًا لِمَرْكَزِ الْمَعْنَى، حَيْثُ لَا تَعُودُ السُّلْطَةُ قَائِمَةً بِذَاتِ الْإِنْسَانِ، بَلْ تَنْتَقِلُ إِلَى بِنْيَةٍ تَجْرِيدِيَّةٍ أَكْثَرَ صَلَابَةً. وَيُؤَكِّدُ هَذَا الطَّوْرُ الِانْتِقَالَ مِنَ الْمَوْدُوسِ الشَّخْصِيِّ إِلَى الْمَوْدُوسِ الْبِنْيَوِيِّ، حَيْثُ تَعْمَلُ جَمَاعَةُ الدُّونْمَةِ جِهَازًا لِنَقْلِ الْأَرْكِيتَايْبِ الَّذِي يَحْرُسُ اسْتِمْرَارِيَّةَ الْفِكْرَةِ، وَإِنْ فَقَدَتِ الشَّخْصِيَّةُ الْمَرْكَزِيَّةُ سُلْطَتَهَا التَّارِيخِيَّةَ.

وَتُعَزِّزُ وَفَاةُ شَبْتَاي زِيفِي عَمَلِيَّةَ نُقْطَةِ الْإِبِيفَانِيَا بِوَصْفِهَا مِيكَانِيزْمَ تَجَلٍّ بَدَلًا مِنَ الْإِنْهَاءِ السَّرْدِيِّ. فَالْمَوْتُ لَا يُعَطِّلُ الْوَظِيفَةَ السَّرْدِيَّةَ، بَلْ يُحَوِّلُ مَوْدُوسَ وُجُودِ الْفِكْرَةِ مِنْ حَيِّزِ التَّارِيخِ إِلَى حَيِّزِ الرَّمْزِ السَّرْمَدِيِّ. وَإِنْ بَادَ الْحُضُورُ الْفِيزِيقِيُّ بِوَصْفِهِ ذَاتَ الْفِعْلِ، فَإِنَّ تَكْوِينَ الْفِكْرَةِ يَنْفَكُّ عَنِ ارْتِبَاطِهِ بِحَامِلِهِ الْفَرْدِيِّ. فَيَنْتَقِلُ مَرْكَزُ الثِّقَلِ السَّرْدِيِّ مِنْ جَسَدِ الشَّخْصِيَّةِ إِلَى الْبِنْيَةِ الْأَيْدِيُولُوجِيَّةِ الَّتِي تُعِيدُ الْجَمَاعَةُ إِنْتَاجَهَا. وَيُبْرِزُ هَذَا النَّمَطُ قَلْبًا رَادِيكَالِيًّا لِلْقِيَمِ إِذَا مَا قِيسَ بِنَمُوذَجِ الْبُطُولَةِ التَّقْلِيدِيِّ؛ فَلَا يُقَاسُ النَّجَاحُ بِتَوْطِيدِ السُّلْطَةِ الشَّخْصِيَّةِ، بَلْ

بِقُدْرَةِ الْفِكْرَةِ عَلَى الْبَقَاءِ بَعْدَ تَحَلُّلِ ذَاتِهَا التَّارِيخِيَّةِ. فَيَغْدُو النَّفْيُ وَالْفَشَلُ الْوُجُودِيُّ شَرْطَيْنِ ضَرُورِيَّيْنِ لِتَلِجَ الْفِكْرَةُ طَوْرَ الدَّيْمُومَةِ غَيْرِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي يَتَسَعُ مَدَاهَا كَثِيرًا.

إِنَّ عَمَلِيَّةَ نُقْطَةِ الْإِبِيفَانِيَا فِي هَذِهِ الْبَيَانَاتِ تَعْمَلُ مَبْدَأَ إِعَادَةِ تَنْظِيمٍ كُلِّيٍّ، يُزِيحُ التَّرْكِيزَ مِنَ الشَّخْصِيَّةِ إِلَى الشَّبَكَةِ، وَمِنَ الْحَدَثِ إِلَى الْبِنْيَةِ، وَمِنَ الْحَيَاةِ الْفَرْدِيَّةِ إِلَى الدَّيْمُومَةِ الرَّمْزِيَّةِ. وَلَا يَبْلُغُ مَسَارُ الشَّخْصِيَّةِ مَرْفَأَ النَّصْرِ الْفَرْدِيِّ، بَلْ بَلَغَ اسْتِقْرَارًا جَدِيدًا عَلَى الصَّعِيدِ الْأَيْدِيُولُوجِيِّ يُتِيحُ لِلْفِكْرَةِ أَنْ تَظَلَّ فَاعِلَةً مُتَجَاوِزَةً حُدُودَ حُضُورِهَا التَّارِيخِيِّ. فَوَظِيفَةُ نُقْطَةِ الْإِبِيفَانِيَا هُنَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ كَشْفِ الْمَعْنَى الْمَكْنُونِ، بَلْ تَحْوِيلُ وَسِيطِ دَيْمُومَةِ الْمَعْنَى مِنْ كَوْنِهِ مُرْتَبِطًا بِالْفَرْدِ إِلَى كَوْنِهِ فَاعِلًا نِظَامِيًّا فِي فَضَاءٍ سَرْدِيٍّ أَكْثَرَ شُمُولًا.

إِذَا مَا عَمَدْنَا إِلَى رَبْطِ دِرَاسَةِ نْجِينْج إِيرِيك سِيبْيِينْيُو (٢٠٢٣) بِمَا يَرِدُ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ حَوْلَ شَبْتَاي زِيفِي، فَسَيَجِدُ الْبَاحِثُ خَيْطًا نَاظِمًا مَتِينًا يَتَجَلَّى فِي كَيْفِيَّةِ تَوْظِيفِ الْأَرْكِيتَايْبِ وَالرُّمُوزِ لِتَطْوِيعِ النَّظْمِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ. فَبَيْنَمَا تَرْكُزُ إِشْكَالِيَّةُ دِرَاسَةِ سِيبْيِينْيُو عَلَى جُهُودِ الشَّاعِرِ فِي دَحْرِ الِاضْطِهَادِ بِاسْتِخْدَامِ الْمِيثُوسِ وَالرَّمْزِ، فَإِنَّ سَرْدِيَّةَ الرِّوَايَةِ فِي سِيَاقِ شَبْتَاي زِيفِي تَسْتَحْضِرُ هَذَا الْأَخِيرَ بِوَصْفِهِ رَمْزًا مُعَاكِسًا؛ رَمْزًا مُصَمَّمًا لِتَقْوِيضِ النِّظَامِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ مِنْ دَاخِلِهِ بِوَاسِطَةِ دُكْتُرِينِ الْخَلَاصِ بِالْخَطِيئَةِ الَّذِي يُشَوِّهُ الْقِيَمَ الرُّوحِيَّةَ.

وَعَبْرَ الْمَنْهَجِيَّةِ الْمُرْتَكِزَةِ عَلَى الْمِيثُوسِ وَالْأَرْكِيتَايْبِ، يَتَبَدَّى لَنَا زِيفِي لَا بِوَصْفِهِ شَخْصِيَّةً تَارِيخِيَّةً مَحْضَةً، بَلْ بِوَصْفِهِ أَرْكِيتَايْبَ الْبَيْدَقِ أَوْ عَمِيلَ الِاخْتِرَاقِ الَّذِي يُسَخِّرُ سِحْرَ الْقَبَالَا ذَلِكَ النِّظَامَ الصُّوفِيَّ الْقَدِيمَ لِتَحْرِيكِ الْمُؤَامَرَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ، عَلَى نَحْوٍ يُشْبِهُ تَوْظِيفَ لُوردَ لِلْأَرْكِيتَايْبِ الْأَفْرِيقِيِّ لِبِنَاءِ قُوَّةِ جَمَاعَتِهَا. وَتُؤَكِّدُ نَتَائِجُ دِرَاسَةِ سِيبْيِينْيُو أَنَّ الْأَرْكِيتَايْبَ قَابِلٌ لِلِاسْتِخْدَامِ فِي اسْتِرْدَادِ التَّارِيخِ وَتَشْكِيلِ الْهُوِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْآلِيَّةَ فِي بَيَانَاتِ بَحْثِكَ تَنْقَلِبُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ؛ إِذْ يَهْدِفُ اخْتِرَاقُ زِيفِي لِلْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ عَبْرَ حَرَكَةِ الدُّونْمَةِ إِلَى تَهْدِيمِ الْبِنْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ وَتَمْهِيدِ السَّبِيلِ لِلْأَجِنْدَةِ الصُّهْيُونِيَّةِ، مِمَّا يُبْرِزُ

مَدَى قُوَّةِ التَّأْثِيرِ الرَّمْزِيِّ فِي التَّلَاعُبِ بِتَارِيخِ الْأُمَمِ. وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ: إِذَا كَانَتْ دِرَاسَةُ سِيبْيِينْيُو تُبَيِّنُ أَنَّ اسْتِحْضَارَ الْأَرْكِيتَايْبِ قَدْ يَشْفِي الْخَوَاءَ الرُّوحِيَّ لِجَمَاعَةٍ مَّا، فَإِنَّ شَبْتَاي زِيفِي فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ يُمَثِّلُ اسْتِغْلَالًا ذَلِكَ الْخَوَاءِ عَبْرَ مُؤَامَرَةٍ مُهَيْكَلَةٍ؛ وَكِلَاهُمَا يُؤَكِّدُ أَنَّ مَنْ يَمْلِكُ زِمَامَ السَّرْدِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ وَالْأَرْكِيتَايْبِ فِي حَضَارَةٍ مَّا، فَهُوَ يَمْلِكُ الْمِفْتَاحَ الْحَقِيقِيَّ لِتَغْيِيرِ مَسَارِ تَارِيخِ الْعَالَمِ.

تَتَجَلَّى الْخُلَاصَةُ الَّتِي أَرْسَاهَا البَاحِثُ فِي أَنَّ لَيْسَ ثَمَّةَ بَطَلٍ أَوْ نِظَامٍ عِمْرَانِيٍّ يَتَمَتَّعُ بِصِفَةِ الْخُلُودِ. فَأَيُّمَا ارْتِقَاءٍ بَلَغَتْهُ ذُرْوَةُ المِجْدِ، يَبْقَى فِيهِ مَكْنُونُ إِمْكَانِيَّةِ الِانْحِدَارِ. وَفِي مَنْظُورِ نُورْثْرُوب فْرَاي، يَحْتَلُّ الْبَطَلُ رُتْبَةً أَرْفَعَ بِمَا يَحُوزُهُ مِنْ سُلْطَةٍ وَتَأْثِيرٍ، لَكِنَّهُ يَبْقَى مَرْبُوطًا بِحُدُودِ بَشَرِيَّتِهِ الضَّيِّقَةِ. فَغَالِبًا مَا يَتَمَاسُّ مُنْتَهَى النَّجَاحِ مَعَ مُبْتَدَأِ السُّقُوطِ، إِذْ تُوَلِّدُ نَشْوَةُ الْإِنْجَازِ طُمَأْنِينَةً مُفْرِطَةً تُعَمِّي الْبَصِيرَةَ الْجَمْعِيَّةَ عَنِ الْحَذَرِ.

إِنَّ تَهَاوِيَ الْعِمْرَانِ لَا يَنْبَعُ عَادَةً مِنْ ضَعْفٍ جَوْهَرِيٍّ، بَلْ هُوَ تَجَلٍّ لِحَالَةِ الْغُرُورِ الْأَسْطُورِيِّ أَوْ الِاعْتِقَادِ الْمُتَجَبِّرِ بِأَنَّ الْقُدْرَةَ الْقَائِمَةَ قَدْ بَلَغَتْ مَبْلَغَ الْكِفَايَةِ لِقَهْرِ كُلِّ تَحَدٍّ. فَحِينَ يَبْدَأُ النِّظَامُ فِي تَمَوْضُعِ ذَاتِهِ مَرْكَزًا لِلْحَقِّ الْمُطْلَقِ، وَيَنْظُرُ إِلَى مُنْجَزَاتِهِ كِيَانًا لَا يَعْتَرِيهِ الِاسْتِبْدَالُ، تَنْبُتُ حِينَئِذٍ بَذْرَةُ التَّفَكُّكِ فِي صَمِيمِ الْجَسَدِ ذَاتِهِ. وَلَيْسَ الْمَعْنَى الْأَعْمَقُ لِنُقْطَةِ الْإِبِيفَانِيَا مُجَرَّدَ الِاعْتِرَافِ بِالْخَطَايَا الْمَاضِيَةِ، بَلْ هُوَ انْبِثَاقُ وَعْيٍ حَاسِمٍ بِالْقُيُودِ الْوُجُودِيَّةِ الَّتِي طَالَمَا نَاهَا التَّجَاهُلُ. وَدُونَ رُكُونٍ إِلَى التَّوَاضُعِ وَتَقَالِيدِ النَّقْدِ الذَّاتِيِّ الْمُسْتَمِرِّ، يُصْبِحُ رَوْعُ الْعِمْرَانِ وَهَاؤُهُ أَحَدَ أَخْطَرِ الْمُتَغَيِّرَاتِ فِي جَدَلِيَّةِ تَارِيخِ الْإِنْسَانِ.

وَقَدْ وَقَفَ هَذَا الْبَحْثُ عَلَى نَمَطٍ يُؤَكِّدُ أَنَّ تَدَخُّلَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ لَا يَسْتَهْدِفُ الْجَمَاعَاتِ الضَّعِيفَةَ، بَلْ يَتَوَخَّى بِدِقَّةٍ الْعِمْرَانَ الْوَاقِعَ فِي ذُرْوَةِ اعْتِزَازِهِ بِنَفْسِهِ. فَيَتَنَامَى هَذَا التَّأْثِيرُ مَعَ صُعُودِ نُزُوعِ الْإِنْسَانِ لِتَصَوُّرِ النَّجَاحِ نَتِيجَةً خَالِصَةً لِكَفَاءَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ. فَيَتَآكَلُ تَبَعًا لِذَلِكَ الْوَعْيُ بِالْقِيَمِ الْمُتَعَالِيَةِ وَالْحِذْرُ مِنَ الِانْحِرَافِ، مِمَّا يَجْعَلُ النِّظَامَ أَكْثَرَ قَابِلِيَّةً لِتَوَغُّلِ التَّلَاعُبِ الَّذِي كَانَ سَابِقًا بَيِّنَ الْكَشْفِ. هَذِهِ الصَّيْرُورَةُ لَا

تَتِمُّ مُواطَنَةً بِصُورَةٍ جَهْرِيَّةٍ، بَلْ عَبْرَ نَحْرٍ خَفِيٍّ يَجْعَلُ أَسَاسَاتِ الْمُجْتَمَعِ هَشَّةً دُونَ إِدْرَاكٍ مِنْهُ.

تُمَثِّلُ وَظِيفَةُ نُقْطَةِ الْإِبِيفَانِيَا فِي السَّرْدِ الرِّوَائِيِّ وَعْيًا تَارِيخِيًّا جَمْعِيًّا بِمَصَادِرِ الْعَطَبِ الَّتِي كَانَتْ مُحْتَجِبَةً خَلْفَ قِنَاعِ الْفَلَاحِ. فَيَسْتَوْعِبُ الْمُجْتَمَعُ أَخِيرًا أَنَّ التَّهْدِيدَ الْأَكْثَرَ تَرْوِيعًا لَا يَرِدُ مِنْ قُوًى خَارِجِيَّةٍ تُهَاجِمُ مِنَ الْبَعِيدِ، بَلْ يَنْشَأُ مِنْ رُوحِ الِاسْتِعْلَاءِ وَالْخُيَلَاءِ وَالِاعْتِقَادِ بِأَنَّ مَا بَنَوْهُ قَدْ بَلَغَ مَنْزِلَةَ الْكَمَالِ. وَتَحْضُرُ هَذِهِ اللَّحْظَةُ الْإِشْرَاقِيَّةُ حِينَ تَنْتَظِمُ سِلْسِلَةُ أَعْرَاضِ الْعَطَبِ الَّتِي اسْتُصْغِرَتْ أَوَّلًا فِي تَكْوِينٍ نَمَطِيٍّ كُلِّيٍّ لَا يَمْلِكُ الْمَرْءُ إِنْكَارَهُ.

وَتَتَحَرَّكُ وُجْهَةُ تَدَخُّلِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ عَبْرَ اسْتِغْلَالِ حَالَةِ الْغُرُورِ الْأَسْطُورِيِّ لِعِمْرَانٍ يَتَمَازَجُ فِيهِ السُّكْرُ بِالتَّقَدُّمِ. وَفِي أُفُقِ الْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَكْتَنِفُ الرِّوَايَةَ، لَا تَأْتِي الْفِتْنَةُ الْعُظْمَى دَوْمًا عَبْرَ مُوَاجَهَةٍ مُعْلَنَةٍ، بَلْ تَقُومُ عَلَى مَقْدِرَةِ تَهْيِئَةِ الْإِنْسَانِ لِيَكْتَفِيَ بِذَاتِهِ حَتَّى يَضِلَّ عَنْ إِدْرَاكِ حُدُودِهِ. فَتَغْدُو نُقْطَةُ الْإِبِيفَانِيَا رَمْزًا لِكَشْفِ حِجَابِ الْوَهْمِ، حِينَ يَبْدَأُ الْإِنْسَانُ فِي تَبَيُّنِ حَقِيقَةِ الْخَطَرِ الَّذِي يَنْمُو فِي ظِلِّ الْبَهَاءِ الَّذِي طَالَمَا افْتَخَرُوا بِهِ. إِنَّ التَّحَدِّيَ الْأَشَدَّ فَتْكًا فِي سَيْرُورَةِ التَّارِيخِ لَيْسَ فِي الْفَقْرِ أَوِ الْعَجْزِ، بَلْ فِي النَّجَاحِ الْمُوَلِّدِ لِلْخُيَلَاءِ؛ إِذْ عِنْدَ تِلْكَ النُّقْطَةِ، يَصِيرُ الْمُجْتَمَعُ أَعْرَضَ مَجَالٍ لِتَوَغُّلِ أَنْمَاطِ التَّدَخُّلِ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى طَمْسِ الْوَعْيِ وَتَرْسِيخِ وَهْمِ التَّفَوُّقِ.

مَرْحَلَةُ حَيَاةِ الْبَطَلِ

١) مَرْحَلَةُ مَوْلِدِ الْبَطَلِ الْغَامِضِ

تُسَيْطِرُ عَلَى بِدَايَةِ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنْ مَرْحَلَةِ حَيَاةِ الْبَطَلِ شَخْصِيَّةُ الْوَالِدَيْنِ اللَّذَيْنِ لَهُمَا مَكَانَةٌ خَاصَّةٌ. وَعِنْدَ نُورْثْرُوب فْرَاي، يُولَدُ الْبَطَلُ بِدُونِ وَالِدَيْهِ الْأَصْلِيَّيْنِ، وَيَتَرَبَّى فِي كَنَفِ وَالِدَيْنِ غَيْرِ حَقِيقِيَّيْنِ. وَسَيَضَعُ الْبَاحِثُ تَفْسِيرَ ذَلِكَ بَعْدَ عَرْضِ الْبَيَانَاتِ.

(٢٠)كانت الأندلس هي البقعة الوحيدة على ظهر الأرض التي ترحب بالجميع.. كانت الملاذ الآمن لكل مطرود وكل خائف.. في الوقت الذي كانت فيه

أوروبا تغرق في ظلام الجهل والحقد وتطرد اليهود من كل مكان، كانت الأندلس تفتح ذراعيها لهم.. يعيشون فيها بسلام، يمارسون طقوسهم بحرية، ويبنون مع المسلمين حضارة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. (ص١٨١)

تُبَيِّنُ الْبَيَانَاتُ فِي الْعِشْرِينَ مَرْحَلَةَ طَرْدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ أُورُوبَّا، ثُمَّ رِعَايَتَهُمْ تَحْتَ حُكْمِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ. وَيَتَمَثَّلُ سِيَاقُ النَّصِّ الْمَذْكُورِ أَدْنَاهُ فِي حِقْبَةٍ كَانَ فِيهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ فِئَةً أَقَلَّوِيَّةً وَسَطَ نِظَامٍ اجْتِمَاعِيٍّ أُورُوبِّيٍّ يَعِيشُ حَالَةً مِنَ التَّدَهْوُرِ، حَيْثُ كَانَتِ الْأَغْلَبِيَّةُ تَعْتَقِدُ بِالْخُرَافَاتِ. وَمَعَ تَفَشِّي وَبَاءِ الْمَوْتِ الْأَسْوَدِ، وُجِّهَتْ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ اتِّهَامَاتٌ بِأَنَّهُمْ سَبَبُ هَذِهِ الْجَائِحَةِ، فَأُطْلِقَتْ عَلَيْهِمُ الْمُطَارَدَاتُ وَارْتُكِبَتْ فِي حَقِّهِمْ مَجَازِرُ دَامِيَةٌ فِي أُورُوبَّا. وَعَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ، تَغَيَّرَ هَذَا الْمَوْقِفُ كُلِّيًّا حِينَ هَاجَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، الَّتِي كَانَتْ تَخْضَعُ آنَذَاكَ لِحُكْمِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ.

تَعْمَلُ نَمَطِيَّةُ مَوْلِدِ الْبَطَلِ فِي إِطَارِ فِكْرِ نُورْثْرُوب فْرَاي مِيكَانِيزْمًا لِتَشَكُّلِ الْهُوِيَّةِ، يَقُومُ عَلَى رَوَابِطَ بِنْيَوِيَّةٍ بَيْنَ الِاغْتِرَابِ، وَفَضَاءِ الْحِمَايَةِ، وَإِعَادَةِ هَيْكَلَةِ التَّجْرِبَةِ الْجَمْعِيَّةِ. فَلَا يُسَلِّطُ هَذَا التَّحْلِيلُ الضَّوْءَ عَلَى حَدَثِ الْمَوْلِدِ الْبِيُولُوجِيِّ بِوَصْفِهِ فِعْلًا فَرْدِيًّا، بَلْ يَعْمِدُ إِلَى تَشْرِيحِ إِنْتَاجِ الْوَعْيِ الْجَمْعِيِّ النَّاشِئِ عَنْ إِزَاحَةِ الْمَوْقِعِ الِاجْتِمَاعِيِّ جَرَّاءَ الضُّغُوطِ الْخَارِجِيَّةِ وَوُجُودِ فَضَاءٍ تَكَافُلِيٍّ. وَفِي هَذَا التَّكْوِينِ، يُصْبِحُ دَوْرُ الْوَالِدَيْنِ الْأَصْلِيَّيْنِ وَالْوَالِدَيْنِ الزَّائِفَيْنِ جِهَازًا بِنْيَوِيًّا يُمَثِّلُ مَوْدُوسَيْنِ لِلْعَلَاقَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ: طَرَفٌ يَدْعَمُ دَيْمُومَةَ الْحَيَاةِ، وَآخَرُ يُؤَجِّجُ الِانْفِصَالَ وَالِاقْتِلَاعَ الْقَسْرِيَّ مِنَ الرَّحِمِ الْأَصْلِيِّ.

وَتُؤَدِّي أُورُوبَّا دَوْرَ الْوَالِدَيْنِ الزَّائِفَيْنِ عَبْرَ مِيكَانِيزْمِ الِاسْتِبْعَادِ الْمُؤَسَّسَاتِيِّ. فَلَمْ يَكُنْ رَفْضُ الْجَمَاعَةِ الْيَهُودِيَّةِ حَدَثًا عَرَضِيًّا، بَلْ نَمَطًا مِنَ الْعَلَاقَاتِ يُعَادُ إِنْتَاجُهُ دَوْمًا بِوَاسِطَةِ التَّمْيِيزِ الْمُؤَسَّسَاتِيِّ، وَتَقْيِيدِ الْوُصُولِ، وَخِطَابٍ يُشَرْعِنُ مَوْقِعَ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ بِوَصْفِهَا كِيَانًا غَرِيبًا. وَيَتَجَاوَزُ هَذَا الْإِجْرَاءُ حُدُودَ الْفِعْلِ الْفِيزِيقِيِّ، لِيَمْتَدَّ إِلَى صِيَاغَةِ الْمَعْنَى الِاجْتِمَاعِيِّ حِينَ تُصَنَّفُ هُوِيَّةُ الْجَمَاعَةِ الْمُهَمَّشَةِ دَائِمًا بِوَصْفِهَا عُنْصُرًا غَيْرَ مَشْرُوعٍ فِي النِّظَامِ السَّائِدِ.

وَعَلَيْهِ، لَا تَكُونُ أُورُوبَّا مُجَرَّدَ إِحْدَاثِيَّةٍ جُغْرَافِيَّةٍ، بَلْ بِنْيَةَ رَفْضٍ تَضَعُ بَذْرَةَ الِاغْتِرَابِ أَسَاسًا أَوَّلِيًّا لِتَشَكُّلِ هُوِيَّةٍ جَمْعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

وَفِي الْمُقَابِلِ، تَتَجَلَّى الْأَنْدَلُسُ بِوَصْفِهَا بِنْيَةً حِمَائِيَّةً تُقَدِّمُ اسْتِقْرَارًا مُؤَقَّتًا لِلْهُوِيَّةِ الْمُهَدَّدَةِ. فَلَا تَتَّسِمُ وَظِيفَةُ هَذَا الْفَضَاءِ بِالتَّنَاغُمِ الطُّوبَاوِيِّ، بَلْ تَعْمَلُ مِنْطَقَةَ تَكَافُلٍ تَكْسِرُ حِدَّةَ الضُّغُوطِ الْخَارِجِيَّةِ لِتَيْسِيرِ اسْتِمْرَارِيَّةِ الْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ. وَفِي مَنْطِقِ الْأَرْكِيتَايْبِ، لَا يَعُدُّ هَذَا الْفَضَاءُ غَايَةً نِهَائِيَّةً أَوْ مَرْفَأً سَرْمَدِيًّا، بَلْ مَرْحَلَةً انْتِقَالِيَّةً تَضْمَنُ الْحَدَّ الْأَدْنَى لِتَوْطِيدِ الْهُوِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَعُودَ الذَّاتُ لِمُوَاجَهَةِ مَيْدَانِ الصِّرَاعِ التَّالِي. وَيَظَلُّ الِاسْتِقْرَارُ الَّذِي تُوَفِّرُهُ الْأَنْدَلُسُ مَحْمُولًا عَلَى إِمْكَانِيَّةِ اضْطِرَابٍ كَامِنَةٍ؛ إِذْ تُدْرِجُ الْبِنْيَةُ السَّرْدِيَّةُ دَوْمًا ثَغَرَاتٍ هَشَّةً تُعِيدُ تَنْشِيطَ دَوْرَةِ الِاغْتِرَابِ.

إِنَّ الْأَنْدَلُسَ فَاصِلٌ بِنْيَوِيٌّ يَسْمَحُ بِتَرَاكُمِ الْهُوِيَّةِ قَبْلَ أَنْ تَخْضَعَ لِامْتِحَانٍ جَدِيدٍ بِفِعْلِ صَيْرُورَةِ التَّارِيخِ. وَيُكَوِّنُ التَّفَاعُلُ بَيْنَ أُورُوبَّا وَالْأَنْدَلُسِ مِيكَانِيزْمًا جَدَلِيًّا يُوَلِّدُ الْهُوِيَّةَ الْجَمْعِيَّةَ، حَيْثُ يَلْعَبُ الِاغْتِرَابُ مِنَ الْقَارَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ دَوْرَ الْقَاطِعِ لِلرَّوَابِطِ بِالنِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ الْأَوَّلِ، بَيْنَمَا تَصِيرُ حِمَايَةُ الْأَنْدَلُسِ وَسِيطًا لِإِعَادَةِ بِنَاءِ الْهُوِيَّةِ فِي تَكْوِينٍ أَكْثَرَ رُسُوخًا. وَلَا تَبْزُغُ الْهُوِيَّةُ مِنْ عَزْلَةِ أَحَدِ الْقُطْبَيْنِ، بَلْ مِنَ التَّوَتُّرِ الْبِنْيَوِيِّ الْمُتَأَجِّجِ بَيْنَهُمَا. فَلَا يَتَحَدَّدُ مَوْلِدُ الْبَطَلِ فِي هَذَا الْمُخَطَّطِ بِاسْتِمْرَارِيَّةِ التَّارِيخِ السَّلِسَةِ، بَلْ بِفِعْلِ الِانْقِطَاعِ وَإِعَادَةِ التَّشْكِيلِ لِلْمَوْقِعِ الِاجْتِمَاعِيِّ فِي فَضَاءَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ.

وَتَتَجَلَّى أَهَمِّيَّةُ هَذِهِ الْبَيَانَاتِ فِي كَيْفِيَّةِ عَمَلِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْقُطْبَيْنِ عَلَى تَسْرِيعِ تَحَوُّلِ الْهُوِيَّةِ. فَتُؤَدِّي أُورُوبَّا وَظِيفَةَ التَّفْرِيقِ الَّتِي تُوجِبُ الِانْفِصَالَ عَنِ الرَّحِمِ الْأَصْلِيِّ، بَيْنَمَا تُقَدِّمُ الْأَنْدَلُسُ وَظِيفَةَ إِعَادَةِ الْهَيْكَلَةِ الَّتِي تُمَكِّنُ الْهُوِيَّةَ الْجَمْعِيَّةَ مِنَ التَّشَكُّلِ مُجَدَّدًا فِي ظُرُوفٍ أَكْثَرَ انْتِظَامًا. وَيُؤَكِّدُ هَذَا النَّمَطُ الْأَرْكِيتَايْبِيُّ أَنَّ الْهُوِيَّةَ الْجَمْعِيَّةَ لَيْسَتْ كِيَانًا سَاكِنًا قَائِمًا مُنْذُ الْبَدْءِ، بَلْ هِيَ نَتِيجَةُ عَمَلِ بِنْيَةٍ تُدِيرُ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الرَّفْضِ وَالْحِمَايَةِ. فَلَا تَنْطَلِقُ رِحْلَةُ الْبَطَلِ مِنْ

ظَرْفٍ مِثَالِيٍّ رَاسِخٍ، بَلْ مِنْ حَالَةِ انْقِطَاعٍ تُعَالِجُهَا الْفَضَاءَاتُ التَّكَافُلِيَّةُ لِتُصَيِّرَهَا شَكْلًا جَدِيدًا لِلْهُوِيَّةِ ضِمْنَ نِظَامِ تَحَوُّلٍ مُسْتَدَامٍ.

إِنَّ قِصَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ نُفُوا مِنْ أُورُوبَّا وَوَجَدُوا الْحِمَايَةَ تَحْتَ ظِلِّ حُكْمِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ تَمْتَلِكُ ارْتِبَاطًا أَرْكِيتَايْبِيًّا وَثِيقًا بِدِرَاسَةِ أُونِيشُوارَا (٢٠٢٥) حَوْلَ شَخْصِيَّةِ أَسْتِيرَ. وَفِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ، عَمَدَ أُونِيشُوارَا إِلَى تَوَظِيفِ مَنْهَجِ فِيلُولُوجِيَا مُقَارَنَةٍ لِتَشْرِيحِ نَمَطِ الْبَطَلِ الْمَحْجُوبِ عَبْرَ الدِّرَاسَةِ الْمَكْتَبِيَّةِ لِسِفْرِ أَسْتِيرَ وَالْمِيثُولُوجِيَا الْمِيزُوبُوتَامِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، كَقِصَّةِ الْمَلِكِ سَرْجُون. وَتُفْضِي نَتَائِجُ بَحْثِهِ إِلَى أَنَّ نَمَطَ الْبَطَلِ الْوَاعِدِ الَّذِي يَنْشَأُ فِي بِيئَةِ الْعَدُوِّ، كَحَالَةِ أَسْتِيرَ الَّتِي بَلَغَتْ مَرْتَبَةَ الْمَلِكَةِ فِي قَلْبِ الْبَلَاطِ الْفَارِسِيِّ، هُوَ نَمَطٌ أَرْكِيتَايْبِيٌّ مَعْيَارِيٌّ فِي التَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ. وَتُؤَكِّدُ خُلَاصَةُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ أَنَّ التَّوَاجُدَ فِي بِلَادٍ مُعَادِيَةٍ يُمَثِّلُ بِحَقِّ مِحْرَابَ صَقْلٍ لِلْبَطَلِ كَيْ يَنْهَضَ وَيُحْدِثَ التَّغْيِيرَ.

وَإِذَا مَا رَبَطْنَا هَذَا بِتَارِيخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حِينَ كَانُوا فِئَةً أَقَلَّوِيَّةً مُضْطَهَدَةً يَرْمِيهِمُ الْمُجْتَمَعُ الْأُورُوبِّيُّ –الَّذِي كَانَ مَا يَزَالُ أَسِيرَ الْخُرَافَاتِ بِأَنَّهُمْ سَبَبُ وَبَاءِ الْمَوْتِ الْأَسْوَدِ، فَإِنَّ هِجْرَتَهُمْ إِلَى الْأَنْدَلُسِ تَحْتَ لِوَاءِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ تَعْكِسُ تَحَوُّلًا مَشُوبًا بِذَاتِ الْمَصِيرِ. فَهَا هِيَ الْأَنْدَلُسُ تَضْطَلِعُ بِدَوْرِ الْبَلَاطِ فِي قِصَّةِ أَسْتِيرَ؛ فَهِيَ فَضَاءٌ آمِنٌ مَكَّنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَنْ يَنْخَلِعُوا عَنْ حَالَةِ الِاخْتِفَاءِ أَوِ الْمُطَارَدَةِ، بَلْ أَتَاحَ لَهُمْ مَسَاحَةً لِلْحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ بِمَكَانَةٍ تَتَمَتَّعُ بِكَرَامَةٍ مُتَسَاوِيَةٍ.

وَبِذَلِكَ، تُعَدُّ هَذِهِ الْهِجْرَةُ التَّارِيخِيَّةُ تَجَسُّدًا صَرِيحًا لِأَرْكِيتَايْبِ الْبَطَلِ الْمَحْجُوبِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنِ التَّدَهْوُرُ وَالطَّرْدُ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي تُعَادِيهِمْ إِلَّا مَرْحَلَةً أَوَّلِيَّةً نَحْوَ مُسْتَقْبَلٍ أَكْثَرَ ضِيَاءً تَحْتَ حِمَايَةِ عِمْرَانٍ أَكْثَرَ شُمُولِيَّةً، مِمَّا يُبْرْهِنُ عَلَى أَنَّ تَارِيخَ الْإِنْسَانِ يَتْبَعُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ نَمَطًا سَرْدِيًّا خُطَّتْ مَعَالِمُهُ مُنْذُ الْعُصُورِ الْغَابِرَةِ.

إِنَّ مَوْلِدَ الْبَطَلِ، إِذَا مَا نَظَرْنَا إِلَيْهِ فِي ضَوْءِ فِكْرِ نُورْثْرُوب فْرَاي، لَيْسَ فِي حَقِيقَتِهِ مَسْأَلَةَ نَسَبٍ أَوْ جَاهٍ بَرَّاقٍ. فَإِنَّمَا يُولَدُ الْبَطَلُ مِنْ وَعْيٍ تَصْقُلُهُ قَسَاوَةُ التَّجَارِبِ، مِمَّا يَمْنَحُهُ

الْقُدْرَةَ عَلَى رُؤْيَةِ خَلَلِ الْوَاقِعِ الَّذِي يَغِيبُ عَنْ أَبْصَارِ الْكَثِيرِينَ. وَلِذَا، كَثِيرًا مَا يَنْبَثِقُ رُمُوزُ التَّغْيِيرِ مِنْ زَوَايَا غَيْرِ مُتَوَقَّعَةٍ، وَمِنْ أَمَاكِنَ ظَلَّتْ فِي عَيْنِ التَّيَّارِ السَّائِدِ مَنْسِيَّةً. وَفِي دَوْرَانِ التَّارِيخِ، تَبْدَأُ النَّهْضَةُ دَوْمًا مِنْ شَجَاعَةِ نَفَرٍ قَلِيلٍ يَجْرُؤُونَ عَلَى طَرْحِ رُؤْيَةٍ جَدِيدَةٍ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَفْقِدُ فِيهَا النِّظَامُ الْقَائِمُ رُكْنَهُ الْأَخْلَاقِيَّ وَهُوِيَّتَهُ. وَفِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ، نُبْصِرُ أَنَّ عَجَلَةَ التَّارِيخِ لَا تَدُورُ حَصْرًا بِمُرَادِ مَرْكَزِ السُّلْطَةِ؛ بَلْ إِنَّ التَّغْيِيرَ يَتَسَرَّبُ رُوَيْدًا مِنْ أَطْرَافِ الْهَامِشِ، مِنْ جَمَاعَاتٍ مَا زَالَتْ تَحْرُسُ أَصَالَةَ الْقِيَمِ فِي حُضْنِ بِنْيَةٍ فَاسِدَةٍ. فَلَيْسَ انْبِعَاثُ الْعِمْرَانِ هُنَا مُتَعَلِّقًا بِمَدَى بَأْسِ الْجَيْشِ أَوْ ثَرَاءِ الْاِقْتِصَادِ، بَلْ بِمَدَى تَحَوُّلِ الْوَعْيِ الْفَرْدِيِّ الَّذِي يَتَجَسَّدُ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ قُوَّةً جَمْعِيَّةً لَا تُلِينُ.

وَتَكْمُنُ فَرَادَةُ هَذَا الْبَحْثِ فِي كَيْفِيَّةِ جَمْعِ الرِّوَايَةِ بَيْنَ نَمَطِ الْأَزْكِيتَايْبِ عِنْدَ فْرَايِ وَالْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ بِسَلَاسَةٍ. فَقَدْ جِيءَ بِالْأَبْطَالِ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ فِي أَوْقَاتِ الْأَزَمَاتِ لِيَكُونُوا كِفَّةَ مُوَازَنَةٍ لِمَسَاعِي الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ الْمُنْهَمِكِ فِي تَسْمِيمِ الْعُقُولِ وَطَمْسِ الْحُدُودِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. فَلَيْسُوا مُجَرَّدَ مُحَرِّكَاتٍ لِلْقِصَّةِ، بَلْ هُمْ رُمُوزُ مُقَاوَمَةٍ تَحُولُ دُونَ انْزِلَاقِ التَّارِيخِ انْزِلَاقًا كُلِّيًّا نَحْوَ الْخَرَابِ الْمُهَنْدَسِ بِإِحْكَامٍ. وَفِي الْمَآلِ، يُعَدُّ انْبِعَاثُ الْبَطَلِ وَالْعِمْرَانِ نَفَسًا وَاحِدًا فِي رُوحِ نِضَالِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ. فَكُلَّمَا اشْتَدَّتْ غَارَاتُ النِّظَامِ السَّاعِي لِتَقْوِيضِ الْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ، تَعَاظَمَتْ ضَرُورَةُ حُضُورِ الْأَفْرَادِ الْقَادِرِينَ عَلَى بَعْثِ الْوَعْيِ الْمُشْتَرَكِ. إِنَّ الْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةَ فِي هَذَا السَّرْدِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ إِرْهَاصَاتٍ لِآخِرِ الزَّمَانِ، بَلْ هِيَ صَيْرُورَةٌ مُمْتَدَّةٌ تَنْطَوِي عَلَى جِلَادٍ يَوْمِيٍّ بَيْنَ الْمُسْتَمْسِكِينَ بِقِيَمِ الْأُلُوهِيَّةِ وَبَيْنَ السَّاعِينَ لِإِبْعَادِ الْإِنْسَانِ عَنْ فِطْرَتِهِ. وَلَقَدْ أَضْحَتْ شَخْصِيَّةُ الْبَطَلِ الْوَلِيدَةِ فِي قَلْبِ الْعَاصِفَةِ بُرْهَانًا عَلَى أَنَّهُ مَا دَامَ لِلْعِمْرَانِ ضَمِيرٌ، فَإِنَّ كُلَّ مَرْحَلَةِ نُكُوصٍ سَتُبْقِي دَوْمًا فُرْصَةً لِلْوُقُوفِ مِنْ جَدِيدٍ.

٢) الرُّومَانْسِيَّةُ الرَّعَوِيَّةُ

تُمَثِّلُ مَرْحَلَةُ الرُّومَانْسِيَّةِ الرَّعَوِيَّةِ تَمَثُّلًا لِحَالَةِ عَدَمِ الِاسْتِقْرَارِ الَّتِي يَجْتَازُهَا الْبَطَلُ قُبَيْلَ دُخُولِهِ مَرْحَلَةَ السَّوِيَّةِ، حَيْثُ تَسُودُ الْأُلْفَةُ بَيْنَ الْأَبْطَالِ. وَفِي هَذِهِ الْحِقْبَةِ، لَا يَزَالُ الْبَطَلُ مَرْبُوطًا بِظِلِّ شَخْصِيَّةِ الْوَالِدَيْنِ، وَهُوَ مُحَاطٌ بِأَقْرَانِهِ. وَالسِّيَاقُ الَّذِي يَرِدُ ضِمْنَهُ النَّصُّ الْمَذْكُورُ أَدْنَاهُ هُوَ ذَاتُ السِّيَاقِ الَّذِي بَسَطَ الْبَاحِثُ الْقَوْلَ فِيهِ آنِفًا.

(٢١) كانت الأندلس هي البقعة الوحيدة على ظهر الأرض التي ترحب بالجميع.. كانت الملاذ الآمن لكل مطرود وكل خائف.. في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تغرق في ظلام الجهل والحقد وتطرد اليهود من كل مكان، كانت الأندلس تفتح ذراعيها لهم.. يعيشون فيها بسلام، يمارسون طقوسهم بحرية، ويبنون مع المسلمين حضارة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. (ص١٨١)

تُبَيِّنُ الْبَيَانَاتُ فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ قِصَّةَ بِدَايَاتِ الْعِمْرَانِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْأَنْدَلُسِ، حَيْثُ اسْتَقْبَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِسَعَةِ صَدْرٍ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا فِي تِلْكَ الْحِقْبَةِ مُطَارَدِينَ مِنْ قِبَلِ شَتَّى الْأَمْصَارِ فِي أُورُوبَّا. لَقَدْ لَاذَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالْأَنْدَلُسِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ سِوَى الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ مِمَّنْ قَبِلُوهُمْ بِأَيْدٍ مَبْسُوطَةٍ. وَتَحْتَ رَايَةِ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ، تَحَقَّقَ التَّنَاغُمُ حَيْثُ عَاشَتْ جَمِيعُ الطَّوَائِفِ فِي جِوَارٍ آمِنٍ، يُؤَدُّونَ شَعَائِرَهُمْ بِحُرِّيَّةٍ تَامَّةٍ، وَيُشَيِّدُونَ عِمْرَانًا حَافِلًا بِعُلُومِ الْمَعْرِفَةِ الْجَلِيلَةِ.

لَا تُعَدُّ الْأَنْدَلُسُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ مُجَرَّدَ خَلْفِيَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ، بَلْ هِيَ فَضَاءٌ أَرْكِيتَايْبِيٌّ يُمَثِّلُ النِّظَامَ الْمُتَنَاغِمَ قَبْلَ وُفُودِ عَاصِفَةِ الِاضْطِرَابِ. فَهِيَ تَعْمَلُ بِنْيَةً تَكَافُلِيَّةً تُحَافِظُ عَلَى اسْتِقْرَارِ النَّسِيجِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَالثَّقَافِيِّ، وَتَغْدُو مَرْكَزًا تَتَجَذَّرُ فِيهِ الْهُوِيَّةُ الْجَمْعِيَّةُ بِرُسُوخٍ. إِلَّا أَنَّ هَذَا الْاِسْتِقْرَارَ لَا يَتَّسِمُ بِالْخُلُودِ وَلَا يَمْتَلِعُ عَنِ التَّحَوُّلِ. فَفِي مَنْطِقِ الْأَرْكِيتَايْبِ لَدَى نُورْثْرُوب فْرَاي، يَكْمُنُ فِي صَمِيمِ كُلِّ نِظَامٍ رَاسِخٍ بِذْرَةُ التَّصَدُّعِ فِي جَوْهَرِ دِينَامِيَّتِهِ. وَلَمْ تَنْطَلِقْ مَلْحَمَةُ سُقُوطِ الْأَنْدَلُسِ فِي هَذَا السَّرْدِ مِنْ عُدْوَانِ الْأَعْدَاءِ خَارِجَ الْأَسْوَارِ، بَلْ مِنْ تَآكُلِ النِّظَامِ مِنْ دَاخِلِهِ، كَتَنَافُسِ النُّخَبِ غَيْرِ الْمَشْرُوعِ، وَالتِّسَابُقِ عَلَى النُّفُوذِ، وَانْدِثَارِ رُوحِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي

كَانَتْ قَوَامَ الْأَسَاسِ. فَلَيْسَ الْفَنَاءُ عَامِلًا خَارِجِيًّا، بَلْ هُوَ نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ لِتَلَاشِي النَّزَاهَةِ ضِمْنَ جَسَدِ النِّظَامِ ذَاتِهِ.

فِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى، تُمَثِّلُ الْأَنْدَلُسُ مَا يُسَمِّيهِ فْرَايْ مَوْدُوسَ الْبَرَاءَةِ؛ وَهِيَ حَالَةٌ يَمْضِي فِيهَا النِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ بِمُعَدَّلِ انْتِظَامٍ يَبْدُو طَبِيعِيًّا لَا يَقْبَلُ التَّشْكِيكَ. وَلِلْأَسَفِ، لَا تَصْمُدُ هَذِهِ الْحَالَةُ أَبَدًا لِوُجُودِ مِيكَانِيزْمَاتٍ دَاخِلِيَّةٍ تَدْفَعُهَا بَصِيرَةً نَحْوَ مَوْدُوسِ التَّجْرِبَةِ الْأَكْثَرَ تَعْقِيدًا. وَيَتَجَلَّى هَذَا التَّحَوُّلُ حِينَ تَغْلِبُ الْمَصَالِحُ الذَّاتِيَّةُ وَالطُّمُوحَاتُ السِّيَاسِيَّةُ عَلَى الرُّوحِ الْجَمْعِيَّةِ، فَيَضْطَرِبُ التَّوَازُنُ الَّذِي كَانَ مَصُونًا. وَتُهْدَرُ الطَّاقَةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ –الَّتِي وَجَبَ أَنْ تَكُونَ رَابِطًا لِلْجَمَاعَةِ فِي صِرَاعَاتٍ دَاخِلِيَّةٍ تُوهِنُ قُدْرَةَ الْمُجْتَمَعِ عَلَى الصُّمُودِ. وَعِنْدَمَا تَحُلُّ الْأَخْطَارُ الْخَارِجِيَّةُ، لَا تَكُونُ إِلَّا عَامِلًا مُعَجِّلًا لِعَمَلِيَّةِ الِانْهِيَارِ الَّتِي بَدَأَتْ مَعَالِمُهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِأَمَدٍ بَعِيدٍ.

إِنَّ الِانْتِقَالَ مِنْ مَوْدُوسِ الْبَرَاءَةِ إِلَى مَوْدُوسِ التَّجْرِبَةِ يَتَسَمُ بَانْقِضَاءِ عَهْدِ الِانْتِظَامِ الَّذِي كَانَ يُوَفِّرُ حِمَايَةً لِلْمُجْتَمَعِ. وَأَصْبَحَ سُقُوطُ الْأَنْدَلُسِ فَاصِلًا يُغَيِّرُ مَنْظُورَ الْجَمَاعَةِ إِلَى ذَوَاتِهِمْ وَإِلَى مُحِيطِهِمُ الَّذِي تَحَوَّلَ إِلَى مَيْدَانٍ مَفْعُومٍ بِالرِّيبَةِ. وَلَيْسَ الْمَعْنَى الْمُسْتَفَادُ هُنَا مُجَرَّدَ تَدْوِينٍ لِسُقُوطِ كِيَانٍ سِيَاسِيٍّ، بَلْ كَيْفِيَّةُ تَحَوُّلِ بِنْيَةِ الْمَعْنَى تَحَوُّلًا جَذْرِيًّا فِي لَحْظَةٍ خَاطِفَةٍ. لَقَدْ تَحَوَّلَتِ الْأَنْدَلُسُ مِنْ رَمْزٍ لِلْحِمَايَةِ إِلَى أَمَارَةٍ أَوَّلِيَّةٍ لِوَاقِعٍ يُطَالِبُ الْإِنْسَانَ بِالِاسْتِجَابَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ لِصِرَاعَاتٍ تَتَوَالَى. وَيُؤَكِّدُ هَذَا التَّحَوُّلُ أَنَّهُ فِي مَسَارِ التَّارِيخِ، سَيَظَلُّ الْعَالَمُ الْآمِنُ الْمُنْتَظِمُ مُتَحَوِّلًا حَتْمًا إِلَى عَالَمٍ يَدْعُو إِلَى شَجَاعَةِ مُوَاجَهَةِ التَّعْقِيدِ وَالتَّغَيُّرِ الَّذِي لَا مَفَرَّ مِنْهُ.

أَمَّا دِرَاسَةُ مُحَمَّدِ آصِف خَان (٢٠٢٢) الَّتِي تُوَظِّفُ نَظَرِيَّةَ الْأَرْكِيتَايْبِ لِنُورْثْرُوب فْرَايْ لِتَشْرِيحِ دَوْرَةِ التَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي رِوَايَةِ كَيْفَ تُصْبِحُ ثَرِيًّا فَاحِشًا فِي آسِيَا الصَّاعِدَةِ، فَيُمْكِنُ رَبْطُهَا بِنْيَوِيًّا بِسَرْدِ تَارِيخِ الْأَنْدَلُسِ فِي بَيَانَاتِ بَحْثِكَ. وَعَلَى مُسْتَوَى صِيَاغَةِ إِشْكَالِيَّةِ الْبَحْثِ، تَهْدِفُ تِلْكَ الدِّرَاسَةُ إِلَى تَقَصِّي تَطَوُّرِ مَرْحَلَةِ حَيَاةِ الْبَطَلِ فِي دَوْرَةِ الْمَوَاسِمِ، وَهِيَ

فِي سِيَاقِ تَارِيخِ الْأَنْدَلُسِ يُمْكِنُ تَوْصِيفُهَا بِمَرْحَلَةِ مِيثُوس الرَّبِيعِ، الَّتِي تُمَثِّلُ عَهْدَ الْكُومِيدْيَا وَنَجَاحَ الْعِمْرَانِ الْإِسْلَامِيِّ فِي احْتِوَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُهَمَّشِينَ فِي أُورُوبَّا.

وَبِتَوْظِيفِ مَنْهَجِيَّةِ الْبَحْثِ الْقَائِمَةِ عَلَى نَقْدِ الْأَرْكِيتَايْبِ عِنْدَ فْرَاي، الَّتِي تُقَسِّمُ السَّرْدَ إِلَى أَنْمَاطٍ مَوْسِمِيَّةٍ، تُظْهِرُ بَيَانَاتُكَ أَنَّ الْأَنْدَلُسَ تَضْطَلِعُ بِدَوْرِ الْعَالَمِ الْمِثَالِيِّ الَّذِي يُوَفِّرُ فَضَاءً آمِنًا، وَهِيَ نَقِيضٌ بِنْيَوِيٌّ لِمِيثُوس الشِّتَاءِ، أَيْ مَرْحَلَةِ الْمَعَانَاةِ وَالطَّرْدِ الَّتِي عَانَاهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي أُورُوبَّا. وَتَتَوَازَى نَتَائِجُ دِرَاسَةِ خَان، الَّتِي تَكْشِفُ أَنَّ مَرَاحِلَ حَيَاةِ الْبَطَلِ تَتْبَعُ نَمَطَ الدَّوْرِيَّةِ، مَعَ دِينَامِيَّاتِ الْعِمْرَانِ الْمُشَيَّدِ فِي الْأَنْدَلُسِ، حَيْثُ أَضْحَى التَّعَدُّدُ مِفْتَاحًا لِبُلُوغِ مَرْتَبَةِ عِمْرَانِ الْمَعْرِفَةِ الْجَلِيلِ كَصُورَةٍ مَاجِدَةٍ لِلتَّنَاغُمِ بَيْنَ الطَّوَائِفِ.

وَفِي الْخَاتِمَةِ، إِذَا كَانَتْ دِرَاسَةُ خَان وَمَنْ مَعَهُ تُؤَكِّدُ أَنَّ دَوْرَةَ حَيَاةِ الشَّخْصِيَّةِ هِيَ تَجَسُّدٌ لِلْمُونُومِيث الَّذِي يَنْتَقِلُ مِنَ الْوَاقِعِ إِلَى الْمِثَالِيَّةِ، فَإِنَّ تَارِيخَ الْأَنْدَلُسِ يَعْكِسُ ذِرْوَةَ الْعِمْرَانِ أَيِ الْمَرْحَلَةَ الْمِثَالِيَّةَ الَّتِي تَتَخَلَّقُ حِينَ تَقْدِرُ السُّلْطَةُ عَلَى دَمْجِ الْآخَرِ فِي بُنْيَتِهَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ، مِمَّا يُبْرْهِنُ عَلَى أَنَّ رُسُوخَ مَبَادِئِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْعَدْلِ يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَ مَسَارِ مَصِيرِ الْجَمَاعَةِ مِنْ مَرْحَلَةِ التَّدَهْوُرِ مِيثُوس الشِّتَاءِ إِلَى عَهْدِ الْعَصْرِ الذَّهَبِيِّ مِيثُوس الرَّبِيعِ.

خُلَاصَةُ مَا يُقَرِّرُهُ الْبَاحِثُ فِي هَذَا الْمَبْحَثِ أَنَّ رِحْلَةَ الْبَطَلِ فِي بِنْيَةِ نُورْثْرُوب فْرَاي السَّرْدِيَّةِ تَقْطَعُ دَوْمًا مَرْحَلَتَيْنِ جَوْهَرِيَّتَيْنِ: مَرْحَلَةَ الِاسْتِقْرَارِ وَمَرْحَلَةَ الصِّرَاعِ. فَأَمَّا مَرْحَلَةُ الِاسْتِقْرَارِ، فَهِيَ الْحَالَةُ الْمِثَالِيَّةُ حِينَ يَسِيرُ النِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ وَالْقِيَمُ الْأَخْلَاقِيَّةُ فِي خُطًى مُتَنَاغِمَةٍ، فَلَا يَكُونُ ثَمَّةَ دَاعٍ لِتَغْيِيرِ الْوَاقِعِ. وَلَكِنَّ عَجَلَةَ التَّارِيخِ تَدُورُ دَوْبًا، فَتَبْرُزُ مَرْحَلَةُ الصِّرَاعِ حِينَ يَعْتَرِي هَذَا التَّنَاغُمَ خَلَلٌ بِسَبَبِ وُرُودِ أَفْكَارٍ، أَوْ مَصَالِحَ، أَوْ قُوَىً جَدِيدَةٍ تَشْرَعُ فِي زَعْزَعَةِ الْأُسُسِ الْقَائِمَةِ. وَفِي دَوْرَةِ الْعِمْرَانِ، لَا يُعَدُّ هَذَا التَّحَوُّلُ عَرَضًا طَارِئًا، بَلْ هُوَ مِيكَانِيزْمٌ فِطْرِيٌّ يُؤَجِّجُ صَيْرُورَةَ التَّارِيخِ. فَلَمْ يَكُنِ الصِّرَاعُ لِتَقْوِيضِ مَا سَلَفَ فَحَسْبُ، بَلِ اخْتِبَارًا لِقُدْرَةِ الْعِمْرَانِ عَلَى الصُّمُودِ، وَبَيَانِ نَقَائِصِهِ، وَمَدَى قَابِلِيَّتِهِ لِلتَّكَيُّفِ مَعَ تَحَدِّيَاتِ الزَّمَانِ.

وَفِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، تَكْتَسِي هَذِهِ النَّتِيجَةُ عُمْقًا بَلِيغًا؛ إِذْ لَا يَنْشَأُ الصِّرَاعُ مِنْ مُجَرَّدِ تَطَاحُنِ السُّلْطَةِ بَيْنَ الْبَشَرِ، بَلْ مِنْ تَدَخُّلَاتٍ تَعْمَلُ فِي خَفَاءٍ دَاخِلَ بِنْيَةِ الْعِمْرَانِ ذَاتِهِ. فَإِذَا مَا شَرَّحْنَا النَّصَّ بِأَرْكِيتَايْبِ فْرَايِ، فَإِنَّ الِاسْتِقْرَارَ الَّذِي كَانَ يَوْمًا صَلْدًا يَسْتَحِيلُ حَلَبَةَ مُعَانَاةٍ مَعَ انْحِرَافِ وُجْهَةِ الْحَيَاةِ وَاعْتِقَادَاتِ النَّاسِ انْحِرَافًا بَطِيئًا وَلَكِنَّهُ مَحْتُومٌ. فَلَيْسَ الصِّرَاعُ فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ سَعْيًا إِلَى مَقَاعِدِ الْحُكْمِ، بَلْ هُوَ تَصَادُمٌ عَنِيفٌ بَيْنَ نِظَامٍ يَسْتَمِيتُ لِحِرَاسَةِ أُصُولِهِ الرُّوحِيَّةِ وَبَيْنَ قُوَّةٍ تَنْزَعُ نِظَامِيًّا نَحْوَ مَشْرُوعِ سَيْطَرَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ.

وَتَكْمُنُ جِدَّةُ هَذَا الْبَحْثِ فِي الْكَشْفِ عَنْ أَنَّ نَمَطَ التَّحَوُّلِ مِنَ مَرْحَلَةِ الِاسْتِقْرَارِ إِلَى مَرْحَلَةِ الصِّرَاعِ يُمْكِنُ قِرَاءَتُهُ مَرْحَلَةً أَوَّلِيَّةً لِسِلْسِلَةِ أَحْدَاثٍ إِسْخَاتُولُوجِيَّةٍ فِي الْإِطَارِ الْإِسْلَامِيِّ. فَالْمَسِيحُ الدَّجَّالُ لَا يَبْرُزُ قُوَّةً تَدْمِيرِيَّةً تَسْحَقُ كُلَّ شَيْءٍ فِي لَحْظَةٍ، بَلْ يَبْدَأُ فِعْلَهُ بِخَلْخَلَةِ اسْتِقْرَارِ الْقِيَمِ الَّتِي ظَلَّتْ دِعَامَةً لِحَيَاةِ النَّاسِ. وَبِذَلِكَ، تَغْدُو مَعَانَاةُ الْبَطَلِ ذَاتَ وَظِيفَةٍ رَمْزِيَّةٍ نَافِذَةٍ بِوَصْفِهَا نَوْعًا مِنَ الْمُقَاوَمَةِ لِتَيَّارِ التَّارِيخِ الْمُوَجَّهِ عَمْدًا نَحْوَ نُقْطَةِ الْغَايَةِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ. وَهَكَذَا، تَنْصَهِرُ رِحْلَةُ الْبَطَلِ وَرِحْلَةُ الْعِمْرَانِ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ فِي نَمَطٍ وَاحِدٍ مِنَ الصِّرَاعِ: السَّعْيُ لِلذَّوْدِ عَنِ النِّظَامِ الْمَبْنِيِّ عَلَى قِيَمِ الْأُلُوهِيَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ قُوَّةٍ لَا تَنْفَكُّ تَجُرُّ الْعِمْرَانَ نَحْوَ الِابْتِعَادِ عَنْ جَوْهَرِهِ الْأَصِيلِ.

٣) ذِرْوَةُ مَجْدِ الْبَطَلِ

فِي كِتَابِهِ تَشْرِيحُ النَّقْدِ، يُبَيِّنُ نُورْثْرُوب فْرَايِ أَنَّ الْحَاكِمَ فِي ذِرْوَةِ مَجْدِهِ يَمْتَلِكُ مِنَ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ مَا يَكْفِي لِصَدِّ ضُغُوطِ التَّغْيِيرِ، فَيَسْتَقِرُّ النِّظَامُ فِي حَالَةِ تَوَازُنٍ. وَلَكِنْ، فِي إِطَارِ الدَّوْرِيَّةِ، تَتَّسِمُ هَذِهِ الْحَالَةُ بِالْمُؤَقَّتِ؛ إِذْ إِنَّ الِاسْتِقْرَارَ الْمُفْرِطَ يَمِيلُ إِلَى حَجْبِ طَاقَاتِ التَّغْيِيرِ الَّتِي لَمْ تَتَجَسَّدْ بَعْدُ. وَلِاسْتِجْلَاءِ كَيْفِيَّةِ بَيَانِ هَذَا الْمَفْهُومِ، فَهَذِهِ هِيَ مَرَاحِلُ قِرَاءَةِ الْبَيَانَاتِ.

(٢٢) ثم ألقى "ماستيم" نظرة على السلطان "سليمان القانوني"، ذلك السلطان الذي بلغت الدولة العثمانية في عهده أقصى اتساع لها، كان قويًا عظيمًا، يستحيل إغواؤه أو التأثير عليه بسهولة (ص ٨٣.)

تُصَوِّرُ الْبَيَانَاتُ فِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ السُّلْطَانَ سُلَيْمَانَ الْقَانُونِيَّ بِوَصْفِهِ رَمْزَ ذِرْوَةِ مَجْدِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، حَيْثُ كَانَ قَوِيًّا، عَادِلًا، وَمُتَمَسِّكًا بِإِيمَانِهِ، مِمَّا جَعَلَهُ مَنِيعًا عَنِ السُّقُوطِ الْمُبَاشِرِ أَمَامَ قُوَى الشَّرِّ. وَإِذْ عَجَزَ مَاسْتِيم عَنْ زَعْزَعَةِ السُّلْطَانِ، آثَرَ اسْتِخْدَامَ إِسْتِرَاتِيجِيَّةِ التَّسَلُّلِ عَبْرَ هُرَّم سُلْطَانَ، مُسْتَغِلًّا طُمُوحَاتِهَا السِّيَاسِيَّةَ دَاخِلَ الْبَلَاطِ. وَبِفِعْلِ هَذِهِ الْمُنَاوَرَاتِ، أُقْصِيَتْ شَخْصِيَّاتٌ مِحْوَرِيَّةٌ كَإِبْرَاهِيمَ بَاشَا وَالْأَمِيرِ مُصْطَفَى، مِمَّا أَدَّى إِلَى تَهْدِيمِ الْأُسُسِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْخِلَافَةِ، وَتَمْهِيدِ السَّبِيلِ لِظُهُورِ قِيَادَةٍ أَكْثَرَ هَشَاشَةً فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ النَّجَاحِ فِي إِحْدَاثِ جِرَاحٍ سِيَاسِيَّةٍ وَعَاطِفِيَّةٍ فِي الْبَيْتِ الْمَالِكِيِّ، بَقِيَ مَاسْتِيم عَاجِزًا عَنْ تَدْنِيسِ إِيمَانِ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ، الَّذِي وَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ وَهُوَ مُسْتَمْسِكٌ بِعَقِيدَتِهِ. إِنَّ الْعَجْزَ عَنْ تَقْوِيضِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ عَبْرَ الْحُرُوبِ أَوِ الْإِغْوَاءِ الْمُبَاشِرِ دَفَعَ بِهِمْ إِلَى تَبَنِّي إِسْتِرَاتِيجِيَّةِ الْإِتْلَافِ بَعِيدِ الْمَدَى مِنْ دَاخِلِ الْكِيَانِ، وَهِيَ مَسِيرَةٌ اسْتَمَرَّتْ عُقُودًا بَعْدَهُ مِنْ خِلَالِ التَّسَلُّلِ السِّيَاسِيِّ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي، حَيْثُ يَبْدُو تِيُودُور هِرْتِزْل خَلَفًا لِتِلْكَ الْمَسَاعِي الرَّامِيَةِ إِلَى هَدْمِ آخِرِ حِصْنٍ لِلْقُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَلْبِيَةً لِأَجِنْدَةِ الصَّهْيُونِيَّةِ.

لَا تُعَدُّ ذِرْوَةُ الْمَجْدِ قَطُّ مَرْفَأً آمِنًا، بَلْ هِيَ مَرْحَلَةٌ تَكْتَنِزُ فِي أَحْشَائِهَا بِذُورَ التَّنَاقُضِ. فَإِنَّ الِاسْتِقْرَارَ الَّذِي يَبْدُو رَاسِخًا فِي هَذِهِ النُّقْطَةِ لَيْسَ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ عِمَارَةِ السُّلْطَةِ الَّتِي تُوَسِّعُ مَسَاحَاتِ الْهَشَاشَةِ أَمَامَ الِاضْطِرَابَاتِ الْمُتَسَرِّبَةِ مِنْ دَاخِلِ الْكِيَانِ. وَفِي مَنْطِقِ الْأَرْكِيتَايْبِ، لَا يَنْهَارُ النِّظَامُ لِفَقْدِهِ الْقُوَّةَ، بَلْ يَنْهَارُ حِينَ يَبْلُغُ أَوْجَهُ، حِينَ تَعْمَلُ كَافَّةُ مَكِينَاتِ الْبِيرُوقْرَاطِيَّةِ وَالسُّلْطَةِ بِأَقْصَى طَاقَتِهَا وَلَكِنَّهَا تَظَلُّ أَسِيرَةَ تَكَسُّلٍ وَجُمُودٍ.

وَيُمَثِّلُ السُّلْطَانُ سُلَيْمَانُ الْقَانُونِيُّ فِي الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ أَوْضَحَ مِرْآةٍ لِعَهْدِ الْعَصْرِ الذَّهَبِيِّ الْمُخَادِعِ هَذَا. فَالشَّرْعِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ الْوَاسِعَةُ، وَالْبَأْسُ الْعَسْكَرِيُّ، وَالْبَرَاعَةُ فِي رَبْطِ الْأَمْصَارِ، كُلُّ ذَلِكَ أَنْتَجَ تَشْكِيلًا يَبْدُو صَلْدًا بِلَا مَطْعَنٍ. إِلَّا أَنَّ هَذَا الرُّسُوخَ لَمْ يَقُمْ عَلَى أَسَاسٍ مُسْتَقِلٍّ، بَلْ عُلِّقَ عَلَى شَبَكَةِ عَلَاقَاتٍ تَنْظِمُ تَوْزِيعَ الْوَلَاءِ. وَفِي هَذِهِ الثُّغْرَةِ تَقُومُ الْهَشَاشَةُ؛ إِذْ كَانَ بَقَاءُ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ مُعْتَمِدًا عَلَى اتِّسَاقِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ الَّتِي ثَبَتَ أَنَّهَا سَائِلَةٌ. فَلَمْ يَأْتِ الِاضْطِرَابُ عَلَى هَيْئَةِ جَيْشٍ جَرَّارٍ خَارِجَ أَسْوَارِ الْبَلَاطِ، بَلْ كَانَ مُنَاوَرَاتٍ لَطِيفَةً تُحَرِّفُ رُوَيْدًا مَسَارَ السِّيَاسَاتِ، وَأَنْمَاطَ الْوَلَاءِ، وَوِجْهَةَ السُّلْطَةِ مِنْ قَلْبِ النِّظَامِ ذَاتِهِ. وَقَدْ غَدَا هَذَا الْخَطَرُ مُمِيتًا لِأَنَّهُ تَسَلَّلَ عَبْرَ الْأَعْمِدَةِ الَّتِي كَانَتْ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ دِعَامَةً لِلتَّوَازُنِ.

وَبَرَزَتْ هُرَّم سُلْطَانَ وَسِيطًا مِحْوَرِيًّا سَهَّلَ هَذَا التَّحَوُّلَ جِهَارًا. فَلَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ فَاعِلٍ تَارِيخِيٍّ، بَلْ عُقْدَةَ عَلَاقَاتٍ قَلَبَتْ مَآلَ السُّلْطَةِ، فَأَحَالَتْهَا مِنْ كِيَانٍ مُؤَسَّسَاتِيٍّ إِلَى كِيَانٍ قَائِمٍ عَلَى الْقُرْبِ الشَّخْصِيِّ. كَمَا طَرَأَ عَلَى مَبَادِئِ إِدَارَةِ النِّظَامِ تَحَوُّلٌ؛ إِذْ حَلَّ الْوَلَاءُ الْفَرْدِيُّ الذَّاتِيُّ مَحَلَّ الْوَلَاءِ الْبِنْيَوِيِّ الْمَوْضُوعِيِّ، فَصَارَتْ مِيكَانِيزْمَاتُ الرَّقَابَةِ مُتَشَظِّيَةً. وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ، لَمْ يَعُدْ مَرْكَزُ الْحُكْمِ مَكَانًا لِلتَّكَامُلِ، بَلْ سَاحَةً لِتَطَاحُنِ النُّفُوذِ الشَّخْصِيِّ. وَلَمْ يَكُنْ إِقْصَاءُ شَخْصِيَّاتٍ مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ بَاشَا، وَمُصْطَفَى، وَبَايَزِيدَ مُجَرَّدَ دَسَائِسَ سِيَاسِيَّةٍ عَادِيَّةٍ، بَلْ كَانَ تَلَاشِيًا لِعَنَاصِرِ التَّوَازُنِ الَّتِي حَفِظَتِ الْوِصَالَ بَيْنَ مَرْكَزِ السُّلْطَةِ وَبِنْيَتِهِ الدَّاعِمَةِ. وَمَعَ سُقُوطِ هَذِهِ الْأَعْمِدَةِ، تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُ التَّوَازُنِ الدَّاخِلِيِّ، مِمَّا جَعَلَ السُّقُوطَ عَمَلِيَّةَ تَآكُلٍ مُنْتَظِمٍ لِعَنَاصِرِ التَّمَاسُكِ.

وَعِنْدَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، شَرَعَ تَشْكِيلُ السُّلْطَةِ فِي التَّحَرُّكِ مِنْ عَهْدِ الْمَجْدِ نَحْوَ انْعِطَافَةٍ مَأْسَاوِيَّةٍ يَصْعُبُ كَبْحُ جِمَاحِهَا. فَلَمْ يَكُنْ هُبُوطُ الْحَاكِمِ فَحَسْبُ، بَلْ انْهِيَارُ شَبَكَةِ الْعَلَاقَاتِ كَافَّةً الَّتِي مَكَّنَتِ السُّلْطَةَ مِنَ الْعَمَلِ بِفَعَالِيَّةٍ. وَلَمْ يَعُدِ الْعَدُوُّ الْأَكْبَرُ مُتَوَارِيًا خَلْفَ الْحُدُودِ، بَلْ أَضْحَى جُزْءًا مِنَ الْمَاكِينَةِ الَّتِي تَدْعَمُ بَقَاءَ الْحَاكِمِ. وَتَحَوَّلَ الْفَضَاءُ الَّذِي كَانَ يَوْمًا مَصْدَرَ الْأَمَانِ إِلَى حَاضِنَةٍ لِلْفَوْضَى الَّتِي أَنْتَجَهَا النِّظَامُ نَفْسُهُ. وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْمَنْطِقُ أَنَّهُ كُلَّمَا ارْتَفَعَتْ

دَرَجَةُ الِاسْتِقْرَارِ الَّتِي بَلَغَهَا الْكِيَانُ، عَظُمَ اعْتِمَادُهُ عَلَى تَوَازُنٍ دَاخِلِيٍّ هَشٍّ. وَمَتَى مَا مُسَّ ذَلِكَ التَّوَازُنُ، لَمْ يَحْتَجِ الْفَنَاءُ إِلَى ضَغْطٍ خَارِجِيٍّ هَائِلٍ، إِذْ بَدَأَ النِّظَامُ نَخِرًا مِنْ دَاخِلِهِ. إِنَّ ذِرْوَةَ السُّلْطَةِ، فِي هَذَا الْإِطَارِ، هِيَ اللَّحْظَةُ الَّتِي نَمَتْ فِيهَا بِذُورُ الْفَنَاءِ فِي رَحِمِ الْمَجْدِ ذَاتِهِ.

يُمْكِنُ رَبْطُ دِرَاسَةِ مُحَمَّدِ آصِف خَان (٢٠٢٢)، الَّتِي تُوَظِّفُ نَظَرِيَّةَ الْأَرْكِيتَايْبِ لِنُورْثْرُوب فْرَاي لِتَشْرِيحِ دَوْرَةِ التَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي رِوَايَةِ كَيْفَ تُصْبِحُ ثَرِيًّا فَاحِشًا فِي آسِيَا الصَّاعِدَةِ، بِسَرْدِ شَخْصِيَّةِ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ الْقَانُونِيِّ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ، وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِهِ دِرَاسَةً بِنْيَوِيَّةً تَتَنَاوَلُ الصِّدَامَ بَيْنَ أَرْكِيتَايْبِ الْحَقِّ وَأَرْكِيتَايْبِ الْفَنَاءِ. وَفِي مَقَامِ إِشْكَالِيَّةِ الْبَحْثِ، إِذَا كَانَتْ دِرَاسَةُ خَان وَمَنْ مَعَهُ تَسْعَى إِلَى تَقَصِّي تَطَوُّرِ مَرْحَلَةِ حَيَاةِ الْبَطَلِ نَحْوَ ذِرْوَةِ الِاكْتِمَالِ، فَإِنَّ بَيَانَاتِ بَحْثِكَ تَضَعُ السُّلْطَانَ سُلَيْمَانَ فِي مَوْضِعِ أَرْكِيتَايْبِ الْقَائِدِ الْمِثَالِيِّ الَّذِي يَعْتَلِي ذِرْوَةَ الْمَجْدِ مِيثُوس الصَّيْفِ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِاخْتِبَارِ الْقُوَى التَّدْمِيرِيَّةِ.

وَبِتَوْظِيفِ مَنْهَجِيَّةِ الْبَحْثِ الْقَائِمَةِ عَلَى نَقْدِ الْأَرْكِيتَايْبِ لَدَى فْرَاي، الَّتِي تُقَسِّمُ السَّرْدَ إِلَى أَنْمَاطٍ مَوْسِمِيَّةٍ، يُمْكِنُنَا تَخْطِيطُ شَخْصِيَّةِ مَاسْتِيم بِوَصْفِهِ عَامِلَ اضْطِرَابٍ يَسْعَى إِلَى نَقْلِ الْخِلَافَةِ مِنْ مَرْحَلَةِ الْمَجْدِ مِيثُوس الصَّيْفِ إِلَى حَالَةِ الِانْحِدَارِ الْمَأْسَاوِيِّ مِيثُوس الْخَرِيفِ عَبْرَ التَّسَلُّلِ الدَّاخِلِيِّ وَالتَّلَاعُبِ بِالطُّمُوحَاتِ. وَتُبَيِّنُ نَتَائِجُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ أَنَّهُ عَلَى عَكْسِ الْبَطَلِ فِي رِوَايَةِ حَامِد الَّذِي يُقَاسِي السُّقُوطَ الْمَادِّيَّ وَالرُّوحِيَّ فِي خِتَامِ حَيَاتِهِ قَدْ نَجَحَ السُّلْطَانُ سُلَيْمَانُ فِي الْحِفَاظِ عَلَى نَزَاهَتِهِ الرُّوحِيَّةِ وَحُسْنِ خَاتِمَتِهِ، رَغْمَ مَا طَالَ نِظَامَ دَوْلَتِهِ الدَّاخِلِيَّ مِنَ التَّخْرِيبِ بِفِعْلِ دَسَائِسِ هُرَّم سُلْطَانَ.

وَفِي الْخَاتِمَةِ، إِذَا كَانَتْ دِرَاسَةُ خَان وَمَنْ مَعَهُ تَخْلُصُ إِلَى أَنَّ دَوْرَةَ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ تَتَّسِمُ بِالْحَتْمِيَّةِ تَبَعًا لِنَمَطِ الْمَوَاسِمِ، فَإِنَّ بَيَانَاتِ بَحْثِكَ تُؤَكِّدُ أَنَّ رُسُوخَ إِيمَانِ الْقَائِدِ قَادِرٌ عَلَى قَطْعِ سِلْسِلَةِ التَّرَاجِيدِيَا الَّتِي صَاغَتْهَا قُوَى الظَّلَامِ، مِمَّا أَجْبَرَ الْعَامِلَ التَّخْرِيبِيَّ كَمَاسْتِيم عَلَى ارْتِقَابِ فُرْصَةٍ أُخْرَى فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي لِتَنْفِيذِ إِسْتِرَاتِيجِيَّةِ التَّآكُلِ ذَاتِهَا.

خِتَامًا لِهَذِهِ السِّلْسِلَةِ مِنَ التَّحْلِيلَاتِ، يَتَجَلَّى لِلْبَاحِثِ أَنَّ مَرْحَلَةَ الْبَحْثِ ضِمْنَ إِطَارِ نُورْثْرُوب فْرَاي لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مُغَامَرَةٍ بَدَنِيَّةٍ، بَلْ هِيَ مِيتَامُورْفُوزَا وِجْدَانِيَّةٌ يَتَعَيَّنُ عَلَى الْبَطَلِ خَوْضُهَا. وَتَتَضَمَّنُ هَذِهِ الرِّحْلَةُ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ مِنَ التَّجْرِبَةِ الْمُتَدَاخِلَةِ: التِّيهُ بِاعْتِبَارِهِ مَسَارًا لِجَمْعِ الزَّادِ الْبَاطِنِيِّ، وَالْمُجَاهَدَةُ بِكَوْنِهَا مَيْدَانًا لِاخْتِبَارِ رُسُوخِ الْمَبَادِئِ، وَالِاعْتِرَافُ بِاعْتِبَارِهِ ذِرْوَةَ الِاسْتِبْصَارِ بَعْدَ تَجَاوُزِ الْبَطَلِ لِكُلِّ الْعَقَبَاتِ. وَلَيْسَ لُبُّ هَذَا الْبَحْثِ فِي بُلُوغِ غَايَةٍ مَادِّيَّةٍ، بَلْ فِي التَّحَوُّلِ الذَّاتِيِّ الَّذِي يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ خِلَالَ هَذَا الْمَسَارِ الْمُمْتَدِّ.

وَفِي إِيقَاعِ دَوْرَةِ الْعِمْرَانِ، لَا تَنْفَجِرُ التَّحَوُّلَاتُ الْكُبْرَى فِي التَّارِيخِ بَغْتَةً. فَإِنَّ كُلَّ انْبِعَاثٍ يَبْدَأُ مِنْ مَخَاضِ الْبَحْثِ عَنْ مَخَارِجَ لِلْأَزَمَاتِ الْمُتَفَاقِمَةِ. وَإِنَّ الْمُجَاهَدَاتِ الَّتِي يَخُوضُهَا الْبَطَلُ تَعْكِسُ فِي حَقِيقَتِهَا نَبَضَاتِ نِضَالِ الْمُجْتَمَعِ فِي الذَّوْدِ عَنِ الْقِيَمِ، وَالْهُوِيَّةِ، وَوِجْهَةِ الْحَيَاةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْأَخْطَارِ. فَكُلَّمَا اشْتَدَّتْ حِدَّةُ الْعَوَاصِفِ، تَزَايَدَتْ ضَرُورَةُ إِيجَادِ وَعْيٍ جَدِيدٍ يَكُونُ حَجَرَ الزَّاوِيَةِ لِصَرْحِ النِّظَامِ الْقَادِمِ.

وَفِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ، تَتَّخِذُ مَرْحَلَةُ الْبَحْثِ هَذِهِ أَبْعَادًا أَكْثَرَ تَخْصِيصًا وَخُطُورَةً لِاتِّصَالِهَا الْمُبَاشِرِ بِمَسَاعِي التَّسَلُّلِ الْمُصَوَّرَةِ فِي الْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ. فَالْعَدُوُّ الَّذِي يُوَاجِهُهُ الْبَطَلُ لَيْسَ مُجَرَّدَ خَصْمٍ مَادِّيٍّ أَوْ مُنَافِسٍ سِيَاسِيٍّ، بَلْ هُوَ حَرَكَةٌ مَنْهَجِيَّةٌ تَنْخَرُ بِبُطْءٍ فِي أُسُسِ الْقِيَمِ الَّتِي شَكَّلَتْ دِعَامَةَ الْعِمْرَانِ. وَمِنْ ثَمَّ، غَدَتْ رِحْلَةُ الْبَطَلِ فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ سَعْيًا لِكَشْفِ الْقِنَاعِ عَنْ كُلِّ صُوَرِ التَّدَخُّلِ، بَيْنَمَا بَرَهَنَتْ مُجَاهَدَاتُهُ عَلَى صِدْقِ الْمَسَاعِي لِحِرَاسَةِ الْقِيَمِ الَّتِي تَتَعَرَّضُ لِلِاسْتِهْدَافِ الْمُتَوَاصِلِ.

وَتَكْمُنُ بَرَاعَةُ الطَّرْحِ فِي هَذَا الْبَحْثِ فِي الْكَشْفِ عَنْ أَنَّ بِنْيَةَ الْبَحْثِ عِنْدَ فْرَاي فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ تَعْمَلُ مِيكَانِيزْمًا يَفْضَحُ كَيْفِيَّةَ عَمَلِ تَدَخُّلِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ عَلَى مَرَاحِلَ، قَبْلَ وُقُوعِ ذِرْوَةِ الْأَحْدَاثِ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةِ بِأَمَدٍ. وَلَمْ يَعُدِ الْوَعْيُ الَّذِي بَلَغَهُ الْبَطَلُ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ مِلْكًا خَاصًّا، بَلْ تَمَثُّلًا لِوَعْيٍ تَارِيخِيٍّ بَدَأَ يَتَشَكَّلُ تُجَاهَ الْأَخْطَارِ النَّامِيَةِ فِي جَوْفِ

الْعِمْرَانِ. وَقَدْ أَمْسَتْ مَرْحَلَةُ الْبَحْثِ، فِي نِهَايَتِهَا، رَمْزًا لِعَمَلِيَّةِ الصَّحْوَةِ الْجَمْعِيَّةِ تُجَاهَ تَيَّارِ التَّارِيخِ الَّذِي يُقَادُ رُوَيْدًا إِلَى مَحْرَقَةِ صِرَاعِ آخِرِ الزَّمَانِ.

إِنَّ هَذِهِ السِّلْسِلَةَ مِنَ السَّرْدِ تُبَيِّنُ أَنَّ رِحْلَةَ الْبَطَلِ وَالدِّينَامِيَّاتِ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةَ تَجْرِي فِي نَمَطٍ مُتَشَابِكٍ. وَلَيْسَ تَنَامِي جَوْدَةِ الْوَعْيِ مُجَرَّدَ عَلَامَةٍ عَلَى تَطَوُّرِ الشَّخْصِيَّةِ، بَلْ هُوَ شَرْطٌ لَازِمٌ لِلْإِنْسَانِ حَتَّى يَعْرِفَ وَيُجَابِهَ كُلَّ مُنَاوَرَةٍ تَتَهَدَّدُ كِيَانَهُ. وَبِهَذَا الْوَعْيِ، لَا يَمْضِي التَّارِيخُ مَسَارًا أَعْمَى، بَلْ يَتَحَوَّلُ إِلَى مَيْدَانِ جِلَادٍ يُطَالَبُ فِيهِ كُلُّ فَرْدٍ بِالْحِفَاظِ عَلَى وِجْهَتِهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ كُلُّ شَيْءٍ الْمَرْحَلَةَ الْخِتَامِيَّةَ الْمَوْصُوفَةَ فِي نُبُوءَاتِ آخِرِ الزَّمَانِ.

ج) الدور الثالث :الخريف الحضاري

يُجسِّد دور الخريف في الدورة الحضارية مرحلة الانحدار والتصدّع التي تعقب ذروة الصيف. وفي رواية "انتخرستس" يُشكِّل الخريف المرحلةَ التي تتكشَّف فيها التناقضات الداخلية للمجتمع كشفاً ساخناً، وتُبدأ فيها أنماط التفكك الحضاري تعمل بزخم لا يمكن إيقافه. وتحتشد في هذا الدور أبرز الأنماط الأرشيتيبية الفرايية.

٣. مِيثُوس التَّرَاجِيدِيَا: مرحلة التدهور والانحطاط

التراجيديا في منظور فراي هي الأمثيل الذي يُصوِّر عزل البطل عن مجتمعه وانهيار علاقته بالعالم المحيط به. ويُعرِّف فراي التراجيديا ليس بمجرد "نهاية سيئة" بل بالانتقال من وضع الاندماج الاجتماعي إلى وضع الانفصال والعزل، سواء عبر الموت الجسدي أو الطرد أو التهميش الاجتماعي. ويُميِّز فراي في التراجيديا بين نمطين رئيسيين من العزل: عزل البطل الرفيع الذي يُعاني هبوطاً من قمة العظمة إلى الحضيض بفعل خطأ جوهري أو كبش الفداء الذي يُبعَد أو يُقتَل (Pharmakos) (الحمارتيا)، وعزل الفارماكوس .لتطهير المجتمع من خطيئته الجمعية.

أ) نِيمِيسِيس

يَعْمَلُ مَفْهُومُ نِيمِيسِيس وَفْقَ نَامُوسِ السَّبَبِيَّةِ، الَّذِي يُمَثِّلُ مَرْحَلَةً سَابِقَةً لِذِرْوَةِ نُقْطَةِ التَّحَوُّلِ. وَهَذِهِ الدَّوْرِيَّةُ لَا تَعْمَلُ بِمُقْتَضَى الْأَحْكَامِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، بَلْ هِيَ تَسِيرُ اسْتِنَادًا إِلَى دَوْرَةِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَتَجَلَّى بِصُورَةٍ مُتَزَامِنَةٍ. وَلِاسْتِجْلَاءِ هَذَا الْمَضْمُونِ بِمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ، سَيَشْرَعُ الْبَاحِثُ فِي تَفْصِيلِهِ عَبْرَ نَافِذَةِ قِرَاءَةِ الْبَيَانَاتِ. وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ:

(٢٣) قائد هذا الحزام من البشر كان يُدعى الجنرال "أللنبي".. ومن ضمن هذا الجيش كان هناك فيلق يهودي مدرّب على أعلى مستوى.. بينه وجوه خبيثة لم يتعرف عليها "ماستيم" في البداية لكن التاريخ يحفظ أسماءهم جيدًا.. كان من ضمن الوجوه في الفيلق اليهودي رجل غزا الصلع رأسه من المنتصف فترك جزيرتين من الشعر على الجانبين.. رجل يعرفه التاريخ باسم "دافيد بن غوريون".. وآخرون ممن سيكون لهم شأن فيما بعد (ص ١١٩.)

تُصَوِّرُ الْبَيَانَاتُ فِي الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ دُخُولَ الْجِنِرَالِ إِدْمُونْد آلِنْبِي قَائِدًا لِقُوَّاتِ الِاحْتِلَالِ الْبِرِيطَانِيِّ فِي فِلَسْطِينَ، وَهِيَ وَاقِعَةٌ فَتَحَتْ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً مِنْ تَقْوِيضِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ عَبْرَ تَظَافُرِ جُهُودِ قُوَّاتِ الْحُلَفَاءِ مَعَ رُمُوزِ الصَّهْيُونِيَّةِ، أَمْثَالِ دَاوُد بِن غُورْيُون، وَحَايِيم فَايِزْمَان، وَعَائِلَةِ رُوتْشِيلْد. وَفِي خِضَمِّ هَذِهِ الصَّيْرُورَةِ، تَحَوَّلَتِ الْحَرَكَةُ الصَّهْيُونِيَّةُ –الَّتِي اتَّسَمَتْ فِي بَدَايَاتِهَا بِالطَّابِعِ الْعَاطِفِيِّ وَالْافْتِقَارِ إِلَى التَّنْظِيمِ إِلَى قُوَّةٍ ذَاتِ مَرْجِعِيَّةٍ قَانُونِيَّةٍ عَقْلَانِيَّةٍ، وَذَلِكَ بِفِعْلِ انْدِمَاجِهَا فِي الْهَيْكَلِ الْعَسْكَرِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ الْبِرِيطَانِيِّ إِبَّانَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى. وَيُظْهِرُ هَذَا التَّحَوُّلُ انْتِقَالًا مِنْ صُوَرِ الْحَرَاكَاتِ الْأَوَّلِيَّةِ غَيْرِ الرَّسْمِيَّةِ نَحْوَ شَرْعِيَّةٍ مُؤَسَّسَاتِيَّةٍ تَدْعَمُ أَجِنْدَةَ تَأْسِيسِ دَوْلَةِ إِسْرَائِيلَ، كَمَا يَسِمُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ تَغَيُّرَ

الِاسْتِرَاتِيجِيَّةِ مِنْ مُمَارَسَةِ الضُّغُوطِ غَيْرِ الرَّسْمِيَّةِ إِلَى تَنْفِيذِ إِجْرَاءَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ وَعَسْكَرِيَّةٍ مَنْهَجِيَّةٍ ضِدَّ بِنْيَةِ سُلْطَةِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ.

فِي تَشْرِيحِ دِينَامِيَّاتِ السُّلْطَةِ، يَرَى الْبَاحِثُ أَنَّ التَّارِيخَ لَا يَسِيرُ قَطُّ عَلَى نَسَقٍ مُسْتَقِيمٍ، بَلْ يَدُورُ فِي حَلَقَاتٍ تُنَظِّمُهَا التَّوَتُّرَاتُ بَيْنَ الطُّمُوحَاتِ الْجَامِحَةِ وَمَسَاعِي التَّصْحِيحِ الذَّاتِيِّ. وَيَنْظُرُ الْبَاحِثُ إِلَى مِيكَانِيزْمِ النِّيمِيسِيس لَا بِاعْتِبَارِهِ عُقُوبَةً مُسَلَّطَةً مِنْ أَعْلَى، بَلْ بِكَوْنِهِ مُوَازِنًا فِطْرِيًّا يَبْرُزُ حِينَ تَتَجَاوَزُ قُوَّةٌ مَا حُدُودَ الِاعْتِدَالِ. وَيَرْتَبِطُ هَذَا الْمَبْدَأُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِنَوَامِيسِ الْحَيَاةِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي تَحْفَظُ لِكُلِّ فِعْلٍ فِي مَسْرَحِ التَّارِيخِ قَدْرَهُ. وَمِنْ هَذَا الْمَنْظُورِ، لَا تُعَدُّ التَّرَاجِيدِيَا حَظًّا عَائِرًا، بَلْ هِيَ نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ لِأَفْعَالٍ خَرَجَتْ عَنْ مَدَارَاتِ تَوَازُنِهَا. فَالْحُدُودُ فِي عُرْفِ الْبَاحِثِ لَيْسَتْ أَقْدَارًا جَامِدَةً، بَلْ هِيَ مَسَاحَاتُ حَرَكَةٍ تُحَجِّمُ كُلَّ فَاعِلٍ تَارِيخِيٍّ بِشَكْلٍ طَبِيعِيٍّ. لَقَدْ مَثَّلَ الْمُجْتَمَعُ الْيَهُودِيُّ فِي بَدَائِهِ كِيَانًا شَتَاتِيًّا اسْتَطَاعَ الصُّمُودَ قُرُونًا عَبْرَ اسْتِرَاتِيجِيَّاتِ التَّكَيُّفِ، وَشَبَكَاتِ التَّضَامُنِ، وَالْمُرُونَةِ الثَّقَافِيَّةِ الْفَائِقَةِ. وَلَكِنَّ ظُهُورَ الصَّهْيُونِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ أَحْدَثَ تَغْيِيرًا جَوْهَرِيًّا فِي مَسَارِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ نَحْوَ طُمُوحَاتِ السِّيَادَةِ الْإِقْلِيمِيَّةِ. وَيَرَى الْبَاحِثُ فِي هَذَا الِانْتِقَالِ مِنَ الشَّتَاتِ إِلَى كِيَانٍ سِيَاسِيٍّ ذِي سِيَادَةٍ تَجَسُّدًا لِتَجَاوُزِ الْحُدُودِ الَّتِي كَانَتْ لِعُقُودٍ أَسَاسَ هُوِيَّتِهِمُ الْجَمْعِيَّةِ.

وَيَعْتَبِرُ الْبَاحِثُ هَذَا التَّحَوُّلَ نُقْطَةَ وُلُوجٍ إِلَى مَنْطِقَةِ تَعَدِّي الْبِنْيَةِ، حَيْثُ لَمْ تَعُدِ الْإِرَادَةُ الْجَمْعِيَّةُ تَقْنَعُ بِالْمَسَارِ التَّكَيُّفِيِّ الْقَدِيمِ، بَلْ سَعَتْ إِلَى هَدْمِ أُسُسِ وُجُودِهَا كُلِّيًّا. وَفِي هَذَا التَّحْلِيلِ، لَا يَرُومُ الْبَاحِثُ إِصْدَارَ حُكْمٍ قِيمِيٍّ عَلَى صَوَابِ هَذِهِ الْأَهْدَافِ السِّيَاسِيَّةِ أَوْ خَطَئِهَا، بَلْ يَنْصَبُّ جُهْدُهُ عَلَى تَشْرِيحِ كَيْفِيَّةِ تَحَوُّلِ الطُّمُوحِ إِلَى طَاقَةٍ تَارِيخِيَّةٍ لَا تَنْفَكُّ. وَكُلَّمَا اتَّسَعَ نِطَاقُ تَعَدِّي الْحُدُودِ، رَصَدَ الْبَاحِثُ تَنَامِيَ قُوَّةِ الْمُقَاوَمَةِ كَنَتِيجَةٍ حَتْمِيَّةٍ. فَالِاحْتِكَاكُ الْحَاصِلُ لَيْسَ مُجَرَّدَ خِلَافٍ عَلَى مَصَالِحَ، بَلْ هُوَ تَجَلٍّ لِاخْتِلَالِ التَّوَازُنِ النَّاجِمِ عَنْ تَعَدِّي الْأَطْرَافِ الْفَاعِلَةِ لِحُدُودِهَا. وَفِي الْمُقَابِلِ، لَا يُمْكِنُ فَهْمُ سُقُوطِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ

عِنْدَ الْبَاحِثِ بِرَدِّهِ إِلَى ضُغُوطٍ خَارِجِيَّةٍ فَحَسْبُ، إِذْ يَعْمَلُ مِيكَانِيزْمُ النِّيمِيسِيس عَبْرَ نَسِيجٍ مُعَقَّدٍ بَيْنَ دَوَافِعَ خَارِجِيَّةٍ وَتَصَدُّعَاتٍ دَاخِلِيَّةٍ كَانَتْ تَكْمُنُ طَوِيلًا فِي بِنْيَةِ سُلْطَةٍ بَلَغَتْ مَرَحَلَةَ الْإِشْبَاعِ. فَلَمْ تَكُنِ الْقُوَى الْأَجْنَبِيَّةُ لِتَقْدِرَ عَلَى اخْتِرَاقِ النِّظَامِ لَوْلَا فَقْدُهُ لِقُوَّتِهِ الذَّاتِيَّةِ. فَالتَّشَظِّي السِّيَاسِيُّ، وَالْإِعْيَاءُ الِاقْتِصَادِيُّ، وَتَنَاحُرُ النُّخَبِ تُؤَكِّدُ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ قَدْ أَفْلَسَ فِي حِفَاظِهِ عَلَى التَّوَازُنِ الدَّاخِلِيِّ. فَالضُّغُوطُ الْخَارِجِيَّةُ، فِي رُؤْيَةِ الْبَاحِثِ، لَمْ تَكُنْ إِلَّا شَرَرًا عَجَّلَ بِفَنَاءِ بِنَاءٍ كَانَ يَتَآكَلُ مِنْ دَاخِلِهِ مُنْذُ زَمَنٍ.

وَتُظْهِرُ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ صُعُودِ الصَّهْيُونِيَّةِ وَسُقُوطِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ نَمَطًا تَدَاخُلِيًّا هُوَ سِمَةُ النِّيمِيسِيس. فَانْهِيَارُ نِظَامٍ مَا يفتحُ طَوْعًا ثُغْرَةً لِنِظَامٍ جَدِيدٍ لِكَيْ يَنْشَأَ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ كُلُّ انْتِصَارٍ تَارِيخِيٍّ فِي طَيَّاتِهِ أَعْبَاءَ تَوَتُّرٍ جَدِيدٍ يَسْتَدْعِي الْحَلَّ. وَيُؤَكِّدُ الْبَاحِثُ أَنَّ النِّيمِيسِيس لَيْسَ صُورَةً مِنَ الْمُحَاكَمَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، بَلْ هُوَ طَرِيقَةُ الْكَوْنِ فِي التَّصْحِيحِ لِكَيْ لَا يَصْمُدَ تَرْتِيبٌ سُلْطَوِيٌّ فِي مَوْقِعِ الْإِطْلَاقِ إِلَى الْأَبَدِ. فَكُلُّ ذِرْوَةٍ لِلسَّيْطَرَةِ تَحْمِلُ بِذُورَ الِانْعِفَاسِ، وَكُلُّ رُكَامِ عِمْرَانٍ يَصِيرُ مَنْبِتًا لِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ. وَيَكْمُنُ مَعْنَى النِّيمِيسِيس عِنْدَ الْبَاحِثِ فِي الرَّابِطِ بَيْنَ خِيَارَاتِ الْفَاعِلِينَ التَّارِيخِيِّينَ وَتَبِعَاتِهَا. فَسُقُوطُ الْعُثْمَانِيِّينَ هُوَ تَجَمُّعُ قَرَارَاتٍ دَاخِلِيَّةٍ أَنْهَكَتْ مَنَاعَةَ النِّظَامِ، بَيْنَمَا قَامَ نَجَاحُ الصَّهْيُونِيَّةِ عَلَى ثُغْرَاتٍ نَجَمَتْ عَنْ ضَعْفِ النِّظَامِ الْقَدِيمِ. إِنَّ التَّارِيخَ، مِنْ مَنْظُورِ الْبَاحِثِ، يَتَحَرَّكُ سِلْسِلَةً مِنَ التَّصْحِيحَاتِ الْمُمْتَدَّةِ لِكُلِّ صُوَرِ تَعَدِّي الْحُدُودِ، حَيْثُ لَا يُعَدُّ الْمَجْدُ وَالْفَنَاءُ حَدَثَيْنِ مُنْفَصِلَيْنِ، بَلْ جُزْءًا لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ نَبَضَاتِ عِمْرَانِ الْبَشَرِ.

يُقَدِّمُ بَحْثُ جَمَالِ بِلْقَاسِم (٢٠١٤) فِي مَقَالَتِهِ الْمَوْسُومَةِ بِالْهُوِيَّةِ وَمُرَاجَعَةِ الْمِيثُولُوجِيَا الْبَيْضَاءِ: سِيَاسَاتُ التَّمْثِيلِ، إِطَارًا نَظَرِيًّا رَصِينًا لِتَشْرِيحِ كَيْفِيَّةِ تَشَكُّلِ الْهُوِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ عَبْرَ السَّرْدِ وَالتَّمْثِيلِ. وَيَطْرَحُ بِلْقَاسِم إِشْكَالِيَّةً مَفَادُهَا أَنَّ الْهُوِيَّةَ لَيْسَتْ جَوْهَرًا سَاكِنًا، بَلْ هِيَ نِتَاجٌ خِطَابِيٌّ يَتَوَلَّدُ مِنْ خِلَالِ أَلْعَابِ اللُّغَةِ وَمُمَارَسَاتِ السُّلْطَةِ. وَبِاسْتِخْدَامِهِ

مَنْهَجَ تَحْلِيلِ الْخِطَابِ لَدَى مِيشِيل فُوكُو وَأَدَوَاتِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيّ لَدَى هُومِي بَابَا لِتَفْكِيكِ النَّمَطِيَّةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ، يَتَوَصَّلُ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى نَتِيجَةٍ مَفَادُهَا أَنَّ التَّمْثِيلَ الثَّقَافِيَّ، كَالسَّرْدِيَّاتِ حَوْلَ الشَّرْقِ، غَالِبًا مَا يَكُونُ بِنَاءً تَخَيُّلِيًّا يُوَظَّفُ لِإِسْبَاغِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الْهَيْمَنَةِ السِّيَاسِيَّةِ. وَتُؤَكِّدُ خَاتِمَتُهُ أَنَّ الْهُوِيَّةَ أَدَاةٌ اسْتِرَاتِيجِيَّةٌ تَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِتَوْزِيعِ السُّلْطَةِ، لَا بِحَقِيقَةٍ فَطْرِيَّةٍ.

وَيُوَفِّرُ هَذَا الْمَنْظُورُ مِجْهَرًا نَقْدِيًّا لِلْبَيَانَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِقُدُومِ الْجِنِرَالِ إِدْمُونْد آلِنْبِي وَتَحَالُفِ الْبِرِيطَانِيِّينَ مَعَ رُمُوزِ الصَّهْيُونِيَّةِ لِتَقْوِيضِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ. فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى هَذِهِ الْوَقَائِعِ عَبْرَ عَدَسَةِ بِلْقَاسِم، بَدَا تَحَوُّلُ الطُّمُوحِ الصَّهْيُونِيّ مِنْ حَرَكَةٍ بِدَائِيَّةٍ إِلَى قُوَّةٍ رَسْمِيَّةٍ مُتَمَثِّلَةٍ فِي فَيْلَقِ الْيَهُودِ تَحْتَ حِمَايَةِ الْبِرِيطَانِيِّينَ ضَرْبًا مِنْ سِيَاسَاتِ التَّمْثِيلِ الْمَصْنُوعَةِ عَمْدًا. وَعَبْرَ تَحْوِيلِ الطُّمُوحِ الذَّاتِيّ إِلَى إِجْرَاءَاتٍ تَبْدُو قَانُونِيَّةً عَقْلَانِيَّةً فِي إِطَارٍ عَسْكَرِيٍّ رَسْمِيٍّ، كَانَتِ الْحَرَكَةُ الصَّهْيُونِيَّةُ تُعِيدُ تَعْرِيفَ الْهُوِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ. إِنَّ هَذِهِ الصَّيْرُورَةَ تَتَنَاغَمُ مَعَ مَفْهُومِ نِيمِيسِيس الْأَثِينِيّ فِي نَظَرِيَّةِ نُورْثْرُوب فْرَاي، حَيْثُ يُضَحُّ الطُّمُوحُ –الَّذِي كَانَ يَوْمًا عَاطِفِيًّا– فِي نِظَامٍ قَانُونِيّ رَسْمِيٍّ، وِفْقَ غَايَةٍ مُحْكَمَةٍ لِتَيْسِيرِ احْتِلَالِ فِلَسْطِينَ احْتِلَالًا مَنْهَجِيًّا تَحْتَ مِظَلَّةِ الْقُوَى الِاسْتِعْمَارِيَّةِ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ مِيكَانِيزْمَ النِّيمِيسِيس هُوَ ظِلُّ التَّبِعَاتِ الْمُنْبَثِقَةِ مُبَاشَرَةً عَنِ الْأَفْعَالِ، وَالْخِيَارَاتِ، وَأَنْظِمَةِ السُّلُوكِ الَّتِي تَنْتَهِجُهَا كُلُّ حَضَارَةٍ. فَلَا يَحُلُّ الْفَنَاءُ قَطُّ بَغْتَةً كَجَائِحَةٍ تَنْهَالُ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ هُوَ ثَمَرَةُ تَكَدُّسِ التَّجَاوُزَاتِ الَّتِي تُرِكَتْ لِتَسْتَفْحِلَ حَتَّى بَلَغَتْ نُقْطَةَ الْإِشْبَاعِ الَّتِي لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا. وَفِي دَوْرَةِ حَيَاةِ الْمُجْتَمَعَاتِ، تَتَجَذَّرُ الِانْهِيَارَاتُ دَوْمًا فِي الْعَجْزِ عَنْ تَشْرِيحِ الضَّعْفِ الدَّاخِلِيّ، وَالتَّقْصِيرِ فِي رِعَايَةِ الْقِيَمِ الْجَوْهَرِيَّةِ، وَالْخَوَاءِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ التَّحَوُّلَاتِ بِحِكْمَةٍ. وَيَبْرُزُ النِّيمِيسِيس هُنَا مُذَكِّرًا بِأَنَّ دَيْمُومَةَ أَيِّ نِظَامٍ رَهِينَةٌ بِجَسَارَةِ أَهْلِهِ عَلَى التَّصْحِيحِ الذَّاتِيّ قَبْلَ أَنْ تَسْتَحِيلَ الزَّلَّاتُ الْيَسِيرَةُ أَزَمَاتٍ مُقْعِدَةً.

وَفِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، لَا يَدُورُ مَعْنَى آلِيَّةِ التَّصْحِيحِ هَذِهِ فِي فَلَكِ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ التَّارِيخِيِّ فَحَسْبُ، بَلْ يَمْتَدُّ لِيُلَامِسَ أَبْعَادَ الْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ. إِنَّ التَّرَاجُعَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةَ، وَالسِّيَاسِيَّةَ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةَ، وَالرُّوحِيَّةَ الَّتِي عَانَاهَا الشُّخُوصُ لَمْ تُنْتِجِ انْهِيَارًا مَنْظُورًا فَحَسْبُ، بَلْ خَلَقَتْ فَرَاغًا جَذَّابًا لِتَدَخُّلِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ. وَتُبَرْهِنُ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ عَلَى أَنَّ التَّأْثِيرَ السَّيِّئَ لَا يَقُومُ فِي فَضَاءٍ مُفَرَّغٍ، بَلْ يَزْدَهِرُ مِنْ خِلَالِ تَكَدُّسِ الضَّعْفِ الدَّاخِلِيِّ الَّذِي أَهْمَلَهُ الْمُجْتَمَعُ عَمْدًا.

وَتَتَجَلَّى بَرَاعَةُ الْبَحْثِ فِي كَشْفِ كَيْفِيَّةِ عَمَلِ هَذِهِ الْآلِيَّةِ مُحَرِّكًا سَرْدِيًّا يُوَضِّحُ أَنَّ الصَّيْرُورَةَ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةَ قَدْ تَحَرَّكَتْ بِالْفِعْلِ زَمَنًا طَوِيلًا قَبْلَ ظُهُورِ شَخْصِيَّةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ عَيَانًا. إِنَّ تَهَاوِي الْحَضَارَاتِ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ يُؤَكِّدُ أَنَّ الْخَطَرَ الْأَكْبَرَ لَا يَنْبَعُ مِنْ قُوَّةِ الْأَعْدَاءِ خَارِجَ الْكِيَانِ، بَلْ مِنْ فَقْدِ الْمُجْتَمَعِ قُدْرَتَهُ عَلَى الذَّوْدِ عَنِ الْمَبَادِئِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا وُجُودُهُ. فَلَا يُعَدُّ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ مُجَرَّدَ رَمْزٍ لِآخِرِ الزَّمَانِ يَبْزُغُ فَجْأَةً، بَلْ هُوَ ذِرْوَةُ مَسَارٍ تَدَهْوُرٍ مَدِيدٍ. وَكُلَّمَا تَمَادَى الْمُجْتَمَعُ فِي الِانْحِرَافِ، اتَّسَعَتِ الْأَبْوَابُ لِهَذَا التَّدَخُّلِ لِيُوَجِّهَ عَجَلَةَ التَّارِيخِ إِلَى غَايَاتِهِ.

وَفِي الْمُنْتَهَى، يُؤَكِّدُ الْبَاحِثُ أَنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ التَّبِعَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذَا الْأَثَرِ أَمْرٌ جَوْهَرِيٌّ. فَصَارَ النِّيمِيسِيس عَلَامَةً عَلَى وُصُولِ الْحَضَارَةِ إِلَى حُدُودِهَا الْقُصْوَى، حَيْثُ تَطْلُبُ تَبِعَاتُ خِيَارَاتِهَا الْجَزَاءَ، بَيْنَمَا يَضْطَلِعُ تَدَخُّلُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ بِدَوْرِ الْمُعَجِّلِ لِوَتِيرَةِ الْأَزَمَةِ. وَبِذَلِكَ، يُبَيِّنُ هَذَا الْبَحْثُ أَنَّ انْهِيَارَ الْحَضَارَاتِ لَيْسَ مَسْأَلَةَ سِجِلٍّ تَارِيخِيٍّ، بَلْ هُوَ جُزْءٌ مِنْ نَمَطٍ إِسْخَاتُولُوجِيٍّ مُحْكَمِ النَّسْجِ، يَنْشَأُ عَنْ تَفَاعُلِ الِانْحِرَافِ الْبَاطِنِيِّ، وَالتَّبِعَاتِ الْوَاقِعِيَّةِ، وَتَعَاظُمِ التَّأْثِيرِ الصَّارِفِ لِلْإِنْسَانِ عَنْ جَوْهَرِ فِطْرَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ.

ب) سُوبْلِيَانْت

يَرَى نُورْثْرُوب فْرَاي أَنَّ غَايَةَ السُّوبْلِيَانْت تَنْتَهِي إِلَى الْبَاتُوس، وَمَرْحَلَةُ الْبَاتُوسِ فِي هَذِهِ الْوُجْهَةِ أَعْلَى مَنْزِلَةً مِنَ الْمِيثُوس الرُّومَانْسِيّ. وَذَلِكَ لِأَنَّ مَسْتَوَى الْمُعَانَاةِ بِحَسَبِ رُؤْيَةِ نُورْثْرُوب أَكْثَرُ عُمْقًا، إِذْ إِنَّ أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ إِضْنَانًا هِيَ الِاقْتِصَاءُ عَنِ الْمُجْتَمَعِ. وَسَيَشْرَعُ الْبَاحِثُ فِي جَلِيِّ تَصَوُّرِ هَذَا الْمَفْهُومِ عَبْرَ نَافِذَةِ قِرَاءَةِ الْبَيَانَاتِ. وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ:

(٢٤) ارتكب اليهود في دير ياسين أبشع ما تم ارتكابه منذ دخولهم فلسطين لأول مرة، وكان قائدهم "مناحم بيجن". تابعهم "ماستيم"، الذي توسعت تشققات قناعه الأبيض حتى كاد أن يسقط من على وجهه. رأى "ماستيم" الجنود يطلقون أحزمة النار من مدافعهم الرشاشة، فتحصد أجسادًا وراءها أجسادًا، تحصد أطفالًا ونساءً، ورآهم وهم يرمون القنابل داخل المنازل، فتتناثر حولها أشلاء العائلات التي كانت تختبئ وراء تلك الجدران. (ص ١٢٠)

يُبَيِّنُ الْبَيَانُ فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مَذْبَحَةَ دَيْرِ يَاسِينَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي التَّاسِعِ مِنْ أَبْرِيلَ عَامَ أَلْفٍ وَتِسْعِمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٍ وَأَرْبَعِينَ، وَذَلِكَ قَبْلَ انْتِهَاءِ الِانْتِدَابِ الْبِرِيطَانِيِّ عَلَى فِلَسْطِينَ، وَقُبَيْلَ إِعْلَانِ قِيَامِ دَوْلَةِ إِسْرَائِيلَ فِي مَايُو مِنَ الْعَامِ نَفْسِهِ. وَكَانَ الْمُنَافِحُ الْأَوَّلُ فِي هَذِهِ التَّرَاجِيدِيَا هُوَ مَنَاحِيم بِيغِن، زَعِيمُ التَّنْظِيمِ الْعَسْكَرِيِّ الصِّهْيُونِيِّ السِّرِّيِّ الْمَعْرُوفِ بِاسْمِ إِرْغُون. فَقَدْ قَادَ بِيغِن هُجُومًا عَلَى قَرْيَةِ دَيْرِ يَاسِينَ، وَهِيَ قَرْيَةٌ عَرَبِيَّةٌ كَانَتْ قَدْ أَبْرَمَتْ عَهْدًا بِالسِّلْمِ مَعَ الْمُسْتَوْطَنَاتِ الْيَهُودِيَّةِ الْمُجَاوِرَةِ لَهَا. وَتَهَجَّمَتْ قُوَّاتُ إِرْغُون بِالتَّعَاوُنِ مَعَ عِصَابَةِ شْتِيرْن أَوْ لِيحِي عَلَى الْمَنَازِلِ، مُلْقِيَةً الْقَنَابِلَ دَاخِلَ الْحُجُرَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَأْوِي الْعَائِلَاتِ، وَمُطْلِقَةً النَّارَ عَلَى الْمَدَنِيِّينَ، بِمَنْ فِيهِمُ النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ الَّذِينَ حَاوَلُوا الْفِرَارَ مِنْ جَحِيمِ الْهَوْلِ. وَقَدْ تَعَمَّدَ هَؤُلَاءِ إِشَاعَةَ أَنْبَاءِ هَذِهِ الْمَذْبَحَةِ عَبْرَ آكِنَةِ الدِّعَايَةِ لِإِثَارَةِ ذُعْرٍ جَمْعِيٍّ عَارِمٍ. وَلَقَدْ أَفْلَحَتْ هَذِهِ التَّكْتِيكَاتُ فِي إِجْبَارِ مِئَاتِ الْآلَافِ مِنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ فِي الْقُرَى

الْأُخْرَى عَلَى النُّزُوحِ نَجَاةً بِحَيَاتِهِمْ، تَارِكِينَ أَرَاضِيَهُمْ وَدِيَارَهُمْ خَاوِيَةً لِيَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا الْمُهَاجِرُونَ الْيَهُودُ فِيمَا بَعْدُ.

لَا يَتَمَثَّلُ دَوْرُ السُّوبْلِيَانْت فِي هَذَا الْبَيَانِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ فِي انْخِرَاطِهِ فِي لَظَى الصِّرَاعِ، بَلْ فِي كَوْنِهِ مِعْيَارًا لِاخْتِبَارِ شَرْعِيَّةِ السُّلْطَةِ. فَحِينَ لَا يُثِيرُ مَا يُقَاسِيهِ الْمَرْءُ مِنَ الْهَوَانِ أَيَّ اسْتِجَابَةٍ لِلْحِمَايَةِ أَوِ التَّقْوِيمِ مِنْ قِبَلِ أُولِي الْأَمْرِ، فَلَا يَبْدُو عَلَى السَّطْحِ عَجْزٌ شَخْصِيٌّ، بَلْ يَنْكَشِفُ تَآكُلُ النِّظَامِ الْأَخْلَاقِيِّ الَّذِي كَانَ يَرْتَكِزُ عَلَيْهِ ذَاكَ الْكِيَانُ. وَقَدْ رَصَدَ الْبَاحِثُ انْزِيَاحًا قِيمِيًّا حَادًّا فِي الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالضَّحِيَّةِ؛ فَالسُّلْطَةُ لَمْ تَعُدْ تَنْهَضُ عَلَى أَسَاسِ الْمَسْؤولِيَّةِ تُجَاهَ رَفَاهِ الرَّعِيَّةِ، بَلْ أَضْحَتْ مَحْصُورَةً فِي طَرَائِقِ تَوْطِيدِ الطَّاعَةِ دُونَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ شُعُورٍ بِوَاجِبِ بَلْسَمَةِ الْجِرَاحِ الَّتِي أَوْجَدَتْهَا. فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، لَا تُعَدُّ الضَّحِيَّةُ إِنْسَانًا ذَا حُقُوقٍ أَصِيلَةٍ، بَلْ صَارَتْ مَوْضُوعًا يُبَيِّنُ مَدَى فَعَّالِيَّةِ النِّظَامِ فِي السَّيْطَرَةِ عَلَى حَيِّزِ الْعَيْشِ. وَكُلَّمَا اشْتَدَّتْ مِحْنَةُ الضَّحِيَّةِ، تَبَدَّتْ أَكْثَرَ مَعَالِمُ قُوَّةِ الْهَيْمَنَةِ الْمُسْتَعْرَضَةِ.

وَتُصْبِحُ مَثُولُ السُّوبْلِيَانْت تِلْقَائِيًّا مِحَكًّا لِشَرْعِيَّةِ أَيِّ نِظَامٍ. وَتُبَرْهِنُ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ عَلَى أَنَّ السُّلْطَةَ تَخُوضُ مَرْحَلَةَ انْتِقَالٍ مِنْ تَرْتِيبٍ يُعْلِي مِنْ شَأْنِ الْعَدْلِ إِلَى آخَرَ يَمْضِي فِي طَرِيقِهِ دُونَ اكْتِرَاثٍ بِأَيِّ مَبْدَأٍ أَخْلَاقِيٍّ. وَعِنْدَمَا يُتْرَكُ الْبَلَاءُ يَسْتَفْحِلُ دُونَ مَسَاعٍ لِتَقْوِيمِ الْأَحْوَالِ، لَا نَكُونُ أَمَامَ أَزْمَةٍ إِدَارِيَّةٍ عَادِيَّةٍ، بَلْ أَمَامَ انْهِيَارٍ هَيْكَلِيٍّ فِي الشَّرْعِيَّةِ. فَرُبَّمَا يَقْدِرُ النِّظَامُ عَلَى مُوَاصَلَةِ الْعَمَلِ إِدَارِيًّا، لَكِنَّهُ فَارِقَ الرُّوحَ الَّتِي كَانَتْ عِلَّةَ قَبُولِ الْمُجْتَمَعِ لَهُ. فِي هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْحَالَةِ، يَشْهَدُ الْعَالَمُ الْمُصَوَّرُ فِي السَّرْدِ تَفَكُّكًا قِيمِيًّا، حَيْثُ يَتَخَلَّى أُولُو الْأَمْرِ تَمَامًا عَنْ مَسْؤولِيَّتِهِمُ الْأَخْلَاقِيَّةِ. فَلَمْ تَعُدِ السُّلْطَةُ تُقَاسُ بِمَا تُحَقِّقُهُ مِنْ طُمَأْنِينَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ، بَلْ بِمَا تَمْلِكُهُ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى صِيَانَةِ الْقَبْضَةِ عَبْرَ إِعْمَالِ مَعَانَاةٍ مُصَمَّمَةٍ مَنْهَجِيًّا. وَفِي النِّهَايَةِ، لَيْسَ السُّوبْلِيَانْت إِلَّا مِرْآةً تَعْكِسُ مَدَى فَقْدِ ذَاكَ التَّرْتِيبِ لِبَوْصَلَتِهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ.

وَيُؤَكِّدُ الْبَاحِثُ أَنَّ كُلَّمَا بَرَعَ النِّظَامُ فِي إِنْتَاجِ الْمَعَانَاةِ دُونَ أَدْنَى إِرَادَةٍ لِلِاسْتِدْرَاكِ، تَجَلَّى أَنَّ هَذَا الْهَيْكَلَ يَقِفُ عَلَى حَافَّةِ التَّفَكُّكِ الْأَخْلَاقِيِّ. فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، تَخَلَّصَتِ السُّلْطَةُ مِنْ أُطُرِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ وَأَوْلَتْ جُلَّ اعْتِمَادِهَا عَلَى الْقَسْرِ أَدَاةً لِلْإِكْرَاهِ. فَيُضْحِي السُّوبْلِيَانْت هُنَا عَلَامَةً فَارِقَةً تَكْشِفُ مِيتَامُورْفُوزَا جَوْهَرِيَّةً فِي آلِيَّةِ عَمَلِ النِّظَامِ: مِنَ بِنْيَةٍ كَانَتْ تَرْعَوِي لِمَبَادِئِ الْعَدْلِ، إِلَى مِكَنَةِ عَمَلٍ بَارِدَةٍ، قَاسِيَةٍ، وَعَزُوفَةٍ تَمَامًا عَنْ قِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

يَحْظَى التَّحْلِيلُ السَّابِقُ بِارْتِبَاطٍ وَثِيقٍ بِبَحْثِ جَمَالِ بِلْقَاسِم (٢٠١٤) كَدِرَاسَةٍ تَأْسِيسِيَّةٍ فِي مَقَالَتِهِ الْمَوْسُومَةِ بِالْهُوِيَّةِ وَمُرَاجَعَةِ الْمِيثُولُوجِيَا الْبَيْضَاءِ: سِيَاسَاتُ التَّمْثِيلِ، حَيْثُ يُعَالِجُ كَيْفِيَّةَ هَيْمَنَةِ الْخِطَابِ الْغَرْبِيِّ عَلَى مَنْظُومَةِ تَفْكِيرِ مُجْتَمَعَاتِ مَا بَعْدَ الِاسْتِعْمَارِ مِنْ خِلَالِ دَعَاوَى الْعَقْلَانِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ الْمُتَحَيِّزَةِ. وَبِاسْتِخْدَامِهِ مَنَاهِجَ نَقْدِيَّةً تَقُومُ عَلَى مَا بَعْدَ الْبِنْيَوِيَّةِ، وَالدِّرَاسَاتِ الثَّقَافِيَّةِ، وَنَظَرِيَّاتِ مَا بَعْدَ الِاسْتِعْمَارِ، يَضَعُ بِلْقَاسِم إِشْكَالِيَّةً حَوْلَ كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ الْهُوِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ بِنَاءً اسْتِرَاتِيجِيًّا لِإِدَامَةِ الْهَيْمَنَةِ. وَتُبَيِّنُ نَتَائِجُ تَحْلِيلِهِ أَنَّ الْمِيثُولُوجِيَا الْبَيْضَاءَ وَالصُّوَرَ النَّمَطِيَّةَ الْعُنْصُرِيَّةَ تَعْمَلُ بِصُورَةٍ مِعْيَارِيَّةٍ مُزْدَوِجَةٍ لِتَهْمِيشِ الْآخَرِ، حَيْثُ تُحَوِّلُ الْقُوَى الِاسْتِعْمَارِيَّةُ الْهُوِيَّةَ الْمَحَلِّيَّةَ إِلَى مَيْدَانٍ لِلتَّآمُرِ. وَتُؤَكِّدُ خَاتِمَةُ بِلْقَاسِم أَنَّ طُغْيَانَ سِيَاسَاتِ التَّمْثِيلِ هَذَا لَا يُقَاوَمُ إِلَّا بِوَعْيٍ سِيَاسِيٍّ نَقْدِيٍّ يَتَفَحَّصُ الْمُمَارَسَاتِ الْخِطَابِيَّةَ، لَا بِالتَّنْقِيبِ عَنْ جَوْهَرٍ ذَاتِيٍّ سَاكِنٍ.

إِنَّ هَذَا التَّرَابُطَ يَبْدُو جَلِيًّا عِنْدَ تَشْرِيحِ مَذْبَحَةِ دَيْرِ يَاسِينَ عَامَ ١٩٤٨م تَحْتَ قِيَادَةِ مَنَاحِيم بِيغِن، إِذْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْحَدَثُ عُنْفًا جَسَدِيًّا مَحْضًا، بَلْ هُوَ تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لِسِيَاسَاتِ التَّمْثِيلِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ الَّتِي أَوْرَدَهَا بِلْقَاسِم. فَعَبْرَ آكِنَةِ الدِّعَايَةِ الْمُثِيرَةِ لِلذُّعْرِ الْجَمْعِيِّ، عَمِدَتْ عِصَابَاتُ إِرْغُون وَشْتِيرْن إِلَى إِنْتَاجِ سَرْدِيَّاتِ الْإِرْهَابِ لِإِكْرَاهِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ عَلَى إِخْلَاءِ أَرَاضِيهِمْ، وَهِيَ تِكْتِيكَاتٌ خِطَابِيَّةٌ تُحَوِّلُ الْوَاقِعَ الْإِنْسَانِيَّ إِلَى مَسَاحَاتٍ خَاوِيَةٍ لِتَمْهِيدِ طَرِيقِ الشَّرْعِيَّةِ لِلِاحْتِلَالِ الْجَدِيدِ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَذْبَحَةَ تُعَدُّ ضَرْبًا مِنَ الْمِيثُولُوجِيَا الْبَيْضَاءِ الَّتِي

تُوَظِّفُ الْعُنْفَ أَدَاةً لُغَوِيَّةً لِتَقْوِيضِ الْهُوِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ وَفَرْضِ وَاقِعٍ سِيَاسِيٍّ مُسْتَحْدَثٍ، وَهُوَ مَا يَسْتَوْجِبُ وِفْقَ إِطَارِ بِلْقَاسِم تَفْكِيكَ السَّرْدِيَّاتِ لِكَيْلَا يُنْظَرَ إِلَى تِلْكَ الْهَيْمَنَةِ النِّظَامِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا حَقِيقَةٌ مُطْلَقَةٌ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ مَوْقِعَ جَمَاعَةِ السُّوبْلِيَانْت فِي دِينَامِيَّاتِ الْمُجْتَمَعِ يَعْكِسُ –فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ مَصِيرَ مَنْ يَعْدُونَ مَحْصُورِينَ بَيْنَ رَحَيَ التَّغْيِيرِ السُّلْطَوِيِّ، دُونَ أَنْ يَمْلِكُوا لِأَنْفُسِهِمْ قَرَارًا فِي تَوْجِيهِ مَسَارِهَا. وَتُعَدُّ مَثُولُهُمْ بُرْهَانًا جَلِيًّا عَلَى أَنَّ الْهَيْمَنَةَ السِّيَاسِيَّةَ لَا تَقُومُ دَوْمًا عَلَى أُسُسِ الشَّرْعِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، بَلْ هِيَ فِي الْغَالِبِ نِتَاجُ مِيكَانِيزْمَاتِ قُوَّةٍ تُضَحِّي بِالْأَطْرَافِ الْأَكْثَرِ هَشَاشَةً. وَفِي سِيَاقِ الْحَضَارَاتِ، يُعَدُّ ظُهُورُ هَذِهِ الْفِئَاتِ الْمُهَمَّشَةِ مُؤَشِّرًا قَوِيًّا عَلَى أَنَّ النِّظَامَ الْقَائِمَ يَعِيشُ حَالَةً مِنَ التَّفَسُّخِ الْأَخْلَاقِيِّ، حَيْثُ تَضَاءَلَتْ وَظِيفَةُ السُّلْطَةِ الْأَسَاسِيَّةُ فِي حِمَايَةِ الرَّعِيَّةِ حَتَّى تَلاشَتْ. إِنَّ مَا يُقَاسُونَهُ مِنَ الْهَوَانِ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَابِعَةٍ لِصِرَاعٍ سِيَاسِيٍّ، بَلْ هُوَ إِشَارَةُ خَطَرٍ تُنْبِئُ بِأَنَّ النِّظَامَ الْجَارِيَ عَمَلُهُ قَدْ فَقَدَ بَوْصَلَةَ الْقِيَمِ الَّتِي كَانَتْ تَحْرُسُ بَقَاءَ الْمُجْتَمَعِ.

وَفِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، يَكْتَسِبُ مَوْقِعُ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ ثِقْلًا أَعْظَمَ، إِذْ لَا يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ كَضَحَايَا لِتَنَاحُرِ السُّلْطَةِ فَحَسْبُ، بَلْ هُمُ الْفَرِيقُ الْأَشَدُّ تَأَثُّرًا بِعَمَلِيَّاتِ تَسَرُّبِ الْقِيَمِ الْمُفْسِدَةِ لِلنَّسِيجِ الِاجْتِمَاعِيِّ. وَيَجِدُ الْبَاحِثُ أَنَّ التَّدَخُّلَ لَا يَبْدَأُ دَوْمًا بِهَجَمَاتٍ تَدْمِيرِيَّةٍ فَجَّةٍ، بَلْ يَسْرِي عَبْرَ إِشْكَالِ قَضْمِ مَبَادِئِ الْعَدْلِ بِرِفْقٍ، وَتَطْبِيعِ مُمَارَسَاتِ الِاضْطِهَادِ بِاسْمِ الِاسْتِقْرَارِ أَوِ الْمَصَالِحِ السِّيَاسِيَّةِ. فَعِنْدَمَا لَا يَعُدُّ شَقَاءُ الضُّعَفَاءِ مَسْأَلَةً أَخْلَاقِيَّةً، بَلْ يُنْظَرُ إِلَيْهِ كَضَرِيبَةٍ سَائِغَةٍ فِي سَبِيلِ تَثْبِيتِ أَرْكَانِ السُّلْطَةِ، فَإِنَّ الْحَضَارَةَ عِنْدَئِذٍ تَكُونُ قَدْ شَهِدَتْ انْزِيَاحًا جَوْهَرِيًّا غَايَةً فِي الْخُطُورَةِ.

وَتَكْمُنُ بَرَاعَةُ هَذَا الْبَحْثِ فِي الْكَشْفِ عَنِ السُّوبْلِيَانْت كَأَدَاةٍ رَاصِدَةٍ لِنُمُوِّ التَّأْثِيرَاتِ الْمُفْسِدَةِ فِي جَسَدِ الْحَضَارَةِ. فَمَهْمَا تَصَاعَدَ تَطْبِيعُ الْمَعَانَاةِ عَلَى الْعَاجِزِينَ، تَبَاعَدَ الْمُجْتَمَعُ

عَنْ غَايَاتِ الْعَدْلِ الَّتِي تُمَثِّلُ رُوحَ وُجُودِهِ. وَفِي الْإِطَارِ الْإِسْخَاتُولُوجِيِّ لِلرِّوَايَةِ، لَا تُعَدُّ هَذِهِ الْحَالَةُ دِينَامِيَّةً اجْتِمَاعِيَّةً مَحْضَةً، بَلْ جُزْءًا مِنْ صَيْرُورَةٍ تَارِيخِيَّةٍ تُرْعِدُ بِفَتْحِ الْأَبْوَابِ لِهَيْمَنَةٍ أَكْثَرَ اتِّسَاعًا. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ هَشَاشَتَهُمْ لَيْسَتْ مَأْسَاةً إِنْسَانِيَّةً، بَلْ عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّ الْحَضَارَةَ فَقَدَتْ قُدْرَتَهَا عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ سُلْطَةٍ شَرْعِيَّةٍ أَخْلَاقِيًّا وَأُخْرَى لا تَسْتَنِدُ إِلَّا إِلَى الِاسْتِغْلَالِ.

إِنَّ هَذِهِ النَّتَائِجَ تُبَيِّنُ أَنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ جَمَاعَةِ الضَّحَايَا وَالْأَنْطِمَةِ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوسَ ذَاتُ طَابَعٍ هَيْكَلِيٍّ رَصِينٍ. فَمَثُولُهُمْ هُوَ مِرْآةٌ لِعَمَلِيَّةِ التَّدَهْوُرِ الْأَخْلَاقِيِّ الَّتِي تَفْتَحُ الْمَجَالَ لِلْقُوَى التَّدْمِيرِيَّةِ لِتَعْمَلَ بِحُرِّيَّةٍ فِي أَوْسَاطِ النَّاسِ. وَكُلَّمَا تَهَاوَتِ الْحِمَايَةُ عَنِ الضُّعَفَاءِ، تَعَاظَمَتِ الْفُرَصُ لِبُرُوزِ نِظَامٍ يُنَاقِضُ مَبَادِئَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْحَقَّةَ. وَيُؤَكِّدُ الْبَحْثُ أَنَّ اخْتِيَارَ تَرْتِيبِ الْقِيَمِ لَيْسَ شَأْنًا تَارِيخِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ تَجَسُّدٌ حَقِيقِيٌّ لِتَهَاوِي حِصْنِ الْعَدْلِ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَلَاذَ الْأَخِيرَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ أَيِّ ضَرْبٍ مِنَ الطُّغْيَانِ.

ج) كُورُوس

يَنْعَزِلُ الْبَطَلُ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ تَدْرِيجِيًّا عَنِ الْجُمْهُورِ؛ لِعِلَّةِ قَرَارَاتِهِ الَّتِي تَتَبَايَنُ مَعَ تَوْجُهَاتِ الْأَغْلَبِيَّةِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، يَنْضَمُّ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى كُورُوسِ الْأَبْطَالِ مَعَ اتِّخَاذِ الْبَطَلِ لِمَوْقِفِهِ. وَعَلَيْهِ، تَشْهَدُ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ انْقِسَامًا إِلَى مَعَسْكَرَيْنِ: مَعَسْكَرُ الْبَطَلِ، وَمَعَسْكَرُ مَنْ لَا يَمِيلُونَ إِلَى صَفِّ الْبَطَلِ.

(٢٥) صاح قائدهم: أنت محاصر يا "عز الدين".. عليك أن تستسلم، فلا قِبَل لك بهم.. فرد عليه "عز الدين": بل نحن في مقام لم تعرفه بعد.. نحن في مقام الجهاد.. ومن خرج في هذا المقام لا يصح أن يستسلم إلا لله. (ص ١١٩)

يَرْوِي الْبَيَانُ فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ لَحْظَةَ عَزْمِ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ الْقَسَّامِ عَلَى حَمْلِ السِّلَاحِ مُجَاهِدًا ضِدَّ الِاسْتِعْمَارِ الْبِرِيطَانِيِّ، وَصَدِّ تَيَّارِ الْهِجْرَةِ الْيَهُودِيَّةِ الصَّهْيُونِيَّةِ. لَقَدْ

تَرَكَ السَّاسَةُ الْعَرَبُ الشَّيْخَ عِزَّ الدِّينِ الْقَسَّامَ وَأَنْصَارَهُ يواجهون مَصِيرَهُمْ وَحْدَهُمْ، إِذِ انْخَدَعَ كَبِيرُ الْعَرَبِ شَرِيفُ مَكَّةَ بِوُعُودِ الْبِرِيطَانِيِّينَ الْمُعَسَّلَةِ؛ حَيْثُ مَنَّاهُ الِاسْتِعْمَارُ بِتَأْسِيسِ مَمْلَكَةٍ تَحْتَ لِوَائِهِ، شَرِيطَةَ أَنْ يُعَاوِنَهُمْ فِي تَقْوِيضِ أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَيَنْخَرِطَ فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى إِلَى جَانِبِ قُوَّاتِ الْحُلَفَاءِ. وَفِي الْمُنْتَهَى، قَادَ شَرِيفُ مَكَّةَ بِمَا تَجَمَّعَ لَدَيْهِ مِنَ الْقُوَى ثَوْرَةً ضِدَّ الْعُثْمَانِيِّينَ، مِمَّا أَدَّى إِلَى تَهَالُكِ الْقَاعِدَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ. وَلَمْ يُدْرِكْ هَؤُلَاءِ أَنَّ أَرَاضِيَ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ قَدْ أُقْسِمَتْ بَيْنَ الْبِرِيطَانِيِّينَ وَالْفَرَنْسِيِّينَ وَفْقَ اتِّفَاقِيَّةِ سَايْكْس بِيكُو، الَّتِي مَهَّدَتْ لِوَعْدِ بَالْفُورَ بِمَنْحِ فِلَسْطِينَ لِلْيَهُودِ الصَّهْيُونِيِّينَ.

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ الْكْرُونُولُوجِيِّ، يَتَبَوَّأُ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ الْقَسَّامُ مَوْقِعَ الْمُقَاوِمِ لِلفِرْقَةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ؛ حَيْثُ اخْتَارَ طَرِيقَ الْمُجَاهَدَةِ، وَارْتَحَلَ إِلَى الْبَادِيَةِ رُفْقَةَ أَتْبَاعِهِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْفَلَّاحِينَ. وَلَكِنْ، لَقَدْ كَانَتْ نِهَايَةُ فِرْقَةِ الْمُقَاوَمَةِ الشَّعْبِيَّةِ الَّتِي قَادَهَا الْقَسَّامُ مَأْسَاوِيَّةً، إِذْ أُحِيطَ بِهِ وَبِجَيْشِهِ مِنْ قِبَلِ آلَافِ الْجُنُودِ مِنَ الِاسْتِعْمَارِ الْبِرِيطَانِيِّ فِي أَحْرَاشِ يَعْبَدَ.

تَنْبَثِقُ عُزْلَةُ الْبَطَلِ حِينَ لَا تَجِدُ الْمَبَادِئُ الَّتِي يَتَمَسَّكُ بِهَا حَيِّزًا لِلصَّدَى فِي سِيَاقِ تَحَوُّلِ الْوَعْيِ الْجَمْعِيِّ لِمُجْتَمَعِهِ. وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ، لَا تَعُدُّ الْغُرْبَةُ الْمُحَسُوسَةُ مُجَرَّدَ تَشَظٍّ بَاطِنِيٍّ ذَاتِيٍّ، بَلْ هِيَ أَثَرٌ هَيْكَلِيٌّ لِتَبَدُّلِ التَّوَجُّهَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْ مَكَانَةَ الشَّخْصِيَّةِ تَفْقِدُ رَكِيزَةَ شَرْعِيَّتِهَا. لَقَدْ مَثَّلَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ الْقَسَّامُ صُورَةَ الرَّمْزِ الْمُسْتَمْسِكِ بِدَيْمُومَةِ الْقِيمَةِ، فِي حِينِ كَانَ الْمُحِيطُ السِّيَاسِيُّ بِهِ يَشْهَدُ إِعَادَةَ تَكْيِيفٍ كُبْرَى. فَبَعْدَ انْهِيَارِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، مَالَتْ نُخْبَةُ السَّاسَةِ الْعَرَبِ إِلَى انْتِهَاجِ دَرْبِ الْمُسَاوَمَةِ مَعَ الْقُوَى الِاسْتِعْمَارِيَّةِ، وَهِيَ خُطْوَةٌ غَيَّرَتْ جِذْرِيًّا خَرِيطَةَ عَلَاقَاتِ الْقُوَّةِ. وَفِي خِضَمِّ هَذَا التَّيَّارِ، لَمْ يَعُدِ الْمَوْقِفُ الْمُقَاوِمُ لِلْقَسَّامِ جُزْءًا مِنَ الْإِجْمَاعِ السِّيَاسِيِّ، بَلْ أَضْحَى قَائِمًا خَارِجَ قُطْبِ الْهَيْمَنَةِ الْمُتَشَكِّلِ حِينَئِذٍ. فَكَانَتِ الْعُزْلَةُ الَّتِي عَانَاهَا نَتِيجَةً مَنْطِقِيَّةً لِلتَّبَايُنِ بَيْنَ الْمَبَادِئِ الَّتِي حَفِظَهَا وَبَيْنَ تَحَوُّلِ الْبُنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الْجَارِيَةِ.

وَفِي هَذِهِ الْحِقْبَةِ الِانْتِقَالِيَّةِ، لَمْ يَنْهَرِ النِّظَامُ الْقَدِيمُ كُلِّيًّا، وَلَمْ يَقْدِرِ النِّظَامُ الْجَدِيدُ عَلَى بَسْطِ اسْتِقْرَارٍ قِيمِيٍّ رَاسِخٍ. أَضْحَى الْفَضَاءُ الِاجْتِمَاعِيُّ ضَابِيًّا وَفَاقِدًا لِوَجْهَتِهِ، مِمَّا جَعَلَ كُلَّ مَنْ ظَلَّ صَامِدًا عَلَى الْمَبَادِئِ الْأُولَى يَبْدُو أَكْثَرَ اغْتِرَابًا عَنْ مُحِيطِهِ. وَيَرَى الْبَاحِثُ أَنَّ غُرْبَةَ الْقَسَّامِ لَيْسَتْ ضَرْبًا مِنْ إِخْفَاقِ الْفَرْدِ، بَلْ هِيَ مُؤَشِّرٌ عَلَى حُدُوثِ تَحَوُّلٍ جَوْهَرِيٍّ فِي بِنْيَةِ الْمُجْتَمَعِ. لَقَدْ تَجَسَّدَتِ الشَّخْصِيَّةُ فِي صُورَةِ مِحَكٍّ لِلتَّوَتُّرِ بَيْنَ الْقِيَمِ الْمِثَالِيَّةِ وَالْوَاقِعِ السِّيَاسِيِّ الْمُتَقَلِّبِ. وَأَصْبَحَتِ الْفَجْوَةُ الْمُتَّسِعَةُ بَيْنَهُمَا بَيِّنَةً عَلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ الْأَخْلَاقِيَّ الَّذِي كَانَ يَرْبِطُ الْمُجْتَمَعَ قَدْ أَصَابَهُ التَّلَاشِي. وَكُلَّمَا اتَّسَعَتِ الْهُوَّةُ بَيْنَ مِثَالِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَبَرَاجِمَاتِيَّةِ السِّيَاسَةِ النَّامِيَةِ، اشْتَدَّتْ حِدَّةُ الْعُزْلَةِ الْمُحِيطَةِ بِهِ.

وَلَمْ تَكُنْ وَاقِعَةُ الْحِصَارِ فِي يَعْبَدَ مَحْضَ صِدَامٍ عَسْكَرِيٍّ مَأْسَاوِيٍّ، بَلْ كَشَفَتْ عَنْ تَحَوُّلٍ فِي طَبِيعَةِ النِّزَاعِ ذَاتِهِ. فَلَمْ يَعُدِ التَّصَادُمُ هُنَا بَيْنَ قُوَى مُتَكَافِئَةٍ فِي الرُّؤَى، بَلْ أَضْحَى بَيْنَ فَرْدٍ مُسْتَمْسِكٍ بِمَبْدَئِهِ وَنِظَامٍ فَقَدَ وِجْهَتَهُ. إِنَّ النَّتِيجَةَ النِّهَائِيَّةَ لِهَذَا الْحَدَثِ لَمْ تَكُنْ مَرْهُونَةً بِصَلَابَةِ الْفَرْدِ الْجَسَدِيَّةِ، بَلْ بِانْعِدَامِ السَّنَدِ الْهَيْكَلِيِّ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُؤَازِرَ الْقِيَمَ الَّتِي نَاضَلَ مِنْ أَجْلِهَا. وَحِينَ تَلَاشَى هَذَا الدَّعْمُ، مَا عَادَتِ الْعُزْلَةُ خِيَارًا لِلْبَطَلِ، بَلْ حُكْمًا قَدَرِيًّا صَاغَتْهُ الْبِنْيَةُ ذَاتُهَا.

وَيَكْشِفُ تَمْثِيلُ شَخْصِيَّةِ الْقَسَّامِ فِي هَذَا الْبَحْثِ عَنْ نَمَطِ ظُهُورِ رَمْزِ الثَّبَاتِ فِي زَمَنِ انْدِثَارِ الِاتِّفَاقَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ. إِنَّهُ لَمْ يَحُزْ مَوْقِعَ الظَّافِرِ فِي حِسَابَاتِ السِّيَاسَةِ الْعَمَلِيَّةِ، لَكِنَّهُ قَامَ نُقْطَةَ ارْتِكَازٍ لِقِرَاءَةِ تَحَوُّلِ تَوَجُّهَاتِ الْمُجْتَمَعِ. فَكَانَتِ الْعُزْلَةُ الْمُحِيطَةُ بِهِ لَيْسَتْ هَزِيمَةً، بَلْ عَلَامَةً عَلَى حُدُوثِ تَحَوُّلٍ قِيمِيٍّ أَوْسَعَ مِنْ مُجَرَّدِ تَبَدُّلِ السُّلْطَةِ. وَعَبْرَ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ، يَتَبَيَّنُ لِلْبَاحِثِ أَنَّ صَيْرُورَةَ الْأُمَّةِ لَا تَتَحَقَّقُ عَلَى الْمُسْتَوَى الْإِدَارِيِّ فَحَسْبُ، بَلْ تَمْتَدُّ لِتَشْمَلَ هَدْمَ وَإِعَادَةَ بِنَاءِ شَرْعِيَّةِ الْقِيَمِ الَّتِي كَانَتْ طَوِيلًا رَكِيزَةً لِحَيَاةِ الْمُجْتَمَعِ.

يَحْظَى التَّحْلِيلُ السَّابِقُ بِتَشَابُهٍ مَعَ دِرَاسَةِ مُحَمَّد حُسَيْن مَحْجُوب (٢٠١٧) الْمَوْسُومَةِ بِدَوْرِ الْمِيثُولُوجِيَا الْيُونَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ فِي تَشَكُّلِ الْفَلْسَفَةِ الْأُولَى، حَيْثُ يَنْصَبُّ جُلُّ اهْتِمَامِهَا عَلَى كَيْفِيَّةِ إِدْخَالِ طَائِفَةِ الْأُرْفِيَّةِ لِمَفْهُومِ الِانْفِصَالِ الْمُطْلَقِ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْجَسَدِ، مُوَظِّفَةً فِي ذَلِكَ الْمَنْهَجَ الْوَصْفِيَّ التَّحْلِيلِيَّ وَنَقْدَ النُّصُوصِ التَّارِيخِيَّةِ لِلْمَلَاحِمِ الْأَدَبِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ الْغَابِرَةِ. وَتُثْبِتُ نَتَائِجُ تِلْكَ الدِّرَاسَةِ أَنَّ طَائِفَةَ الْأُرْفِيَّةِ تَنْظُرُ إِلَى النَّفْسِ كَكِيَانٍ مُقَدَّسٍ مُعْزَلٍ عَنْ كُلِّ دِينَامِيَّاتِ الْمَادَّةِ فِي الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، وَمِنْ هَذِهِ الْعُزْلَةِ بَاتَتِ النَّفْسُ تَبْلُغُ كَمَالَهَا عَبْرَ صَيْرُورَةِ التَّطْهِيرِ الذَّاتِيِّ الْمُسْتَقِلِّ.

وَيَتَجَلَّى التَّرَابُطُ بَيْنَ هَذَا الْكُشْفِ وَبَيْنَ قِصَّةِ نِضَالِ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ الْقَسَّامِ فِي الرِّوَايَةِ، إِذْ تُبِينُ كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ نَمَطًا وَاحِدًا؛ فَالْعُزْلَةُ لَيْسَتْ دَوْمًا ضَرْبًا مِنَ الْهَزِيمَةِ، بَلْ قَدْ تَكُونُ فَضَاءً تَنْمُو فِيهِ الْمَبَادِئُ الْأَصْفَى وَتَشْتَدُّ. وَحِينَ اخْتَارَ جَمِيعُ سَادَةِ الْعَرَبِ دَرْبَ الْمُسَاوَمَةِ مَعَ الْقُوَى الِاسْتِعْمَارِيَّةِ، آثَرَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ الْقَسَّامُ الْعُزْلَةَ رُفْقَةَ الْفَقِيرِينَ وَالْفَلَّاحِينَ فِي الْأَعْمَاقِ، وَمِنْ تِلْكَ الْعُزْلَةِ شَيَّدَ مُقَاوَمَةً هِيَ الْأَنْقَى مِنْ دَنَسِ الْمَصَالِحِ السِّيَاسِيَّةِ. وَيَكْمُنُ التَّبَايُنُ فِي الْأَبْعَادِ؛ فَإِذَا كَانَتْ طَائِفَةُ الْأُرْفِيَّةِ تَرَى الْعُزْلَةَ مَسْلَكًا رُوحِيًّا فَرْدِيًّا نَحْوَ كَمَالِ الْبَاطِنِ، فَإِنَّ عُزْلَةَ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ الْقَسَّامِ فِي الرِّوَايَةِ تَضْطَلِعُ بِوَظِيفَةِ مَسْلَكٍ جَمْعِيٍّ نَحْوَ مُقَاوَمَةٍ مَاجِدَةٍ، مِمَّا يُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقِفُونَ بَعِيدًا عَنِ الْمُسَاوَمَاتِ هُمُ الَّذِينَ يَقِفُونَ قُرْبًا مِنَ الْحَقِّ الَّذِي يُنَاضِلُونَ فِي سَبِيلِهِ.

يَجْدُرُ بِالْمَرْءِ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ خُلَاصَةَ الْبَحْثِ تُبَيِّنُ حَقِيقَةَ جَمَاعَةِ حُرَّاسِ الْوَعْيِ، الَّذِينَ لَيْسُوا فِي السَّرْدِ الْمَذْكُورِ مُجَرَّدَ رُؤَاةٍ، بَلْ هُمْ مَظْهَرُ شُذُوذٍ يَرْفُضُ التَّيَّارَ الْجَارِفَ مِنَ الِانْحِرَافَاتِ. فَحِينَ يَبْدَأُ جُمْهُورُ النَّاسِ فِي مُقَايَضَةِ الْمَبَادِئِ بِالرَّاحَةِ، يَغْدُو هَؤُلَاءِ الرَّمْزُ مُذَكِّرِينَ بِأَنَّ أَرْكَانَ الْحَضَارَةِ تَتَمَايَلُ. وَإِنْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ قُوَّةً مَادِّيَّةً لِتَغْيِيرِ السِّيَاسَاتِ، فَإِنَّ أَصْوَاتَهُمْ تَضْطَلِعُ بِوَظِيفَةِ حِرَاسَةِ جَذْوَةِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي تَحُولُ دُونَ تَفَشِّي ظُلْمَةِ الْقِيَمِ فِي خِضَمِّ

تَهَاوِي النِّظَامِ الْقَائِمِ. وَغَالِبًا مَا يَكُونُ مَوْقِعُهُمْ مُسْتَوْحَشًا، لِأَنَّ مَا يَدُودُونَ عَنْهُ لَمْ يَعُدْ مُتَنَاغِمًا مَعَ نَزَعَاتِ الْبَرَاجِمَاتِيَّةِ لَدَى أُولِي الْأَمْرِ. إِنَّ هَزِيمَتَهُمْ فِي مِيدَانِ السِّيَاسَةِ لَا تُمَثِّلُ ضَعْفَ الْمَبَادِئِ الَّتِي يَتَبَنَّوْنَهَا، بَلْ تُؤَكِّدُ أَنَّ النِّظَامَ قَدْ فَقَدَ قُدْرَتَهُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْجَوْهَرِ الْأَصِيلِ وَالْمَكَاسِبِ الْعَرَضِيَّةِ. فَمَا أَكْثَرَ مَا تَبْدَأُ أَزَمَاتُ الْحَضَارَاتِ حِينَ يَعْجَزُ الْمُجْتَمَعُ عَنْ تَمْيِيزِ الْحَقِّ الْخَالِدِ عَنِ الْمَصَالِحِ التَّبَادُلِيَّةِ الْعَابِرَةِ.

وَفِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوسَ، يَتَجَاوَزُ دَوْرُ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ حَدَّ كَوْنِهِمْ نَقَلَةً لِلْحِكْمَةِ، إِذْ يَغْدُونَ أَنْتِيتِيسِيس لِعَمَلِيَّاتِ التَّسَرُّبِ الَّتِي تَعْمَلُ عَبْرَ تَطْبِيعِ الِانْحِرَافِ. وَقَدْ لَاحَظَ الْبَاحِثُ أَنَّ الْقُوَّةَ الْمُهَدِّدَةَ لَا تَبْرُزُ دَوْمًا فِي صُورَةِ هَجَمَاتٍ مَادِّيَّةٍ، بَلْ عَبْرَ التَّلَاعُبِ بِالْوَعْيِ الَّذِي يُزَحْزِحُ مَعَايِيرَ الْأَخْلَاقِ لَدَى الْمُجْتَمَعِ بِرِفْقٍ. وَفِي ظِلِّ حَالٍ يَصِيرُ فِيهِ السُّلُوكُ الْمُنْحَرِفُ عَادَةً مَأْلُوفَةً، يَحْضُرُ هَؤُلَاءِ كَنُقْطَةِ تَحَوُّلٍ تَرْفُضُ الِانْجِرَارَ، صَائِنِينَ اتِّجَاهَ الْحَضَارَةِ مِنَ الِابْتِلَاعِ فِي لُجَّةِ التَّلَاعُبِ. وَيُفْضِي هَذَا الْكَشْفُ بِنَا إِلَى إِدْرَاكِ أَنَّ السَّرْدِيَّةَ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةَ فِي تِلْكَ الرِّوَايَةِ رَهِينَةٌ بِالتَّوَتُّرِ بَيْنَ التَّأْثِيرِ التَّسَرُّبِيِّ وَطَاقَةِ الصُّمُودِ فِي الذَّاكِرَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ. وَتَغْدُو هَذِهِ الْجَمَاعَةُ مِحْوَرًا لِدَيْمُومَةِ قِيَمِ الرُّبُوبِيَّةِ، مُؤَكِّدَةً أَنَّهُمْ مَهْمَا ضُغِطَ عَلَيْهِمْ مَادِّيًّا حَتَّى أُقْصُوا إِلَى أَقَاصِي الْأَرْضِ، فَإِنَّ الْقِيَمَ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا تَظَلُّ حَيَّةً كَبُذُورٍ لِوَعْيِ الْمُسْتَقْبَلِ. وَيُثْبِتُ نِضَالُهُمْ أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ التَّأْثِيرَاتِ الْخَارِجِيَّةَ تَبْدُو قَادِرَةً عَلَى السَّيْطَرَةِ عَلَى التَّارِيخِ، فَثَمَّةَ حَيِّزٌ فِي وِجْدَانِ الْإِنْسَانِ يُمْكِنُ إِحْيَاؤُهُ دَوْمًا لِمُقَاوَمَةِ الِاضْطِهَادِ.

د) الِانْتِصَارُ فِي بَاطِنِ الْمَأْسَاةِ

يُفَصِّلُ نُورْثْرُوب فْرَايِ هَذِهِ الْمَرْحَلَةَ بِكَوْنِهَا زَمَنًا يَعِيشُ فِيهِ الْبَطَلُ قِيمَتَيْنِ تَبْدُوَانِ عَلَى طَرَفِي نَقِيضٍ. فَالْبَطَلُ يُقَاسِي مَصِيرًا تَرَاجِيدِيًّا، إِذْ يَسْقُطُ وَيَتَهَاوَى، لَكِنَّهُ يَظَلُّ شَامِخًا فِي مَبَادِئِهِ وَقِيَمِهِ. وَيُشَبِّهُ نُورْثْرُوب هَذِهِ الْمَرْحَلَةَ بِقِصَّةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ؛ فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ حَيَاتَهُ بَدَتْ مَصِيرًا تَرَاجِيدِيًّا فِي سِيَاقِ دَوْرَةِ الْحَيَاةِ، إِلَّا أَنَّهُ نَجَحَ بِحَسَبِ رُؤْيَةِ نُورْثْرُوب فِي

فِدَاءِ جَمِيعِ خَطَايَا الْبَشَرِ. وَفِي مَسْرَحِيَّةِ شِمْشُون الْمُصَارِعِ لِلْكَاتِبِ جُون مِيلْتُون، يُرْسَمُ شِمْشُون كَشَخْصِيَّةٍ هِيرُوئِيَّةٍ يَتَسَلَّى بِهَا الْفِلِسْطِينِيُّونَ فِي مَهْرَجَانَاتِهِمْ، بَيْنَمَا هُوَ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ بَطَلٌ تَرَاجِيدِيٌّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ التَّرَاجِيدِيَا تَنْتَهِي بِالِانْتِصَارِ، كَمَا يَنْتَهِي ذَاكَ الْمَهْرَجَانُ بِالْكَارِثَةِ.

(٢٦) يدخل إلى القسطل ومعه عدد من جنوده، وتمت محاصرته من قبل جيش الهاجانا حصارًا شديدًا، ووجد في نهاية اليوم جثته ملقاة بجانب أحد المنازل في القسطل. طار "ماستيم" فوق جثته ونظر إليه نظرة هازئة، وسقطت من قناع "ماستيم" قطعة من الذقن لتكشف وراءها ظلمة شيطانية لم تتبين معالمها جيدًا (ص ١٢٠)

يُمَثِّلُ الْبَيَانُ فِي الْبَنْدِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ قِصَّةَ اسْتِشْهَادِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْحُسَيْنِيِّ فِي مَعْرَكَةِ الْقَسْطَلِ خِلَالَ نَيْسَانَ عَامَ ١٩٤٨م. وَكَانَ عَبْدُ الْقَادِرِ الْحُسَيْنِيُّ قَائِدًا عَسْكَرِيًّا فِلَسْطِينِيًّا أَسْطُورِيًّا تَوَلَّى قِيَادَةَ جَيْشِ الْجِهَادِ الْمُقَدَّسِ. وَقَدْ نُسِبَتِ الْمَعْرَكَةُ إِلَى الْقَسْطَلِ تَبَعًا لِمَوْقِعِهَا الْجُغْرَافِيِّ، وَهِيَ قَرْيَةٌ اسْتِرَاتِيجِيَّةٌ تَعْلُو ذُرْوَةَ تَلٍّ يُشْرِفُ عَلَى الطَّرِيقِ الرَّئِيسِيِّ الرَّابِطِ بَيْنَ تَلَّ أَبِيبَ وَالْقُدْسِ. وَكَانَ كُلٌّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ الْعَرَبِيِّ وَالصَّهْيُونِيِّ يُدْرِكُ أَنَّ مَنْ يَبْسُطُ سَيْطَرَتَهُ عَلَى الْقَسْطَلِ يَمْلِكُ مَفَاتِيحَ التَّحَكُّمِ فِي خُطُوطِ الْإِمْدَادِ إِلَى الْقُدْسِ. وَفِي الْمُقَابِلِ، كَانَتِ الْهَاجَانَا وَهِيَ التَّنْظِيمُ الشِّبْهُ عَسْكَرِيِّ الْأَبْرَزُ لِلصَّهَايِنَةِ الْيَهُودِ– قَدْ شَنَّتْ عَمَلِيَّةَ نَحْشُون لِاقْتِحَامِ الْقَسْطَلِ. لَقَدْ حُوصِرَ عَبْدُ الْقَادِرِ الْحُسَيْنِيُّ رُفْقَةَ ثُلَّةٍ مِنْ مُجَاهِدِيهِ بَعْدَ أَنْ خَاضُوا مَعَارِكَ ضَارِيَةً لِاسْتِرْدَادِ الْقَرْيَةِ. وَفِي غَمْرَةِ هَذَا الْقِتَالِ، نَالَ عَبْدُ الْقَادِرِ الشَّهَادَةَ، وَوُجِدَ جُثْمَانُهُ فِي أَحَدِ مَنَازِلِ الْقَرْيَةِ. لَقَدْ كَانَ اسْتِشْهَادُ هَذَا الْبَطَلِ ضَرْبَةً قَاصِمَةً لِلْمُجَاهِدِينَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ آنَذَاكَ. وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، أُصِيبَ مَاسْتِيم بِجَذَلٍ غَامِرٍ حِينَ عَايَنَ مَصْرَعَ عَبْدِ الْقَادِرِ؛ إِذْ أَيْقَنَ أَنَّ ارْتِحَالَ هَذَا الْفَارِسِ الْكَبِيرِ يَعْنِي إِزَاحَةَ أَهَمِّ الْعَقَبَاتِ مِنْ طَرِيقِهِ.

لَا تُقَاسُ التَّرَاجِيدِيَا بِمَا يَئُولُ إِلَيْهِ الْحَالُ فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ، بَلْ بِمَوْقِعِ الْبَاطِنِ لَدَى الشَّخْصِيَّةِ ضِمْنَ بِنْيَةِ الصِّرَاعِ الَّتِي تَصِلُ بَيْنَ الْفِعْلِ الْفَرْدِيِّ وَصَدَى الْمَعْنَى الْجَمْعِيِّ. فَإِنَّ الْهَزِيمَةَ الْمَادِّيَّةَ لَيْسَتْ سِوَى غِشَاءٍ خَارِجِيٍّ لِلْحَدَثِ، بَيْنَمَا تَعْمَلُ الْعُمْقِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ عَلَى مَحْوَرِ التَّحَوُّلِ الَّذِي يُحَوِّلُ الْوَاقِعَ التَّارِيخِيَّ إِلَى رَمْزٍ خَالِدٍ لِوَعْيِ الْجَمَاهِيرِ. وَفِي هَذَا الْمَنْطِقِ، لَا يَخْتِمُ مَصْرَعُ الْمُجَاهِدِ سَرْدِيَّةَ حَيَاتِهِ، بَلْ يَنْقُلُ ثِقْلَ وُجُودِهِ مِنْ كَوْنِهِ فَاعِلًا فِي الْمَاضِي إِلَى أَنْ يَغْدُوَ بَوْصَلَةً فِي الذَّاكِرَةِ الْجَمْعِيَّةِ. وَعِنْدَ تَأَمُّلِ اسْتِشْهَادِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْحُسَيْنِيِّ فِي الْقَسْطَلِ، يُؤَكِّدُ الْبَاحِثُ أَنَّ الْإِخْفَاقَ الْعَسْكَرِيَّ هُنَاكَ لَا يُقْرَأُ عَلَى أَنَّهُ ضَعْفٌ فِي الْحِنْكَةِ التَّكْتِيكِيَّةِ أَمَامَ التَّفَاوُتِ فِي مَوَازِينِ الْقُوَى. إِنَّمَا يَكْمُنُ الْمَحْوَارُ فِي كَيْفِيَّةِ تَمْثِيلِ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ لِكَثَافَةِ الْمُقَاوَمَةِ الَّتِي تَجَاوَزَتْ حِسَابَاتِ الْغَلَبَةِ أَوِ الْخُسْرَانِ. فَلَمْ تَعُدْ قِيمَةُ النِّضَالِ رَهِينَةً بِالْإِنْجَازَاتِ الِاسْتِرَاتِيجِيَّةِ، بَلْ بِصَلَابَةِ الْمَعْنَى الَّذِي يَظَلُّ نَابِضًا فِي كُلِّ فِعْلٍ مُقَاوِمٍ. وَعَلَيْهِ، يَغْدُو الْمَوْتُ بَوَّابَةَ التَّجَلِّي، حَيْثُ يُعَزِّزُ انْهِيَارُ الْحَيِّزِ الْإِمْبِيرِيقِيِّ أَهَمِّيَّةَ الْحَيِّزِ الرَّمْزِيِّ.

وَيَتَوَازَى هَذَا النَّمَطُ مَعَ هَيْكَلِ الْمَعَانَاةِ الْهِيرُوئِيَّةِ الشَّائِعِ فِي السَّرْدِيَّاتِ الْكُبْرَى لِلْبَشَرِيَّةِ. فَلَمَّا لاقَى شِمْشُون فَنَاءَهُ الْجَسَدِيَّ، لَمْ يُطْفِئْ ذَلِكَ دَوْرَهُ الْبُطُولِيَّ، بَلْ نَقَلَ جَوْهَرَ الْقُوَّةِ مِنَ الْجَسَدِ الْفَرْدِيِّ إِلَى التَّضْحِيَةِ الَّتِي رَبَطَتْ مَصِيرَهُ بِالْآمالِ الْجَمْعِيَّةِ. وَكَذَلِكَ هُوَ حَالُ رَحِيلِ حَمَلَةِ رِسَالَاتِ التَّغْيِيرِ، الَّذِينَ لَا يُفْهَمُ مَصْرَعُهُمْ كَانْكِسَارٍ سِيَاسِيٍّ أَمَامَ طُغْيَانِ السُّلْطَةِ، بَلْ كَصَيْرُورَةٍ لِانْضِجَاءِ الْمَعْنَى الَّتِي تَجْعَلُ مِنَ الْفَاصِلِ التَّارِيخِيِّ أَسَاسًا لِنِظَامٍ جَدِيدٍ. فِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ، يُعَدُّ سُقُوطُ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى الصَّعِيدِ الْإِمْبِيرِيقِيِّ شَرْطًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ لِبُرُوزِ قُوَّةٍ رَمْزِيَّةٍ أَعْظَمَ. وَلَا يَتَحَدَّدُ وَصْفُ التَّرَاجِيدِيَا بِمِصْدَاقِيَّةِ الِانْتِصَارِ الْبَرَاجِمَاتِيِّ، بَلْ بِالْهُوَّةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ الْوَاقِعِ الْفِعْلِيِّ لِلشَّخْصِيَّةِ وَالْمَكَانَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي تَحْتَلُّهَا فِي وِجْدَانِ الْأُمَّةِ. فَكُلَّمَا اتَّسَعَتِ الْفَجْوَةُ بَيْنَ مَحْدُودِيَّةِ قُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَعِظَمِ الْعَقَبَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُهَا، تَعَاظَمَتْ كَثَافَةُ التَّرَاجِيدِيَا

الْمُتَشَكِّلَةِ. إِنَّ الْهَزِيمَةَ لَيْسَتْ نِهَايَةَ الْمَطَافِ، بَلْ هِيَ مِعْيَارٌ لِبِنَاءِ مَعْنًى يَتَعَالَى عَلَى حُدُودِ الْمَكَاسِبِ الْمَادِّيَّةِ.

وَبِالنِّسْبَةِ لِلْبَاحِثِ، لَا تُمَثِّلُ وَفَاةُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْحُسَيْنِيِّ نُقْطَةَ نِهَايَةٍ لِلنِّضَالِ، بَلْ هِيَ نُقْطَةُ تَحَوُّلٍ يَنْصَهِرُ فِيهَا الْفِعْلُ الْفَرْدِيُّ فِي نَفَسِ الْجَمَاعَةِ. إِنَّ هَذَا الْحَدَثَ يُعِيدُ صِيَاغَةَ الرُّؤْيَةِ تُجَاهَ النِّضَالِ؛ مِنِ اقْتِصَارِهِ عَلَى الشُّؤُونِ الْعَسْكَرِيَّةِ إِلَى صَيْرُورَتِهِ رَمْزًا لِلثَّبَاتِ الَّذِي لَا يَلِينُ رَغْمَ جَوْرِ التَّفَاوُتِ. فَالْتَّرَاجِيدِيَا فِي إِطَارِ هَذَا التَّحْلِيلِ تَعْمَلُ عَبْرَ مِيكَانِيزْمَاتِ التَّحَوُّلِ الْوَظِيفِيِّ، حَيْثُ يَنْتَصِرُ الشَّخْصُ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي لَهُ تَارِيخِيًّا أَنْ يَخْضَعَ لِلهَزِيمَةِ لِدَيْمُومَةِ مَعْنًى يَتَجَاوَزُ أَسْوَارَ الْحَيَاةِ الشَّخْصِيَّةِ. هَذَا التَّحَوُّلُ هُوَ الضَّامِنُ لِأَلَّا يَمُوتَ النِّضَالُ، بَلْ يَبْقَى خَفَّاقًا كَإِلْهَامٍ حَيٍّ فِي بِنْيَةِ وِعْيِ الْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ.

يَتَمَتَّعُ التَّحْلِيلُ السَّابِقُ بِارْتِبَاطٍ وَثِيقٍ بِدِرَاسَةِ الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ سَيِّد مُحَمَّد رِضَا ابْنِ الرَّسُول وَكَنْجِي (٢٠١٩) الْمَوْسُومَةِ بِالْمِيثُولُوجِيَا الْعَرَبِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ كَمُظْهَرٍ لِلْأَحْدَاثِ الْمُقَدَّسَةِ، حَيْثُ يُرَكِّزُ الْبَحْثُ عَلَى كَيْفِيَّةِ اشْتِغَالِ الرُّمُوزِ السَّرْدِيَّةِ الدِّينِيَّةِ فِي بَلْوَرَةِ الْهُوِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ، مُسْتَعِينًا بِمَنْهَجِ التَّنَاصِّ الْمُقَارَنِ بَيْنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَكِتَابِ كِنْزَا رَبَّا. وَتُثْبِتُ نَتَائِجُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ أَنَّ الشُّعَرَاءَ الْعِرَاقِيِّينَ الْمُحْدَثِينَ قَدْ بَرَعُوا فِي إِعَادَةِ تَصَوُّرِ شَخْصِيَّةِ النَّبِيِّ يَحْيَى لِيَغْدُوَ رَمْزًا لِأَسْمَى مَرَاتِبِ التَّضْحِيَةِ؛ فَهُوَ الشَّخْصِيَّةُ الَّتِي فَارَقَتِ الْحَيَاةَ جَسَدِيًّا لَكِنَّهَا تَحَوَّلَتْ إِلَى جَذْوَةٍ لِلْمُقَاوَمَةِ الْجَمْعِيَّةِ الَّتِي لَا تَزَالُ مُتَّقِدَةً فِي الذَّاكِرَةِ الرُّوحِيَّةِ لِلْأُمَّةِ.

وَيَتَطَابَقُ هَذَا الْكَشْفُ مُبَاشَرَةً مَعَ قِصَّةِ اسْتِشْهَادِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْحُسَيْنِيِّ فِي مَعْرَكَةِ الْقَسْطَلِ، إِذْ تُظْهِرُ كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ النَّمَطَ الْأَرْكِيتِيبِيَّ ذَاتَهُ: فَإِنَّ مَصْرَعَ قَائِدٍ يَتَقَدَّمُ الصُّفُوفَ الْأُولَى لَا يَمْحُو النِّضَالَ، بَلْ يُؤَبِّدُهُ. وَيَكْمُنُ التَّبَايُنُ فِي الْوَسِيطِ الْمُعَبِّرِ؛ فَبَيْنَمَا كَشَفَتْ دِرَاسَةُ ابْنِ الرَّسُول وَكَنْجِي عَنْ هَذَا التَّحَوُّلِ الرَّمْزِيِّ عَبْرَ الْقَرِيضِ، فَإِنَّ رِوَايَةَ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ

تُوَثِّقُ التَّحَوُّلَ نَفْسَهُ عَبْرَ سَرْدِيَّةِ الْخَيَالِ التَّارِيخِيِّ، حَيْثُ لَا يُقْرَأُ اسْتِشْهَادُ عَبْدِ الْقَادِرِ فِي الْقَسْطَلِ كَهَزِيمَةٍ، بَلْ كَذُرْوَةٍ لِأَرْكِيتِيبِ الِانْتِصَارِ فِي بَاطِنِ الْمَأْسَاةِ. وَهَذَا يُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّ الْحَضَارَةَ الَّتِي تَجُودُ بِقَادَةٍ مِنْ هَذَا الطِّرَازِ لَمْ تُهْزَمْ بَعْدُ حَقِيقَةً؛ لِأَنَّ الرُّوحَ الَّتِي خَلَّفَهَا هَؤُلَاءِ أَعْصَى عَلَى الْإِخْمَادِ بِمَرَاتٍ مِنَ الْحَيَاةِ الَّتِي جَادُوا بِهَا فِي سَبِيلِ مَبَادِئِهِمْ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ حَقِيقَةَ الِانْتِصَارِ فِي غَمَرَاتِ التَّرَاجِيدِيَا لَا تُقَاسُ بِقُدْرَةِ الْمَرْءِ عَلَى الْحِفَاظِ عَلَى مَقَالِيدِ السُّلْطَةِ، أَوِ الْأَرَاضِي، أَوِ الْبَقَاءِ الْجَسَدِيِّ الْفَانِي. بَلْ إِنَّ الِانْتِصَارَ الْأَصِيلَ يَتَجَلَّى فِي ثَبَاتِ الْمَبَادِئِ الْأَخْلَاقِيَّةِ حَتَّى آخِرِ نَفَسٍ فِي مَسَارِ النِّضَالِ. إِنَّ الْهَزِيمَةَ الْمَادِّيَّةَ –مِنْ هَذَا الْمَنْظُورِ– لَا تُطَابِقُ قَطُّ انْهِيَارَ الْقِيَمِ. فَإِنَّ الْوَظِيفَةَ الْجَوْهَرِيَّةَ لِلتَّرَاجِيدِيَا تَكْمُنُ فِي قُدْرَتِهَا عَلَى تَثْبِيتِ دَيْمُومَةِ الْمَبَادِئِ السَّامِيَةِ فِي وَسَطِ تَصَدُّعِ الْبِنَى الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُمَثِّلُ مِظَلَّةَ الْحِمَايَةِ. وَفِي مَسِيرَةِ الْحَضَارَاتِ، يَبْرُهَنُ هَذَا الْوَاقِعُ عَلَى أَنَّ انْهِيَارَ أَيِّ نِظَامٍ لَا يَسْتَتْبِعُ بِالضَّرُورَةِ مَحْوَ هُوِيَّتِهِ الْأَصِيلَةِ؛ إِذْ تَظَلُّ هَذِهِ الْقِيَمُ مَحْتَفِظَةً بِطَاقَتِهَا عَلَى الْحَيَاةِ عَبْرَ الذَّاكِرَةِ الْجَمْعِيَّةِ وَتَجَدُّدِ الْوَعْيِ الْمَوْرُوثِ لِلْأَجْيَالِ اللَّاحِقَةِ.

وَتَكْمُنُ جِدَّةُ هَذَا الْبَحْثِ فِي الْكَشْفِ عَنْ أَنَّ الِانْتِصَارَ فِي بَاطِنِ الْمَأْسَاةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوسَ يَحْمِلُ أَثْقَالًا إِسْخَاتُولُوجِيَّةً أَعْمَقَ مِنْ مُجَرَّدِ سَرْدٍ تَارِيخِيٍّ لِمَعَانَاةِ الشَّخْصِيَّاتِ. فَإِنَّ التَّسَرُّبَ الَّذِي يَقُومُ بِهِ أَنْتِيخْرِيسْتُوس لَيْسَ مُحَاوَلَةً سَطْحِيَّةً لِتَسَيُّدِ كُرْسِيِّ الْحُكْمِ، بَلْ هُوَ أَجِنْدَا مَنْهَجِيَّةٌ تَرْمِي إِلَى إِزَاحَةِ وَتَضْبِيبِ وَمَحْوِ مَعَايِيرِ الْحَقِّ الَّتِي كَانَتْ بِمَثَابَةِ الدِّعَامَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِلْحَضَارَةِ. وَفِي هَذَا الْإِطَارِ، يَعْدُو أُولَئِكَ الَّذِينَ آثَرُوا الْهَزِيمَةَ الْجَسَدِيَّةَ لِأَجْلِ نَصْرِ الْمَبَادِئِ نِقَاطَ دِفَاعٍ مِحْوَرِيَّةً. وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْكَشْفُ أَنَّ مَسَارَ الْإِسْخَاتُولُوجِيَا فِي هَذَا الْعَمَلِ هُوَ صِرَاعٌ بَيْنَ نَفَسِ الرُّبُوبِيَّةِ الْمَصُونِ وَعَمَلِيَّاتِ التَّدَهْوُرِ الْأَخْلَاقِيِّ الَّتِي يُذَكِّي نِيرَانَهَا الْخَصْمُ بِوَحْشِيَّةٍ. فَلَا تَتَحَدَّدُ جَدَارَةُ أَنْتِيخْرِيسْتُوس بِعَدَدِ الْأَرَاضِي الَّتِي أَخْضَعَهَا لِسُلْطَانِهِ، بَلْ بِقُدْرَتِهِ

عَلَى قَطْعِ سُبُلِ الْإِنْسَانِ نَحْوَ الْحَقِّ الْأَصِيلِ الَّذِي يُعَدُّ مَعْقِلَ دِفَاعِهِمُ الْأَخِيرِ. فَعِنْدَمَا تَظَلُّ الْقِيمَةُ شَامِخَةً رَغْمَ تَهَاوِي رَكَائِزِهَا، يَقَعُ أَنْتِيخْرِيستُوس فِي شَرَكِ الْإِخْفَاقِ التَّامِّ.

وَبِنَاءً عَلَيْهِ، يَعِي هَذَا الْبَحْثُ أَنَّ التَّرَاجِيدِيَا مَا عَادَتْ مُجَرَّدَ سَرْدِيَّةٍ عَنْ فَنَاءِ فَرْدٍ أَوِ انْهِيَارِ أُمَّةٍ، بَلْ أَضْحَتْ مِيكَانِيزْمًا حَيَوِيًّا لِاسْتِبْقَاءِ الْقِيَمِ حِينَ يُقْبِلُ الْعَالَمُ عَلَى إِرْهَاصَاتِ نِهَايَةِ الزَّمَانِ. إِنَّ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تُقَاسِي هَذِهِ الْهَزِيمَةَ التَّرَاجِيدِيَّةَ تَعْمَلُ حُرَّاسًا لِاسْتِمْرَارِيَّةِ الْقِيَمِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي ظِلِّ جَوْرِ الْعَمَلِيَّاتِ الْمُصَمَّمَةِ عَمْدًا لِإِيقَاعِ الْإِنْسَانِ فِي بَثْقَةِ الِاغْتِرَابِ الرُّوحِيِّ. وَتَكْمُنُ الْإِضَافَةُ الْجَوْهَرِيَّةُ لِهَذَا التَّحْلِيلِ فِي إِبَانَةِ أَنَّ التَّرَاجِيدِيَا تَضْطَلِعُ بِوَظِيفَةِ فَضَاءٍ مُقَدَّسٍ لِحِرَاسَةِ النَّزَاهَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ حِينَ تَصِلُ تَدَخُّلَاتُ الْخَصْمِ إِلَى ذُرْوَتِهَا الْقُصْوَى. وَبِفَضْلِ ثَبَاتِهِمْ، يَبْقَى الْوَعْيُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَصُونًا، مِمَّا يَبُثُّ أَمَلًا بِأَنَّهُ فِي خِضَمِّ حُطَامِ تَرْتِيبِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، لَا تَزَالُ هُنَاكَ بَذْرَةُ صُمُودٍ قَادِرَةٌ عَلَى مُجَابَهَةِ ذَاكَ التَّأْثِيرِ التَّدْمِيرِيِّ حَتَّى تَحَقُّقِ الْفَازِ الْإِسْخَاتُولُوجِيِّ بِكُلِّ مَعَانِيهِ.

هـ) هِيُوبْرِيس: التَّكَبُّرُ كَجِذْرٍ لِلْفَنَاءِ

يُعَرِّفُ نُورْثْرُوب فْرَاي فِي كِتَابِهِ تَشْرِيحُ النَّقْدِ مَفْهُومَ هِيُوبْرِيس بِأَنَّهُ الْفِكْرُ الْمَفْخُورُ، أَوِ الشَّغَفُ الْجَامِحُ، أَوِ الْهَوَسُ، أَوْ حَتَّى الْاسْمُ الَّذِي يَعْلُو صِيتُهُ حَدَّ الْغُلُوِّ، مِمَّا يُفْضِي حَتْمًا إِلَى سُقُوطٍ يُقْرَأُ مِنْ مَنْظُورٍ أَخْلَاقِيٍّ. إِنَّ هِيُوبْرِيس عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ هِيَ الْمُحَرِّكُ الطَّبِيعِيُّ لِوُقُوعِ الْكَارِثَةِ، عَلَى نَحْوٍ يُضَاهِي مَا يَحْدُثُ فِي الْكُومِيدِيَا؛ حَيْثُ يَكُونُ سَبَبُ النِّهَايَةِ السَّعِيدَةِ مَنُوطًا بِفِعْلٍ مِنَ التَّوَاضُعِ، يَتَجَسَّدُ فِي شَخْصِيَّةِ عَبْدٍ أَوْ بَطَلَةٍ تَتَنَكَّرُ فِي هَيْئَةٍ حَقِيرَةٍ. وَيَرْتَبِطُ مَفْهُومُ هِيُوبْرِيس هَذَا ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِمُعْطَيَاتِ الْبَحْثِ الْآتِيَةِ، وَفِيمَا يَلِي اسْتِعْرَاضُ مَرَاحِلِ تَقْدِيمِ الْبَيَانَاتِ.

(٢٧) نحن ملوك الدنيا.. المالكون لما فيها.. نحن الذين لا نخشى شيئًا.. ولا نعبد شيئًا.. نحن القوة التي لا تقهر.. ولم يكتف بذلك.. بل تطلع إلى مزيد من

السلطان.. أراد أن يغزو السماء.. فجمع ستمئة ألف رجل من كافة ممالكه السبعة وأمرهم أن يبنوا برجا شاهقًا لا يصعد المرء إلى قمته إلا بعد مسيرة عام كامل.. برج يتجاوز السحاب ارتفاعًا.. وعندما سأله إبراهيم عن ربه الذي يعبده، قال له: أنا أحيي وأميت.. أضرب عنق سجين لدي فأميته وأترك الآخر فيعيش(.ص ١١٧)

يُبَيِّنُ الْبَيَانُ فِي الْبَنْدِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ التَّارِيخَ الْأَوَّلَ لِتَكَبُّرِ الْإِنْسَانِ، الَّذِي تَجَسَّدَ فِي شَخْصِيَّةِ النَّمْرُودِ كَمُحَاوَلَةٍ لِمُحَادَّةِ سُلْطَةِ الْإِلَهِ عَبْرَ هَيْمَنَةِ الْقُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ. وَتُؤَدِّي هَذِهِ السَّرْدِيَّةُ وَظِيفَةَ جُزْءٍ مِنْ حَلَقَاتِ التَّارِيخِ الْمَدِيدِ الَّذِي يُسَلِّطُ الضَّوْءَ عَلَى الْقُوَى الْمُظْلِمَةِ السَّاعِيَةِ إِلَى إِضْلَالِ الْبَشَرِ بِادِّعَاءِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَهَذَا مَا تَمَّ تَمْثِيلُهُ رَمْزِيًّا بِنَاءً لِبُرْجِ بَابِلَ لِغَايَةِ قَهْرِ السَّمَاوَاتِ. وَيَبْلُغُ قَرْنُ هَذِهِ الْعَظَمَةِ ذُرْوَتَهُ فِي مُحَاجَتِهِ لِلنَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوْلَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ؛ وَهِيَ الْوَاقِعَةُ الَّتِي وَظَّفَهَا الْكَاتِبُ لِتَقْدِيمِ بَيَانٍ تَارِيخِيٍّ عَنْ نَمَطِ الطُّغَاةِ الْمُصَابِينَ بِعُقْدَةِ الْأُلُوهِيَّةِ كَمَوْضُوعٍ مُتَكَرِّرٍ فِي مَسَارِ التَّارِيخِ.

يُبَيِّنُ الْبَيَانُ فِي الْبَنْدِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ التَّارِيخَ الْأَوَّلَ لِتَكَبُّرِ الْإِنْسَانِ، الَّذِي تَجَسَّدَ فِي شَخْصِيَّةِ النَّمْرُودِ كَمُحَاوَلَةٍ لِمُحَادَّةِ سُلْطَةِ الْإِلَهِ عَبْرَ هَيْمَنَةِ الْقُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ. وَتُؤَدِّي هَذِهِ السَّرْدِيَّةُ وَظِيفَةَ جُزْءٍ مِنْ حَلَقَاتِ التَّارِيخِ الْمَدِيدِ الَّذِي يُسَلِّطُ الضَّوْءَ عَلَى الْقُوَى الْمُظْلِمَةِ السَّاعِيَةِ إِلَى إِضْلَالِ الْبَشَرِ بِادِّعَاءِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَهَذَا مَا تَمَّ تَمْثِيلُهُ رَمْزِيًّا بِنَاءً لِبُرْجِ بَابِلَ لِغَايَةِ قَهْرِ السَّمَاوَاتِ. وَيَبْلُغُ قَرْنُ هَذِهِ الْعَظَمَةِ ذُرْوَتَهُ فِي مُحَاجَتِهِ لِلنَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوْلَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ؛ وَهِيَ الْوَاقِعَةُ الَّتِي وَظَّفَهَا الْكَاتِبُ لِتَقْدِيمِ بَيَانٍ تَارِيخِيٍّ عَنْ نَمَطِ الطُّغَاةِ الْمُصَابِينَ بِعُقْدَةِ الْأُلُوهِيَّةِ كَمَوْضُوعٍ مُتَكَرِّرٍ فِي مَسَارِ التَّارِيخِ.

فِي مِشْكَاةِ تَحْلِيلِ السُّلْطَةِ، لَا تُعَدُّ الْعَظَمَةُ الَّتِي أَبْدَاهَا النَّمْرُودُ مُجَرَّدَ نَقِيصَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ ذَاتِيَّةٍ، بَلْ يَرَاهَا الْبَاحِثُ ذُرْوَةَ انْحِدَارٍ تَشَوَّهَتْ فِيهَا وَظِيفَةُ الْحُكْمِ؛ إِذْ تَحَوَّلَتْ مِنْ أَدَاةٍ لِتَنْظِيمِ الْمُجْتَمَعِ إِلَى مُحَدِّدٍ مُطْلَقٍ لِلْوَاقِعِ. فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، لَا تَعُدُّ السُّلْطَةُ عَامِلَةً ضِمْنَ

حُدُودٍ قَابِلَةٍ لِلنَّقْدِ أَوِ التَّقْوِيمِ، بَلِ انْصَهَرَتْ حَتَّى غَدَتْ كِيَانًا وَاحِدًا مَعَ ذَاتِ الْحَاكِمِ. وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ، تَعَطَّلَتْ آلِيَّاتُ الرَّقَابَةِ الَّتِي كَانَ يُرْجَى مِنْهَا حِفْظُ تَدَاوُلِ النِّظَامِ، إِذْ جُرَّتْ كُلُّ مَعَايِيرِ التَّقْيِيمِ إِلَى مَرْكَزِ قِيَادَةٍ وَاحِدٍ. وَقَدْ تَرَكَ هَذَا التَّحَوُّلُ أَثَرًا بَالِغًا فِي الْمُسْتَوَى الْإِبِسْتِيمُولُوجِيِّ؛ فَلَمْ تَعُدِ السُّلْطَةُ تَقْتَصِرُ عَلَى ضَبْطِ سُلُوكِ الْعَامَّةِ، بَلْ أَضْحَتْ تُمْلِي مَا يَصِحُّ اعْتِبَارُهُ حَقِيقَةً. وَحِينَ يُرْغَمُ الْوَاقِعُ عَلَى الِانْصِيَاعِ لِإِرَادَةٍ أَحَادِيَّةٍ، يَفْقِدُ النِّظَامُ قُدْرَتَهُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ وَالتَّزْوِيرِ. وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الِانْغِلَاقِيَّةِ، لَا يَبْقَى حَيِّزٌ لِلنَّقْدِ، إِذْ تَمْتَصُّ مَنْطِقَةُ الْمُسَيْطِرِ كُلَّ شُذُوذٍ وَتُدْمِجُهُ فِي كِيَانِهِ.

إِنَّ الِاسْتِقْرَارَ الْمَفْرُوضَ عَبْرَ هَذَا التَّمَرْكُزِ السُّلْطَوِيِّ الْمُتَطَرِّفِ يَكْتَنِزُ هَشَاشَةً خَفِيَّةً خَلْفَ مَظَاهِرِ عَظَمَتِهِ. فَذَاكَ النِّظَامُ لَيْسَ ثَمَرَةَ تَوَازُنٍ طَبِيعِيٍّ، بَلْ هُوَ نَاتِجُ إِقْصَاءٍ قَسْرِيٍّ لِكُلِّ الْخِيَارَاتِ الْبَدِيلَةِ. لَقَدْ أَضْحَى النِّظَامُ وَاهِيَ الْأَرْكَانِ؛ لِأَنَّ بَقَاءَهُ مَرْهُونٌ بِنُقْطَةِ ارْتِكَازٍ وَاحِدَةٍ. وَأَيُّ خَلَلٍ طَفِيفٍ فِي تِلْكَ النُّقْطَةِ سَيَسْرِي فِي جَمِيعِ مَفَاصِلِ الْبِنْيَةِ؛ لِانْعِدَامِ وُجُودِ دَعَائِمَ هَيْكَلِيَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ. وَلَمْ يَعُدِ الِانْهِيَارُ يَتَطَلَّبُ زَلْزَلَةً خَارِجِيَّةً، بَلْ يَكْفِي تَكَدُّسُ التَّنَاقُضَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ لِيَحْدُثَ التَّفَكُّكُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ.

وَتَعْمَلُ آلِيَّاتُ التَّوَازُنِ لَا كَإِجْرَاءَاتٍ زَجْرِيَّةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ، بَلْ كَتَصْحِيحٍ آلِيٍّ لِادِّعَاءَاتٍ مُطْلَقَةٍ تَجَاوَزَتِ الْحُدُودَ. وَغَالِبًا مَا تَأْتِي هَذِهِ التَّصْحِيحَاتُ لَا مِنْ قُوَى عُظْمَى مُكَافِئَةٍ، بَلْ عَبْرَ عَنَاصِرَ ضَئِيلَةٍ كَانَ يَحْسَبُهَا الْمَرْكَزُ مُهَمَّشَةً. تُؤَكِّدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ أَنَّهُ كُلَّمَا تَجَلَّتِ الدِّيكْتَاتُورِيَّةُ فِي هَيْمَنَتِهَا، بَدَتِ الْأَدَوَاتُ الْكَفِيلَةُ بِتَقْوِيضِهَا أَكْثَرَ رِقَّةً. وَقَدْ أَضْحَتْ هِيُوبْرِيس النَّمْرُودِ فِي الْمُنْتَهَى لَحْظَةً حَاسِمَةً تَحْجُبُ فِيهَا السُّلْطَةُ عَنْ نَفْسِهَا كُلَّ حَدٍّ، مُحَوِّلَةً ذَاتَهَا إِلَى نِظَامٍ يَرَى الْحَقِيقَةَ صَدًى لِإِرَادَتِهِ. وَفِي هَذِهِ النُّقْطَةِ، لَا يَكُونُ الْفَنَاءُ نَكْبَةً قَادِمَةً مِنَ الْخَارِجِ، بَلْ هُوَ نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ لِنِظَامٍ أَجْهَضَ مُنْذُ بِدَايَتِهِ كُلَّ إِمْكَانِيَّةٍ لِلْإِصْلَاحِ الذَّاتِيِّ.

يَحْظَى التَّحْلِيلُ السَّابِقُ بِارْتِبَاطٍ بَحْثِيٍّ مَعَ دِرَاسَةِ الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ سَيِّد مُحَمَّد رِضَا ابْنِ الرَّسُول وَكَنْجِي (٢٠١٩)، الَّتِي تُعَدُّ دِرَاسَةً أَوَّلِيَّةً ذَاتَ صِلَةٍ وَثِيقَةٍ؛ لِأَنَّهَا تُوَظِّفُ الْمَنْهَجَ الْوَصْفِيَّ التَّحْلِيلِيَّ وَنَقْدَ النُّصُوصِ التَّارِيخِيَّةِ الْأَدَبِيَّةِ لِتَفْكِيكِ كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ، وَهَذَا يَتَّسِقُ مَعَ مِحْوَرِ هَذَا الْبَحْثِ فِي اسْتِقْرَاءِ دَوْرَةِ الْحَضَارَاتِ مِنْ خِلَالِ سَرْدِيَّةِ النَّمْرُودِ. فَإِذَا كَانَتْ دِرَاسَةُ ابْنِ الرَّسُول وَكَنْجِي قَدْ صَاغَتْ إِشْكَالِيَّتَهَا حَوْلَ التَّصَادُمِ التَّيُولُوجِيِّ وَانْحِرَافِ تَصْوِيرِ الشَّخْصِيَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ لِغَايَاتٍ جَمَالِيَّةٍ، فَإِنَّ هَذَا الْبَحْثَ يَشْرَعُ فِي الْإِجَابَةِ عَنْ إِشْكَالِيَّةِ أَوَّلِيَّةِ التَّدَهْوُرِ فِي دَوْرَةِ الْحَضَارَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ تَلَاعُبِ سَرْدِيَّاتِ سُلْطَةِ الْمَادَّةِ.

وَعَبْرَ مَنْهَجِ التَّنَاصِّ الْمُمَاثِلِ، يُحَلِّلُ هَذَا الْبَحْثُ كَيْفَ تُسَجِّلُ النُّصُوصُ التَّارِيخِيَّةُ وَالتَّيُولُوجِيَّةُ كِبْرِيَاءَ الْإِنْسَانِ هِيُوبْرِيس الَّتِي تُعَجِّلُ بِفَنَاءِ حِقْبَةٍ زَمَنِيَّةٍ. وَتُظْهِرُ نَتَائِجُ الدِّرَاسَةِ الْأَوَّلِيَّةِ أَنَّ التَّشَكُّلَ الدِّينِيَّ غَالِبًا مَا يَتَرَحْرَحُ تَحْتَ وَطْأَةِ الضَّغْطِ النَّفْسِيِّ وَتَوَجُّهَاتِ الرَّأْيِ الْعَامِّ؛ وَهَذَا يَرْتَبِطُ مُبَاشَرَةً بِنَتَائِجِ هَذَا الْبَحْثِ الَّتِي تَكْشِفُ أَنَّ حَاكِمًا فَاسِدًا كَالنَّمْرُودِ قَدْ تَعَمَّدَ تَهْيِئَةَ رُمُوزِ التَّقَدُّمِ، كَبُرْجِ بَابِلَ، لِمُحَادَّةِ سُلْطَةِ الْإِلَهِ وَتَضْلِيلِ إِدْرَاكِ الْمُجْتَمَعِ بُغْيَةَ ادِّعَاءِ أُلُوهِيَّةٍ زَائِفَةٍ. إِنَّ مُحَاجَجَةَ النَّمْرُودِ الْمُتَكَبِّرِ لِلنَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ حَوْلَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ تُؤَكِّدُ خُلَاصَةَ الدِّرَاسَةِ الْأَوَّلِيَّةِ بِوُجُودِ نَمَطٍ سُلُوكِيٍّ مُتَكَرِّرٍ فِي مَسَارِ التَّارِيخِ. وَفِي الْمُنْتَهَى، يَنْتَهِي التَّآزُرُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْبَحْثَيْنِ إِلَى تَقْرِيرِ قَانُونٍ سَرْمَدِيٍّ لِدَوْرَةِ الْحَضَارَاتِ، يَقْضِي بِأَنَّهُ كُلَّمَا ابْتُلِيَ حَاكِمٌ بِعُقْدَةِ الْأُلُوهِيَّةِ وَتَعَبَّدَ الْمَادَّةَ، أَصَابَ الْمُجْتَمَعَ تَفَكُّكٌ أَخْلَاقِيٌّ يَدُورُ بِعَجَلَةِ التَّارِيخِ تِلْقَائِيًّا نَحْوَ الِانْهِيَارِ التَّامِّ لِتِلْكَ الْحَضَارَةِ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ ثَمَّةَ مُفَارَقَةً عَلَائِقِيَّةً عَمِيقَةً تَتَأَجَّجُ بَيْنَ طَرَفَيْ السُّلْطَةِ وَمَنْ يَقْبَعُونَ تَحْتَ سِطْوَتِهَا فِي نَمَطٍ جَدَلِيٍّ دَائِبِ الدَّوَرَانِ. فَفِي طَرَفٍ، يَنْدَفِعُ صَاحِبُ الْقُوَّةِ بِنَزَعَاتِ التَّوَسُّعِ وَالتَّجْدِيدِ، بَيْنَمَا يَكِدُّ الْمُسْتَضْعَفُونَ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ لِحِفَاظِ كَيْنُونَتِهِمْ.

إِنَّ التَّوَتُّرَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْقُطْبَيْنِ يُوَلِّدُ احْتِلَالًا يَمُدُّ شَرَايِينَ التَّحَوُّلِ فِي بِنْيَةِ السُّلْطَةِ بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ. وَفِي دَوْرَةِ الْحَيَاةِ الْحَضَارِيَّةِ، تَبْلُغُ هَذِهِ الدِّينَامِيَّاتُ ذِرْوَتَهَا فِي ظَاهِرَةِ هِيُوبْرِيس السُّلْطَةِ؛ حَيْثُ تَشْعُرُ السُّلْطَةُ أَنَّهَا لَا تَعُدُّ مُقَيَّدَةً بِأَيِّ حُدُودٍ. وَفِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، يَخْبُو نُورُ الْفِكْرِ النَّقْدِيِّ فِي النِّظَامِ، وَتَتَلَاشَى قُدْرَةُ التَّأَمُّلِ الذَّاتِيِّ، وَتَتَجَمَّدُ مِيكَانِيزْمَاتُ التَّكَيُّفِ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ.

وَيُفْضِي هَذَا التَّحْلِيلُ إِلَى كَشْفٍ جَدِيدٍ؛ إِذْ يَتَبَيَّنُ أَنَّ انْهِيَارَ الْحَضَارَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس لَا يَعُودُ إِلَى عَوَامِلَ تِقْنِيَّةٍ كَالْعَسْكَرَةِ أَوِ السِّيَاسَةِ فَحَسْبُ. بَلْ إِنَّ هَذِهِ الصَّيْرُورَةَ تَسْتَعِرُ بِفِعْلِ تَدَخُّلِ الْخَصْمِ الَّذِي يَسْتَغِلُّ بِذَكَاءٍ نَزَعَاتِ الْكِبْرِيَاءِ الَّتِي أَيْنَعَتْ فِي جَسَدِ النِّظَامِ ذَاتِهِ. إِنَّ أَنْتِيخْرِيستُوس لَا يَعْمَلُ عَلَى إِيجَادِ الْفَنَاءِ فِي فَضَاءٍ فَارِغٍ، بَلْ يَنْهَلُ مِنْ ذُرْوَةِ انْحِدَارِ السُّلْطَةِ الَّتِي فَقَدَتْ وِجْهَتَهَا، وَأَمْسَتْ تَرَى نَفْسَهَا صُورَةً نِهَائِيَّةً لَا تَلِينُ. وَعَلَيْهِ، يُنْسَجُ خَيْطُ الْإِسْخَاتُولُوجِيَا فِي هَذَا الْعَمَلِ عَبْرَ نَمَطِ التَّسَرُّبِ إِلَى ثُغَرِ الضَّعْفِ الَّتِي تَنْبَثِقُ حِينَ تَبْلُغُ الْحَضَارَةُ قِمَّةَ مَجْدِهَا. فَالْحَالَةُ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةُ لَيْسَتْ نَكْبَةً بَاغَتَةً، بَلْ هِيَ مَآلُ تَرَاكُمَاتِ الْأَزَمَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالْهَيْكَلِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتِ الْمُجْتَمَعَ يَعْجَزُ عَنِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ الْأَصِيلِ وَبَيْنَ مَحْضِ أَمَانِيِّ السُّلْطَةِ.

وَمِنْ هُنَا، لَا تُعَدُّ هِيُوبْرِيس السُّلْطَةِ فِي هَذَا الْبَحْثِ مُجَرَّدَ نَمَطٍ تَرَاجِيدِيٍّ عَادِيٍّ، بَلْ أَضْحَتْ مُحَرِّكًا سَرْدِيًّا يَصِلُ بَيْنَ دَوْرَةِ انْهِيَارِ الْحَضَارَةِ وَسَرْدِيَّاتِ نِهَايَةِ الزَّمَانِ الْمُرْتَسِمَةِ جَلِيًّا فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس. فَالِانْهِيَارُ لَا يَقِفُ حَدَثًا تَارِيخِيًّا مَعْزُولًا، بَلْ هُوَ جُزْءٌ مِنْ سِينَارْيُو كَبِيرٍ حَيْثُ يُصْبِحُ كُلُّ فِعْلٍ مُجَاوِزٍ لِلْحَدِّ طَرِيقًا مُمَهَّدًا لِلنُّفُوذِ لِلْسَيْطَرَةِ عَلَى مَسَارِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ. وَعَبْرَ هَذَا الْكَشْفِ، يُؤَكِّدُ الْبَاحِثُ أَنَّ فَقْدَ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّقْوِيمِ الذَّاتِيِّ هُوَ الْعَامِلُ الْحَاسِمُ الَّذِي يُحَوِّلُ مَجْدَ الْحَضَارَةِ إِلَى مَيْدَانٍ لِلْفَنَاءِ التَّامِّ.

د) الدور الرابع :الشتاء الحضاري

يُمثّل دور الشتاء في الدورة الحضارية ذروة الانهيار ونهاية الدورة، وهو دورالفوضى الكونية وانهيار البنى الكلية. وفي رواية " أنتيخريستوس " يتجلّى هذا الدور في المراحل التي تُحكم فيها قوى الدجّال سيطرتها الكلية على الفضاء الحضاري، وتتسارع في ها وتيرة الانهيار الشامل. ويُضيف الباحث في هذا الدور تحليلَ "القراءة الاستثنائية" التي تكشف .عن انزياح الرواية عن النمط الفرايي المعياري.

٤. مِيثُولوجيا الهجاء والأيروني: مرحلة الانهيار والتحول الحضاري

يُعرِّف فراي الهجاء والأيروني بوصفهما الأمثيل الذي يُصوِّر عالماً فقد فيه البطل قدرته على الفعل الفعّال، وأصبح العالم الروائي مُهيمَناً عليه بقوى تفوق قدرة الأفراد العاديين على مواجهتها. ففي هذا الأمثيل لا يحكم الشجاعُ ولا يُكافأ الذكيُّ بل يُهيمن الظالم ويُعاقَب البريء، وهو ما يُفسِّر ما يُشعر به القارئ من مفارقة مُريرة بين ما "يجب أن يكون" وما "هو كائن."ويرى فراي أن الهجاء والأيروني يُمثّلان أكثر الأنماط الأدبية التصاقاً بالواقع المعاش؛ فهما ليسا تجميلاً للواقع كما في الرومانسية، ولا مثالاً لما يجب أن يكون كما في الكوميديا، بل مرآة تعكس قُبح الواقع بكل صرامة وتشريحية.

أ) أُومْفَالِي: انْهِيَارُ صُورَةِ الْبَطَلِ وَانْعِكَاسُ السُّلْطَةِ

تُفَصِّلُ مَرْحَلَةُ أُومْفَالِي الْحَالَةَ الَّتِي يَفْقِدُ فِيهَا الْبَطَلُ هَيْبَتَهُ وَوَظِيفَتَهُ الْبُطُولِيَّةَ؛ إِذْ يُقَاسِي الْبَطَلُ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ سُقُوطًا حِرْفِيًّا. وَلَا تَتَجَلَّى وَظِيفَةُ مَفْهُومِ أُومْفَالِي فِي التَّشْنِيعِ عَلَى حَالِ الْبَطَلِ فِي سُقُوطِهِ، بَلْ فِي بَيَانِ كَيْفِيَّةِ خُضُوعِهِ لِلنِّظَامِ الَّذِي كَانَ يُنَاوِئُهُ سَابِقًا. وَيَتَمَتَّعُ هَذَا الْمَفْهُومُ بِارْتِبَاطٍ وَثِيقٍ بِمُعْطَيَاتِ الْبَحْثِ الَّتِي سَيَأْتِي بَيَانُهَا، وَفِيمَا يَلِي مَرَاحِلُ قِرَاءَةِ هَذِهِ الْبَيَانَات.

(٢٨) ودبيو أن هذه لم تكن نارًا، وإنما كانت خيالاتٍ أودعتها الشياطين في عين دازاراه. وبدا أن ما كان يفعله قد نجح؛ إذ حضرت إنانا بكل جمالها. ... جاءت كما يجب أن تأتي آلهة الجمال، في أبهى ثوبٍ وأحلى زينةٍ بابلية. أضاءت جوانب هذا المشهد المظلم، فجاءت كطيفٍ، فبُهِتَ دازاراه للحظات أمامها، ثم تمالك نفسه وقال لها: «إنانا أيتها الأميرة، حدّثيني بخبر الساحرين عزازيل وشمهزا. حدّثيني يا إنانا عن رحلتك المقدسة (ص ٥١.)

يَسْتَعْرِضُ الْبَيَانُ فِي الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ سِيَاقًا مَفَادُهُ أَنَّ الشَّخْصِيَّةَ دَازَارَاه تَقُومُ بِطُقُوسٍ وَأَفْعَالٍ تَنْطَوِي عَلَى عَنَاصِرَ غَيْبِيَّةٍ، حَتَّى تَكْلَلَتْ بِحُضُورِ كِيَانِ إِنَانَا. وَفِي هَذَا الْمَشْهَدِ، لَا يَتَجَلَّى الْوَاقِعُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، بَلْ هُوَ وَهْمٌ تَصُوغُهُ قُوَى خَفِيَّةٌ، مِمَّا يُضْفِي عَلَى الْمَكَانِ أَجْوَاءَ غَيْرَ حَقِيقِيَّةٍ يَتَلَمَّسُهَا الْبَطَلُ كَأَنَّهَا وَاقِعٌ مَعِيشٌ. وَحِينَ مَثُلَتْ إِنَانَا بِهَيْئَتِهَا الْآسِرَةِ، حَاوَلَ دَازَارَاه الَّذِي اعْتَرَاهُ الذُّهُولُ أَنْ يَضْبِطَ جِمَامَ نَفْسِهِ لِيَسْتَثْمِرَ هَذَا الْحُضُورَ فِي كَنْزِ الْمَعْلُومَاتِ. لَقَدِ اسْتَفْسَرَ عَنْ شَخْصِيَّتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ، هُمَا عَزَازِيلُ وَشَمْحَازَايُ، وَعَنْ رِحْلَةٍ تَمُتُّ لَهُمَا بِصِلَةٍ. وَتُؤَدِّي هَذِهِ الْجُزْئِيَّةُ فِي بِنْيَةِ السَّرْدِ وَظِيفَةَ الْإِبَانَةِ عَنِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْكِيَانَاتِ الْغَيْبِيَّةِ، كَمَا تَعْمَلُ بِمَثَابَةِ حَلْقَةِ وَصْلٍ لِكَشْفِ خَبَايَا مُهِمَّةٍ تَرْتَبِطُ بِسِلْسِلَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْأُخْرَى فِي سِيَاقِ الرِّوَايَةِ.

لَا يَتَجَلَّى انْعِكَاسُ السُّلْطَةِ دَوْمًا عَبْرَ الصِّدَامِ الْمَادِّيِّ الْعَنِيفِ، بَلْ يَتَحَقَّقُ مِنْ خِلَالِ صَيْرُورَةِ تَفَسُّخٍ دَقِيقٍ، يَفْقِدُ فِيهَا الْحَاكِمُ بِالتَّدْرِيجِ زِمَامَ السَّيْطَرَةِ عَلَى مَيْدَانِ الْمَعَانِي الْخَارِجَةِ عَنْ كَيَانِهِ. إِنَّ هَذَا التَّحَوُّلَ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى تَهْدِيمِ النُّفُوذِ الْعَمَلِيِّ، بَلْ يَنْسَفُ أُسُسَ الْيَقِينِ الَّتِي كَانَتْ تُمَثِّلُ سَنَدًا لِادِّعَاءِ التَّفَوُّقِ الذَّاتِيِّ. فَلَا يَكْمُنُ جَوْهَرُ التَّحْلِيلِ فِي الْهَزِيمَةِ الظَّاهِرَةِ، بَلْ فِي تَهَاوِي ذَلِكَ الِافْتِرَاضِ الرَّاسِخِ بِأَنَّ الْبَطَلَ يَمْلِكُ وُصُولًا مُطْلَقًا وَمُسْتَقِلًّا لِحَقِيقَةِ الْوَاقِعِ.

لَقَدِ ابْتَنَى دَازَارَاه هَيْبَتَهُ عَلَى ادِّعَاءِ الِاخْتِصَاصِ بِوُصُولٍ حَصْرِيٍّ إِلَى الْفَضَاءِ الرَّمْزِيِّ الَّذِي يَعْجَزُ الْآخَرُونَ عَنْ بُلُوغِهِ. فَإِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّفَاعُلِ مَعَ الْكِيَانَاتِ الْغَيْبِيَّةِ شَكَّلَتْ مَوْقِعًا مَعْرِفِيًّا بَدَا رَاسِخًا فِي ظَاهِرِهِ، حَيْثُ انْصَهَرَتِ الْمَعْرِفَةُ وَالتَّجْرِبَةُ فِي هُوِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَقْبَلُ التَّشْكِيكَ. غَيْرَ أَنَّ وَهْمَ الِاسْتِقْرَارِ هَذَا تَزَعْزَعَ حِينَ تَبَيَّنَ أَنَّ التَّجْرِبَةَ الَّتِي عُدَّتْ وَاقِعًا مَوْضُوعِيًّا لَمْ تَكُنْ سِوَى بِنَاءٍ إِدْرَاكِيٍّ مُفْتَعَلٍ لَا يَمُتُّ لِإِرَادَةِ الْفَرْدِ بِصِلَةٍ. وَفِي هَذِهِ النُّقْطَةِ، لَمْ يَكُنِ الْمُنْهَارُ مُجَرَّدَ حَدَثٍ مَعِيشٍ، بَلْ جِذْرَ الْحَقِيقَةِ الَّتِي أُضْفِيَتْ بِمُوجِبِهَا صِفَةُ الْعِلْمِ عَلَى تِلْكَ التَّجْرِبَةِ. فَتَزَحْزَحَ دَازَارَاه عَنْ مَوْقِعِهِ كَذَاتٍ تَصُوغُ الْمَعْنَى، لِيَغْدُوَ بَيْدَقًا خَاضِعًا لِتَأْوِيلَاتِ غَيْرِهِ. وَحِينَ غَدَتْ مِصْدَاقِيَّةُ التَّجْرِبَةِ رَهِينَةً بِالتَّفْسِيرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ، انْقَطَعَ فَوْرًا حَبْلُ الِاسْتِقْلَالِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي كَانَ رُكْنَ السُّلْطَةِ الرَّكِينِ. وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ، لَمْ يَعُدْ مَرْكَزُ التَّحَكُّمِ نَابِعًا مِنَ الذَّاتِ، بَلْ أَمْسَى صَنِيعَةَ شَبَكَةِ مَعَانٍ تَقَعُ خَارِجَ سُلْطَةِ الشَّخْصِيَّةِ.

وَتُؤَدِّي مُشَارَكَةُ إِنَانَا فِي هَذَا النِّظَامِ السَّرْدِيِّ وَظِيفَةَ قَافِلِ الْمَعْنَى الَّذِي يُجَلِّي مَوْقِعَ دَازَارَاه؛ فَقَدِ اكْتَسَبَتْ تَجَارِبُ حَيَاتِهِ صِفَةَ الْحَقِّ فَقَطْ عَبْرَ قَنَوَاتِ الْوَسَاطَةِ، لَا عَبْرَ تَحَقُّقٍ بَاطِنِيٍّ مُسْتَقِلٍّ. هَذَا الْأَمْرُ حَوَّلَ دَوْرَ إِنَانَا مِنْ شَخْصِيَّةٍ ثَانَوِيَّةٍ إِلَى عُقْدَةٍ رَئِيسِيَّةٍ تُقَرِّرُ تَوْزِيعَ الْمَعْنَى لِلْبَطَلِ. فَلَمْ تَعُدْ تَبَعِيَّةُ دَازَارَاه لِتَفْسِيرَاتِ الْآخَرِينَ أَمْرًا عَارِضًا، بَلْ أَمْسَتْ هَيْكَلًا ثَابِتًا يُبِينُ أَنَّ الْوَاقِعَ الَّذِي يَخُوضُهُ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِأَدَوَاتِ تَأْوِيلٍ لَمْ يَمْلِكْهَا قَطُّ. فَلَمْ يَعُدِ اسْتِفْسَارُهُ يُقْرَأُ كَمُحَاوَلَةٍ لِلتَّوْضِيحِ، بَلْ أَضْحَى بُرْهَانًا جَلِيًّا عَلَى أَنَّ ادِّعَاءَهُ لِلِاسْتِقْلَالِيَّةِ قَدْ بَادَ. وَكُلَّمَا تَأَجَّجَ ظَمَؤُهُ لِلتَّفْسِيرِ الْخَارِجِيِّ، اتَّضَحَ أَنَّ مَوْقِعَ السَّيْطَرَةِ الَّذِي يَفْخَرُ بِهِ لَيْسَ إِلَّا أَثَرًا جَانِبِيًّا لِاسْتِقْرَارٍ وَاهٍ. إِنَّ هَذِهِ الصَّيْرُورَةَ هِيَ جَوْهَرُ تَفْكِيكِ السُّلْطَةِ؛ حَيْثُ لَا تُنْتَزَعُ الْهَيْبَةُ بِالْمُوَاجَهَةِ، بَلْ تُقَوَّضُ بِإِعْرَاءِ الْحَقِيقَةِ بِأَنَّهَا لَمْ تَقُمْ يَوْمًا عَلَى أَسَاسٍ مُسْتَقِلٍّ حَقًّا.

وَتُعْلِنُ هَذِهِ التَّحَوُّلَاتُ فِي مَكَانَةِ دَازَارَاه عَنْ تَغَيُّرٍ جَوْهَرِيٍّ؛ إِذْ تَحَوَّلَ مِنْ حَاكِمٍ مُسَيْطِرٍ إِلَى مُجَرَّدِ جُزْءٍ دَقِيقٍ فِي النِّظَامِ الَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ قَاهِرُهُ. فَالسُّلْطَةُ الَّتِي بَدَتْ سَابِقًا مُتَمَثِّلَةً فِي

ذَاتِهِ، انْحَلَّتِ الْآنَ إِلَى صُورَةٍ تَبَعِيَّةٍ لِبِنْيَةِ الْمَعَانِي الْخَارِجِيَّةِ. وَتُظْهِرُ هَذِهِ اللَّحْظَةُ أَنَّ سُقُوطَ الْبَطَلِ لَمْ يَكُنْ جَرَّاءَ هُجُومِ قُوَى أَكْثَرَ بَأْسًا، بَلْ لِأَنَّهُ خَسِرَ حَقَّ الِاحْتِكَارِ عَلَى مَصَادِرِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي كَانَتْ تَدْعَمُ هُوِيَّتَهُ كَذَاتٍ سَيِّدَةٍ.

يَتَمَتَّعُ التَّحْلِيلُ السَّابِقُ بِارْتِبَاطٍ بَحْثِيٍّ بَيِّنٍ مَعَ الدِّرَاسَةِ الْأَوَّلِيَّةِ لِلْبَاحِث أُونِيشُوارَا (٢٠٢٥) الْمَوْسُومَةِ بِأَرْكِيتِيبِ الْبَطَلِ، وَالْبَطَلِ الْخَفِيِّ، وَمُضَادِّ الْبَطَلِ فِي سِفْرِ أَسْتِيرَ فِي ضَوْءِ الْأَسَاطِيرِ الْمِيزُوبُوتَامِيَّةِ. تُعَدُّ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ مَرْجِعًا أَصِيلًا؛ لِكَوْنِهَا تَعْمِدُ إِلَى تَشْرِيحِ دَوْرَةِ الْحَضَارَةِ مِنْ خِلَالِ التَّقَاطُعِ بَيْنَ سَرْدِيَّةِ الشَّخْصِيَّاتِ، وَوَهْمِ السُّلْطَةِ، وَالْمِيثُولُوجِيَا الْمِيزُوبُوتَامِيَّةِ الْقَدِيمَةِ. فَإِذَا كَانَتْ إِشْكَالِيَّةُ أُونِيشُوارَا تَتَمَحْوَرُ حَوْلَ تَجَلِّيَاتِ أَرْكِيتِيبِ الْبَطَلِ وَمُضَادِّ الْبَطَلِ وَاتِّسَاقِ مَوَاضِيعِهِ مَعَ النُّصُوصِ الْقَدِيمَةِ كَمَلْحَمَةِ إِينُومَا إِلِيش، فَإِنَّ هَذَا الْبَحْثَ يَسْعَى لِلْإِجَابَةِ عَنْ كَيْفِيَّةِ إِذْكَاءِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْكِيَانَاتِ الْغَيْبِيَّةِ لِتَحَوُّلَاتِ الْمَعْلُومَاتِ وَالسُّلْطَةِ الَّتِي تُحَرِّكُ عَجَلَةَ الْحَضَارَةِ.

وَتَتَّبِعُ كِلْتَا الدِّرَاسَتَيْنِ مَنْهَجِيَّةً مُتَقَارِبَةً، تَعْتَمِدُ عَلَى مُقَارَبَةِ الْأَسَاطِيرِ وَالْأَرْكِيتِيبِ ضِمْنَ الْبُنْيَوِيَّةِ لِكَارْل يُونْغ، مَعَ التَّحْلِيلِ الْمُقَارَنِ التَّارِيخِيِّ الْأَدَبِيِّ لِمُوَازَنَةِ النُّصُوصِ السَّرْدِيَّةِ بِمِيثُولُوجِيَا النُّقُوشِ الْمِسْمَارِيَّةِ الْمِيزُوبُوتَامِيَّةِ. وَتُثْبِتُ نَتَائِجُ الدِّرَاسَةِ الْأَوَّلِيَّةِ وُجُودَ تَوَازٍ فِي الشَّخْصِيَّاتِ؛ كَتَحَوُّلِ أَسْتِيرَ الَّذِي يُشَاكِلُ تَجَلِّيَاتِ الْإِلَهَةِ عِشْتَارَ عِنْدَ التَّدَخُّلِ فِي مَصِيرِ الْأُمَمِ، وَسُقُوطِ هَامَانَ الْمُتَكَبِّرِ عَلَى نَحْوِ مَا حَلَّ بِالْوَحْشِ كِينْغُو. وَهَذَا يَرْتَبِطُ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ بِنَتَائِجِ هَذَا الْبَحْثِ حَيْثُ تَلْجَأُ شَخْصِيَّةُ دَازَارَاه لِطُقُوسٍ غَيْبِيَّةٍ لِاسْتِحْضَارِ وَهْمِ كِيَانٍ إِنَانَا، وَهِيَ تَسْمِيَةٌ أُخْرَى لِلْإِلَهَةِ عِشْتَارَ ذَاتِهَا، سَعْيًا لِاسْتِنْطَاقِ الْأَسْرَارِ عَنْ كِيَانَاتِ التَّمَرُّدِ: عَزَازِيلَ وَشَمْحَازَايَ. وَمِنْ خِلَالِ هَذَا التَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ، يَتَصَرَّفُ دَازَارَاه كَأَرْكِيتِيبٍ مُحَرِّكٍ يَسْتَغِلُّ الْقُوَى الْمُتَعَالِيَةَ لِتَطْوِيعِ الْمَشْهَدِ السِّيَاسِيِّ وَالتَّارِيخِيِّ. وَفِي الْمُنْتَهَى، تَصُبُّ كِلْتَا الدِّرَاسَتَيْنِ فِي خُلَاصَةٍ حَوْلَ قَانُونِ دَوْرَةِ الْحَضَارَةِ الْكَوْنِيِّ؛ وَهُوَ أَنَّ النُّصُوصَ الْأَدَبِيَّةَ وَالتَّارِيخِيَّةَ لَا تَنْبَثِقُ فِي

عَزْلَةٍ ثَقَافِيَّةٍ، بَلْ تَمْتَصُّ دَوْمًا بُنَى الْغَيْبِ الْقَدِيمَةَ، حَيْثُ يَصِيرُ انْتِصَارُ النِّظَامِ عَلَى الْفَوْضَى، وَالسَّعْيُ لِتَحْصِيلِ الْمَعْرِفَةِ الرُّوحِيَّةِ عَبْرَ الْأَوْهَامِ الْغَيْبِيَّةِ، نَمَطًا سَرْمَدِيًّا يَتَكَرَّرُ دَوْرِيًّا فِي تَحْدِيدِ مَدِّ وَجَزْرِ الْحَضَارَةِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ صَلَابَةَ الْبَطَلِ فِي الِاحْتِفَاظِ بِمَوْقِعِهِ لَيْسَتْ مَحْضَ نَتِيجَةٍ لِفَيْضِ الْمَوَارِدِ، بَلْ هِيَ ثَمَرَةُ حِذْقٍ فِي تَقْدِيرِ الْقَرَارَاتِ اسْتِرَاتِيجِيًّا، وَثَبَاتٍ فِي خِضَمِّ عَوَاصِفِ الضُّغُوطِ. إِنَّ الِانْهِيَارَ لَا يَبْدَأُ دَوْمًا مِنَ الْهَزِيمَةِ الْمَادِّيَّةِ فِي مَيْدَانِ الْقِتَالِ، بَلْ يَتَأَصَّلُ فِي تَآكُلِ الْمَنَاعَةِ الدَّاخِلِيَّةِ حِينَ يُجَابِهُ الشَّخْصُ أَزَمَاتٍ تَخْتَبِرُ نَزَاهَتَهُ. وَتَكْمُنُ قِوَامُ اسْتِمْرَارِيَّةِ السُّلْطَةِ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى مُوَاصَلَةِ ضَبْطِ بُوصَلَةِ التَّوَجُّهِ وَرُسُوخِ الْخُطَى، وَلَوْ كَانَ الْوَاقِعُ الْمُحِيطُ يَتَوَعَّدُ بِتَقْوِيضِ الِاسْتِقْرَارِ الَّذِي بُنِيَ بَعْدَ عَنَاءٍ مَرِيرٍ.

إِنَّ دَيْمُومَةَ الْحَضَارَةِ تَعْتَمِدُ عَلَى رُوحِيَّةِ الْقِيَمِ وَالتَّوَازُنِ النَّفْسِيِّ لِلْفَوَاعِلِ الَّذِينَ يُحَرِّكُونَ النِّظَامَ، أَكْثَرَ مِنْ عِمَادِ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ أَوِ الِاقْتِصَادِيَّةِ. فَكَثِيرًا مَا يَبْدَأُ نُكُوصُ الْأَنْظِمَةِ حِينَ يَفْقِدُ الْقَادَةُ الْإِيمَانَ بِالْمَبَادِئِ الْأَصِيلَةِ الَّتِي كَانَتْ رَكِيزَةَ وُجُودِهِمْ. وَمَا دَامَتْ شُعْلَةُ الْوَعْيِ وَالْقُدْرَةُ عَلَى اسْتِبْصَارِ الْغَايَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ مُتَّقِدَةً، فَإِنَّ فُرَصَ الصُّمُودِ وَإِعَادَةِ بِنَاءِ الْمُسْتَقْبَلِ سَتَظَلُّ قَائِمَةً. وَقَدْ تَوَصَّلَ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الْمُحَاوَلَاتِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس لِتَعْطِيلِ النِّظَامِ لَمْ تَعْتَمِدْ عَلَى سَحْقِ الْقُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ مُبَاشَرَةً، بَلْ عَبْرَ تِكْتِيكَاتِ تَوْهِينِ الصَّلَابَةِ الْبَاطِنِيَّةِ لِشَخْصِيَّاتِهِ الْمُحَرِّكَةِ. فَقَدْ عَمِلَ أَنْتِيخْرِيستُوس عَلَى بَثِّ بِذَارِ الشَّكِّ وَالْقُنُوطِ، وَطَمْسِ مَعَالِمِ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ فِي السَّاعَاتِ الْحَرِجَةِ. إِنَّ السَّرْدِيَّةَ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةَ فِي هَذَا الْعَمَلِ تُبَيِّنُ أَنَّ انْهِيَارَ الْحَضَارَةِ هُوَ جَنَى تَفَكُّكِ الْأَخْلَاقِ وَالْوَعْيِ الْجَمْعِيِّ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الِانْهِيَارُ الْمَادِّيُّ بِأَمَدٍ بَعِيدٍ.

وَإِنَّ التَّهْدِيدَ الْمُصَوَّرَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ التَّسَرُّبِ الَّذِي يَسْتَهْدِفُ مَرَاكِزَ دِفَاعِ الْإِنْسَانِ. فَلَمْ يَبْدَأِ انْتِصَارُ الْخَصْمِ بِتَسَيُّدِ الْأَرَاضِي اعْتِبَاطًا، بَلْ بِنَجَاحِهِ فِي إِخْمَادِ قُدْرَةِ

الْإِنْسَانِ عَلَى الْوَفَاءِ لِلْحَقِّ تَحْتَ وَطْأَةِ قَسْوَةِ الزَّمَانِ. وَيُؤَكِّدُ هَذَا التَّفْصِيلُ أَنَّ بُؤْرَةَ الصِّرَاعِ فِي تِلْكَ النَّارِيَّةِ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةِ لَيْسَتْ صِرَاعَ سِلَاحٍ، بَلْ هِيَ نِزَالٌ عَلَى اسْتِعَادَةِ رُسُوخِ الضَّمِيرِ. فَيَتَمَرْكَزُ جَوْهَرُ الْمُقَاوَمَةِ فِي كَيْفِيَّةِ حِفَاظِ الْفَرْدِ عَلَى وُجْهَتِهِ فِي الْحَيَاةِ خِلَالَ الْمُحَاوَلَاتِ الْمَنْهَجِيَّةِ لِتَقْوِيضِ مَبَادِئِهِ. وَأَضْحَتِ الْحَالَةُ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ فِي النِّهَايَةِ ذِرْوَةَ نَجَاحِ الْخَصْمِ فِي اخْتِرَاقِ حُصُونِ الصُّمُودِ الدَّاخِلِيِّ، الَّتِي كَانَتْ تُمَثِّلُ لِلْإِنْسَانِ مَلَاذَهُ الْأَخِيرَ ضِدَّ كُلِّ ضُرُوبِ التَّلَاعُبِ بِالتَّارِيخِ.

ب) عَالَمُ الْأَيْرُونِيا: جَدَلِيَّةُ الْأَخْلَاقِ وَالْوَاقِعِ

في هذه المرحلة، يُبَيَّنُ كَيْفِيَّةُ تَصَوُّرِ حَالَةِ الْبَطَلِ، حَيْثُ لَا تُعْتَبَرُ بَعْدُ حَقِيقَةً رُوحِيَّةً، بَلْ يَصِيرُ كُلُّ أَمْرٍ مُؤَسَّسًا عَلَى النَّوَامِيسِ الدِّينِيَّةِ. وَيَشْمَلُ ذَلِكَ الْأَحْكَامَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ الْمَبْنِيَّةَ عَلَى الْأَسَاسِ الْأَخْلَاقِيِّ، لَا عَلَى الْوَاقِعِيَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، حَيْثُ لَا يَسْتَنِدُ جُلُّ ذَلِكَ إِلَى الضَّوَابِطِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ، وَإِنَّمَا يَقُومُ عَلَى أَسَاسِ الْقُوَّةِ.

(٢٩) بدأت الكاميرا تنزل شيئًا فشيئًا، منذرةً بمشهدٍ خلفيٍّ لجسدٍ عارٍ فاتنٍ يناسب جماله. وظلّت الكاميرا تنزل ببطء حتى هذا الوجه. تسارعت دقّات قلبك المحروم وبرزت من اتساعها. اتسعت عيناك من اللهفة لما ستريَه بعد قليل، ثم اتسعتا... ولم يكن ذلك من نشوة، بل من الذعر. فعندما انتهت الكاميرا إلى نهاية شعر الفتاة، لم ترَ ظهرها عاريًا كما هو مفترض، بل لم ترَ شيئًا على الإطلاق، سوى رداء الرجل. ثم ابتعدت الكاميرا شيئًا فشيئًا بسخرية، لتريك المشهد الكامل: رجلٌ واقف، ممسكٌ برأس الفتاة، يقبّلها بنهم، بينما جسدها يستلقي بعيدًا على فراشٍ وثيرٍ ذي أغطيةٍ حمراء. وعزفت لك الكاميرا موسيقى رومانسية جميلة، ممعنةً في السخرية. (ص ٤٩)

يَعْكِسُ الْبَيَانُ فِي الْبَنْدِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ كِبْرِيَاءَ الْمَلِكِ النَّمْرُودِ الَّذِي ادَّعَى سُلْطَةً مُطْلَقَةً عَلَى الْعَالَمِ عَبْرَ تَحَالُفٍ مَشْبُوهٍ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ. وَإِنَّ اسْتِعْمَالَ ضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي تِلْكَ الْاقْتِبَاسَاتِ يُشِيرُ إِلَى التَّحَالُفِ بَيْنَ النَّمْرُودِ وَإِبْلِيس –لُوسِيفَر– بَعْدَ أَنْ صَارَ أَوَّلَ بَشَرِيٍّ يَتَمَكَّنُ مِنَ السِّحْرِ الْأَسْوَدِ. وَقَدِ انْقَسَمَتْ كَيْنُونَةُ هَذَا السِّحْرِ إِلَى نَوْعَيْنِ، أَحَدُهُمَا السِّحْرُ الْأَسْوَدُ الْفِطْرِيُّ لَدَى النَّمْرُودِ، وَالْآخَرُ هُوَ السِّحْرُ ذُو الْمُسْتَوَى الرَّفِيعِ الَّذِي عَلَّمَهُ الْمَلَكَانِ هَارُوتُ وَمَارُوتُ فِي بَابِلَ ابْتِلَاءً. وَعَبْرَ مَفَاتِنِهَا وَمَكْرِهَا، أُرْسِلَتْ إِنَانَا لِتَسْرِقَ وَتُدَوِّنَ أَسْرَارَ سِحْرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ. وَحِينَ وَقَعَتْ سِجِلَّاتُ إِنَانَا فِي أَيْدِي سَحَرَةِ بَابِلَ، قَامُوا بِدَمْجِ كِلَا النَّوْعَيْنِ لِتَكْوِينَ قُوَّةٍ جَدِيدَةٍ شَدِيدَةِ التَّدْمِيرِ. وَمِنْ خِلَالِ تَقْنِينِ السِّحْرِ النَّاجِمِ عَنْ خِيَانَةِ إِنَانَا، اسْتَطَاعَتْ حَلَقَاتُ الشَّيَاطِينِ وَأَرْبَابُ الظَّلَامِ السَّيْطَرَةَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْحُكْمِ وَمَسَارِ التَّارِيخِ الْعَالَمِيِّ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ، كَأَنَّهُمْ يُؤَكِّدُونَ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُلَّاكُ الْحَقِيقِيُّونَ لِكُلِّ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

فِي تَشْرِيحِ هَذِهِ الْمُعْطَيَاتِ، يَرَى الْبَاحِثُ كَيْفَ تَعْمَلُ الْأَيْرُونِيا كَأَدَاةٍ لِانْعِكَاسِ الْحَالِ، مُبَيِّنَةً أَنَّ مَا يَبْدُو سِيَادَةً لَيْسَ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ التَّبَعِيَّةِ الْمُقَنَّعَةِ. فَسِيَادَةُ النَّمْرُودِ لَيْسَتْ قُوَّةً قَائِمَةً بِذَاتِهَا، بَلْ هِيَ بِنَاءٌ وَاهٍ يَضْطَرُّ دَوْمًا إِلَى إِنْكَارِ الْحُدُودِ الْوَاقِعِيَّةِ بُغْيَةَ الْحِفَاظِ عَلَى قِوَامِهِ. إِنَّ الِادِّعَاءَ الْمُطْلَقَ الَّذِي أَبْدَاهُ لَمْ يُنْتِجِ اسْتِقْلَالِيَّةً، بَلْ أَفْضَى إِلَى تَوَسُّعِ دَوَائِرِ التَّبَعِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَعْتَرِفْ بِهَا قَطُّ. وَلَمْ تَعْمَلِ السُّلْطَةُ عَلَى الصَّعِيدِ السِّيَاسِيِّ أَوِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ كَمَصْدَرِ شَرْعِيَّةٍ مُسْتَقِلٍّ، بَلْ أَمْسَتْ نِظَامًا يَسْتَجْدِي التَّعْزِيزَ مِنَ الْخَارِجِ كَيْ يَبْدُوَ مُسْتَقِرًّا. وَالْأَيْرُونِيا هُنَا لَيْسَتْ مَحْضَ تَلَاعُبٍ لَفْظِيٍّ، بَلْ هِيَ عَدَمُ اتِّسَاقٍ جَوْهَرِيٍّ بَيْنَ صُورَةِ السُّلْطَةِ الْمَعْرُوضَةِ وَالْأَسَاسِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يَدْعَمُهَا.

وَيَغْدُو الْحَاكِمُ الَّذِي يُنَصِّبُ نَفْسَهُ مَصْدَرًا لِلْحَقِيقَةِ، هُوَ الْفَرْدُ الْأَكْثَرُ وُقُوعًا فِي شَرَكِ الْأَوْهَامِ الَّتِي صَاغَهَا بِيَدِهِ. فَحِينَ تُعَدُّ الشَّرْعِيَّةُ نَابِعَةً مِنْ ذَاتِهِ دُونَ رُجُوعٍ لِنِظَامٍ أَوْسَعَ،

يَتَلَاشَى الْحَدُّ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَالصُّورَةِ. وَتَفْقِدُ السُّلْطَةُ الْمَسَافَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرُّمُوزِ الَّتِي تُمَثِّلُهَا. إِنَّ كُلَّ أَدَاةٍ هَيْمَنَةٍ تُسْتَخْدَمُ لِتَعْزِيزِ الْمَوْقِعِ، تَزِيدُ فِي الْوَاقِعِ مِنْ أَعْبَاءِ تَبَعِيَّةِ النِّظَامِ ذَاتِهِ. وَيَأْتِي اسْتِعْمَالُ السِّحْرِ فِي هَذَا الْبِنَاءِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ السَّيْطَرَةَ عَلَى الْوَاقِعِ لَا تَعْمَلُ مُبَاشَرَةً، بَلْ عَبْرَ وَسِيطٍ يَجِبُ الْحِفَاظُ عَلَى دَيْمُومَتِهِ. فَلَمْ تُحَرِّرْ تَوَسُّعَاتُ الْهَيْمَنَةِ الْفَاعِلَ حَقًّا، بَلْ زَادَتْ مِنْ إِيثَاقِهِ بِالْمِيكَانِيزْمَاتِ الَّتِي تَسْمَحُ لِتِلْكَ الْهَيْمَنَةِ بِالِاسْتِمْرَارِ.

وَعَلَى صَعِيدِ الْمُجْتَمَعِ، أَوْجَدَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ شَكْلًا مِنَ السُّلْطَةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى عُنْفٍ مَادِّيٍّ؛ لِأَنَّهُ تَجَذَّرَ فِي طَرِيقَةِ الرُّؤْيَةِ. وَمَتَى مَا تَسَرَّبَ تَحْدِيدُ مَا هُوَ حَقٌّ وَمَا هُوَ نِظَامٌ إِلَى أَذْهَانِ الْعَامَّةِ، لَمْ تَعُدِ الْهَيْمَنَةُ بِحَاجَةٍ لِأَنْ تَظْهَرَ كَتَهْدِيدٍ وَاقِعِيٍّ. وَتَعْمَلُ السُّلْطَةُ الْآنَ عَبْرَ الْقَبُولِ لَا الرَّفْضِ. وَلَكِنْ فِي مِرْآةِ الْأَيْرُونِيا، يَحْتَفِظُ هَذَا الشَّكْلُ الْأَلْطَفُ مِنَ السُّلْطَةِ بِأَعْلَى دَرَجَاتِ التَّوَتُّرِ؛ لِأَنَّ اسْتِقْرَارَهُ رَهِينٌ بِالْإِدْرَاكِ الْعَامِّ الَّذِي يَنْبَغِي صِيَانَتُهُ دَوْمًا. فَالْعَالَمُ الَّذِي شَيَّدَهُ النَّمْرُودُ لَيْسَ نِظَامًا رَاسِخًا، بَلْ هُوَ جِهَازٌ يُنْتِجُ الْأَوْهَامَ اسْتِمْرَارِيًّا لِيَبْقَى قَائِمًا. وَكُلَّمَا اتَّسَعَتِ الْفَجْوَةُ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَالصُّورَةِ الَّتِي يَحْمِيهَا، اسْتَنْزَفَ ذَلِكَ طَاقَةً أَكْبَرَ لِلْحِفَاظِ عَلَى مَظْهَرِ الِاتِّسَاقِ. وَفِي الْمُنْتَهَى، لَنْ يَقَعَ الِانْهِيَارُ بِفِعْلِ هُجُومٍ خَارِجِيٍّ، بَلْ بِسَبَبِ تَكَدُّسِ التَّوَتُّرَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي عَجِزَتِ الْآلِيَّاتُ الْحَامِيَةُ عَنْ كَبْحِهَا.

وَيَبْلُغُ عَالَمُ الْأَيْرُونِيا ذُرْوَةَ وَظِيفَتِهِ النَّقْدِيَّةِ حِينَ يَقْتَرِنُ الِاسْتِقْرَارُ الْكَامِلُ بِأَعْمَقِ دَرَجَاتِ الْهَشَاشَةِ. فَالْأَنْظِمَةُ الَّتِي تَبْدُو أَكْثَرَ صَلَابَةً هِيَ تِلْكَ الَّتِي فَقَدَتْ قُدْرَتَهَا عَلَى التَّقْوِيمِ الذَّاتِيِّ. هَذِهِ هِيَ الْأَيْرُونِيا الْحَقِيقِيَّةُ؛ إِذْ لَا تَنْهَارُ السُّلْطَةُ بِفِعْلِ خَسَارَةِ الطَّاقَةِ، بَلْ بِسَبَبِ انْقِطَاعِ صِلَتِهَا بِالْأَسَاسِ الَّذِي كَانَ يُقِرُّ لَهَا بِكَوْنِهَا سُلْطَةً. فَلَمْ يُصَوَّرِ النَّمْرُودُ كَشَخْصِيَّةٍ فَشِلَتْ فِي الْحِفَاظِ عَلَى الْعَرْشِ، بَلْ كَفَرْدٍ أَسَّسَ سُلْطَتَهُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ عَلَى إِنْكَارِ الْحُدُودِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ شَرْطًا لِوُجُودِهِ ذَاتِهِ.

تَتَجَلَّى الرَّابِطَةُ بَيْنَ الدِّرَاسَةِ الْأَوَّلِيَّةِ لِلْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ سَيِّد مُحَمَّد رِضَا ابْنِ الرَّسُول وَكَنْجِي (٢٠١٩) وَبَيْنَ بَيَانَاتِ هَذَا الْبَحْثِ حَوْلَ الْمَلِكِ النَّمْرُودِ فِي تَوْظِيفِ الْأَعْمَالِ الْأَدَبِيَّةِ لِمَنْهَجِيَّاتِ التَّنَاصِّ، وَالتَّحْلِيلِ الْأَدَبِيِّ، وَالتَّارِيخِيِّ النَّفْسِيِّ، لِكَشْفِ الْمَعَانِي الْمُضْمَرَةِ وَرَاءَ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ وَالْمِيثُولُوجِيَا. وَعَبْرَ إِشْكَالِيَّةٍ تَتَمَحْوَرُ حَوْلَ كَيْفِيَّةِ إِعَادَةِ بِنَاءِ الشَّخْصِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْمِيثُولُوجِيَّةِ فِي سَرْدِيَّاتٍ جَدِيدَةٍ، تُبَيِّنُ دِرَاسَتُهُمُ الْمَعْنَوْنَةُ بِ يَحْيَى وَعِيسَى بَيْنَ الْمِيثُولُوجِيَا وَالتَّارِيخِ؛ قِرَاءَةٌ فِي النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ وَالشِّعْرِ الْمَنْدَائِيِّ، أَنَّ الشَّخْصِيَّاتِ الرُّوحِيَّةَ غَالِبًا مَا تُصَوَّرُ بِصُوَرٍ مُتَبَايِنَةٍ سَعْيًا لِلتَّأْثِيرِ فِي الذَّاكِرَةِ الْعَامَّةِ.

وَلَقَدْ أَثْبَتَتْ نَتَائِجُ تَحْلِيلِهِمْ وَخُلَاصَاتُهُمْ أَنَّ الشُّعَرَاءَ يَمِيلُونَ إِلَى الْخُضُوعِ لِوَطْأَةِ الرَّأْيِ الْعَامِّ وَالذَّاكِرَةِ الْجَمْعِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ بَدَلًا مِنَ الْحِفَاظِ عَلَى الْأَصَالَةِ التَّيُولُوجِيَّةِ؛ وَهَذَا يَتَّسِقُ اتِّسَاقًا تَامًّا مَعَ بَيَانَاتِ هَذَا الْبَحْثِ الَّتِي تَعْكِسُ كِبْرِيَاءَ الْمَلِكِ النَّمْرُودِ حِينَ ادَّعَى سُلْطَةً مُطْلَقَةً عَلَى الْعَالَمِ عَبْرَ تَحَالُفٍ مَشْبُوهٍ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَإِبْلِيس –لُوسِيفَر–. إِنَّ اسْتِعْمَالَ ضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي ذَلِكَ التَّحَالُفِ السِّحْرِيِّ، الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ السِّحْرِ الْأَسْوَدِ الْفِطْرِيِّ لَدَى النَّمْرُودِ وَالسِّحْرِ ذِي الْمُسْتَوَى الرَّفِيعِ لِلْمَلَكَيْنِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ فِي بَابِلَ بِفِعْلِ خِيَانَةِ إِنَانَا الْمَاكِرَةِ، قَدْ صَارَ تَقْنِينًا لِقُوَى تَدْمِيرِيَّةٍ تَبْسُطُ سَيْطَرَتَهَا عَلَى التَّارِيخِ وَالْأَمْوَالِ وَأَنْظِمَةِ الْحُكْمِ فِي الْعَالَمِ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ. وَبِذَلِكَ، يُثْبِتُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الدِّرَاسَتَيْنِ مَنْطِقِيًّا أَنَّ الْمُؤَامَرَاتِ الْقَدِيمَةَ لِأَرْبَابِ الظَّلَامِ، الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ مَالِكِيِّ الْأَرْضِ الْحَقِيقِيِّينَ، لَيْسَتْ فِي جَوْهَرِهَا إِلَّا ضَرْبًا مِنَ التَّلَاعُبِ بِسَرْدِيَّاتِ التَّارِيخِ وَالْمِيثُولُوجِيَا، النَّابِعِ مِنْ بِنْيَةٍ نَفْسِيَّةٍ سُلْطَوِيَّةٍ تَبَنَّتْهَا النُّصُوصُ الْأَدَبِيَّةُ فِي الْعُصُورِ الْغَابِرَةِ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ تَفَكُّكَ الْمَعَانِي الْحَاصِلَ فِي مَرْحَلَةِ عَالَمِ الْأَيْرُونِيا بِرِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس هُوَ تَجَلٍّ وَاقِعِيٌّ لِلسِّينَارْيُو الْإِسْخَاتُولُوجِيِّ الْإِسْلَامِيِّ؛ حَيْثُ لَا يَبْرُزُ تَدَخُّلُ أَنْتِيخْرِيستُوس فِي صُورَةِ صَدَمَاتٍ مَادِّيَّةٍ، بَلْ كَفِتْنَةٍ إِبِيسْتِيمُولُوجِيَّةٍ تُقَعِّدُ الْقُدْرَاتِ النَّقْدِيَّةَ

لِلْإِنْسَانِ. وَفِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، لَا يَقِفُ الْحَاكِمُ الْمُمَثِّلُ لِلنِّظَامِ كَذَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ، بَلْ يَعْلَقُ فِي أَوْهَامِ الْوَاقِعِ الَّذِي صَنَعَهُ بِيَدِهِ. هَذِهِ الْحَالَةُ تَخْلُقُ ثُغْرَةً يَسْتَغِلُّهَا أَنْتِيخْرِيستُوس لِبَثِّ سَرْدِيَّاتِ التَّبْرِيرِ الَّتِي تَسْلُبُ الْوَعْيَ الْجَمْعِيَّ. فَحِينَ يَعْجَزُ الْحَاكِمُ عَنْ إِدْرَاكِ حُدُودِهِ الْأُنْطُولُوجِيَّةِ، وَيَحْسَبُ نَفْسَهُ مَصْدَرَ الْحَقِيقَةِ، فَإِنَّهُ يَفْتَحُ دُونَ وَعْيٍ بَابَ الِاخْتِرَاقِ الَّذِي يَقْلِبُ مَعَايِيرَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

وَإِنَّ نَجَاحَ هَذَا الِاخْتِرَاقِ يَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِانْهِيَارِ قُدْرَةِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى قِرَاءَةِ عَلَامَاتِ الْحَقِّ خَلْفَ الرُّمُوزِ الَّتِي يُعَظِّمُونَهَا. إِنَّ أَنْتِيخْرِيستُوس يَعْمَلُ عَلَى اسْتِثْمَارِ بُنْيَةِ الْأَيْرُونِيا، حَيْثُ تُسْتَخْدَمُ سَرْدِيَّاتُ السِّلْمِ وَالتَّقَدُّمِ كَقِنَاعٍ لِشَرْعَنَةِ قَمْعٍ مَنْهَجِيٍّ يُبْعِدُ الْأُمَّةَ عَنْ فِطْرَتِهَا التَّوْحِيدِيَّةِ. وَفِي هَذَا الْمُسْتَوَى، لَا يَتَحَقَّقُ انْتِصَارُ أَنْتِيخْرِيستُوس بِالْغَلَبَةِ الْمَادِّيَّةِ، بَلْ بِنَجَاحِهِ فِي تَحْوِيلِ الْمُجْتَمَعِ إِلَى فَاعِلٍ يُقِرُّ طَوْعًا بِالْبَاطِلِ؛ لِأَنَّ الرُّمُوزَ الْأَخْلَاقِيَّةَ قَدْ أُفْرِغَتْ مِنْ مَضَامِينِهَا الْأَصِيلَةِ. هَذِهِ الظَّاهِرَةُ تُبْرِهِنُ أَنَّ مَرْحَلَةَ عَالَمِ الْأَيْرُونِيا لَيْسَتْ إِلَّا مَعْبَرًا لِلسِّينَارْيُو الْإِسْخَاتُولُوجِيِّ الْأَعْمَقِ، حَيْثُ يُتْرَكُ الْإِنْسَانُ مُقْتَلَعًا مِنْ جُذُورِهِ الرُّوحِيَّةِ حَتَّى يَعْجَزَ عَنْ التَّفْرِيقِ بَيْنَ أَوْهَامِ الْحُرِّيَّةِ وَأَغْلَالِ الضَّلَالَةِ السَّرْمَدِيَّةِ.

وَعَلَيْهِ، يُؤَكِّدُ الْبَاحِثُ أَنَّ تَدَخُّلَ أَنْتِيخْرِيستُوس فِي مَرْحَلَةِ عَالَمِ الْأَيْرُونِيا يَعْمَلُ كَمِيكَانِيزْمٍ لِتَآكُلِ الصُّمُودِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي تَرَاكَمَ طَوِيلًا بِفِعْلِ تَشَوُّهِ الْمَعَانِي. إِنَّ الصِّرَاعَ لِحِفَاظِ نَزَاهَةِ الْمَعْنَى فِي خِضَمِّ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ هُوَ الْحِصْنُ الْأَخِيرُ لِكَرَامَةِ الْإِنْسَانِ، كَيْلَا يَقَعَ فِي شَرَكِ زُورٍ يَعِدُ بِاسْتِقْرَارٍ دُنْيَوِيٍّ لَكِنَّهُ يُفْضِي إِلَى فَنَاءٍ رُوحِيٍّ أَبَدِيٍّ. هَذَا هُوَ الصِّرَاعُ الْأَكْثَرُ حَسْمًا، حَيْثُ تَصِيرُ صَفَاءُ الضَّمِيرِ فِي تَبَيُّنِ الْمَكِيدَةِ وَرَاءَ سَرْدِيَّاتِ الْعَظَمَةِ رَكِيزَةً مُطْلَقَةً لِرَفْضِ سِيناريو نِهَايَةِ الزَّمَانِ الَّذِي يَهْدِفُ لِزَحْزَحَةِ جَوْهَرِ التَّوْحِيدِ عَنْ مَرْكَزِ وَعْيِ الْإِنْسَانِ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ تَفَكُّكَ الْمَعَانِي الْحَاصِلَ فِي مَرْحَلَةِ عَالَمِ الْأَيْرُونِيا بِرِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوس هُوَ تَجَلٍّ وَاقِعِيٌّ لِلسِّينَارْيُو الْإِسْخَاتُولُوجِيِّ الْإِسْلَامِيِّ؛ حَيْثُ لَا يَبْرُزُ تَدَخُّلُ أَنْتيخْريستُوس فِي صُورَةِ صَدَمَاتٍ مَادِّيَّةٍ، بَلْ كَفِتْنَةٍ إِبِيسْتِيمُولُوجِيَّةٍ تُقَعِّدُ الْقُدْرَاتِ النَّقْدِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ. وَفِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، لَا يَقِفُ الْحَاكِمُ الْمُمَثِّلُ لِلنِّظَامِ كَذَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ، بَلْ يَعْلَقُ فِي أَوْهَامِ الْوَاقِعِ الَّذِي صَنَعَهُ بِيَدِهِ. هَذِهِ الْحَالَةُ تَخْلُقُ ثُغْرَةً يَسْتَغِلُّهَا أَنْتيخْريستُوس لِبَثِّ سَرْدِيَّاتِ التَّبْرِيرِ الَّتِي تَسْلُبُ الْوَعْيَ الْجَمْعِيَّ. فَحِينَ يَعْجَزُ الْحَاكِمُ عَنْ إِدْرَاكِ حُدُودِهِ الْأُنْطُولُوجِيَّةِ، وَيَحْسَبُ نَفْسَهُ مَصْدَرَ الْحَقِيقَةِ، فَإِنَّهُ يَفْتَحُ دُونَ وَعْيٍ بَابَ الِاخْتِرَاقِ الَّذِي يَقْلِبُ مَعَايِيرَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

وَإِنَّ نَجَاحَ هَذَا الِاخْتِرَاقِ يَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِانْهِيَارِ قُدْرَةِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى قِرَاءَةِ عَلَامَاتِ الْحَقِّ خَلْفَ الرُّمُوزِ الَّتِي يُعَظِّمُونَهَا. إِنَّ أَنْتيخْريستُوس يَعْمَلُ عَلَى اسْتِثْمَارِ بُنْيَةِ الْأَيْرُونِيا، حَيْثُ تُسْتَخْدَمُ سَرْدِيَّاتُ السِّلْمِ وَالتَّقَدُّمِ كَقِنَاعٍ لِشَرْعَنَةِ قَمْعٍ مَنْهَجِيٍّ يُبْعِدُ الْأُمَّةَ عَنْ فِطْرَتِهَا التَّوْحِيدِيَّةِ. وَفِي هَذَا الْمُسْتَوَى، لَا يَتَحَقَّقُ انْتِصَارُ أَنْتيخْريستُوس بِالْغَلَبَةِ الْمَادِّيَّةِ، بَلْ بِنَجَاحِهِ فِي تَحْوِيلِ الْمُجْتَمَعِ إِلَى فَاعِلٍ يُقِرُّ طَوْعًا بِالْبَاطِلِ؛ لِأَنَّ الرُّمُوزَ الْأَخْلَاقِيَّةَ قَدْ أُفْرِغَتْ مِنْ مَضَامِينِهَا الْأَصِيلَةِ. هَذِهِ الظَّاهِرَةُ تُبْرِهِنُ أَنَّ مَرْحَلَةَ عَالَمِ الْأَيْرُونِيا لَيْسَتْ إِلَّا مَعْبَرًا لِلسِّينَارْيُو الْإِسْخَاتُولُوجِيِّ الْأَعْمَقِ، حَيْثُ يُتْرَكُ الْإِنْسَانُ مُقْتَلَعًا مِنْ جُذُورِهِ الرُّوحِيَّةِ حَتَّى يَعْجَزَ عَنْ التَّفْرِيقِ بَيْنَ أَوْهَامِ الْحُرِّيَّةِ وَأَغْلَالِ الضَّلَالَةِ السَّرْمَدِيَّةِ.

وَعَلَيْهِ، يُؤَكِّدُ الْبَاحِثُ أَنَّ تَدَخُّلَ أَنْتيخْريستُوس فِي مَرْحَلَةِ عَالَمِ الْأَيْرُونِيا يَعْمَلُ كَمِيكَانِيزْمٍ لِتَآكُلِ الصُّمُودِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي تَرَاكَمَ طَوِيلًا بِفِعْلِ تَشَوُّهِ الْمَعَانِي. إِنَّ الصِّرَاعَ لِحِفَاظِ نَزَاهَةِ الْمَعْنَى فِي خِضَمِّ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ هُوَ الْحِصْنُ الْأَخِيرُ لِكَرَامَةِ الْإِنْسَانِ، كَيْلَا يَقَعَ فِي شَرَكِ زُورٍ يَعِدُ بِاسْتِقْرَارٍ دُنْيَوِيٍّ لَكِنَّهُ يُفْضِي إِلَى فَنَاءٍ رُوحِيٍّ أَبَدِيٍّ. هَذَا هُوَ الصِّرَاعُ الْأَكْثَرُ حَسْمًا، حَيْثُ تَصِيرُ صَفَاءُ الضَّمِيرِ فِي تَبَيُّنِ الْمَكِيدَةِ وَرَاءَ سَرْدِيَّاتِ الْعَظَمَةِ رَكِيزَةً

مُطْلَقَةً لِرَفْضِ سِيناريو نِهَايَةِ الزَّمَانِ الَّذِي يَهْدِفُ لِزَحْزَحَةِ جَوْهَرِ التَّوْحِيدِ عَنْ مَرْكَزِ وَعْيِ الْإِنْسَانِ.

ج) تَجَلِّيَاتُ الشَّيْطَنَةِ: ذِرْوَةُ الظُّلْمَةِ بِلَا مَخْرَجٍ

وَفْقًا لِنُورْثْرُوب فْرَاي، فَإِنَّ عَالَمَ التَّجَلِّيَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ هُوَ مَرْحَلَةٌ تَزْخَرُ بِصُوَرِ السَّبَارَاغْمُوس، وَالتَّعْذِيبِ، وَالْهَوْلِ. وَحِينَ يَبْلُغُ الْبَاحِثُ ذِرْوَةَ التَّجَلِّيَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَشْهَدُ أَوْ يَلْمَحُ لَمْحًا رُؤْيَةً شَيْطَانِيَّةً لَا بَدِيلَ لَهَا، أَلَا وَهِيَ رُؤْيَةُ الْجَحِيمِ عَيْنُهَا. إِنَّ الرُّمُوزَ الرَّئِيسِيَّةَ لِلتَّجَلِّيَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ هِيَ السِّجْنُ، وَمُصَحَّةُ الْعُقُولِ، وَأَدَوَاتُ الْمَوْتِ الْمُعَذِّبَةُ. وَيُعَدُّ الصَّلِيبُ تَحْتَ غُرُوبِ الشَّمْسِ نَقِيضًا لِلْبُرْجِ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ، وَهُوَ عَكْسٌ تَامٌّ لِلرُّمُوزِ الْأَبُوكَالِيبْتِيَّةِ. وَلِأَجْلِ اسْتِيعَابِ مَفْهُومِ التَّجَلِّيَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي سِيَاقِ هَذَا الْبَحْثِ، سَيَعْمِدُ الْبَاحِثُ إِلَى إِجْرَاءِ مَرْحَلَةٍ لَاحِقَةٍ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْبَيَانَاتِ، وَفِيمَا يَلِي مَرَاحِلُهَا التَّالِيَةُ.

(٣٠) ثم تحوّلت نظرتها الجميلة إلى نظرةٍ مخيفة، وقالت: لقد أصبحتَ ملعونًا إلى الأبد يا هازارد، لُعِنتُ مرّتَين؛ مرّة حين حاولتُ أن أفتن مَلَكَين كريمين، ومرّة حين كفرتُ بكلّ ما علّماني ونقلتُه إلى الحثالة أمثالك في أوروك. تراجع هازارد، وفقد صرامته مع تقدّمها الحثيث نحوه، وكانت تلك فرصتها. لا بدّ أن يكون النّكرومانسر قويًّا بما يكفي للسيطرة على الروح التي يودّ استدعاءها، لكنه لم يكن يدري... لقد كانت «فينوس» غاضبة ومهانة، فمزّقت روحه شرَّ تمزيق، وصعدت روحه مع ملائكة العذاب إلى السماء، السماء التي لمع فيها في تلك الليلة كوكبٌ ببريقٍ أحمر جميل... كوكب الزهرة. (ص ٥٨)

يُمَثِّلُ الْبَيَانُ فِي الثَّلَاثِينَ ذِرْوَةَ الْحَدَثِ السَّرْدِيِّ بَيْنَ هَازَارْد وَفِينُوس. وَفِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ، قَدْ نَجَحَ هَازَارْد فِي اسْتِحْضَارِ رُوحِ إِنَانَا بِطُقُوسٍ سِحْرِيَّةٍ شَنِيعَةٍ، مُتَّخِذًا رَأْسَ إِنَانَا

الْمَقْطُوعَ وَسِيلَةً لِذَلِكَ. إِلَّا أَنَّهُ وَقَعَ فِي خَطَإٍ فِي التَّقْدِيرِ؛ إِذْ لَمْ يُدْرِكْ مَدَى سَخَطِ الْإِلَهَةِ. وَلَمَّا رَأَتْ إِنَانَا أَنَّ اسْتِحْضَارَهَا لِلْعَوْدَةِ إِلَى الدُّنْيَا عَلَى يَدِ سَاحِرٍ مِثْلِ هَازَارْد يُشَكِّلُ إِهَانَةً لِشَأْنِهَا، انْتَقَمَتْ بِقُوَاهَا الْغَيْبِيَّةِ. فَتَمَزَّقَتْ رُوحُ هَازَارْد إِرَبًا إِرَبًا، وَحَمَلَتْهَا مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِلَى السَّمَاءِ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، بَزَغَ فِي السَّمَاءِ كَوْكَبٌ بَاهِرٌ ضِيَاؤُهُ أَحْمَرُ، وَهُوَ كَوْكَبُ فِينُوس، مُعْلِنًا بِذَلِكَ نِهَايَةَ السَّاحِرِ.

تَتَجَلَّى الِانْعِطَافَةُ الدِّرَامِيَّةُ فِي هَيْكَلِ السُّلْطَةِ عَبْرَ مُحَاوَلَةِ الْحَاكِمِ التَّسَتُّرَ عَلَى تَبَعِيَّتِهِ خَلْفَ ادِّعَاءَاتِ السِّيَادَةِ الْمُطْلَقَةِ. فَشَخْصِيَّةُ النَّمْرُودِ فِي هَذِهِ السَّرْدِيَّةِ لَيْسَتْ كِيَانًا يَسْتَنِدُ إِلَى اسْتِقْلَالِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ، بَلْ هِيَ بِنَاءٌ هَشٌّ يَضْطَرُّ دَوْمًا إِلَى سَتْرِ ضَعْفِهِ الْجَوْهَرِيِّ بِجِدَارٍ صَلْدٍ مِنَ الْإِطْلَاقِيَّةِ. وَقَدِ اعْتَرَى السُّلْطَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحَوُّلٌ فِي الْوَظِيفَةِ، إِذْ لَمْ تَعُدْ أَدَاةً لِتَنْظِيمِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ الْمُتَنَاغِمِ، بَلْ صَارَتْ آلَةَ قَهْرٍ لِإِمْلَاءِ الْوَاقِعِ وَفْقَ إِرَادَتِهِ الْخَاصَّةِ. وَفِي خِضَمِّ عَمَلِيَّةِ التَّأْصِيلِ هَذِهِ، يَبْدَأُ إِيقَاعُ الْأَيْرُونِيا بِالتَّكَشُّفِ؛ فَكُلَّمَا اتَّسَعَ نِطَاقُ الْهَيْمَنَةِ الَّذِي يَفْرِضُهُ، زَادَ تَقَيُّدُهُ بِالتَّبَعِيَّةِ لِأَجْهِزَةِ الدَّعْمِ الَّتِي يَجِبُ الْحِفَاظُ عَلَى دَيْمُومَتِهَا لِكَيْ يَبْقَى ادِّعَاؤُهُ مَقْبُولًا.

إِنَّ الْخَطَأَ الْفَادِحَ فِي هَذَا النِّظَامِ يَنْبَعُ مِنْ مَحْوِ الْحَدِّ الْفَاصِلِ بَيْنَ مَصْدَرِ النُّفُوذِ وَالصُّورَةِ الْمَعْرُوضَةِ عَلَى السَّطْحِ. فَحِينَ تُعَدُّ الشَّرْعِيَّةُ نَابِعَةً كُلِّيًّا مِنْ ذَاتِ الْحَاكِمِ دُونَ رُجُوعٍ لِمَبْدَأٍ أَرْفَعَ، يَفْقِدُ النِّظَامُ قُدْرَتَهُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ صَرْحِ الْحَقِّ وَالْأَسَاسِ الَّذِي يَحْمِلُهُ. وَلَمْ تَعُدْ كَافَّةُ أَدَوَاتِ الْهَيْمَنَةِ الْمُسَخَّرَةِ لِتَثْبِيتِ الْمَوْقِعِ أَدَوَاتٍ خَارِجِيَّةً مُحَايِدَةً، بَلِ انْصَهَرَتْ لِتُصْبِحَ جُزْءًا مِنَ نَسِيجِ التَّبَعِيَّةِ ذَاتِهِ. وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ، كَانَ كُلُّ خُطْوَةِ تَوَسُّعٍ يَتَّخِذُهَا تَقُصُّ حُرِّيَّةَ حَرَكَتِهِ حَتَّى لَا يَتَبَقَّى مِنْهَا شَيْءٌ. فَالسُّلْطَةُ الَّتِي تَبْدُو أَكْثَرَ فَاعِلِيَّةً فِي السَّيْطَرَةِ عَلَى الْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ، هِيَ فِي الْوَاقِعِ أَكْثَرُ هَشَاشَةً؛ لِأَنَّ بَقَاءَهَا رَهِينٌ بِاسْتِقْرَارِ الْإِدْرَاكِ الَّذِي يَنْبَغِي

إِنْتَاجُهُ بِصُورَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ. وَلَمْ تَعُدِ الْهَيْمَنَةُ تَرْتَكِزُ عَلَى تَهْدِيدِ الْعُنْفِ الْمُبَاشِرِ، بَلْ عَلَى مَهَارَةِ التَّلَاعُبِ بِوُجْهَةِ نَظَرِ الْجُمْهُورِ فِيمَا يُعَدُّ صَحِيحًا وَمُشْرُوعًا.

إِنَّ الْعَالَمَ الَّذِي شُيِّدَ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ لَيْسَ اسْتِقْرَارًا رَاسِخًا، بَلْ هُوَ كُتْلَةٌ مِنَ التَّوَتُّرَاتِ الَّتِي تُغَطِّيهَا قِشْرَةٌ مُتَمَاثِلَةٌ مِنَ الِاتِّسَاقِ. وَيَتَطَلَّبُ الْحِفَاظُ عَلَى تَوَحُّدِ الْمَعْنَى طَاقَةً هَائِلَةً تُنْتِجُ فِي الْمُنْتَهَى رُكَامًا مِنَ التَّنَاقُضَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ التَّوْفِيقُ بَيْنَهَا. فَلَا يَأْتِي الِانْهِيَارُ كَهَزَّةٍ عَنِيفَةٍ مِنَ الْخَارِجِ، بَلْ يَنْبَثِقُ مِنْ عَجْزِ النِّظَامِ عَنِ التَّقْوِيمِ الذَّاتِيِّ؛ لِأَنَّ كَافَّةَ مِيكَانِيزْمَاتِ التَّبْرِيرِ قَدِ امْتُصَّتْ بِوَاسِطَةِ مَرْكَزِ التَّحَكُّمِ. وَيُصْبِحُ الِاسْتِقْرَارُ الَّذِي يَبْدُو مِثَالِيًّا هُنَا عَلَامَةً عَلَى دُنُوِّ الِانْهِيَارِ، إِذْ تُصْرَفُ كُلُّ طَاقَةِ النِّظَامِ فَقَطْ لِحِمَايَةِ الصُّورَةِ بَدَلًا مِنَ الِاسْتِجَابَةِ لِدِينَامِيكِيَّةِ الْوَاقِعِ. وَإِنَّ السُّلْطَةَ الَّتِي تَبْدُو فِي أَوْجِ بَأْسِهَا هِيَ الْأَكْثَرُ عُرْضَةً لِلتَّغَيُّرَاتِ الضَّئِيلَةِ فِي بِنْيَتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ. فَلَمْ يَكُنْ سُقُوطُ النَّمْرُودِ فِي النِّهَايَةِ انْحِرَافًا، بَلْ كَانَ نَتِيجَةً مَنْطِقِيَّةً لِنِظَامٍ أَسَّسَ كَيَانَهُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ عَلَى إِنْكَارِ الْحُدُودِ الَّتِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَصُونَ وُجُودَهُ ذَاتَهُ.

تَبْحَثُ الدِّرَاسَةُ الْأَوَّلِيَّةُ لِسُولِيسْتِيَانِينْغُرُوم (٢٠١٥) الْمَوْسُومَةُ بِـ غَزْوُ الثَّقَافَةِ الْبَيْضَاءِ عَبْرَ خُرَافَةِ الْجَمَالِ فِي رِوَايَةِ الْعَيْنِ الْأَزْرَقِ لِتُونِي مُورِيسُون، فِي كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ مِيثُولوجِيَا الْجَمَالِ كَأَدَاةٍ لِلْغَزْوِ الثَّقَافِيِّ، الَّذِي يَعْمَلُ عَبْرَ اسْتِدْمَاجِ الْقِيَمِ الْمُهَيْمِنَةِ فِي النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ. وَتَتَمَحْوَرُ إِشْكَالِيَّةُ هَذَا الْبَحْثِ حَوْلَ مِيكَانِيزْمَاتِ تَسَرُّبِ الْخُرَافَاتِ الْمُصْطَنَعَةِ إِلَى النَّسَقِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَآثَارِهَا عَلَى الْوَضْعِ النَّفْسِيِّ لِلْفَرْدِ الْقَابِعِ فِي مَوْقِعٍ دُونِيٍّ. وَمِنْ خِلَالِ اعْتِمَادِ مُقَارَبَةٍ سُوسْيُوثَقَافِيَّةٍ وَتَأْصِيلِ نَظَرِيَّةِ الْهِيمَنَةِ، تَسْتَقْرِئُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ عَلَاقَاتِ الْقُوَّةِ بَيْنَ النِّظَامِ الْمُسَيْطِرِ وَالذَّاتِ الْمُغْتَرِبَةِ عَبْرَ صَيْرُورَةِ امْتِصَاصٍ غَيْرِ مُتَكَافِئٍ لِلْقِيَمِ.

وَتُبِينُ النَّتَائِجُ أَنَّ مِيثُولوجِيَا الْجَمَالِ لَا تَعْمَلُ كَمُجَرَّدِ تَمْثِيلٍ لِلْهَيْمَنَةِ الثَّقَافِيَّةِ، بَلْ كَآلِيَّةٍ لِإِنْتَاجِ الِاغْتِرَابِ وَالتَّصَدُّعِ النَّفْسِيِّ لَدَى الذَّوَاتِ الَّتِي أُكْرِهَتْ عَلَى تَبَنِّي مَعَايِيرِ النِّظَامِ

الْمُسَيْطِرِ. وَيُؤَدِّي هَذَا الْمَسَارُ إِلَى تَمَزُّقٍ تَدْرِيجِيٍّ فِي الْهُوِيَّةِ؛ إِذْ لَا تَعُودُ الذَّاتُ لِلرُّجُوعِ إِلَى هُوِيَّتِهَا الْأَصِيلَةِ، بَلْ إِلَى بِنَاءَاتٍ قِيَمٍ تَصُوغُهَا قُوَى خَارِجِيَّةٌ. وَيُمْكِنُ رَصْدُ نَمَطٍ مُتَّسِقٍ ضِمْنَ بَيَانَاتِ الْبَحْثِ الْحَالِيِّ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالنِّهَايَةِ الْمَأْسَاوِيَّةِ لِلسَّاحِرِ هَازَارْد؛ فَفِي هَذِهِ السَّرْدِيَّةِ، يَعْلَقُ هَازَارْد فِي وَهْمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِخْضَاعِ كِيَانٍ مُتَعَالٍ –وَهُوَ الْإِلَهَةُ إِنَانَا– بِوَاسِطَةِ الطُّقُوسِ السِّحْرِيَّةِ. وَلَكِنْ، كَمَا تَقْتَضِي مَنْطِقِيَّةُ الْهِيمَنَةِ فِي دِرَاسَةِ سُولِيسْتِيَانِينْغْرُوم، فَإِنَّ مُحَاوَلَةَ السَّيْطَرَةِ عَلَى نِظَامٍ أَعْلَى تَنْقَلِبُ لِتُصْبِحَ مِيكَانِيزْمًا لِفَنَاءِ الذَّاتِ نَفْسِهَا. إِنَّ الطُّقُوسَ السِّحْرِيَّةَ الَّتِي اسْتَخْدَمَهَا هَازَارْد لَمْ تَعْمَلْ كَأَدَاةٍ لِلضَّبْطِ، بَلْ كَشَكْلٍ مِنَ الْوَهْمِ السِّلْعِيِّ الَّذِي يُؤَكِّدُ تَبَايُنَ عَلَاقَاتِ الْقُوَّةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْقُوَى الْكَوْنِيَّةِ، مِمَّا أَفْضَى حَتْمًا إِلَى تَهْلُكَتِهِ.

وَعَلَيْهِ، تَكْشِفُ كِلْتَا الدِّرَاسَتَيْنِ عَنِ النَّمَطِ ذَاتِهِ؛ وَهُوَ عَجْزُ الذَّاتِ عَنِ السَّيْطَرَةِ عَلَى نِظَامٍ يَفُوقُ حُدُودَ قُدْرَاتِهَا. فَإِذَا كَانَ هَذَا الْعَجْزُ فِي دِرَاسَةِ سُولِيسْتِيَانِينْغْرُوم يَتَجَلَّى كَاغْتِرَابٍ نَفْسِيٍّ نَاجِمٍ عَنْ هَيْمَنَةِ مِيثُولوجِيَا الْجَمَالِ فِي النَّسَقِ الِاجْتِمَاعِيِّ، فَإِنَّهُ فِي بَيَانَاتِ هَذَا الْبَحْثِ يَنْتَهِي إِلَى اغْتِرَابٍ وُجُودِيٍّ يَتَمَثَّلُ فِي الْمَوْتِ الرُّوحِيِّ لِهَازَارْد. وَتَكْمُنُ الْفَارِقِيَّةُ فِي مَجَالِ التَّحْلِيلِ، بَيْنَ السُّوسْيُوثَقَافِيِّ فِي الدِّرَاسَةِ الْأَوَّلِيَّةِ وَالْمِيثُولُوجِيِّ الْكَوْنِيِّ فِي بَيَانَاتِ الْبَحْثِ، إِلَّا أَنَّ كِلْتَيْهِمَا تَلْتَقِيَانِ عِنْدَ نَمَطٍ جَوْهَرِيٍّ وَاحِدٍ: إِنَّ هَيْمَنَةَ النِّظَامِ الْأَعْلَى تَنْتَهِي دَوْمًا إِلَى نَفْيِ الذَّاتِ الَّتِي تُحَاوِلُ إِخْضَاعَهُ عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُتَوَازِنٍ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ تَفَكُّكَ الْمَعَانِي هُوَ الْبَوَّابَةُ الْكُبْرَى نَحْوَ انْهِيَارِ نَظَامِ الْحَضَارَةِ، وَهُوَ خَطَرٌ يَفُوقُ فِي جَسَامَتِهِ كُلَّ التَّهْدِيدَاتِ الْمَادِّيَّةِ. فَحِينَ يُقْطَعُ الرَّابِطُ عَمْدًا بَيْنَ الرُّمُوزِ وَالْوَاقِعِ، تَفْقِدُ الْمُجْتَمَعَاتُ بُوصَلَتَهَا الْأَخْلَاقِيَّةَ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالزُّورِ، وَتَصِيرُ هَذِهِ الْحَالَةُ مَدْخَلًا تَنْفُذُ مِنْهُ التَّأْثِيرَاتُ الْخَارِجِيَّةُ لِتَفْرِضَ هَيْمَنَتَهَا دُونَ أَدْنَى مُقَاوَمَةٍ. إِنَّ السَّيْرُورَةَ الْإِسْخَاتُولُوجِيَّةَ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوس لَيْسَتْ فِي جَوْهَرِهَا حَدَثًا مُسْتَقْبَلِيًّا يَنْفَجِرُ فَجْأَةً،

بَلْ هِيَ تَكَدُّسٌ لِضَعْفِ الْوَعْيِ النَّقْدِيِّ الَّذِي يُسَوِّغُ تَحَوُّلَ تَشَوُّهِ الْقِيَمِ إِلَى أَعْرَافٍ جَدِيدَةٍ فِي مَنَاكِبِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ.

وَيَتَأَصَّلُ نَجَاحُ هَذَا الِاخْتِرَاقِ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى طَمْسِ الْحُدُودِ بَيْنَ الْفَضِيلَةِ وَالطُّغْيَانِ عَبْرَ التَّلَاعُبِ بِاللُّغَةِ وَالسَّرْدِيَّاتِ. وَحِينَ يَعْجَزُ الْمُجْتَمَعُ عَنْ إِدْرَاكِ الْجَوْهَرِ الْكَامِنِ خَلْفَ الرُّمُوزِ الَّتِي يُعَظِّمُونَهَا، فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ قَدْ فَقَدُوا خَطَّ الدِّفَاعِ الْأَوَّلَ وَالْأَكْثَرَ جَوْهَرِيَّةً عَنْ ذَوَاتِهِمْ. إِنَّ الِانْتِصَارَ الْحَقِيقِيَّ لِلْقُوَى التَّدْمِيرِيَّةِ فِي هَذَا الْعَمَلِ لَا يَكْمُنُ فِي السَّيْطَرَةِ الْأَرْضِيَّةِ، بَلْ فِي نَجَاحِهِمْ فِي سَلْبِ الْإِنْسَانِ صَفَاءَ عَقْلِهِ. وَبِذَلِكَ، يَغْدُو الْعَمَلُ عَلَى حِفَاظِ نَزَاهَةِ الْمَعْنَى هُوَ السَّبِيلَ الْأَوْحَدَ لِرَفْضِ الْهَيْمَنَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الزُّورِ، وَيُشَكِّلُ فِي آنٍ وَاحِدٍ رَكِيزَةً لِكُلِّ مُحَاوَلَةٍ لِاسْتِعَادَةِ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ فِي خِضَمِّ تَيَّارَاتِ الزَّمَانِ الْمُتَلَاحِقَةِ وَالْمُضْطَرِبَةِ.

د) نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ: جَدَلِيَّةُ الْحَضَارَةِ

فِي الْمَرْحَلَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ مِيثُولوجِيَا الْأَيْرُونِيا، يَبْدَأُ الْبَطَلُ حَرَكَتَهُ نَحْوَ الْأَسْفَلِ لِأَنَّ مَصِيرَهُ يَنْتَهِي بِالسُّقُوطِ، ثُمَّ يَعُودُ لِلصُّعُودِ بَعْدَ مُجَاوَزَةِ مَرْحَلَةِ الْمَوْتِ. وَبِذَلِكَ، تَكُونُ نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ فِي رِحْلَةِ الْبَطَلِ هِيَ مَرْحَلَةُ حَيَاتِهِ الثَّانِيَةِ. وَيُقَارِنُ نُورْثْرُوب فْرَاي فِي كِتَابِهِ تَشْرِيحُ النَّقْدِ هَذِهِ الْحَالَ بِدَوَائِرِ الْجَحِيمِ عِنْدَ دَانْتِي؛ إِذْ يَقِعُ إِبْلِيسُ فِي مَرْكَزِ دَوَّامَتِهَا، وَلَكِنْ عِنْدَ تَجَاوُزِ دَوَّامَةِ الْمَوْتِ، يَنْقَلِبُ الْمَسَارُ الَّذِي كَانَ يَتَّجِهُ نَحْوَ الْأَسْفَلِ صَوْبَ الْمَرْكَزِ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ إِبْلِيسُ، لِيَصِيرَ مُتَّجِهًا نَحْوَ الْأَعْلَى، حَيْثُ يُصْبِحُ إِبْلِيسُ فِي الْأَسْفَلِ تَمَامًا، بَيْنَمَا يَمْتَدُّ ذَلِكَ الْمَسَارُ الدَّائِرِيُّ صُعُودًا إِلَى الْأَعْلَى.

(٣١) عرفت في تلك المغارة معنى الإعجاز الحقيقي. علمتُ أن الكواكب السبعة والشمس والقمر التي يعلّمنا سحرتنا أن نتقرّب إليها ونستعيد بها القوة ليست إلا أجرامًا، ولها إلهٌ واحد هو إله إبراهيم، وعلى مثال إبراهيم تكون المعجزات. علمتُ أن كلّ ما تفعلونه وهم، وكلّ ما تقولونه وهم. علمتُ أن أولئك السحرة أضعفُ شيء،

وأن الشياطين أضعفُ شيء. علمتُ أن لكلّ تعويذةِ ساحرٍ تعويذةً تفكّها. وعلمتُ أن عزازيل وشمهازي أسماءٌ شريرة أشاعها السحرة عن الساحرين الوسيمين؛ فقد كان اسماهما غريبين جميلين. كان أحدهما يُدعى هاروت، والآخر ماروت. وما يعلّمان من أحدٍ حتى يقولا: إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر .(ص ٥٦)

يَصُوغُ الْبَيَانُ فِي الْحَادِي وَالثَّلَاثِينَ مَفْهُومَ وُعُودِ إِبْرَاهِيمَ لِحَقِيقَةِ الْأُلُوهِيَّةِ وَهُوَ فِي غَارِهِ؛ إِذْ بَلَغَ إِبْرَاهِيمُ نُقْطَةَ التَّحَوُّلِ فِي وُعُودِهِ الْحَقِيقِيِّ حِينَ أَدْرَكَ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ الَّتِي دَأَبَ السَّحَرَةُ عَلَى تَعْظِيمِهَا لَيْسَتْ إِلَّا جِرْمًا سَمَاوِيًّا خَاضِعًا لِسُلْطَانِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ الَّذِي يَعْبُدُهُ نَبِيُّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ. وَبِفَضْلِ هَذَا الصَّفَاءِ الْبَاطِنِيِّ، تَجَلَّى لَهُ أَنَّ كَافَّةَ مُمَارَسَاتِ السِّحْرِ وَقُوَى الظَّلَامِ وَصُنُوفَ الطَّلَاسِمِ لَيْسَتْ سِوَى أَوْهَامٍ مَحْضَةٍ تَفْتَقِرُ إِلَى السُّلْطَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، إِذْ لِكُلِّ سِحْرٍ نَقِيضٌ يَدْمَغُهُ. كَمَا نَجَحَ إِبْرَاهِيمُ فِي تَصْحِيحِ السَّرْدِيَّاتِ الضَّالَّةِ الَّتِي رَوَّجَهَا السَّحَرَةُ عَنِ الْمَلَكَيْنِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ؛ فَعَقَلَ أَنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا مَصْدَرَ شَرٍّ، بَلْ كَانَا مَلَكَيْنِ أُرْسِلَا ابْتِلَاءً لِلْبَشَرِ حَتَّى يَثْبُتُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَلَا يَنْزَلِقُوا فِي دَرَكَاتِ الْكُفْرِ. وَمِنْ خِلَالِ هَذَا الِاسْتِبْصَارِ، أَرْسَى إِبْرَاهِيمُ دَعَائِمَ تَوْحِيدِهِ كَصُورَةٍ مِنَ الْمُقَاوَمَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ ضِدَّ نِظَامِ التَّضْلِيلِ الَّذِي شَيَّدَتْهُ قُوَى الظَّلَامِ مُنْذُ الْعَصْرِ الْبَابِلِيِّ، مِمَّا جَعَلَهُ رَمْزًا لِجَلَاءِ الْحَقِّ فِي عَالَمٍ أَضْحَى أَسِيرَ خُدَعِ السِّحْرِ.

يَكْشِفُ التَّحْلِيلُ لِلْبَيَانِ فِي الْبَنْدِ الْحَادِي وَالثَّلَاثِينَ عَنْ تَحَوُّلٍ إِبِيسْتِيمُولُوجِيٍّ جَوْهَرِيٍّ فِي بُنْيَةِ السَّرْدِ، حَيْثُ لَا يَعُودُ نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ لَدَى الشَّخْصِيَّةِ مَدْفُوعَةً بِدِينَامِيكِيَّاتٍ خَارِجِيَّةٍ، بَلْ بِتَفْكِيكٍ دَاخِلِيٍّ لِنَسَقِ الْمَعَانِي الَّذِي جَرَى الِاعْتِدَادُ بِرُسُوخِهِ. وَلَيْسَتِ الْأَزْمَةُ الَّتِي تَعْتَرِي الشَّخْصِيَّةَ حَدَثًا عَابِرًا يَمَسُّ السَّطْحَ، بَلْ هِيَ انْهِيَارٌ لِتَمَاسُكِ النِّظَامِ الرَّمْزِيِّ الَّذِي كَانَ يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ الْوَاقِعُ الْجَمْعِيُّ. فَعِنْدَمَا يَعْجَزُ النِّظَامُ الِاجْتِمَاعِيُّ بِمُشْتَقَّاتِهِ وَتَكْرَارِيَّاتِهِ عَنِ

الْإِجَابَةِ عَلَى التَّسَاؤُلَاتِ الْأُنْطُولُوجِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ، يَعْمِدُ الْبَطَلُ إِلَى تَقْوِيضِ مِيكَانِيزْمَاتِ التَّمْثِيلِ الَّتِي كَانَتْ تُوَارِي التَّنَاقُضَاتِ الدَّاخِلِيَّةَ لِذَلِكَ النِّظَامِ.

وَيُؤَدِّي فِضَاءُ الْغَارِ كَأَدَاةٍ سَرْدِيَّةٍ هُنَا وَظِيفَةً هَيْكَلِيَّةً اسْتْرَاتِيجِيَّةً فِي قَطْعِ سِلْسِلَةِ التَّوَاصُلِ مَعَ الْوَعْيِ الْقَدِيمِ. وَمِنْ مَنْظُورٍ تَحْلِيلِيٍّ، صَارَ هَذَا الْحَيِّزُ الْمُتَعَزِّلُ مَعْمَلًا لِلتَّأَمُّلِ الَّذِي يُهَيِّئُ لِثَلَاثِ مَرَاحِلَ حَادَّةٍ مِنَ التَّحَوُّلِ الْمَعْرِفِيِّ. أَوَّلُهَا، مَرْحَلَةُ التَّدْمِيرِ حِينَ تَتَبَيَّنُ مَحْدُودِيَّةُ النِّظَامِ الْكَوْنِيِّ الَّذِي كَانَ يُظَنُّ نِهَائِيًّا عَنِ الْإِحَاطَةِ بِالْوَاقِعِ الْحَقِيقِيِّ. وَثَانِيهَا، مَرْحَلَةُ تَرْسِيخِ الْمَعْنَى عَبْرَ نَقْلِ مَرْكَزِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ سُلْطَةٍ مُفَتَّتَةٍ إِلَى مَبْدَأٍ مُوَحَّدٍ وَمُتَنَاغِمٍ. وَثَالِثُهَا، مَرْحَلَةُ الِاسْتِدْمَاجِ الَّتِي تَبْلُغُ ذِرْوَتَهَا فِي تَحْوِيلِ مَصْدَرِ الْحَقِيقَةِ، حَيْثُ لَا تَعُودُ الذَّاتُ مُتَلَقِّيًا سَلْبِيًّا لِلسُّلْطَةِ الْخَارِجِيَّةِ، بَلْ فَاعِلًا يَبْنِي الْحَقِيقَةَ عَبْرَ وَعْيٍ تَأَمُّلِيٍّ.

إِنَّ تَحَوُّلَ الْهُوِيَّةِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بِمَعْنَاهُ الْكُلِّيِّ يُمَثِّلُ اكْتِمَالَ تَرْسِيخِ بِنْيَةِ الْوَعْيِ الْجَدِيدِ الْمُسْتَنِدَةِ إِلَى مَبْدَأٍ دَاخِلِيٍّ مُجَرَّبٍ جَدَلِيًّا. وَيُضْفِي حُضُورُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ هُنَا بَعْدًا عُمْقِيًّا أَكْثَرَ نَقْدِيَّةً، مُؤَكِّدًا أَنَّ الْمَعْرِفَةَ لَيْسَتْ مَحْضَ تَرَاكُمٍ لِمَعْلُومَاتٍ مُحَايِدَةٍ، بَلْ هِيَ مَيْدَانُ ابْتِلَاءٍ يَسْتَلْزِمُ الْمَسْؤُولِيَّةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ وَيَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ قَابِلِيَّةَ التَّشْوِيهِ. فَالْمَعْرِفَةُ تُوضَعُ كَقُوَّةٍ تَحْوِيلِيَّةٍ تَفْرِضُ عَلَى الذَّاتِ خَوْضَ رِحْلَةٍ تَسْتَدْعِي نُضْجَ الضَّمِيرِ. وَبِذَلِكَ، لَا تَكُونُ نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ فِي هَذِهِ السَّرْدِيَّةِ مُجَرَّدَ تَبَدُّلٍ فِي حَالَةِ الذَّاتِ، بَلْ هِيَ إِعَادَةُ ضَبْطٍ لِتَكْوِينِ الْمَعْنَى الَّذِي يُغَيِّرُ مَنْظُورَ الْعَالَمِ وَتَجْرِبَتَهُ.

وَتُؤَكِّدُ الرَّابِطَةُ بَيْنَ هَذَا التَّحَوُّلِ وَتَدَخُّلِ أَنْتِيخْرِيسْتُوس فِي الْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ أَنَّ مَيْدَانَ الصِّرَاعِ الْحَقِيقِيَّ يَقْبَعُ فِي الْوَعْيِ التَّأْوِيلِيِّ لِلْإِنْسَانِ. وَبَيْنَمَا تَعْمَلُ قُوَى أَنْتِيخْرِيسْتُوس التَّدْمِيرِيَّةُ عَبْرَ تَشْوِيهِ الْمَعَانِي لِتَعْطِيلِ الْقُدْرَاتِ النَّقْدِيَّةِ، تَبْرُزُ شَخْصِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ لِتُبَيِّنَ أَنَّ اسْتِعَادَةَ سِيَادَةِ الضَّمِيرِ هِيَ خَطُّ الدِّفَاعِ الْأَخِيرِ لِلْحَضَارَةِ. إِنَّ النَّجَاحَ فِي بِنَاءِ أَسَاسٍ تَوْحِيدِيٍّ رَاسِخٍ فِي خِضَمِّ مَرْحَلَةِ الْأَيْرُونِيا لَيْسَ إِنْجَازًا فَرْدِيًّا، بَلْ هُوَ نَقِيضٌ لِكُلِّ صُوَرِ

التَّلَاعُبِ الرَّمْزِيِّ الْمَوْجُوهِ لِاقْتِلَاعِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَقِيقَتِهِ الْأَصِيلَةِ. وَعَلَى مَسْتَوَى التَّحْلِيلِ الْأَعْمَقِ، تُبْرِهِنُ هَذِهِ الْبَيَانَاتُ أَنَّ انْهِيَارَ الْحَضَارَةِ يُمْكِنُ دَرْؤُهُ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ قَادِرًا عَلَى صَوْنِ نَزَاهَةِ وَعْيِهِ فِي وَجْهِ زَخَمِ السَّرْدِيَّاتِ الزَّائِفَةِ الَّتِي تَسْعَى لِتَقْوِيضِ جَوْهَرِ وُجُودِهِ.

تَتَجَلَّى الرَّابِطَةُ الْمَنْطِقِيَّةُ بَيْنَ دِرَاسَةِ مُحَمَّد حُسَيْن عَلِيّ السُّيُوطِيّ وَسَلَام نَاصِر وَالِي (٢٠٢٣) كَدِرَاسَةٍ سَابِقَةٍ تَقَصَّتْ مِيثُولوجِيَا السُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَبَيْنَ بَيَانَاتِ هَذَا الْبَحْثِ حَوْلَ وُعُودِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ نَبِيِّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ، مِنْ خِلَالِ خَيْطٍ نَاظِمٍ يَتَمَثَّلُ فِي تَفْكِيكِ الْخُرَافَةِ بُغْيَةَ إِرْسَاءِ شَرْعِيَّةِ الْحَقِّ. فَإِذَا كَانَتِ الدِّرَاسَةُ الْمَذْكُورَةُ تَسْتَقْرِئُ كَيْفَ يُوَظِّفُ الْحَاكِمُونَ السَّرْدِيَّاتِ الْمِيثُولُوجِيَّةَ، وَأَعَاجِيبَ الْعِمَارَةِ، وَتَلَاعُبَاتِ الْأَدْعِيَةِ الْحَقُّ الْإِلَهِيُّ لِتَشْيِيدِ شَرْعِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ وَتَأْبِيدِ سُلْطَتِهِمْ، فَإِنَّ بَيَانَاتِ هَذَا الْبَحْثِ تَأْتِي كَنَقِيضٍ جَدَلِيٍّ أَوْ كَصُورَةٍ مِنَ الْمُقَاوَمَةِ الْمُبَاشِرَةِ لِذَلِكَ النَّمَطِ.

إِنَّ وُعُودَ إِبْرَاهِيمَ فِي غَارِهِ بِحَقِيقَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ قَدْ عَمِلَ كَمَنْهَجِيَّةٍ بَحْثٍ قَائِمَةٍ عَلَى التَّأَمُّلِ الرُّوحِيِّ الْحَادِّ لِاخْتِبَارِ صَلَاحِيَّةِ الِادِّعَاءَاتِ السِّحْرِيَّةِ. وَلَقَدْ أَفْلَحَتْ نَتَائِجُ هَذَا التَّأَمُّلِ فِي تَفْكِيكِ مِيثُولوجِيَا الْعَصْرِ الْبَابِلِيِّ الضَّالَّةِ، بِمَا فِي ذَلِكَ تَصْحِيحُ تَشَوُّهِ السَّرْدِيَّاتِ عَنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، وَكَشْفُ أَنَّ مُمَارَسَاتِ السِّحْرِ وَقُوَى الظَّلَامِ الَّتِي اسْتَخْدَمَهَا هَيْكَلُ السُّلْطَةِ لَيْسَتْ إِلَّا أَوْهَامًا سِيَاسِيَّةً وَاهِيَةً. وَفِي الْمُنْتَهَى، يَتَطَابَقُ اسْتِنْتَاجُ كِلْتَا الدِّرَاسَتَيْنِ؛ فَبَيْنَمَا خَلَصَتِ الدِّرَاسَةُ الْأُولَى إِلَى أَنَّ الْخُرَافَةَ تُنْتَجُ وَتُحَافَظُ عَلَيْهَا لِغَايَةِ اسْتِمْرَارِيَّةِ الْحُكْمِ أَوْ حَسْمِ النِّزَاعَاتِ، تُثْبِتُ بَيَانَاتُ هَذَا الْبَحْثِ أَنَّ التَّوْحِيدَ الْحَقِيقِيَّ يَبْرُزُ كَأَسْمَى صُوَرِ الْمُقَاوَمَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ لِتَقْوِيضِ كَافَّةِ أَنْظِمَةِ التَّضْلِيلِ وَالزُّورِ الَّتِي شَيَّدَتْهَا تِلْكَ الْمِيثُولوجِيَا السِّيَاسِيَّةُ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ مَرْحَلَةَ الْبَعْثِ الْجَدِيدِ هِيَ مَيْدَانُ الصِّرَاعِ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُحَدِّدُ مَصِيرَ وُجُودِ الْحَضَارَةِ فِي خِضَمِّ نَوَازِلِ السِّينَارْيُو الْإِسْخَاتُولُوجِيِّ. وَلَا يَقْتَصِرُ التَّحَدِّي الَّذِي

تُوَاجِهُهُ الذَّاتُ عَلَى الدَّمَارِ الْمَادِّيِّ أَوِ الضُّغُوطِ الْخَارِجِيَّةِ، بَلْ يَمْتَدُّ إِلَى صِرَاعٍ بَاطِنِيٍّ نَاجِمٍ عَنْ تَجَمُّعِ إِخْفَاقَاتٍ تَتَعَمَّدُ الْقُوَى التَّدْمِيرِيَّةُ تَرْسِيخَهَا لِإِخْمَادِ الْقُدُرَاتِ النَّقْدِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ. وَفِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس، تَهْدِفُ التَّدَخُّلاتُ الَّتِي تَقُودُهَا الْقُوَى الْمُعَادِيَةُ إِلَى تَقْوِيضِ الْأَمَلِ وَغَرْسِ عَقِيدَةٍ مُفَادُهَا أَنَّ التَّصَدُّعَ الْأَخْلَاقِيَّ الْحَاصِلَ قَدْ بَلَغَ نُقْطَةَ لَا مَنَاصَ مِنْهَا. وَبِإِطْفَاءِ الْوَعْيِ بِإِمْكَانِيَّةِ التَّجَدُّدِ، يَسْعَى نِظَامُ الْهَيْمَنَةِ هَذَا إِلَى صِيَاغَةِ مُجْتَمَعٍ سَلْبِيٍّ وَمُتَنَاصِلٍ، فَاقِدٍ لِوُجْهَتِهِ التَّارِيخِيَّةِ.

وَإِنَّ الظَّفَرَ فِي مُقَاوَمَةِ هَذَا الِاخْتِرَاقِ يَقْتَضِي قُدْرَةً عَلَى التَّجَدُّدِ الْمُسْتَمِرِّ فِي الْمَجَالَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ. وَيُؤَكِّدُ الْبَاحِثُ أَنَّ الْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةَ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ تَجْعَلُ مِنْ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى حِفَاظِ الْأَمَلِ خَطَّ الدِّفَاعِ الْأَخِيرَ ضِدَّ تَفَكُّكِ الْمَعَانِي الْمَنْهَجِيِّ. فَلَا يُقَاسُ النَّصْرُ بَعْدَ الْآنَ بِالْقُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ لِإِخْضَاعِ الْخَصْمِ، بَلْ بِشَجَاعَةِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ عَلَى التَّقْوِيمِ الذَّاتِيِّ وَالْحِفَاظِ عَلَى بُوصَلَةِ الْحَقِّ بَيْنَ الرُّكَامِ. وَبِذَلِكَ، تَصِيرُ كُلُّ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّجَدُّدِ وَمُقَاوَمَةِ الْيَأْسِ مِيكَانِيزْمًا حَاسِمًا يُضَيِّقُ نِطَاقَ تَدَخُّلِ أَنْتِيخْرِيستُوس، وَيَضْمَنُ بَقَاءَ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ مَصُونَةً رَغْمَ وَطْأَةِ الزَّمَانِ الَّذِي يَزْدَادُ فِيهِ الضَّلَالُ.

مخطط الدورة الحضارية

الرَّكيزة الأولى: تَمَثُّلُ الدَّوْرَةِ الحَضَارِيَّةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخريستوس

▲ أولاً: المستوى الكُلِّي ▲

هيكل هرمي من القمة إلى القاعدة

◆ الأركيتايب الأَبُوكَالِيبْتِيُّ ◆

رموز العالم الإلهي، والإنسان، والحيوان، والنبات، والمعدن

تجلّيات الكمال والنظام الأتم في الرواية

رمز عالَم الفيجيتاسي والمينيرال

المدائن العامرة والأراضي الخصبة رمزاً للحضارة في ذروتها

رمز عالَم الإنسان والحيوان

الأبطال الحامِلون للقيم الحضارية الأصيلة

رمز العالَم الإلهي

الأنبياء والكتب السماوية بوصفها أسس العدل والنظام الحضاري

◆ الأركيتايب الدِّيمُونِيُّ ◆

نقيض الأبوكاليبتي: عالم الفوضى والانهيار والظلام المطلق

⟵ تجلّياته: الطغاة والمتآمرون وعبَّاد الشيطان: أدوات تدمير الحضارة

◆ الأركيتايب الأَنَالُوجِيُّ ◆

المنطقة الوسطى بين الكمال والانهيار: تجربة الإنسان في الواقع المألوف

⟵ تجلّياته: الشخصيات المحايدة والمجتمعات المتردِّدة بين الانحياز للخير أو الشر

ثانياً: المستوى الجُزْئِيُّ في الدورة الحضارية

دورة متكررة عبر الأدوار الأربعة

★ ثالثاً: النتائج الثلاث الكبرى ★

النتيجة الأولى	النتيجة الثانية	النتيجة الثالثة
الحضارات تقوم على أسس واهية: الأُبَّهَة الظاهرة لا تعكس القوة الباطنية (كما صوَّره ابن خلدون)	الانهيار يسير عبر ثلاث مراحل: نشوء نظام طاغٍ ← تقنين الاضطهاد ← انهيار النظام من داخله	الوعي الجمعي حصنٌ أخير: ما دام المجتمع ينتج أفراداً يتمسَّكون بالقيم فإن دورة الانهيار لا تكتمل

❖ الاستنتاج الجامع ❖

دورة الحضارة في رواية أنتيخريستوس ليست حُكماً طبيعياً محايداً، بل هي نظامٌ تمَّ التلاعب به أيديولوجياً لا يعمل عبر الهدم المواجِه بل عبر قلب القيم تدريجياً حتى يفقد النظام قدرته على التمييز بين ما يُقيمه وما يهدمه. وعليه فأنتيخريستوس ليس سبباً للانهيار بل نتيجةٌ له ومعجِّلٌ لوقوعه.

٢. العَوَامِلُ المسببة للدَوْرَةِ الْحَضَارِيَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوس لِأَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى: دِرَاسَةٌ فِي منظور نَظَرِيَّةِ الْأَرْكِيتِيّ لِنُورْثْرُوب فْرَاي

فِي هَذَا التَّحْلِيلِ الثَّانِي، ركِز الْبَاحِثُ عَلَى الْإِجَابَةِ عَنِ إِشْكَالِيَّةِ الْبَحْثِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ كَيْفِيَّةُ نَشْأَةِ دَوْرَةِ الْحَضَارَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوس لِأَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى وَاسْتِمْرَارِهَا بِصُورَةٍ دَوْرِيَّةٍ. وَعَلَى خِلَافِ التَّحْلِيلِ الْأَوَّلِ الَّذِي انْصَبَّ عَلَى تَمْثِيلِ أَنْمَاطِ الْأَرْكِيتِيّ وَالْمِيثُولُوجِيَا لِنُورْثْرُوب فْرَاي، قْرَأ هَذَا التَّحْلِيلُ الثَّانِي عَوَامِلَ دَفْعِ تِلْكَ الدَّوْرَةِ لَا كَمُتَغَيّرَاتٍ سَبَبِيَّةٍ فِي الْمَفْهُومِ السُّوسْيُولُوجِيّ الْمُجَرَّدِ، بَلْ كَتَجَلٍّ مَحْسُوسٍ لِلِانْعِطَافَاتِ الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي جَرَى تَحْدِيدُهَا ضِمْنَ إِطَارِ فْرَاي السَّابِقِ.

وَكَمَا تَأَسَّسَ فِي تَحْلِيلِ إِشْكَالِيَّةِ الْبَحْثِ الْأُولَى، فَإِنَّ كُلَّ انْتِقَالٍ فِي الْمَرَاحِلِ مِنَ الْأَبُوكَالِيبْتِيَّةِ إِلَى الشَّيْطَانِيَّةِ صحَبهُ دَوْمًا تَحَوُّلٌ فِي ثَلَاثَةِ أَبْعَادٍ جَوْهَرِيَّةٍ مُتَرَابِطَةٍ: أَوَّلُهَا، الْعَوَامِلُ الْبيئية كَتَمْثِيلٍ لِتَحَوُّلِ رَمْزِ عَالَمِ النَّبَاتَاتِ وَالْمَعَادِنِ؛ وَثَانِيهَا، الْعَوَامِلُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ وَالاجيال كَتَمْثِيلٍ لِتَحَوُّلِ الْأَنَا الْجُزَيْئِيَّةِ وَتَفَكُّكِ الْوَحْدَةِ الْجَمْعِيَّةِ؛ وَثَالِثُهَا، الْعَوَامِلُ الِاقْتِصَادِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ كَتَمْثِيلٍ لِتَحَوُّلِ الْحَاكِمِ الطَّاغِيَةِ وَمَتَاهَةِ الْمَدِينَةِ. وَبِهَذَا الْإِطَارِ التَّأْوِيلِيّ، تَبْقَى كَافَّةُ تَحْلِيلَاتِ الْعَوَامِلِ التَّالِيَةِ مُتَجَذِّرَةً فِي نَظَرِيَّةِ نَقْدِ الْأَدَبِ الْأَرْكِيتِيّ لِنُورْثْرُوب فْرَاي كَمِعْيَارٍ تَحْلِيلِيٍّ أَسَاسِيّ.

١) الْعَوَامِلُ الْبيئية

تُفَسَّرُ الْعَوَامِلُ البيئية فِي سِيَاقِ نَظَرِيَّةِ نَقْدِ الْأَدَبِ الْأَرْكِيتِيّ لِنُورْثْرُوب فْرَاي ضِمْنَ بِنْيَةٍ رَمْزِيَّةٍ؛ وَلِذَا، فَإِنَّ كُلَّ تَأْوِيلٍ لَهَا يَسْتَلْزِمُ رَبْطَهَا بِسِيَاقِهَا الْأَصْلِيّ. وَحِينَ نُعَرِّفُ هَذَيْنِ الْعَامِلَيْنِ كَمَصْدَرَيْنِ لِنَشْأَةِ دَوْرَةِ الْحَضَارَةِ، فَإِنَّهُمَا يَضْطَلِعَانِ بِدَوْرٍ مَحُورِيّ فِي هَذِهِ الدَّوْرَةِ. إِنَّ السَّبَبَ الْمَنْطِقِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ الْبَاحِثَ يُصَنِّفُ الْعَوَامِلَ الْإِيكُولُوجِيَّةَ وَالْجُغْرَافِيَّةَ كَعُنْصُرَيْنِ فِي دَوْرَةِ الْحَضَارَةِ السَّرْدِيَّةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتيخْريستُوس هُوَ وُجُودُ تَرَابُطٍ وَثِيقٍ بَيْنَ نَمَطِ الْوَاقِعِ التَّارِيخِيّ وَسَرْدِيَّةِ الرِّوَايَةِ عَبْرَ أَدَاةِ التَّحْلِيلِ النَّقْدِيّ الْأَرْكِيتِيّ، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الْجَانِبُ الْوُجُودِيُّ. وَكَمَا بَيَّنَ فْرَاي، فَإِنَّ أَسَاسَ قَانُونِ الطَّبِيعَةِ الْكَوْنِيّ هُوَ الْجَدَلِيَّةُ؛ بِحَيْثُ يُؤَثِّرُ كُلُّ عُنْصُرٍ فِي دَوْرَةِ

الْحَيَاةِ بِغَيْرِهِ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْأَعْمَالُ الْأَدَبِيَّةُ وَالدِّرَاسَاتُ الْمَرْجِعِيَّةُ. إِذْ تَرْوِي الْوَقَائِعُ التَّارِيخِيَّةُ كَيْفَ أَنَّ النُّخَبَ الْمُثَقَّفَةَ قَادِرَةٌ عَلَى خَلْقِ دِينَامِيكِيَّاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ بِوَعْيٍ مُسْتَمَدٍّ مِنَ الْقِرَاءَةِ. وَلِأَجْلِ هَذَا، يَدْمُجُ الْبَاحِثُ بَيْنَ هَذَا الْعَمَلِ الْأَدَبِيِّ وَأَنْمَاطِ الْوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ، مَشْمُولًا بِالْعَوَامِلِ الْإِيكُولُوجِيَّةِ وَالْجُغْرَافِيَّةِ، حَيْثُ تَجِدُ فِي نَظَرِيَّةِ فْرَايِ النَّقْدِيَّةِ إِرْهَاصَاتٍ مُمَاثِلَةً فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الْعَوَامِلِ التَّارِيخِيَّةِ، لَا سِيَّمَا فِي سِيَاقِ مَرْحَلَةِ مَتَاهَةِ الْمَدِينَةِ، وَمَتَاهَةِ التَّارِيخِ، وَالْعَاطِفَةِ، وَمَرْحَلَةِ التَّفَكُّكِ كَمَا وَرَدَ فِي كِتَابِ تَشْرِيحُ النَّقْدِ.

إِنَّ النَّتَائِجَ السَّابِقَةَ لِلتَّحْلِيلِ تُظْهِرُ أَنَّ انْهِيَارَ الْحَضَارَةِ لَا يَنْشَأُ عَنْ قُوَّةِ الْعَدُوِّ، بَلْ يَبْدَأُ أَغْلَبُهُ مِنْ ضَعْفِ النِّظَامِ الدَّاخِلِيِّ لِتِلْكَ الْحَضَارَةِ. فَفِي سِيَاقِ الِاسْتِعْمَارِ الْإِنْجِلِيزِيِّ لِقَارَّةِ أَمِيرِيكَا، تَجَلَّتْ رَمْزِيَّةُ مَرْحَلَةِ التَّفَكُّكِ؛ إِذْ كَانَ لِشَعْبِ بَاوَهَاتَان كَصَاحِبِ أَرْضٍ تَفَوُّقٌ فِي الْمَعْرِفَةِ الْإِيكُولُوجِيَّةِ وَالتَّنْظِيمِ السِّيَاسِيِّ، لَكِنَّهُمْ هُزِمُوا لِوُقُوعِ الِانْقِسَامِ بَيْنَهُمْ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْإِنْجِلِيزِ؛ بَيْنَ مَنْ رَآهُمْ مُحْتَلِّينَ وَبَيْنَ مَنْ رَآهُمْ ضُيُوفًا أَعِزَّاءَ، مِمَّا أَوْلَدَ دِيبْلُومَاسِيَّةً زَائِفَةً، مَضِيَّقَةً بِعُهُودٍ كَاذِبَةٍ مِنْ قِيَادَةِ الْإِنْجِلِيزِ.

أَمَّا رَمْزِيَّةُ مَتَاهَةِ الْمَدِينَةِ وَمَتَاهَةِ التَّارِيخِ، فَتَتَجَلَّى فِي قِصَّةِ النَّمْرُودِ؛ حَيْثُ تَتَكَرَّرُ أَنْمَاطُ السُّلْطَةِ. إِنَّ كُلَّ تَغَيُّرٍ يُوَلِّدُ دِينَامِيكِيَّةً، وَكُلَّ دِينَامِيكِيَّةٍ تُفْضِي إِلَى خَرَابٍ قَبْلَ أَنْ تَسْتَقِرَّ الشَّرْعِيَّةُ. وَإِنَّ تَصَدُّعَ الْمَعْنَى الْوُجُودِيِّ لِلْمَدِينَةِ الَّتِي هِيَ غَايَةٌ دِينِيَّةٌ يُعَدُّ حَقِيقَةَ الدِّينَامِيكِيَّةِ الْجَمْعِيَّةِ النَّاجِمَةِ عَنْ هَذَا الِانْتِقَالِ فِي السُّلْطَةِ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ تَحَوُّلِ السُّلْطَةِ مِنْ مَلِكٍ كُوشٍ إِلَى نَمْرُودَ الطَّاغِيَةِ أَدَّتْ إِلَى الْمُقَاوَمَةِ، حَيْثُ تَجَسَّدَتْ كِلْتَا الْمَتَاهَتَيْنِ كَنَتِيجَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ لِلدَّوْرَةِ الطَّبِيعِيَّةِ.

تُبَيِّنُ الصراعات الِاجْتِمَاعِيَّةُ الْمَعْرُوضَةُ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس لِأَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى أَنَّ الْكَثَافَةَ السُّكَّانِيَّةَ وَتَطَوُّرَ الْبُنْيَةِ التَّحْتِيَّةِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ أَرْقَامٍ إِحْصَائِيَّةٍ، بَلْ هِيَ مِحْرَاكٌ لِتَحَوُّلَاتٍ بِنْيَوِيَّةٍ تُجْبِرُ الْمُجْتَمَعَ عَلَى الِانْتِقَالِ مِنَ التَّضَامُنِ الْآلِيِّ الصَّارِمِ إِلَى تَبَعِيَّةٍ عُضْوِيَّةٍ

مُعَقَّدَةٍ، وَفْقًا لِمَا رَسَمَهُ إِمِيل دُورْكَايم فِي نَظَرِيَّتِهِ السُّوسْيُولُوجِيَّةِ. وَحِينَ تَفْقِدُ الْأَعْرَافُ الْجَمْعِيَّةُ قُوَّةَ رَبْطِهَا بِسَبَبِ التَّمَايُزِ الْحَادِّ فِي الْأَدْوَارِ، يَصِيرُ الْمُجْتَمَعُ عُرْضَةً لِلتَّشَظِّي كَمَا أَشَارَ يورغن هَابَرْمَاس. وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ، لَا تَعْمَلُ الضُّغُوطُ الْإِيكُولُوجِيَّةُ كَعَامِلٍ مُنْفَرِدٍ، بَلْ تَتَشَابَكُ بِعُمْقٍ مَعَ الْإِخْفَاقِ الْمُؤَسَّسِيِّ فِي إِدَارَةِ الْمَوَارِدِ، وَهُوَ نَمَطٌ مِنَ الِانْهِيَارِ صَاغَهُ جَارِيد دَايْمُونْد بِدِقَّةٍ فِي كِتَابِهِ الِانْهِيَارُ. فَالتَّصَدُّعُ الْحَضَارِيُّ الْمُصَوَّرُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ لَيْسَ نَتِيجَةَ غَزْوٍ خَارِجِيٍّ مَفَاجِئٍ، بَلْ هُوَ تَكَدُّسٌ لِضُغُوطٍ دَاخِلِيَّةٍ تُهَدِّمُ مَنْهَجِيًّا نَزَاهَةَ الْبِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ مِنْ بَاطِنِهَا، حَتَّى تَبْلُغَ حَالَةَ التَّشَبُّعِ الْحَتْمِيَّةِ.

وَبِالنَّظَرِ إِلَى سَرْدِيَّةِ النَّمْرُودِ التَّارِيخِيَّةِ، يَنْبَغِي قِرَاءَةُ الْخَرَابِ النَّاجِمِ عَنِ الِاضْطِرَابَاتِ الْبِيُولُوجِيَّةِ أَوِ الْكَوَارِثِ الطَّبِيعِيَّةِ كَتَجَلٍّ وَاضِحٍ لِلتَّفَكُّكِ النِّظَامِيِّ الْمُتَجَذِّرِ؛ وَالَّذِي يَبْدُو عَبْرَ إِطَارِ نُورْثْرُوب فْرَاي التَّحْلِيلِيِّ بِمَثَابَةِ عَلَامَةٍ عَلَى أَنَّ الِانْهِيَارَ الْبِنْيَوِيَّ قَدْ تَشَكَّلَ قَبْلَ أَنْ يَتَجَسَّدَ فِي أَحْدَاثٍ مَحْسُوسَةٍ. إِنَّ هَذَا الْهَرَجَ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ النِّظَامَ الْأَخْلَاقِيَّ وَالِاجْتِمَاعِيَّ قَدْ هَجَرَ أَسَاسَ فِطْرَتِهِ، فَلَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ حِينَ ضَغَطَتْ عَلَيْهِ الطَّبِيعَةُ آلِيَّاتٌ لِلتَّقْوِيمِ الذَّاتِيِّ. وَيَعْمَلُ الْقُطْبُ الْمُعَادِي فِي الْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُمَثَّلُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ بِدِقَّةٍ عَلَى تِلْكَ الْفُرُوجِ، فَلَا يَخْلُقُ الْخَرَابَ مِنَ الْعَدَمِ، بَلْ يَتَحَكَّمُ فِي الْخَلَلِ الدَّاخِلِيِّ لِيُسَرِّعَ مَسَارَ الْحَضَارَةِ نَحْوَ النِّهَايَةِ. وَتَضْمَنُ هَذِهِ التَّدَخُّلاتُ أَلَّا يُفْضِيَ أَيُّ تَأْزِيمٍ إِلَى الْإِصْلَاحِ، بَلْ إِلَى تَعْمِيقِ اغْتِرَابِ الْإِنْسَانِ عَنْ حَقِيقَتِهِ الْأَصِيلَةِ.

إِنَّ كَافَّةَ مَرَاحِلِ التَّارِيخِ فِي هَذَا الْعَمَلِ هِيَ فِي جَوْهَرِهَا تَحْذِيرٌ مِنْ أَنَّ بَقَاءَ الْحَضَارَةِ رَهِينٌ بِالْقُدْرَةِ عَلَى صَوْنِ الِانْسِجَامِ بَيْنَ الْبِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّوَجُّهِ الْأَخْلَاقِيِّ. فَحِينَ تَفْقِدُ الْأُمَّةُ بُوصَلَتَهَا الْمُتَعَالِيَةَ وَلَا تَعُودُ تَنْشَغِلُ إِلَّا بِإِشْبَاعِ الْحَاجَاتِ الْمَادِّيَّةِ، فَإِنَّهَا تَفْتَحُ بِشَكْلٍ آلِيٍّ الطَّرِيقَ لِسِينَارْيُوهَاتِ الضَّلَالِ الَّتِي تَسْعَى لِإِغْلَاقِ بَوَّابَاتِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ. وَيُقَدِّمُ هَذَا الِاسْتِنْتَاجُ إِسْهَامًا عَمِيقًا لِكَافَّةِ الشَّرَائِحِ، إِذْ يَكْشِفُ أَنَّ التَّهْدِيدَ الْأَعْظَمَ لِلْمُسْتَقْبَلِ لَا

يَكْمُنُ فِي الْقُوَى الْمَادِّيَّةِ الْغَازِيَةِ، بَلْ فِي قُدْرَتِنَا عَلَى حِفَاظِ سَلَامَةِ الضَّمِيرِ فِي خِضَمِّ إِغْوَاءِ طَرْحِ الْقِيَمِ الْإِلَهِيَّةِ. وَمِنْ خِلَالِ اسْتِيعَابِ أَنْمَاطِ الْخَرَابِ الَّتِي تَجَلَّتْ عَبْرَ الْحِقَبِ التَّارِيخِيَّةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس، يُمْكِنُ لِكُلِّ فَرْدٍ أَنْ يَتَحَصَّنَ ضِدَّ سَيْلِ التَّلَاعُبِ الَّذِي يُحَاوِلُ طَمْسَ الْحُدُودِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالزُّورِ، جَاعِلًا هَذَا الْوَعْيَ زَادًا خَالِدًا فِي شُؤُونِ الزَّمَانِ الَّذِي يَمْضِي نَحْوَ النِّهَايَةِ.

مِنْ خِلَالِ تَحْلِيلِ الْعَوَامِلِ الْإِيكُولُوجِيَّةِ هَذِهِ، يَسْتَجْلِي الْبَاحِثُ نُقَاطَ التَّشَابُهِ مَعَ دِرَاسَةِ نْجِينْغ إِيرِيك سِيبْيِينْيُو (٢٠٢٣) الَّتِي تَقَصَّتْ فِي أَعْمَالِ أُودْرِي لُورْد حَوْلَ حَرَكَةِ الْأَرْكِيتِيّ لِلْعَوْدَةِ إِلَى أَفْرِيقْيَا، مُقَدِّمَةً مَنْظُورًا فَرِيدًا حِينَ يُقَارَنُ بِنَظَرِيَّةِ نُورْثْرُوب فْرَاي النَّقْدِيَّةِ وَدِينَامِيكِيَّاتِ تَارِيخِ الْحَضَارَاتِ. وَتَتَمَحْوَرُ إِشْكَالِيَّةُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ حَوْلَ كَيْفِيَّةِ تَوَظِيفِ أُودْرِي لُورْد لِلْأَرْكِيتِيّ الْمِيثُولُوجِيّ الْأَفْرِيقِيّ لِبِنَاءِ الْهُوِيَّةِ، وَمُعَالَجَةِ الصَّدَمَاتِ التَّارِيخِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعَاتِ السَّوْدَاوِيَّةِ، وَخَلْقِ مَجْمَعَاتٍ وِحْدَوِيَّةٍ تُرَاوِحُ بَيْنَ مُقَاوَمَةِ الْعُنْصُرِيَّةِ وَالْبَطْرِيَرْكِيَّةِ. وَتَعْتَمِدُ مَنْهَجِيَّةُ الْبَحْثِ عَلَى مُقَارَبَةِ الْمِيثُولوجِيَا وَالْأَرْكِيتِيّ كَمَا صَاغَهَا كَارْل يُونْغ وَنُورْثْرُوب فْرَاي وَمِيرْتْشَا إِيلِيَادِي، بِتَحْلِيلِ رُمُوزِ الطَّبِيعَةِ كَالْمَاءِ وَالشَّمْسِ وَالْحَيَّةِ كَوَسَائِطَ لِإِعَادَةِ بِنَاءِ الرُّوحَانِيَّةِ.

وَتُبِينُ النَّتَائِجُ أَنَّ الْأَرْكِيتِيَّ لَيْسَ مَحْضَ قَصَصٍ مِنْ مَاضٍ غَابِرٍ، بَلْ هُوَ قُوَّةٌ شِفَائِيَّةٌ قَادِرَةٌ عَلَى رَبْطِ الْمُجْتَمَعَاتِ الشَّتَاتِيَّةِ بِجُذُورِهَا الثَّقَافِيَّةِ. وَهَذَا يَتَّسِقُ مَعَ نَظَرِيَّةِ فْرَاي حَوْلَ الْبِنْيَةِ الرَّمْزِيَّةِ؛ فَحِينَ تَمُرُّ حَضَارَةٌ مَا كَقِصَّةِ بَاوَهَاتَان أَوْ انْتِقَالِ سُلْطَةِ النَّمْرُودِ بِمَرْحَلَةِ التَّفَكُّكِ أَوِ الْخَرَابِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الِانْهِيَارَ يَتَأَصَّلُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ فِي الِانْقِسَامِ الدَّاخِلِيّ أَوْ خُفُوتِ الْمَعْنَى الْوُجُودِيّ الْمُقَدَّسِ. وَتُقَدِّمُ لُورْد حَلَّهَا عَبْرَ الْأَرْكِيتِيّ كَمِيزَانٍ أَخْلَاقِيٍّ، شَبِيهًا بِكَيْفِيَّةِ كَوْنِ الْمَعْرِفَةِ الْإِيكُولُوجِيَّةِ أَسَاسًا لِلْعَدَالَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ. وَفِي الْمُجْمَلِ، فَإِنَّ خُلَاصَةَ هَذِهِ الرَّابِطَةِ هِيَ أَنَّ الْأَرْكِيتِيَّ سَوَاءٌ فِي سَرْدِيَّاتِ أُودْرِي لُورْد الْأَدَبِيَّةِ أَوْ فِي دَوْرَةِ الْحَضَارَةِ التَّارِيخِيَّةِ يَعْمَلُ كَمَرْسَاةٍ رُوحِيَّةٍ تَصُونُ نَزَاهَةَ الْأُمَمِ. فَعِنْدَمَا يَضْعُفُ النِّظَامُ الدَّاخِلِيُّ لِلْحَضَارَةِ لِضَيَاعِ الْغَايَةِ

الرُّوحِيَّةِ أَوِ ارْتِكَاسِ التَّشَظِّي، كَمَا يَبْدُو فِي مَرْحَلَةِ مَتَاهَةِ التَّارِيخِ وَالْمَدِينَةِ، فَإِنَّ الْعَوْدَةَ إِلَى الْمِيثُولوجِيَا وَالْقِيَمِ الْأَصِيلَةِ كَمَا صَنَعَتْ لُورْد بِتَوَظِيفِ مِيثُولوجِيَا دَاهُومِي أَوْ أَشَانْتِي تَكُونُ هِيَ مِفْتَاحَ إِعَادَةِ بِنَاءِ الصُّمُودِ الِاجْتِمَاعِيِّ. وَبِذَلِكَ، فَإِنَّ اسْتِيعَابَ الْمِيثُولوجِيَا وَالْعَوَامِلِ الْجُغْرَافِيَّةِ لَيْسَ تَكْمِلَةً عَرَضِيَّةً، بَلْ هُوَ عُنْصُرٌ حَاسِمٌ لِكَيْلَا يَغْرَقَ الْمُجْتَمَعُ فِي هَاوِيَةِ خَرَابِ دِينَامِيكِيَّاتِ السُّلْطَةِ الطَّاغِيَةِ، بَلْ لِيَقُومَ بَطَلًا لِهُوِيَّتِهِ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ الْعَوَامِلَ الْإِيكُولُوجِيَّةَ وَالْجُغْرَافِيَّةَ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدِّ كَوْنِهَا مَشْهَدًا سَرْدِيًّا، بَلْ تَتَجَسَّدُ كَمُحَدِّدَاتٍ بِنْيَوِيَّةٍ تُرْسُمُ حُدُودَ صُمُودِ الْحَضَارَةِ وَنِقَاطَ ضَعْفِهَا. فَالْبِيئَةُ تَعْمَلُ كَمِيكَانِيزْمٍ لِلِاصْطِفَاءِ، لَا تُلْقِي بِالْخَرَابِ مُبَاشَرَةً، بَلْ تُفَعِّلُ بِشَكْلٍ نَشِطٍ ثُغَرَ الْهَشَاشَةِ الْمَكْنُونَةِ فِي صَمِيمِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ ذَاتِهِ. فَحِينَ تَضْمَحِلُّ قُدْرَةُ الْأَرْضِ عَلَى الْإِعَالَةِ وَتَتَصَاعَدُ الضُّغُوطُ الْجُغْرَافِيَّةُ، يَتَآكَلُ التَّمَاسُكُ الدَّاخِلِيُّ لِلْحَضَارَةِ، مِمَّا يَخْلُقُ فَرَاغًا يَصِيرُ بَوَّابَةً لِلتَّسَرُّبِ التَّدْمِيرِيِّ. وَفِي الْمَنْظُورِ الْإِسْخَاتُولُوجِيِّ الَّذِي تَنْتَهِجُهُ الرِّوَايَةُ، لَا يَعْمَلُ أَنْتِيخْرِيستُوس كَكِيَانٍ مُغِيرٍ مِنْ خَارِجِ النِّظَامِ، بَلْ كَعَامِلٍ مُسَرِّعٍ يَسْتَغِلُّ كُلَّ صَدْعٍ اجْتِمَاعِيٍّ لِتَعْجِيلِ مَسَارِ التَّفَكُّكِ النِّظَامِيِّ حَتَّى الْقَاعِ.

إِنَّ انْهِيَارَ الْحَضَارَةِ لَيْسَ حَدَثًا عَرَضِيًّا مَحْضًا، بَلْ هُوَ ثَمَرَةُ تَقَاطُعِ الْخَلَلِ الدَّاخِلِيِّ، وَالضَّغْطِ الْبِيئِيِّ، وَالتَّدَخُّلِ التَّدْمِيرِيِّ السَّارِي فِي مَسَامِّ النِّظَامِ. وَهَذِهِ الْعَلَاقَةُ ذَاتُ طَابِعٍ تَرَابُطِيٍّ، حَيْثُ يُعِيدُ أَنْتِيخْرِيستُوس صِيَاغَةَ الْمُعْطَيَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ لِتَعْطِيلِ الْقُدُرَاتِ النَّقْدِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ. تُصْبِحُ هَذِهِ الصَّيْرُورَةُ مِرْآةً إِسْخَاتُولُوجِيَّةً تُصَوِّرُ كَيْفَ يُؤَدِّي اخْتِلَالُ التَّوَازُنِ بَيْنَ الْإِدَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالضَّوَابِطِ الْبِيئِيَّةِ إِلَى ضَيَاعِ مِيكَانِيزْمَاتِ التَّقْوِيمِ الذَّاتِيِّ، وَهِيَ حَالَةٌ مَصْنُوعَةٌ بِعَمْدٍ لِضَمَانِ أَلَّا يَعُودَ لِلْحَضَارَةِ رَكِيزَةٌ لِاسْتِعَادَةِ قِوَامِهَا. فَدَوْرُ أَنْتِيخْرِيستُوس فِي هَذَا الْمَشْهَدِ لَيْسَ كَوْنَهُ الْمُسَبِّبَ الْأَوْحَدَ، بَلْ هُوَ الْمُحَرِّضُ النِّهَائِيُّ الَّذِي يَكْشِفُ عَنِ الِاخْتِلَالِ الْمُزْمِنِ الَّذِي كَانَ يَتَوَارَى خَلْفَ قِنَاعٍ مِنْ اسْتِقْرَارٍ زَائِفٍ.

وَيَسْتَنْتِجُ هَذَا التَّحْلِيلُ أَنَّ كُلَّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ الرَّدَى الْمَصُوغَةِ فِي السَّرْدِ هِيَ حَلْقَةٌ فِي اسْتْرَاتِيجِيَّةٍ كُبْرَى لِإِبْعَادِ الْإِنْسَانِ عَنِ الْوِجْهَةِ الْإِلَهِيَّةِ. وَمِنْ خِلَالِ إِدْرَاكِ أَنَّ خَرَابَ الْحَضَارَةِ يَتَأَصَّلُ فِي الْعَجْزِ عَنْ حِمَايَةِ النَّزَاهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ ضِدَّ التَّحَدِّيَاتِ، نَظْفَرُ بِمَنْظُورٍ جَوْهَرِيٍّ حَوْلَ أَهَمِّيَّةِ صَوْنِ سِيَادَةِ الضَّمِيرِ كَخَطِّ دِفَاعٍ أَخِيرٍ ضِدَّ تَشَوُّهِ الزَّمَانِ. إِنَّ ثِقْلَ هَذَا الْفِكْرِ يَمْنَحُ إِسْهَامًا عَمِيقًا لِلْقُرَّاءِ مِنْ كَافَّةِ الْخَلْفِيَّاتِ، إِذْ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ غَافِلًا عَنْ أَنْمَاطِ التَّفَكُّكِ النَّاجِمَةِ عَنْ تَلَاعُبِ الْقِيَمِ، فَإِنَّهُ سَيَبْقَى أَسِيرًا لِدَوْرَةِ الْخَرَابِ الْمُعَدَّةِ لِتَعْجِيلِ الْأَزِفَةِ. وَمِنْ خِلَالِ تَشْرِيحِ هَذِهِ الْبِنْيَةِ، يَبْرُزُ هَذَا الْبَحْثُ كَنَذِيرٍ يُلْزِمُ كُلَّ فَرْدٍ بِالْيَقَظَةِ فِي حِفَاظِ التَّوَازُنِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ وَالرُّوحِيِّ، تَحَصُّنًا لِمُسْتَقْبَلِ الْحَضَارَةِ مِنْ كُلِّ أَلْوَانِ الِاخْتِرَاقِ الَّتِي تَسْعَى لِتَقْوِيضِ جَوْهَرِ وُجُودِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

٢) الْعَوَامِل الِاجْتِمَاعِيَّة وَالجيلية

يُعَدُّ الْعَامِلُ الِاجْتِمَاعِيُّ وَالدِّيمُوغْرَافِيُّ أَحَدَ الرَّكَائِزِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي هَذَا الْبَحْثِ، حَيْثُ يَكْمُنُ فِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْهُ مَعْنًى وُجُودِيٌّ عَمِيقٌ، وِفْقًا لِمَا بَسَطَهُ نُورْثْرُوب فْرَاي فِي كِتَابِهِ تَشْرِيحُ النَّقْدِ. وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي التَّحْلِيلِ السَّابِقِ أَنَّ سُقُوطَ الْبَطَلِ لَا يَنْجُمُ عَنْ ذَاتِهِ مُنْفَرِدًا بَلْ بِتَدَخُّلٍ خَارِجِيٍّ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا السُّقُوطَ مَرْهُونٌ بِاهْتِرَاءِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَضَعْفِ الْبِنْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْبَطَلِ. وَهَذَا الْعَامِلُ مُتَصِلٌ بِبِنْيَةِ الْمُجْتَمَعِ، وَالْهُوِيَّةِ الْجَمْعِيَّةِ، وَدِينَامِيكِيَّاتِ السُّكَّانِ كَمُحَرِّكٍ لِدَوْرَةِ الْحَضَارَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس لِأَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى. وَفِي التَّحْلِيلِ الْأَوَّلِ، تَوَصَّلَ الْبَاحِثُ إِلَى مَحَاوِرَ كُبْرَى لِهَذَا التَّصْنِيفِ: التَّشَظِّي الدَّاخِلِيُّ، وَتَمَثُّلِ الْهُوِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ، وَجَدَلِيَّةِ الْأَلَازُون مَعَ الْإِيرُون كَتَمْثِيلٍ لِلدِّينَامِيكِيَّةِ الدِّيمُوغْرَافِيَّةِ.

وَبِخُصُوصِ النُّقْطَةِ الْأُولَى التَّشَظِّي الدَّاخِلِيُّ فَيُمْكِنُ اسْتِقْرَاؤُهَا فِي قِصَّةِ سُقُوطِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ؛ حَيْثُ انْتَهَى أَمْرُ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي الَّذِي اتَّسَمَ بِرُسُوخِ مَبَادِئِهِ عَلَى نَهْجِ السُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ الْقَانُونِيِّ بِالْهَزِيمَةِ أَمَامَ الصِّهْيَوْنِيَّةِ بِدَعْمٍ مِنَ الْقُوَى الْمُتَحَالِفَةِ. لَمْ تَكُنْ هَزِيمَةُ

السُّلْطَانِ نَاجِمَةً عَنْ قُصُورٍ فِي أَيْدِيُولُوجِيَّتِهِ أَوْ حَنْكَتِهِ السِّيَاسِيَّةِ، بَلْ بِسَبَبِ انْهِيَارِ النِّظَامِ الدَّاعِمِ لِاسْتِقْرَارِهِ سِيَاسِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا؛ إِذْ حَمَلَ التَّبِعَاتِ الْمَالِيَّةَ لِأَسْلَافِهِ الَّذِينَ انْغَمَسُوا فِي حَيَاةِ الْبَحْبَحَةِ بَعِيدًا عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ. لِذَا، لَمْ تَكُنِ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ ضَحِيَّةَ الْغَزْوِ الْخَارِجِيِّ فَحَسْبُ، بَلْ كَانَ لِلضَّعْفِ الدَّاخِلِيِّ الْمُتَجَذِّرِ دَوْرٌ حَاسِمٌ. وَتَتَجَلَّى دِقَّةُ قِرَاءَةِ هَذِهِ النُّقْطَةِ عِنْدَ رَبْطِهَا بِمَفَاهِيمِ فْرَايِ النَّقْدِيَّةِ كَالْأَغُون، وَالْبَاثُوس، وَالْجَدَلِيَّةِ الْأُفُقِيَّةِ، وَالْجَدَلِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَالْأَنَاغْنُورِيسِيس؛ إِذْ تَتَكَرَّرُ أَنْمَاطُهَا فِي كُلِّ سِيَاقٍ. وَمِنْ ثَمَّ، تَبْدُو نَظَرِيَّةُ نُورْثْرُوب فْرَايِ فِي جَوْهَرِهَا كَنَظَرِيَّةٍ جَدَلِيَّةٍ لِلْحَضَارَةِ مَصُوغَةٍ فِي قَالَبٍ مِنَ الرُّمُوزِ الْأَدَبِيَّةِ.

تَتَشَكَّلُ الْعَلَاقَاتُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ عَلَى حَسَبِ رُؤْيَةِ بَاوْلُو فْرِيرِي فَوْقَ دَعَائِمَ مِنْ طَبَقِيَّةٍ صُرُوفَةٍ، وَتَقَلُّبَاتٍ جُغْرَافِيَّةٍ، وَتَسَلُّطٍ ثَقَافِيٍّ يُوَلِّدُ تَرَاتُبِيَّةً فِي السُّلْطَةِ غَايَةَ الْحِدَّةِ. وَفِي خِضَمِّ مُجْتَمَعٍ يَنْعَدِمُ فِيهِ الْحِيَادُ، يُحَدِّدُ الْمَوْقِعُ الِاقْتِصَادِيُّ وَمَدَى الْوُصُولِ إِلَى شَرْعِيَّةِ الْعِلْمِ مَنْ هُوَ الْمُسْتَعْلِي وَمَنْ هُوَ الْمُسْتَضْعَفُ. وَإِنَّ الْبَوْنَ بَيْنَ حَاضِرَةِ الْأَمْصَارِ وَقَاصِيَةِ الْأَطْرَافِ لَيْسَ مَحْضَ بُعْدٍ مَكَانِيٍّ، بَلْ هُوَ تَجَلٍّ لِغِيَابِ الْعَدْلِ فِي قِسْمَةِ الْقُوَّةِ الَّتِي تُرْغِمُ الْفِئَاتِ التَّابِعَةَ عَلَى الِارْتِهَانِ لِتَبَعِيَّةٍ هَيْكَلِيَّةٍ مُزْمِنَةٍ. وَفِي مِعْمَعَةِ هَذِهِ الْآلِيَّةِ، يَعْمَلُ الِاسْتِلَابُ الثَّقَافِيُّ كَأَفْعَلِ سِلَاحٍ لِتَعْطِيلِ الْوَعْيِ الْمَحَلِّيِّ، وَإِحْلَالِ نِظَامٍ قِيَمِيٍّ أَكْثَرَ هَيْمَنَةً مَحَلَّهُ. وَلَقَدْ كَانَ تَحَوُّلُ الْهُوِيَّةِ عِنْدَ شَخْصِيَّةٍ مِثْلَ بُوكَاهُونْتَاس إِلَى رِيبِيكَاه دَلِيلًا قَاطِعًا عَلَى كَيْفَ يَتَسَلَّلُ الِانْتِصَارُ الرَّمْزِيُّ لِلْبِنْيَةِ السَّائِدَةِ إِلَى أَغْوَارِ الْوَعْيِ الْخَاصِّ.

وَلَا تَأْتِي هَذِهِ التَّقَلُّبَاتُ كَأَحْدَاثٍ مَعْزُولَةٍ عَنْ سِيَاقِ الزَّمَانِ، بَلْ هِيَ حَلَقَاتٌ فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ التَّحَوُّلَاتِ تَسِيرُ وَفْقَ نَامُوسِ دَوَرَانِ الدُّهُورِ. فَالِاسْتِلَابُ الثَّقَافِيُّ لَا يُحْدِثُ تَغْيِيرًا اجْتِمَاعِيًّا بَسِيطًا، بَلْ هُوَ مِفْتَاحٌ يُعَجِّلُ بِانْتِقَالٍ جَسِيمٍ مِنَ الثَّبَاتِ إِلَى تَفَكُّكِ النِّظَامِ بِأَسْرِهِ. وَهُنَا، يَصِيرُ الضَّعْفُ الدَّاخِلِيُّ الَّذِي تَعْتَرِي الْمُجْتَمَعَ بَابًا لِانْهِيَارِ التَّنَاسُقِ النِّظَامِيِّ، مِمَّا

يُيَسِّرُ إِعَادَةَ تَرْتِيبِ السُّلْطَةِ فِي قَالَبٍ جَدِيدٍ أَكْثَرَ جَوْرًا. إِنَّ هَذَا التَّحَلُّلَ لِلنِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ يُثْبِتُ أَنَّ السُّقُوطَ لَيْسَ عَرَضًا طَارِئًا، بَلْ هُوَ مَآلٌ حَتْمِيٌّ لِدَوْرَةٍ جَرَى تَشْوِيهُ مَسَارِهَا عَمْدًا.

وَمِنْ هُنَا، تَتَضَافَرُ كُلُّ جُزْئِيَّاتِ الْقَوْلِ فِي بَيَانِ هَيْكَلِ السُّلْطَةِ وَضَعْفِ النِّظَامِ لِتُؤَكِّدَ أَنَّ كُلَّ تَغَيُّرٍ اجْتِمَاعِيٍّ فِي مُتُونِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ يَجْرِي وَفْقَ سُلُوكٍ سَرْدِيٍّ مَرْسُومٍ بِدِقَّةٍ. لَا تَعْمَلُ الْهَيْمَنَةُ بِالْقَهْرِ الْمَادِّيِّ وَحْدَهُ، بَلْ بِالتَّدْرِيجِ فِي التَّلَاعُبِ بِالْوَعْيِ الْجَمْعِيِّ. وَبِجَمْعِ مَدَارَاتِ التَّحْلِيلِ، يَتَّضِحُ أَنَّ تَارِيخَ الْحَضَارَةِ فِي هَذَا الْأَثَرِ لَا يَجْرِي جِزَافًا، بَلْ يَتَقَوَّمُ مِنْ مَرَاحِلَ مُدَبَّرَةٍ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا لِخَلْقِ مَنَاخٍ مُفْضٍ إِلَى الْخَرَابِ. وَإِنَّ جَمْعَ هَذِهِ الرُّؤَى لَا يُوَضِّحُ كَيْفِيَّةَ عَمَلِ الْهَيْمَنَةِ فَحَسْبُ، بَلْ يُؤَكِّدُ أَنَّ كُلَّ نَوْبَةٍ مِنَ التَّفَكُّكِ هِيَ جُزْءٌ مِنْ مَكِيدَةٍ كُبْرَى تَقُودُ الْإِنْسَانَ مَسُوقًا إِلَى غَايَةِ الِاغْتِرَابِ الرُّوحِيِّ.

تَتَجَلَّى فِي هَذَا التَّحْلِيلِ مُشَابَهَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَحْثِ مُحَمَّد آصِف خَان (٢٠٢٢) الَّذِي تَقَصَّى مَرَاحِلَ حَيَاةِ الْبَطَلِ فِي رِوَايَاتِ مُحْسِن حَمِيد، إِذْ تُقَدِّمُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ بَصَائِرَ نَافِذَةً عِنْدَ مُقَابَلَتِهَا بِالدِّينَامِيكِيَّاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس لِأَحْمَد خَالِد مُصْطَفَى. فَقَدْ وَضَعَتِ الدِّرَاسَةُ مَحَاوِرَ إِشْكَالِيَّتِهَا حَوْلَ كَيْفِيَّةِ قُدْرَةِ أَنْمَاطِ نُورْثْرُوب فْرَاي الْأَرْكِيتِيَّةِ كَفُصُولِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ وَالرَّبِيعِ وَالْخَرِيفِ عَلَى تَشْرِيحِ سِيرَةِ الْإِنْسَانِ وَعَكْسِ دَوْرَةِ الْحَضَارَةِ فِي آنٍ وَاحِدٍ. وَبِاعْتِمَادِ مَنْهَجِ النَّقْدِ الْأَرْكِيتِيِّ، اسْتَخْدَمَ الْبَاحِثُ مَفْهُومَ الْمُونُومِيث أَوْ نَمَطَ السَّرْدِ الْمَوْسِمِيِّ لِرَسْمِ مَسَارِ الْبَطَلِ، مُنْطَلِقًا مِنْ مَرْحَلَةِ الْإِمْلَاقِ، مَرُورًا بِأَوْجِ الْمَجْدِ، حَتَّى الْهَاوِيَةِ الْمَأْسَاوِيَّةِ.

وَلَقَدْ أَبَانَتِ النَّتَائِجُ أَنَّهُ سَوَاءٌ فِي التَّجْرِبَةِ الشَّخْصِيَّةِ لِبَطَلِ رِوَايَةِ حَمِيد أَوْ فِي سُقُوطِ إِمْبَرَاطُورِيَّةٍ مِثْلَ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي رِوَايَةِ مُصْطَفَى– لَمْ يَكُنْ سُقُوطُ الْحَضَارَةِ بَتَاتًا نَاجِمًا عَنْ قُوَّةٍ خَارِجِيَّةٍ بِمُفْرَدِهَا. فَانْكِسَارُ الْبَطَلِ كَمُدَبِّرٍ لِأَمْرِ الْحَضَارَةِ، كَمَا حَلَّ بِالسُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي، كَانَ مَبْدَؤُهُ مِنْ وَهَنٍ دَاخِلِيٍّ كَالدُّيُونِ الْمُتَوَرَّثَةِ، وَتَرَفِ الْعَيْشِ، وَالِانْقِسَامِ النِّظَامِيِّ،

مِمَّا جَعَلَ الْكِيَانَ عُرْضَةً لِعَوَاصِفِ الْخَارِجِ. وَفِي مِرْآةِ أَرْكِيتِيّ نُورْثْرُوب فْرَاي، تُعَدُّ هَذِهِ الدِّينَامِيكِيَّاتُ تَجَلِّيًا لِمَرَاحِلَ مِثْلَ الْأَغُون (الصِّرَاعِ) وَالْبَاتُوس (الْمُعَانَاةِ) الَّتِي تَتَكَرَّرُ أَنْمَاطُهَا فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيّ كَجَدَلِيَّةٍ حَضَارِيَّةٍ تُرْمَزُ لَهَا بِالْأَدَبِ.

وَعَلَى وَجْهِ الْخُلَاصَةِ، يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ أَرْكِيتِيَّ فْرَاي هُوَ مِقْيَاسٌ لِقِرَاءَةِ سِيرَةِ الْإِنْسَانِ الْمُتَكَرِّرَةِ. فَانْهِيَارُ الْحَضَارَةِ كَمِثْلِ رِحْلَةِ الْبَطَلِ الْمَأْسَاوِيَّةِ لَيْسَ صُرُوفَ دَهْرٍ، بَلْ هُوَ نَتِيجَةٌ لَازِمَةٌ لِضَعْفِ الْجِهَازِ الدَّاخِلِيّ وَالْبِنْيَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ. وَبِفَهْمِ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ الْأَرْكِيتِيَّةِ، نُبْصِرُ أَنَّ بَقَاءَ الْإِنْسَانِ فَرْدًا وَجَمَاعَةً مُعَلَّقٌ بِقُوَّةِ النَّزَاهَةِ دَاخِلَ هَذَا النِّظَامِ، وَالَّتِي تَقْدِرُ عَلَى ضَبْطِ الْهُوِيَّةِ وَالْحَرَكَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، كَيْلَا يَقَعَ الْمَرْءُ فِي مَهَاوِي التَّفَكُّكِ الْمُدَمِّرِ.

يَخْلُصُ الْبَاحِثُ إِلَى أَنَّ تَفَكُّكَ الْحَضَارَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس لَيْسَ عَرَضًا مِنْ أَعْرَاضِ التَّارِيخِ، بَلْ هُوَ تَجَلٍّ لِوَهَنٍ دَاخِلِيٍّ جَرَى التَّلَاعُبُ بِهِ عَمْدًا لِتَحْقِيقِ مَآلَاتِ السِّينَارْيُو الْإِسْخَاتُولُوجِيّ. فَإِنَّ الْعَوَامِلَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ وَالدِّيمُوغْرَافِيَّةَ الَّتِي حُسِبَتْ دَعَائِمَ لِقِوَامِ الْحَيَاةِ تَصِيرُ ثُغُورًا مَهْلَكَةً حِينَ يَتَآكَلُ جَوْهَرُ الْقِيَمِ فِيهَا. وَلَا يَبْرُزُ أَنْتِيخْرِيستُوس كَكِيَانٍ مُخَرِّبٍ يَقُومُ بِذَاتِهِ، بَلْ يَعْمَلُ كَمُعَجِّلٍ يَسْتَغِلُّ كُلَّ تَنَاقُضٍ دَاخِلِيٍّ، وَيُسَرِّعُ مَسِيرَ التَّحَلُّلِ الْأَخْلَاقِيّ، وَيَسُوقُ الْمُجْتَمَعَ نَحْوَ مَصِيرِ الْخَرَابِ الْأَبَدِيّ. وَتَأْتِي هَذِهِ الْخُطَّةُ عَلَى غَايَةِ الْإِحْكَامِ؛ إِذْ لَا تُغِيرُ مِنْ خَارِجِ السُّورِ جَهْرَةً، بَلْ تَتَسَرَّبُ فِي عُرُوقِ النِّظَامِ، وَتَقْضِمُ رُوحَ الْوَفَاءِ، وَتُطْفِئُ نُورَ الْبَصِيرَةِ فِي ضَمَائِرِ النَّاسِ مِنْ بَاطِنِهَا.

وَفِي إِطَارِ الْإِسْخَاتُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُمَثَّلَةِ، يُفْضِي هَذَا الِاخْتِرَاقُ إِلَى سَلْبِ الْحَضَارَةِ قُدْرَتَهَا عَلَى بَصَرِ الْحَقِّ، وَهِيَ حَالَةٌ تُعْلِنُ نَصْرَ خُطَّةِ التَّضْلِيلِ النِّظَامِيَّةِ. وَيُؤَكِّدُ الْبَاحِثُ أَنَّ حَقِيقَةَ هَذَا الِانْهِيَارِ لَا تَكْمُنُ فِي قُوَّةِ الْخَصْمِ الْمَادِّيَّةِ، بَلْ فِي عَجْزِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيّ عَنِ الثَّبَاتِ عَلَى أَصْلِ التَّوْحِيدِ فِي خِضَمِّ طُوفَانِ التَّغَيُّرَاتِ الْمُدَمِّرَةِ. وَمِنْ ثَمَّ، تَعْظُمُ حَاجَةُ الْأُمَّةِ إِلَى هَذَا التَّحْلِيلِ، إِذْ إِنَّ أَنْمَاطَ الْخِدَاعِ الْمَكْشُوفَةَ هُنَا هِيَ نَذِيرٌ خَالِدٌ بِأَنَّ الْقُوَى التَّخْرِيبِيَّةَ

سَتَجِدُ مَنْفَذَهَا مَا دَامَ فِي نَزَاهَتِنَا الدَّاخِلِيَّةِ صَدْعٌ. إِنَّ اسْتِيعَابَ آلِيَّاتِ هَذَا الْخَرَابِ لَيْسَ لِمُدَارَسَةِ الْأَدَبِ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ بُوصَلَةٌ لِكُلِّ فَرْدٍ لِصَوْنِ حُرِّيَّةِ الضَّمِيرِ وَكَرَامَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ ضَرُوبِ تَحْرِيفِ الْمَعَانِي الَّتِي تَهْدِدُ بَقَاءَ الْحَضَارَةِ فِي مُقْبِلِ الزَّمَانِ.

٣) الْعَوَامِلُ الِاقْتِصَادِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ

يَسْتَجْلِي الْبَاحِثُ الْعَامِلَيْنِ الِاقْتِصَادِيَّ وَالسِّيَاسِيَّ مِنَ التَّحْلِيلِ النَّقْدِيِّ لِدَوْرَةِ الْحَضَارَةِ بِمَنْظُورِ الْأَرْكِيتِيِّ وَالْمِيثُولُوجِيَا لِنُورْثْرُوب فْرَاي، وَمِنْ أَبْرَزِ مَعَالِمِهِمَا احْتِكَارُ الْمَوَارِدِ. وَإِنْ كَانَ الْعَامِلَانِ الِاقْتِصَادِيُّ وَالسِّيَاسِيُّ يُفْهَمَانِ عُرْفًا كَظَاهِرَةٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَى بَيَانَاتِ الْوَاقِعِ، إِلَّا أَنَّ الْبَاحِثَ يَرُدُّهُمَا فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَى إِطَارِ نَظَرِيَّةِ فْرَاي، حَيْثُ يُفَسِّرُهُمَا وُجُودِيًّا ضِمْنَ أَبْعَادِ الْحَضَارَةِ الْمِكْرُوِيَّةِ، أَيْ مِنَ خِلَالِ طِبَاعِ الشَّخْصِيَّاتِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوس الَّتِي تُشَكِّلُ فِعْلًا فِي مَسَارِ التَّارِيخِ الْعَالَمِيِّ. وَيَسْتَقِي الْبَاحِثُ مَفْهُومَ الِانْعِكَاسِ الْوُجُودِيِّ النَّاجِمِ عَنْ جَدَلِيَّةِ الْحَضَارَةِ مِنْ رَأْيِ فْرَاي، حَيْثُ إِنَّ هَذَا الْقَانُونَ الْكَوْنِيَّ يَقُومُ عَلَى سُنَّةِ الْجَدَلِيَّةِ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ؛ بِمَعْنَى أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ يُعَدُّ الْيَوْمَ نَتِيجَةً لِسَبَبٍ أَقْوَى، سَيَصِيرُ هُوَ ذَاتُهُ فِي حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ سَبَبًا لِمَا كَانَ قَبْلُ مَسْبُوبًا، وَهَذَا نَظِيرُ مَا قُرِّرَ فِي فَلْسَفَةِ هِيغِل مِنَ التَّرَاقِي بَيْنَ الْأَطْرُوحَةُ، نَقِيضُ الْأَطْرُوحَةِ، التَّرْكِيبُ.

وَعِنْدَ تَحْلِيلِ رَمْزِ الْحَاكِمِ الطَّاغِيَةِ وَرَمْزِ الْأَنَا الْجُزَيْئِيَّةِ، يَقِفُ الْبَاحِثُ عَلَى حَقِيقَةِ أَنَّ كُلَّ مَرْحَلَةٍ فِي الْأَرْكِيتِيِّ الشَّيْطَانِيِّ تَتَضَمَّنُ تَوْظِيفًا جَائِرًا لِلْمَوَارِدِ لِإِشْبَاعِ نَزَوَاتِ الْحَاكِمِ. وَكَمَا بَيَّنَ الْبَاحِثُ فِي بَيَانِ عَنَاصِرِ الْأَرْكِيتِيِّ الشَّيْطَانِيِّ، فَإِنَّ كُلَّ قَرَارٍ سِيَاسِيٍّ يَتَّخِذُهُ الْحَاكِمُ الطَّاغِيَةُ الْمُسْتَبِدُّ لَا يَرُومُ إِلَّا تَحْقِيقَ مَآرِبِ أَنَانِيَّتِهِ، دُونَ اعْتِبَارٍ لِمَصَالِحِ الرَّعِيَّةِ. فَمِثَالُ النَّمْرُودِ عَلَى سَبِيلِ الْبَيَانِ– يُجَلِّي هَذَا؛ إِذْ بَلَغَ مِنْ نَهَمِهِ لِتَحْقِيقِ هَدَفِهِ فِي التَّفَرُّدِ بِالسُّلْطَةِ الْعَالَمِيَّةِ أَنْ أَضْحَى بِمُهَجِ رَعِيَّتِهِ، مُكْرِهًا إِيَّاهُمْ عَلَى بِنَاءِ بَرْجِ بَابِلَ وَتَارِكًا إِيَّاهُمْ فِي غَمَرَاتِ الْعَذَابِ، بَلْ وَتَجَرَّأَ عَلَى قَتْلِ كُلِّ مَنْ نَاوَأَهُ. وَمِنْ هُنَا، يَلْحَظُ الْبَاحِثُ أَنَّهُ حِينَ تَسْتَأْثِرُ فِئَةٌ بِكُلِّ الْمَوَارِدِ،

تَغْدُو الْفِئَةُ الْأُخْرَى لَا فِي ضِيقٍ مِنَ الْعَيْشِ فَحَسْبُ، بَلْ فِي عَجْزٍ عَنِ الْإِتْيَانِ بِبَدِيلٍ؛ فَمَا كَانَ لِأَهْلِ بَابِلَ أَنْ يَنْتَفِضُوا قَبْلَ أَوَانِهِمْ، لَا عَدَمًا لِلرَّغْبَةِ، بَلْ لِكَوْنِ جِمَاعِ الْمَوَارِدِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْخُرُوجُ عَلَى الطَّاغِيَةِ كَانَتْ فِي قَبْضَةِ النَّمْرُودِ.

يُبَيِّنُ هَذَا التَّحْلِيلُ أَنَّ دِينَامِيكِيَّةَ السُّلْطَةِ فِي تَارِيخِ الْحَضَارَاتِ تَعْمَلُ عَبْرَ ثَلَاثِ عُرًى وَثِيقَةٍ: تَنْظِيمُ الْمُؤَسَّسَاتِ، وَصِيَاغَةُ السَّرْدِيَّاتِ، وَتَهَاوِي الشَّرْعِيَّةِ. فَهَذِهِ الْأَثَافِيُّ الثَّلَاثُ لَا تَكُونُ مُتَفَرِّقَةً، بَلْ تَصُوغُ مِيكَانِيزْمًا وَاحِدًا لِلِانْهِيَارِ وَالصُّمُودِ يَرْسُمُ مَسَارَ تَحَوُّلِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ بِالتَّدْرِيجِ. فَفِي الْمُسْتَوَى الْمُؤَسَّسِيِّ، يَتَحَدَّدُ ثَبَاتُ الْحَضَارَةِ بِقُدْرَةِ الْبُنْيَةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَى ضَبْطِ تَوَزُّعِ السُّلْطَةِ وَتَوْجِيهِ الْمَوَارِدِ. حِينَ تَكُونُ الْمُؤَسَّسَاتُ السِّيَاسِيَّةُ إِقْصَائِيَّةً مُتَمَرْكِزَةً، تَصِيرُ الْمُؤَسَّسَاتُ الِاقْتِصَادِيَّةُ أَدَاةً لِتَكْرِيسِ التَّفَاوُتِ لَا مَيْدَانًا لِلْحَرَاكِ الِاجْتِمَاعِيِّ. فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، لَا يَرْتَكِزُ صُمُودُ النِّظَامِ عَلَى التَّوَازُنِ، بَلْ عَلَى فَرْضِ اسْتِقْرَارٍ قَسْرِيٍّ رَهِينٍ بِتَحَكُّمِ النُّخَبِ. وَهَذَا مَا بَدَا فِي التَّكْوِينَاتِ التَّارِيخِيَّةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوس، حَيْثُ أَظْهَرَتْ مَرَاكِزُ السُّلْطَةِ الْعُظْمَى كَنَمْرُودَ، وَالسَّلَطَنَاتِ الرَّاكِدَةِ، وَالْمَلَكِيَّاتِ فِي طَوْرِهَا الْأَخِيرِ، نَمَطًا وَاحِدًا: تَعْظِيمُ قُطْبِ السُّلْطَةِ مَعَ إِضْعَافِ هَيَاكِلِ الدَّعْمِ فِي الْقَاعِدَةِ.

وَفِي الطَّبَقَةِ التَّالِيَةِ، تَكُونُ السَّرْدِيَّاتُ وَالدِّعَايَةُ بِمَثَابَةِ الرِّبَاطِ بَيْنَ الْمُؤَسَّسَاتِ وَالشَّرْعِيَّةِ. فَلَا تَنْقُلُ السَّرْدِيَّةُ صُورَةَ السُّلْطَةِ حَسْبُ، بَلْ تَصْنَعُ وَجْدَانَ الْمُجْتَمَعِ فِي إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ تِلْكَ السُّلْطَةِ. فَفِي حَالِ الثَّبَاتِ، تُوَطِّدُ السَّرْدِيَّةُ الْإِجْمَاعَ، أَمَّا فِي حَالِ الْوَهَنِ فَتَصِيرُ بَدِيلًا تَعْوِيضِيًّا يَحْجُبُ الِاخْتِلَالَ. وَقَدْ أَبَانَتْ حَالَةُ تَحَوُّلِ الْهُوِيَّةِ وَالِانْدِمَاجِ الثَّقَافِيِّ فِي التَّارِيخِ الِاسْتِعْمَارِيِّ أَنَّ الْهَيْمَنَةَ لَا تَعْمَلُ بِالْقَهْرِ الْمُبَاشِرِ، بَلْ بِاسْتِبْدَالِ مَعَايِيرِ الْمَعْنَى الْجَمْعِيِّ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، لَمْ تَكُنْ شَخْصِيَّةُ بُوكَاهُونْتَاس التِي صَارَتْ رِيبيكَاه مُجَرَّدَ تَحَوُّلٍ فَرْدِيٍّ، بَلْ تَحَوُّلًا مَعْرِفِيًّا مِنْ ذَاتٍ لَهَا جُذُورٌ إِلَى ذَاتٍ أَعَادَ النِّظَامُ الْمُسَيْطِرُ صِيَاغَتَهَا. وَفِي رِوَايَةِ

أَنْتيخْريستُوس، يَتَكَرَّرُ هَذَا النَّمَطُ كَتَدَخُّلٍ رَمْزِيٍّ يُحَرِّفُ الْوِجْهَةَ الْجَمْعِيَّةَ دُونَ هَدْمِ الْبِنْيَةِ مُبَاشَرَةً.

وَعِنْدَ الْمَحَطَّةِ الْأَفْصَلِ، تَكُونُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ مِعْيَارَ الْبَقَاءِ أَوْ الْفَنَاءِ. لَا تَزُولُ الشَّرْعِيَّةُ دُفْعَةً، بَلْ تَتَآكَلُ بِتَدْرِيجٍ يَسِمُهُ ضَعْفُ الثِّقَةِ، وَخُفُوتُ الْإِجْمَاعِ، وَاتِّسَاعُ الْخَرْقِ بَيْنَ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ. فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ، تَبْقَى الْمُؤَسَّسَاتُ قَائِمَةً ظَاهِرًا، لَكِنَّهَا تَفْقِدُ مِعْيَارَهَا الْمُوَحِّدَ بَاطِنًا. فَأَحْوَالُ كَالنَّمْرُودِ، وَتْشَارْلز الْأَوَّلِ، وَالسُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي فِي الرِّوَايَةِ تُظْهِرُ نَمَطًا مُطَّرِدًا: أَنَّ السُّلْطَةَ لَا تَسْقُطُ لِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ لِتَرَاكُمِ التَّبَايُنِ بَيْنَ النَّظْمِ الْقَانُونِيِّ، وَالتَّصَرُّفِ السِّيَاسِيِّ، وَتَطَلُّعَاتِ الْخَلْقِ.

وَمِنْ ثَمَّ، يَعْمَلُ مِيكَانِيزْمُ التَّدَخُّلِ فِي أَنْتيخْريستُوس كَمُعَجِّلٍ يَنْقُلُ الْحَضَارَةَ مِنَ الثَّبَاتِ الزَّائِفِ إِلَى التَّفَكُّكِ الْوَاقِعِيِّ. لَا يَأْتِي التَّدَخُّلُ قُوَّةً غَاشِمَةً، بَلْ خَلَلًا يَكْشِفُ عَنِ الصُّدُوعِ الْبَاطِنِيَّةِ. إِذْ مَتَى وَهَنَتِ الشَّرْعِيَّةُ، فَقَدَتِ السَّرْدِيَّةُ قُوَّةَ الْإِقْنَاعِ، وَعَجَزَتِ الْمُؤَسَّسَاتُ عَنْ تَوْلِيدِ الطَّاعَةِ. فَتَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ صِدَامَاتٌ مُتَتَابِعَةٌ: الِاحْتِلَالُ الْمُؤَسَّسِيُّ يُوهِنُ الشَّرْعِيَّةَ، وَوَهَنُ الشَّرْعِيَّةِ يُعَطِّلُ السَّرْدِيَّةَ، وَسُقُوطُ السَّرْدِيَّةِ يُعَجِّلُ التَّفَكُّكَ الْمُؤَسَّسِيَّ. فَالْمَنْطِقُ فِي أَنْتيخْريستُوس هُوَ تَهَاوِي النِّظَامِ مِنَ الدَّاخِلِ. فَلَا تَسْقُطُ الْحَضَارَةُ بِعِلَّةٍ مُفْرَدَةٍ، بَلْ بِتَرَاكُمِ الضَّعْفِ الْبِنْيَوِيِّ الَّذِي عَجَزَتِ السَّرْدِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ عَنْ تَدَارُكِهِ. وَالْمَآلُ هُوَ تَحَوُّلٌ نِظَامِيٌّ لَيْسَ بِبَغْتَةٍ، بَلْ نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ لِاحْتِلَالٍ تُرِكَ يَتَفَاقَمُ فِي صَمِيمِ هَيْكَلِ السُّلْطَةِ ذَاتِهِ.

يَتَجَلَّى هَذَا التَّحْلِيلُ فِي ضَوْءِ مُشَابَهَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَحْثِ مُحَمَّد حُسَيْن عَلِيّ السُّيُوطِيّ وَسَلَام نَاصِر وَالِي (٢٠٢٣)، حَيْثُ اعْتَمَدَ الْبَاحِثَانِ عَلَى الْمَنْهَجِ الْكَيْفِيِّ، وَقَدْ خَلَصَتْ نَتَائِجُهُمَا إِلَى مَحَاوِرَ جَوْهَرِيَّةٍ، مِنْهَا: اتِّخَاذُ الْمِيثُولوجِيَا كَأَدَاةٍ لِلدِّعَايَةِ السِّيَاسِيَّةِ؛ إِذْ عَكَفَ أُولُو السُّلْطَانِ عَلَى تَوْظِيفِ السَّرْدِيَّاتِ الْمِيثُولُوجِيَّةِ فِي التَّوَارِيخِ الرَّسْمِيَّةِ بِمَا يَخُصُّ عَظَمَةَ الْآثَارِ وَعِمَارَةِ الْمُدُنِ الْغَابِرَةِ، كَمَدِينَتَيْ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَبَغْدَادَ، كَأَدَاةٍ لِلتَّأْثِيرِ وَالْإِقْنَاعِ. وَكَذَلِكَ، شَرْعِيَّةُ

السُّلْطَةِ وَخُلُودُ الدَّوْلَةِ؛ حَيْثُ جَرَى صِنَاعَةُ سَرْدِيَّةِ الْبَهَاءِ الْمَادِّيِّ عَمْدًا لِإِيهَامِ النَّاسِ بِخُلُودِ السُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَإِضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى نُفُوذِ الْحَاكِمِ، وَتَحْصِينِ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْمَوَارِدِ الِاقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ بَيْنَ ظَهْرَانِيَ الْعَامَّةِ. وَقَدْ بَرْهَنَتْ نَتَائِجُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ عَلَى أَنَّ انْهِيَارَ أَيِّ عَهْدٍ مِنَ الدُّوَلِ لَمْ يَكُنْ لِأَسْبَابٍ غَيْبِيَّةٍ، بَلْ لِعِلَلِ الْفَسَادِ الدَّاخِلِيِّ، وَغِيَابِ الْمُسَاءَلَةِ الْحَقِيقِيَّةِ عَنْ حَاجَاتِ الرَّعِيَّةِ، وَانْكِشَافِ التَّلَاعُبِ الِاقْتِصَادِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ الَّذِي ارْتَكَبَهُ النِّظَامُ.

يُمْكِنُ قِرَاءَةُ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الِاقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ وَدَوْرَةِ الْحَضَارَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوس كَمِيكَانِيزْمٍ بِنْيَوِيٍّ يُحَدِّدُ قُدْرَةَ النِّظَامِ عَلَى الْبَقَاءِ أَوِ الِانْهِيَارِ. فَالِاقْتِصَادُ السِّيَاسِيُّ هُوَ الْأَسَاسُ التَّشْغِيلِيُّ الَّذِي يُدِيرُ تَوَزُّعَ الْمَوَارِدِ، وَثَبَاتَ الْمُؤَسَّسَاتِ، وَدَيْمُومَةَ السُّلْطَةِ. وَحِينَ يَضْعُفُ هَذَا الْأَسَاسُ بِسَبَبِ التَّفَاوُتِ، أَوِ الْفَسَادِ، أَوِ الْأَعْبَاءِ الْمَالِيَّةِ الْمُتَفَاقِمَةِ، لَا يَعْرِفُ النِّظَامُ تَصَدُّعًا فِي الْكَفَاءَةِ فَحَسْبُ، بَلْ يَلِجُ مَرْحَلَةَ الِاضْطِرَابِ الْبِنْيَوِيِّ الَّتِي تُشَرِّعُ الْأَبْوَابَ لِلتَّفَكُّكِ التَّدْرِيجِيِّ. وَلَكِنْ فِي التَّأْوِيلِ الْأَرْكِيتِيِّ لِرِوَايَةِ أَنْتِيخْرِيسْتُوس، لَا يَبْدُو ضَعْفُ الِاقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ عَامِلًا مُفْرَدًا؛ إِذْ يَتَسَارَعُ الِانْهِيَارُ دَوْمًا بِدَفْعٍ مِنْ مُمَارَسَاتِ السُّلْطَةِ الَّتِي تُجَاوِزُ حُدُودَ الشَّرْعِيَّةِ. فَعِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ، تَصِيرُ التَّلَاعُبَاتُ السَّرْدِيَّةُ، وَإِقْصَاءُ الْمُعَارِضَةِ، وَتَهْمِيشُ الْعَدَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ صُوَرًا مِنَ الِانْحِرَافِ الدَّاخِلِيِّ الَّذِي يُحِيلُ الِاسْتِقْرَارَ إِلَى تَوَتُّرٍ كَامِنٍ. فَلَا تَعُودُ السُّلْطَةُ آلَةً لِلتَّوَازُنِ، بَلْ أَدَاةً لِتَعْمِيقِ الِاخْتِلَالِ ذَاتِهِ.

وَيَعْمَلُ تَدَخُّلُ أَنْتِيخْرِيسْتُوس فِي بِنْيَةِ السَّرْدِ كَمُحَرِّضٍ يَكْشِفُ عَنْ تِلْكَ الِاخْتِلَالَاتِ؛ فَهُوَ لَا يُحْدِثُ الِانْهِيَارَ مِنْ خَارِجٍ، بَلْ يُعَجِّلُ انْفِتَاقَ التَّنَاقُضَاتِ الَّتِي تَجَذَّرَتْ فِي دَاخِلِ النِّظَامِ. وَفِي هَذَا النَّسَقِ، يُؤَدِّي كُلُّ فِعْلٍ جَائِرٍ مِنَ الْحَاكِمِ إِلَى تَرَاكُمِ الْخَلَلِ الَّذِي يَنْتَقِصُ فِي النِّهَايَةِ مِنْ قُدْرَةِ النِّظَامِ عَلَى صَوْنِ تَمَاسُكِهِ الدَّاخِلِيِّ. وَبَعْدَمَا كَانَتِ الدِّعَايَةُ

وَسِيلَةً لِلتَّثْبِيتِ، ارْتَدَّتْ مُؤَشِّرًا لِلْأَزْمَةِ لِعَجْزِهَا عَنْ رَدْمِ الْفَجْوَةِ بَيْنَ الْوَاقِعِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَدَعَاوَى الشَّرْعِيَّةِ.

وَتَتَحَرَّكُ دَوْرَةُ الْحَضَارَةِ فِي أَنْتِيخْرِيستُوس وَفْقَ نَمَطٍ مُطَّرِدٍ: مَرْحَلَةُ تَوْطِيدِ السُّلْطَةِ، يَتْلُوهَا تَوَسُّعُ السَّيْطَرَةِ، ثُمَّ يَعْقُبُهَا تَآكُلٌ مُؤَسَّسِيٌّ نَاشِئٌ عَنِ التَّفَاوُتِ وَإِسَاءَةِ اسْتِعْمَالِ النُّفُوذِ، حَتَّى الْوُصُولِ إِلَى طَوْرِ التَّفَكُّكِ. فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْأَخِيرَةِ، لَا يَكُونُ التَّدَخُّلُ الْخَارِجِيُّ إِلَّا عَامِلًا مُعَجِّلًا لِانْهِيَارِ هَيْكَلٍ فَقَدَ قُدْرَتَهُ الضَّبْطِيَّةَ ذَاتِيًّا. وَعَلَيْهِ، لَا يُمْكِنُ اخْتِزَالُ انْهِيَارِ الْحَضَارَةِ فِي إِخْفَاقِ الِاقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ وَحْدَهُ، بَلْ هُوَ حَاصِلُ جَمْعِ التَّفَكُّكِ بَيْنَ الْأَسَاسِ الْمَادِّيِّ، وَمُمَارَسَاتِ السُّلْطَةِ، وَالِانْحِرَافِ الْأَخْلَاقِيِّ فِي تَوْظِيفِ النُّفُوذِ. وَمِنْ مَنْطِقِ دَوْرَةِ أَنْتِيخْرِيستُوس، فَإِنَّ كُلَّ نِظَامٍ يَنْبِذُ التَّوَازُنَ بَيْنَ تَوْزِيعِ الْمَوَارِدِ وَالْحُدُودِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِلسُّلْطَةِ يَدْخُلُ مَسَارَ التَّدَهْوُرِ الْبِنْيَوِيِّ لَا الْعَرَضِيِّ. وَالِانْهِيَارُ فِي الْمَآلِ هُوَ نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ لِنِظَامٍ عَجَزَ عَنْ حِفْظِ تَمَاسُكِهِ الدَّاخِلِيِّ

الفصل الخامس

الخاتمة

أ. الخلاصة

١ .تَمَثُّلُ الدَوْرَةِ الْحَضَارِيَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيكْرِيسْتُوس

خَلَصَ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى ثَلَاثِ نِقَاطٍ رَئِيسَةٍ فِي الْإِجَابَةِ عَنْ إِشْكَالِيَّةِ الْبَحْثِ الْأُولَى. فَتُبَيِّنُ النَّتِيجَةُ الْأُولَى أَنَّ الْحَضَارَاتِ، مَهْمَا بَدَتْ شَامِخَةً، فَإِنَّهَا غَالِبًا مَا تَقُومُ عَلَى أُسُسٍ وَاهِيَةٍ. وَعَلَى غِرَارِ مَا صَوَّرَهُ ابْنُ خَلْدُون مِنْ أَنَّ الْحَضَارَةَ كَالْكَائِنِ الْحَيِّ لَهَا عُمُرٌ مَحْدُودٌ، فَإِنَّ الْأُبَّهَةَ الظَّاهِرَةَ لَا تَعْكِسُ بِالضَّرُورَةِ قُوَّتَهَا الْبَاطِنِيَّةَ. وَمِنْ هَذَا الضَّعْفِ تَطَوَّرَتِ النَّتِيجَةُ الثَّانِيَةُ، إِذْ إِنَّ الِانْهِيَارَ لَا يَحُلُّ دفْعَةً وَاحِدَةً، بَلْ يَتَحَرَّكُ عَبْرَ ثَلَاثِ مَرَاحِلَ مُتَشَابِكَةٍ: نُشُوءُ نِظَامِ حُكْمٍ طَاغٍ، وَتَقْنِينُ الِاضْطِهَادِ كَجُزْءٍ مِنْ مَنْطِقِ شَرْعَنَةِ السُّلْطَةِ، وَأَخِيرًا انْهِيَارُ نِظَامِ الْحُكْمِ ذَاتِهِ مِنْ دَاخِلِهِ. وَهَذِهِ الْمَرَاحِلُ لَيْسَتْ أَحْدَاثًا مُنْفَصِلَةً، بَلْ هِيَ سِلْسِلَةٌ مِنَ التَّعَالُلِ الْعِلِّيِّ تَعْمَلُ بَطِيئًا. غَيْرَ أَنَّ الْبَحْثَ وَجَدَ أَنَّ هَذِهِ السِّلْسِلَةَ لَا تَنْتَهِي دَوْمًا إِلَى الْفَنَاءِ الْمُطْلَقِ؛ فَالنَّتِيجَةُ الثَّالِثَةُ تُظْهِرُ أَنَّ الْوَعْيَ الْجَمْعِيَّ لِلْمُجْتَمَعِ يَعْمَلُ بِمَثَابَةِ حِصْنٍ أَخِيرٍ، فَمَا دَامَ الْمُجْتَمَعُ قَادِرًا عَلَى إِيجَادِ أَفْرَادٍ يَتَمَسَّكُونَ بِالْقِيَمِ وَيَنْبِذُونَ مَسَارَ التَّدَهْوُرِ، فَإِنَّ دَوْرَةَ الِانْهِيَارِ لَا تَتِمُّ حَقِيقَةً.وَتَتَضَافَرُ هَذِهِ النَّتَائِجُ الثَّلَاثُ لِتُفْضِيَ إِلَى اسْتِنْتَاجٍ وَاحِدٍ: وَهُوَ أَنَّ دَوْرَةَ الْحَضَارَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيكْرِيسْتُوس لَيْسَتْ حُكْمًا طَبِيعِيًّا مُحَايِدًا، بَلْ هِيَ نِظَامٌ تَمَّ التَّلَاعُبُ بِهِ أَيْدِيُولُوجِيًّا، لَا يَعْمَلُ عَبْرَ الْهَدْمِ الْمُوَاجِهِ، بَلْ عَبْرَ قَلْبِ الْقِيَمِ تَدْرِيجِيًّا حَتَّى يَفْقِدَ النِّظَامُ قُدْرَتَهُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا يُقِيمُهُ وَمَا يَهْدِمُهُ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ أَنْتِيكْرِيسْتُوس لَيْسَ سَبَبًا لِلِانْهِيَارِ، بَلْ هُوَ نَتِيجَةٌ لَهُ وَمُعَجِّلٌ لِوُقُوعِهِ، وَفْقًا لِلْخِيَارَاتِ الْجَمْعِيَّةِ الَّتِي صَاغَهَا الْإِنْسَانُ عَبْرَ التَّارِيخِ. وَتَسْتَنِدُ هَذِهِ النَّتَائِجُ إِلَى بِنْيَةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ مُزْدَوِجَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ مُسْتَوَيَيْنِ مُتَكَامِلَيْنِ. فَالْمُسْتَوَى الْكُلِّيُّ يَقْرَأُ الرِّوَايَةَ عَبْرَ ثَلَاثَةِ أَنْمَاطٍ أَرْكِيتِيبِيَّةٍ كُبْرَى: الْأَبُوكَالِيبْتِيُّ رَمْزًا لِلنِّظَامِ الْمَأْمُولِ، وَالدِّيمُوبِيُّ صُورَةً

لِلانْهِيَارِ الْمُطْلَقِ، وَالْأَنَالُوجِيُّ تَجْسِيدًا لِلتَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ بَيْنَهُمَا. وَالْمُسْتَوَى الْجُزْئِيُّ يَتَتَبَّعُ دَوْرَةَ الْحَضَارَةِ عَبْرَ الْأَنْمَاطِ الْمِيثِيَّةِ الْأَرْبَعَةِ: مِنَ الْكُومِيدِيَا (النَّشْأَةُ) إِلَى الرُّومَانْسِيَّةِ (الذُّرْوَةُ) إِلَى التَّرَاجِيدِيَا (التَّرَاجُعُ) ثُمَّ الْإِيرُونِيَا (الِانْهِيَارُ). وَلَيْسَ هَذَانِ الْمُسْتَوَيَانِ طَبَقَتَيْنِ مُنْفَصِلَتَيْنِ، بَلْ هُمَا مَنْظُورَانِ يَلْتَقِيَانِ فِي نَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ: أَنَّ الِانْهِيَارَ فِي أَنْتِيكْرِيسْتُوس مَسَارٌ أَيْدِيُولُوجِيٌّ يَتَرَاكَمُ فِي صَمْتٍ، حَتَّى يَتَدَخَّلَ أَنْتِيكْرِيسْتُوس مُسَرِّعًا لَا مُسَبِّبًا.

٢ .الْعَوَامِلُ الْمُسببة لِلدَوْرَةِ الْحَضَارِيَةِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيكْرِيسْتُوس

فِي إِطَارِ إِجَابَةِ الْبَحْثِ عَنِ الْإِشْكَالِيَّةِ الثَّانِيَةِ، خَلَصَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى صِيَاغَةِ قَانُونٍ أَسَاسِيٍّ لِدَوْرَةِ الْحَضَارَةِ، نُمَثِّلُهُ فِي الْمُعَادَلَةِ التَّالِيَةِ .**(E × S × L = K)** :حَيْثُ يُشِيرُ الْعَامِلُ الْأَوَّلُ **(E)**، وَهُوَ الْبِيئِيُّ الْجُغْرَافِيُّ، إِلَى أَنَّ الِانْهِيَارَ يَبْدَأُ حِينَ يَفْتَقِدُ الْإِنْسَانُ وَعْيَهُ بِالْبِيئَةِ؛ فَعِنْدَمَا تَطْغَى الْمَصَالِحُ الشَّخْصِيَّةُ عَلَى اسْتِدَامَةِ الطَّبِيعَةِ، يَنْشَأُ اخْتِلَالٌ جَوْهَرِيٌّ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالنِّظَامِ الْبِيئِيِّ الَّذِي كَانَ يَرْتَكِزُ عَلَيْهِ. وَيَتَسَرَّبُ هَذَا الِاخْتِلَالُ الْبِيئِيُّ لِيَمْتَدَّ إِلَى الطَّبَقَةِ التَّالِيَةِ؛ فَيُصَوِّرُ الْعَامِلُ الثَّانِي **(S)**، وَهُوَ الِاجْتِمَاعِيُّ الدِّيمُوغْرَافِيُّ، كَيْفِيَّةَ حُدُوثِ تَآكُلِ الْهُوِيَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ حِينَ تَنْجَحُ الْخِطَابَاتُ الْوَافِدَةُ فِي إِزَاحَةِ الْقِيَمِ الْمَحَلِّيَّةِ. فَيُصْبِحُ جِيلُ الشَّبَابِ، الَّذِي لَمْ يَعُدْ يَجِدُ صِلَةً بَيْنَ هُوِيَّتِهِ وَالتَّيَّارَاتِ الْعَالَمِيَّةِ، نُقْطَةَ دُخُولٍ لِتَدَاعِي التَّمَاسُكِ الِاجْتِمَاعِيِّ؛ إِذْ بِمُجَرَّدِ انْكِسَارِ الْهُوِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ، تَتَهَاوَى الْقِيَمُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ، وَتَبْدَأُ أَرْكَانُ الْحَضَارَةِ فِي الِاهْتِزَازِ. وَيُؤَدِّي هَذَا الِاهْتِزَازُ الِاجْتِمَاعِيُّ، فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ، إِلَى تَقْوِيضِ الرُّكْنِ الثَّالِثِ؛ فَيُوَضِّحُ الْعَامِلُ الثَّالِثُ **(L)**، وَهُوَ شَرْعَنَةُ الِاقْتِصَادِ وَالسِّيَاسَةِ، كَيْفَ يُوَلِّدُ فَقْدُ ثِقَةِ الْجُمْهُورِ فِي الْحَاكِمِ نَزْعَةً لِلْمُقَاوَمَةِ، وَتُؤَدِّي هَذِهِ الْمُقَاوَمَةُ إِلَى إِضْعَافِ الشَّرْعِيَّةِ، وَضَعْفُ الشَّرْعِيَّةِ هَذَا يَفْتَحُ ثُغْرَةً لِلْقُوَى الْخَارِجِيَّةِ لِلتَّدَخُّلِ وَإِنْهَاءِ نِظَامِ الْحَضَارَةِ ذَاتِهِ إِلَى الْأَبَدِ.وَعِنْدَ رَبْطِ هَذِهِ الْعَوَامِلِ الثَّلَاثَةِ بِبِنْيَةِ السَّرْدِ فِي رِوَايَةِ أَنْتِيكْرِيسْتُوس، يَتَجَلَّى مَوْقِعُ شَخْصِيَّةِ أَنْتِيكْرِيسْتُوس بِوُضُوحٍ؛ فَهُوَ لَيْسَ الذَّاتَ

الَّتِي تُدَمِّرُ الْحَضَارَةَ مُبَاشَرَةً، بَلْ هُوَ عَامِلٌ حَفَّازٌ يَتَدَخَّلُ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَصِيرُ فِيهَا النِّظَامُ هَشًّا مِنْ دَاخِلِهِ، وَعَاجِزًا عَنِ الْمُقَاوَمَةِ. وَمِنْ هُنَا، يَتَجَلَّى فَهْمٌ حَاسِمٌ: أَنَّ نِهَايَةَ الزَّمَانِ لَيْسَتْ حَدَثًا يَنْقَضُّ بَغْتَةً مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ هِيَ حَصِيلَةُ تَرَاكُمِ الْخِيَارَاتِ الْجَمْعِيَّةِ لِلْبَشَرِ، الَّذِينَ قَوَّضُوا بِوَعْيٍ أَوْ بِغَيْرِ وَعْيٍ دَعَائِمَ حَضَارَتِهِمْ عَلَى مَدَارِ عُصُورٍ مَدِيدَةٍ.

ب. التَّوصِيَاتُ

يُوصى في الدراسات المستقبلية بتعميق التحليل حول رواية أنتيخريستوس، وذلك من خلال فحص طبيعة تدخّل الشخصية المعادية الأنتيخريستوس في كل مرحلة من مراحل الدورة الأركيتيبية لنورثروب فراي، ودمج هذه النظرية مع مفهوم العصبية لابن خلدون في 'المقدمة' لفهم العوامل الداخلية لانهيار الحضارات بشكل أكثر شمولية. وعلاوة على ذلك، يمكن توسيع نطاق البحث ليشمل تحليلاً رمزياً للشخصيات التاريخية بوصفها ركيزة لبناء السردية الأخروية، وإجراء دراسة مقارنة مع أعمال أدبية إسلامية معاصرة مماثلة لاختبار نمط ضد البطل الفريد في الرواية، بالإضافة إلى وضع خريطة منهجية تربط بين الرموز الشيطانية عند فراي وعلامات فساد آخر الزمان في الإسخاتولوجيا الإسلامية، وذلك للكشف عن طبيعة التمازج بين هذين النظامين الرمزيين اللذين وظفهما الكاتب كأساس للسردية الأخروية الإسلامية في عمله.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

مصطفى, ا. خ. (٢٠١٥). *أنتيخريستوس* (سارة صالح (محرر)). عصير الكتب.

المراجع العربية

ابن خلدون. (١٣٧٧). *المقدمة*. طبوغرافيا دستكاهي.

جمال بلقاسم. (٢٠١٤). الهوية ومراجعة الميثولوجيا البيضاء" سياسات التمثيل". *جامعة جيجل*, ١٥ , ٥–١٦.

محمد آصف خان. (٢٠٢٢). مراحل التجربة الإنسانية: تطبيق نظرية نورثروب فراي حول الأساطير على رواية محسن حامد "كيف تصبح غنيًا جدًا في آسيا الصاعدة". مجلة مراجعة لغات وبشريات باكستان, ٦(٢), ٤٩٠–٤٩٦.

محمد حسين محجوب. (٢٠١٧). الميثولوجيا اليونانية القديمة وأثرها في الفلسفة: من رؤى هوميروس وهسيود والنحلة الأورفية. *Scientific Journal of Faculty of Education*, ٣ (٩), ١–٢٧.

المصادر الأجنابية

Alim, A. A. N., Karim, M., & Wulandari, S. (2023). Kode Hermeneutik, Kode Proaretik, dan Kode Budaya dalam Transliterasi Manuskrip Kisah Raja-Raja Jambi. *Kajian Linguistik dan Sastra*, *1*(3), 295–304. https://doi.org/10.22437/kalistra.v1i3.23276

Anjani, D. R., Aisumah, A. A., Nurwahidah, L. S., & Julianto, C. D. (2025). Konstruksi Makna Emosional Dan Budaya Dalam Novel Lembayung Senja: Analisis Semiotik Roland Barthes. *Science Humaniora Journal*, *6* (1), 115–123.

Bauman, Z. (2000). *Liquid Modernity*. Polity Press.

C. S. Lewis. (1947). *The Abolition Of Man* (Lima belas). University Of Durham.

Daron Acemoglu, & James A. Robinson. (2012). *The Origins of Power, prosperity, and poverty "Why Nations Fail"*. Crown Publishers.

Donella H. Meadows. (1989). *Thinking in Systems A Primer* (Diana Wright (editor); Cetakan Pe). Chelsea Green Publishing Company (berpusat di White River Junction, Vermont, Amerika Serikat). Untuk edisi peluncuran di Inggris/Eropa, buku ini diterbitkan bekerja sama dengan Earthscan (London). https://doi.org/978-1603580557 (Paperback)

Fareed Zakaria. (2008). *The Post-American World* (First Edit). W. W. Norton & Company.

Francis Fukuyama. (2014). *Political Order And Political Decay*. Farrar, Straus and Giroux.

Freire, P. (2005). *Pedagogy of the Oppressed*. The Continuum International Publishing Group Inc.

Frye, N. (1957). *Anatomy Of Critisism*. Princeton University Press.

Gijo, D., & George, K. (2021). Archetypal Criticism : A Brief study of the Discipline and the Sempiternal Relevance of its Pioneers. *International Journal of English Literature and Social Sciences*, *2*, 1–7. https://doi.org/10.22161/ijels

Goffman, E. (1956). *The Presentation Of Self In Everyday Life* (delapan). University of Edinburgh Social Sciences Research Centre.

Jared Diamond. (2005). *Collapse: Runtuhnya peradaban-peradaban dunia* (Andya Primanda (editor); pertama). PT. Gramedia.

Lunisya Agustin Pramesti. (2024). *Analisis Makna Tanda X Dalam Anime "Koe No Katachi"* (hlm. 199).

Njeng Eric Sipyinyu. (2023). Audre Lorde and the Archetypal Back to Africa Movement Audre Lorde and the Archetypal Back to Africa Movement. *international journal of culture and religious studies*, 4 (3), 28–41.

Onișoară, B. C.-L. (2025). The Archetype of Hero , Hidden Hero and Anti-Hero in the Book of Esther in the Light of Mesopotamian Myths. *Athens Journal of Philology*, 12 (3), 197–210.

Prof. Dr. Sugiyono. (2013). *Metode Penelitian Kuantitatif, Kualitattid Dan R&D*.

Alfabeta.

Samuel P. Huntington. (1996). *The Clash Of Civilization And The Remaking Of World Order*. Simon And Schuster.

Sulistyaningrum. (2015). *White's Culture Inovation thought Beaty myth In Tony Morrison's The Bluest Eye* (hlm. 1-88).

Toinbee, A. J. (1946). *The study of history*. Dell Publishing co., INC.

سيرة ذاتية

محمد خطيب الأمم اليقين ولد في بوجونيجورو يوم ٧ أغسطس ٢٠٠٣م. بدأ مسيرته العلمية بين التعليم النظامي والمعاهد الإسلامية. سلك طريقه الدراسي في المدرسة الابتدائية الحكومية داندر ٢ ببجنيكارا حتى تخرج فيها عام ٢٠١٦م، ثم واصل مسيرته في المرحلتين المتوسطة و الثانوية في أسس أبي ذر، حيث أتم دراسته المتوسطة عام ٢٠٢٠م وثم أتم دراسته الثانوية عام ٢٠٢٢ م وفي عام ٢٠٢٦ م, حصل الباحث على درجة المبكالوريس في قسم اللغة العربة وأدبها كلية العلوم الإنسانية جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية بمالانج. وبجانب هذا التحصيل الأكاديمي، واصل تعليمه غير النظامي في المعاهد الإسلامية؛ كمعهد أبي ذر الرضوان، ومعهد لانجيتان بتوبان، ومعهد جامبيس، ومعهد أنوار الهدى. وقد لمعت هذه التجارب الثرية في رحاب المعاهد شخصيته، وأصلحت قواعد عمق فهمه للدراسات الإسلامية، ويستوطن حالياً في شارع تيرتاوانا بيماندیان داندر، بمقاطعة داندر، بريجي بوجونيجورو.